تحليل مئة حالة نفسية

الطفولة ❖ الحداثة ❖ المراهقة

تحليل مئة حالة نفسية

الطفولة

الحداثة

المراهقة

سمير عبده

اسم الكتاب: تحليل مئة حالة نفسية (الطفولة ❖ الحداثة ❖ المراهقة).

اسم المؤلف: سمير عبده.

الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-567-10 -1

الناشر: دار عقل للنشر والدراسات والترجمة

سنة الطباعة: 2017.



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة

سورية - دمشق - جرمانا - ص.ب: 249 جرمانا

هاتف: 00963 11 5637060

فاكس: 00963 11 5632860

aklpublishing@gmail.com

المقدمة

تناولت في كتبي السابقة* بعضاً من مشكلات الطفولة والحداثة والمراهقة النفسية. بيد أن رغبة القرّاء، من خلال عشرات رسائلهم في قراءة كتاب يتناول التحليل النفسي لمشاكل الطفولة والحداثة والمراهقة، جعلني أضع هذا الكتاب في مائة حالة نفسية.

ربما كان أسلوب معالجة مشاكل القرّاء النفسية بالشكل الذي اتبعته في كتبي من أكثر الطرق نجاعة في ميدان تعميم الثقافة النفسية، ومؤشري على ذلك الإقبال المتزايد من القرّاء على قراءة هذه الكتب. وإنني لا أدّعي لنفسي مكاناً بين المتخصصين في الأمور النفسية ولا في الأمور الأخرى، إلا أنني أكتب من وجهة نظر قارئ يشاهد ويتحسس ويقرأ ما يحدث أمامه من أمور ومشكلات تنعكس بالتالي على أوضاعنا وسلوكنا كبشر في هذا المجتمع. ذلك أن الولع بالقراءة أو إعادة القراءة كجزء من العمل اليومي يكاد يكون منعدماً ليس فقط عند عامة الناس بل وحتى لدى بعض المثقفين والمختصين الذين تعتبر القراءة مقوماً أساسياً من مقومات فكرهم وعاملاً من عوامل استمرارية المهنة الوظيفية لديهم. ورسالة الفكر تحويل الانطباعات الشخصية إلى حقائق، والانفعالات الفردية إلى وقائع. فمهمة الذات المفكرة كشف الواقع وليس تصدره لشخصية الكاتب حتى يمكن الحديث عن الشخص أكثر ما يتحدث عن الواقع، بل الأجدى وضع الواقع نفسه في الصدارة وما المفكر أو الكاتب إلا كاشف له.

إن المشكلات التي سنعرض لها في هذا الكتاب تتناول مختلف الأدوار التاريخية أو العهود الخاصة بتطور الشخصية حتى المراهقة. وهي تبدأ من دور الطفولة ويستمر إلى حد نضج المقدرة على استعمال اللغة. في هذا الدور يكون المولود الجديد عاجزاً بالكلية إذا لم يساعده الناس، فهو يتكيف عن طريق العنصر

* (تحليل مائة حالة نفسية) - (تحليل مائتي حالة نفسية) - (الأحلام: تحليل مائة حالة نفسية) - (المرأة العربية: تحليل مائة حالة نفسية)... وغيرها الكثير.

الإنساني في محيطه منذ أبكر الأدوار التي يكون فيها خارج الرحم. وبفضل صلته الوجدانية بالأم، تنتقل بعض وجهات نظرها إليه مما يؤدي إلى فقدانه الشعور بالسعادة والطمأنينة، وهي حالة يفترض أنها مكونة من أشد نوع من القلق عرفه الإنسان. وبسبب الشعور بالفشل يصبح التعبير غير المقيد عن دافع القوة مصدوداً بصورة تدريجية. ويتعلم الطفل مثلاً أنه لا يستطيع أن يلمس القمر. وهكذا فإنه بانتباهه إلى الأشياء الخارجية وباكتشافه إمكانات وحدود جسمه يتعلم تدريجياً أن يعين حدوداً لعالمه الخاص. ويكف الطفل عن اعتبار كل شيء جزءاً من عالمه الكوني. أي إن الطفل في هذه الفترة يتقلص تدريجياً إلى حدود الواقعية، وفي ذلك ينتهي دور الطفولة الأول.

أما دور الطفولة الثانية فيستمر بعد الدور الأول إلى حد نضج المقدرة على العيش مع الرفقاء. وهنا نرى أن التدريب القصدي وتبني طرق حياة الناس وثقافتهم السائدان يبدآن عندما يدخل الطفل في دور الطفولة الثانية مدفوعاً في الأكثر بوساطة المكافآت التي تمثل الرضا والحنو، والعقوبات، أي عدم الرضا والامتناع عن إبداء الحنو، ويكون تقدم نظام الذات في هذه الفترة متسارعاً.

وفي هذا الدور يكمن التبني السريع لثقافة ومزايا الناس الذين يعيش الطفل بينهم، بيد أن ذلك لا يكون فقط من ناحية التحصيل الأساسي للغة التي هي في حد ذاتها كيان ثقافي هائل. وأعني بهذا أن عدم توفر العقل الذي يبدو أن أكثر الآباء يفترضونه في الطفل يزول في الطفولة الثانية، ويبدأ الآباء باعتبار الصغير كمخلوق في حاجة إلى التدريب، وأن هناك ما يبرر اعتباره صالحاً للتربية. وتحتوي الأمور التي يدربون الولد عليها على عبارات وأقوال منتخبة من الميراث الثقافي أو ما خلفه الأقدمون وأصبح موحداً بشخصية الوالدين. وتحتوي هذه على أشياء كعادات النظافة وأشياء أخرى كثيرة جداً. وخلال تبني جميع أنواع الثقافة هذه، كعادات التغوط والتبويل، وعادات الأكل وغيرها وغيرها، يتتابع تعلم اللغة كوسيلة للتخاطب وللتفاهم والتقارب مع الآخرين.

بانتهاء هذا الدور يبدأ عهد الحداثة ويستمر حتى نضج المقدرة على المودة والحب المتبادل، ويمكن تبيان ذلك عندما يتكامل عند الولد الشعور بالحاجة لاتخاذ رفقاء أو أنداد مشابهين له إلى حد كبير. ويظهر الولد في تلك الفترة تحولاً من القناعة والرضا في محيط أشخاص بالغين يمارسون حقهم في السلطة ومن الحيوانات الأليفة المدللة والألعاب والأشياء التي كان يعاملها كأشخاص تقريباً، متجهاً نحو محيط من الأشخاص المشابهين له إلى حد كبير. وإذا ما توفر الرفقاء أو الزملاء في اللعب تظهر توحداته معهم معنى جديداً مهماً. وإذا لم يتوفر الرفقاء يعمد الولد عن طريق شرود أو سرحان الفكر إلى خلق رفقاء خياليين، وهذا يعني باختصار دخول الولد في عهد الحداثة الذي هو مرحلة من تطور الشخصية بفضل ميل جديد نحو التعاون، ونحو القيام بأعمال في سبيل التوافق مع شخصيات الآخرين. ويتمشى مع هذه المقدرة المتفتحة للعب مع الأولاد الآخرين تعلم تلك الأعمال التي ندعوها المنافسة والتراضي المتبادل وغيرها من الأمور.

ويأتي بعدئذٍ الدور السابق للمراهقة ويستمر حتى نضج الشهوة الجنسية الحركية، ويكون بين الثامنة والثانية عشرة ونصف من العمر. وفي هذه الفترة تنضج المقدرة على الحب. ويتبين أن الحب يوجد، ويوجد فقط، إذا ما كان إرضاء رغبات المحبوب وضمان طمأنينته معادلين في الأهمية لإرضاء رغبات المحب وضمان طمأنينته. ويعتقد أن الحب لا يمكن أن يوجد في غير هذه الظروف بالرغم من الاستعمال الشائع للفظة الحب. وليس هناك بعد أي فهم حقيقي للشهوة الجنسية.

أما المراحل الأخيرة لنمو الشخصية فتكون في المراهقة المبكرة وتستمر إلى بدء تبني السلوك الجنسي الجشع، والمراهقة المتأخرة تستمر حتى النضج التام أي البلوغ. وهنا نرى أن الشخصية تتطور تدريجياً من طور إلى طور، وكل خطوة في سلم التطور تتوقف على نجاح تحقيق الخطى السابقة. وإن نجاح تحقيق أية فترة من فترات التطور تتوقف كذلك على نضج القدرات المناسبة لتلك الفترة. ويحصل

النضج في الوقت المناسب عندما يتوفر نوع المحيط اللائق. ولا يمكن قط الحصول على اختبار من النوع القيم إلا عندما يتم نضج القدرات، وإذا لم يتم ذلك، أي إذا كان الاختبار غير صالح نهائياً لتوفير المقدرة للعيش مع الآخرين على هذا المستوى الخاص من التطور، عندها تقل حتماً احتمالات إيجاد علاقات شخصية مشتركة من النوع الموافق الصحيح في المستقبل. وإن نقصان الاحتمال ذو علاقة بأنواع الكفاءة التي تنمو عادة في ظروف مواتية خلال هذا الدور.

إن كتابنا هذا يعنى ببحث هذه الموضوعات جميعها في أسلوب منطقي، حاولنا أن نجمع فيه إلى الخبرة والتجربة، دقة البحث وسلاسة العبارة والفهم العميق لرسالة علم النفس. وهو خليق أن يقرأه القارئ العادي إلى جانب كل باحث نفسي أو اجتماعي. ولسنا نزعم أننا بهذا الجهد المتواضع قد أوفينا على الغاية، ولكنا حاولنا مجرد محاولة، على مشقة البحث، وصعوبة العلاج، وكان هدفنا فيه التبسيط لما يستدق على الفهم، وفتح المغاليق، ولم نكن فيه غير نقلة وشراح، ونرجو أن نكون قد راعينا الأمانة، وتوخينا الحرص على آراء الثقات الذين استندنا إليهم، والعلماء الذين أخذنا عنهم، ولم نشأ في محاولتنا بسط مذاهبهم ونظرياتهم أن نتجاوز القواعد والأصول إلى الدقائق والبحوث المتفرعة عنها، حتى يسهل التناول ويسوغ المأخذ، لأن هذه البحوث قد تجاذبتها مذاهب عديدة وتداولتها نظريات مختلفة، ونحسبها ستظل مجال تباين واختلاف بين أصحاب هذه المذاهب على الأيام. وهي في كل هذا نعمة وليست نقمة، لأن التعدد يغني ويحفز على إبداع الجديد.

إذا كانت معرفة الإنسان نفسه شرطاً ضرورياً لتقدم العلوم الخاصة فهي بالأحرى الشرط الأساسي لتدبير الحياة العملية تدبيراً ناجحاً. من هنا كانت أهمية تحليل مشكلات الطفولة والحداثة والمراهقة، لأن معظم الانحرافات في السلوك وعدداً غير قليل من الأمراض النفسية يرجع منشؤها إلى هذه المراحل.

في تقسيمنا لموضوعات هذا الكتاب أخذنا بالطفولة بدوريها الاثنين ثم بالحداثة مضيفين إليها الدور السابق للمراهقة، وأخيراً كانت المراهقة.

ومهما كانت تقسيماتنا، فإن ذلك لا يمنع أن تكون بعض الحالات قد اختلطت

ببعضها البعض، وهي قليلة جداً في هذا الكتاب.

إذا كان لي من إهداء لهذا الكتاب، فإني أهديه إلى كل أم استطاعت أن تنشئ أولادها تنشئة صالحة؛ وأخصّ بالذكر السيدة ماري سلوم، التي أوحت إليَّ بفكرة كتابة هذا الكتاب، فلهؤلاء جميعاً أقدّم كتابي هذا.

سمير عبده

ص.ب 914 دمشق

الطفولة

1– الحب في الأمومة

منذ عامٍ وأنا أعيش تجربة حب رائعة.

علماً أنني متزوجة منذ سنتين.

بيد أن حبي محصور لحبيب واحد خلال الأربع والعشرين ساعة في اليوم.

إن حبي وحياتي هما لطفلي الصغير.

ومع أن زوجي بجانبي وليس بيننا أي خلاف فإن الحب الذي أشعر به تجاه ابني لا يعادله أي حب لأهلي أو لزوجي أو لعشيرتي.

كيف تحلل لي هذا الحب؟

فريزه. ح

وأنا أسمي حبك عشقاً، فالتعبير هنا أصح ولمثل هذه المناسبة. وأما الأمومة للمرأة فهي تكمل زواجها وتسعدها مهما تعذبت ولاقت من زوجها أو من آلامها. وفي الأيام الأولى للأمومة لا يكون الطفل سوى مثل غيره من الأطفال وليس له إلا وجود عام، ثم تأخذ فرديته بالظهور شيئاً فشيئاً. والنساء المتحكمات يشعرن حينئذٍ تجاهه بالبرود، وعلى العكس من ذلك، يبدأ بعضهن الآخر بالاهتمام به. وتصبح علاقة الأم متزايدة التعقيد. فهو صورتها ولكنه في الوقت نفسه شخص مستقل قد يعصاها. إنه موجود وجوداً حقيقياً ولكنه موجود في أعماق المستقبل وجوداً خيالياً تصويرياً كيافع وبالغ. هو ثروة وكنز من جهة، وعبء وطاغية من طرف آخر.

تشعر الأم بالخيلاء كالعاشقة وهي ترى نفسها ضرورية، فهي ترى تبريراً لذاتها في استجابتها لما يطلب منها. على أن صعوبة حب الأم وعظمته أنه لا يستند إلى المبادلة. فالمرأة لا ترى أمامها رجلاً أو بطلاً أو كائناً صغيراً يتمتع بالشعور في جسم ضعيف. وتبقى أمامه وحيدة ولا تنتظر منه أي ثواب مقابل عطاياها التي لا تجد تبريراً لها إلا في حرية المرأة ذاتها. هذا الكرم يستحق المديح الذي لا يكف الرجال عن إغداقه على المرأة. ولكن التعمية تبدأ حينما يعلن (دين

الأمومة) إن كل أم نموذجية. يمكن لتضحية الأم أن تكون نموذجاً كامل الأصالة، ولكن الأمومة هي عادة توفيق عجيب بين الأنانية والغيرية والحلم والصدق وسوء النية والتضحية والقسوة والبذل.

ويكمن الخطر الأكبر في تعرض عاداتنا للطفل، حين تكون الأم التي يسلم إليها الطفل تسليماً تاماً هي تقريباً امرأة غير مكتفية، فهي باردة أو عطشى من الناحية الجنسية، وتشعر أنها أقل من الرجل من الناحية الاجتماعية وهي غير متمكنة من العالم والمستقبل، لذلك تحاول التعويض عن هذا الكبت من خلال الطفل. فإذا أدركنا إلى أي حد يجعل وضع المرأة صعباً عليها أن تحقق ازدهارها التام، وما يكمن في أعماق نفسها من رغبات وثورات ومطالب فإننا نفزع لأن أمر الطفل الأعزل يترك إليها. وكما كانت تهدهد وتعذب دميتها بصورة دورية لما كانت طفلة، فإن مسلكها الحالي مسلك رمزي، إلا أن هذه الرموز حقيقة واقعة شديدة بالنسبة إلى الطفل. فالأم التي تضرب الطفل لا تضربه وحدها فقط، أو أنها لا تضربه مطلقاً إذا جاز القول، بل تنتقم من الرجل ومن العالم ومن ذاتها، ولكن الطفل هو الذي يتلقى اللطمات.

إذا سمينا هؤلاء الأمهات بالساديات ووضعناهم جانباً، نرى كثيرات من ذوات النزوات ما يسرهن هو التحكم. فالطفل دمية إذا كان صغيراً جداً، وفيما بعد يردن أن يكون عبداً يطيعهن إطاعة عمياء. والنساء لا يزهدن غالباً في الحصول على مكافأة من العناية التي يوفرونها للطفل، إنهن يصغن من خلاله كائناً خيالياً يرى أن أمه تستحق الإعجاب ويفرضن عليه أن يشبه زوجهن أو، بالعكس، أن لا يشبهه، أو أن يجسد أباً أو أماً.

ومثل هذا العناد في التربية وهذه السادية الخاضعة للنزوة يتمازجان غالباً، وتحتج الأم عن غضبها بأنها تريد إعداد طفلها. وإن بعض النساء كيما يعوضن عن فراغ قلبهن ويجازين خصومه لا يردن الإقرار بها، لا يحتملن ابتعاد الطفل عنهن ويتخلين عن كل لذة وعن كل حياة شخصية، مما يسمح لهن بالظهور في

مظهر الضحية، ثم يستخلصن من هذه التضحيات حق إنكار كل استقلال للطفل. إن مشاهد الخضوع هذه تسبب لدى الطفل شعوراً بالإثم يؤثر في كل حياته. وإن العذر الكبير للأم أن الطفل بعيد جداً عن أن يجلب لها استكمال الذات وعدت به منذ طفولتها، فتقتص منه عن التعمية التي كانت الأم ضحية لها. كانت تستطيع التصرف بدمياتها دون أن تكون خاضعة للمسؤولية، أما الآن فالمجتمع وزوجها وأمها وكبرياؤها الخاصة يسألونها الحساب عن هذه الحياة الصغيرة الأجنبية كما لو كانت من عملها.

إن حب الطفل مثله مثل العواطف القوية المركبة لا يلبث لضعفه وقلة حوله ودقة حجمه وكثرة علله ومواجعه أن يثير انفعال الحنو في نفس أمه، إذا كان يملك شعوراً قابلاً للانفعال. وكلما أثار الطفل هذا الانفعال ودافعه، أصبحت بالتكرار سريعة الإثارة والهياج، حتى لتثور لمجرد التفكير في الطفل وهو بعيد، فلا يلبث الوليد أن يصبح قوة جذابة تسترعي اهتمام الأم وعنايتها، ولا تني الأم تلاحظ ما يبدو على الطفل من علامات وسمات وتعبيرات فتتبعث لها في نفسها أحاسيس مماثلة وانفعالات مستجيبة لها متأثرة بها، فتستيقظ بالتكرار انفعالات الحنو مشتركة أو منفردة كالشفقة والعجب والإعجاب والعرفان والقلق والعطف عند ألم الطفل، أو المشاركة الوجدانية معه عند السرور، وسرعة الغضب من إهمال الغير للطفل أو غير ذلك.

وهذا هو ما يجري على عاطفة الأم في تطورها ونموها عندما يكون الطفل وليداً حديث العهد بالمولد، ولكن لا يلبث أن يتعلم الطفل على مر الأيام أن يبادل أمه عاطفته، فيزيد بإظهاره علامات الحنو أو مظاهر العرفان في سرور الأم وقوة انفعالها وتنمى المشاركة الوجدانية بينهما. ومثل ذلك يبعث في نفس الأم أشد الحنو، فتغمره بعاطفة حانية صرف لا أثر فيها لشيء آخر.

إن كل جهد تبذله الأم من أجل طفلها، وكل ألم تتحمله بسببه، وكل تضحية ترتضيها في سبيله، تزيد هذه العاطفة قوة وتأصيلاً، لأنها تشعر من ذلك بأنها

تضع جزءاً من نفسها في ابنها، فلا يلبث اجتماع هذه الجهود وترادف هذه التضحيات أن تضفي على عاطفة الأم لوناً جديداً، بحيث يصبح الطفل قطعة منها، وصورة مصغرة لها، فكل استحسان يوجه إليه يرضيها ويلذ لها، وكل استهجان يؤلمها ويشقيها.

2- سيطرة الأب

نقرأ كثيراً عن سيطرة الأم على الأطفال في مرحلة الطفولة.
وتصور الأبحاث أن الأب ليس له دور في الموضوع.
علماً أن رمزية الموضوع تشبه إلى حد بعيد الدولة.
كيف تحلل ذلك؟

خلدون. ع

يبدو التقدير الرفيع القديم للمرأة (أعضاؤها التناسلية) ظاهراً في عبادة الإلهات القديمات، وقد ترك أثره في فكرة حق الأم التي جاءت فيما بعد، وقد تم استبداله بالنظام الأبوي الاجتماعي الذي تتبعه فرويد من القبيلة البدائية. وكان لا بد من إقامة الأب المدقق، العادل، والذي لم يعد صارماً قاسياً، كحاجز دون المحرمات، أي ضد الرغبة في الرجوع إلى الأم، وبذلك يتخذ لنفسه مرة أخرى وظيفته البيولوجية الأصلية التي هي فصل الأبناء عن الأم. وعندها ينتقل قلق الأم كاحترام للملك وإلى دوافع الذات (المثل الأعلى) الرادعة التي تمثل (العدل والدولة ...إلخ)، وتكون نظرة الأبناء (النواب والرعايا) نحوه كنظرة أوديب الجنسية ذات الوجهين المعروفة. وإن هبوط المرأة المطّرد من مراكزها السامية الأصلية يؤدي في النهاية إلى رد فعل ضد الاعتماد الطفولي عليها، ذلك أن الابن لا يعود قادراً على تحمله بعد أن يصبح هو أباً منجباً.

إن تطور السيطرة الأبوية إلى نظام دولة قوي متزايد يديره رجال، هو استمرار للكبت الأصلي، والغرض من ذلك هو استبعاد النساء بطريقة أوسع فأوسع بسبب الذكرى اللاشعورية المؤلمة المتعلقة بالعطب الولادي. إلا أن الرغبة في الرجوع إلى الأم تبقى قوية أيضاً، لأن كل ثورة ضد السيطرة الذكورية تظهر ميلاً للرجوع إلى الأم.

ونحن نجد أن الدين يفسر الآن بطريقة تختلف نوعاً ما عن الطريقة التي

كان يفسر بها سابقاً. ويرى (رانك) في هذا الصدد: «إن كل نوع من الدين يميل في النهاية إلى خلق كائن أصلي (أولي) مساعد وواق، يمكن للمرء الهرب واللجوء إلى أحضانه من جميع اضطراباته ومخاطره وإليه يعود الإنسان في الحياة الأخرى التي هي صورة صادقة، رغم ما فيها من استعلاء، للفردوس المفقود في وقت ما». وقد تطور هذا الاتجاه بانتظام مستمر في الأساطير المسيحية. فالابن، الطفل، يصبح الله، بينما ميزات الأب الأصلي تمنح لسيد جهنم، وميزات الأم الأصلية للعذراء مريم. أما صلب المسيح الذي هو قصاص للثورة ضد الأب (الله الأب) فتتفق مع التحويل إلى الاندماج في حالة الرحم الداخلية التي يعقبها قيامة أي ولادة (لا ولادة جديدة). وهي إعادة رمزية وتكرار لعملية الولادة. وتمثل عقيدة الحبل بلا دنس فكرة العطب الولادي، لأنها تصر على أن المسيح لم يولد بالطريقة الطبيعية، وحتى أنه لم يدخل الأم بطريقة طبيعية. لذلك فالمسيح البطل حسب هذا التفسير ينجح (إلى حد بعيد) في السيطرة على العطب الولادي.

هنا نرى أن عملية تطور الدين تجري في الواقع، تماماً بموازاة التطور الاجتماعي. واستناداً إلى هذه الفكرة يظن رانك «إن الأهمية التاريخية التي تتمتع بها المسيحية في العالم كله تعود إلى أنها كانت أول من وضع الابن– الله في مركز الدائرة دون أن تهاجم في الوقت نفسه حقوق الأم الأصلية وحقوق الأب الثانوية».

إذا نظرنا إلى الثقافة المصرية نرى أنها نتجت عن ثلاثة عوامل، ويمكن إرجاع جميع هذه العوامل بالطريقة نفسها إلى المحاولة الأولى لكبت الموقف الإيجابي حيال الأم الذي يبدو في نظر العالم الآسيوي أنه أدى إلى تقدير جنسي سام للأم الأصلية، ويعود فيظهر ثانية بشكل مصعد في أم الله عند المسيحيين. أما العامل الأول الديني، الذي يظهر في النظام الخاص بالموتى الذي هو في جميع تفاصيله، خصوصاً في محاولة حفظ الجسم، معادلاً لحياة أبعد في الرحم. والعامل الثاني، أي العامل الفني الذي يظهر في التقدير المتطرف لجسم الحيوان (أي

الطقس الحيواني)، والعامل الثالث هو العامل الاجتماعي الذي يظهر في تقدير المرأة تقديراً عالياً (حق الأم). وهذه المواضيع المتعلقة أصلاً بالأم وبالأم فقط، والتي ساهمت خلال مجرى التطور الذي دام آلافاً من السنين في التغلب على العطب الولادي، تحولت إلى مواضيع ذكرية، وسبكت من جديد، بمعنى أن تكييفها قد أعيد لتتكيف مع طاقة الأب الجنسية. وكمثال على جميع هذه المظاهر الثلاثة لمبدأ الأم هذا وعلى الاتجاه المبدئي للتغلب عليه، هو تبجيل إلهة القمر إيزيس (إلهة كان يعبدها قدماء المصريين، وهي أخت أوزيريس وزوجته، تمثل عادة بقرص أو وجه الشمس وقرون بقرة على رأسها)، بجانب تزايد أهمية أخيها وابنها وزوجها أوزيريس (أحد آلهة المصريين القدماء، ويمثل أحياناً كمومياء لابسة تاج مصر العليا) تدريجياً.

ويعكس هذا نفسه في التطور التدريجي لفريق عبدة الشمس الذين لا يسمحون فقط بالأخذ بفكرة الولادة الثانية بالمعنى الذي تخيله (يونغ) بل يعبرون أيضاً عن طاقة الأم الجنسية بمعنى أكثر ابتكاراً هو إجلال القمر. وإن اندماج البطل بالشمس لا يعود فقط إلى أن الشمس تشرق بل لأنها تختفي كل يوم في داخل العالم السفلي، وهذا يتوافق مع الرغبة الأصلية للاتحاد بالليل – الأم، ودليلنا الأكيد على ذلك هو عبادة المصريين للشمس والصور العديدة التي تمثل خاصة مركب الشمس في رحلته الليلية إلى العالم السفلي ونجده كذلك في نصوص كتاب الموتى كما أشار إلى ذلك الكثير من العلماء.

بيد أن تطور عبادة الشمس تسير جنباً إلى جنب مع التحول الفعلي من ثقافة الأب، كما يظهر في اندماج الملك المولود حديثاً (الطفل) نهائياً بالشمس. وهذه المقاومة لسيطرة المرأة في الوسط الاجتماعي (حق الأب) والديني يستمر كدور انتقالي في البلدان الواقعة بين مصر (عبر جزيرة كريت) واليونان حيث تؤدي بوساطة كبت المرأة كلياً حتى من الحياة الجنسية إلى أغنى تفتح للمدنية الذكرية وإلى التمثل الفني الكمالي المطابق لها.

وفي ذلك يذكر رانك تعليلاً عقلياً لهذا في نظريته القائلة إن المرأة تستطيع بوساطة الحمل والنفاس أن تحصل على أبعد ما يمكن الحصول عليه من الإرضاء الأصلي (الأولي)، بينما الرجل، وهو المعتمد على الاندماج اللاشعوري بالأم وعلى خلق منتوجات ثقافية وفنية ناتجة عن ذلك الاندماج، لا بد له من إيجاد بديل عن إنتاج الوضع الأولي، أي الأصلي.

إن القصة الأوديبية من وجهة النظر الاجتماعية هي دفاع بطولي من ناحية الرجل ضد دور الأب. فأب أوديب واسمه لايوس يمثل نوع الرجل الرافض للأيديولوجية الجنسية. وعلى أساس النبوءة بأن الابن سيكون خلفاً له يمتنع عدة سنوات عن الوقاع الجنسي مع زوجته التي ضاجعها مرة فقط وهو في حالة سكر أو عندما أغرته بمضاجعتها، وكانت النتيجة أن ولدت عن طريق المصادفة ولداً سمي أوديب. وقد عرض الصبي لخطر الموت فوراً بعد الولادة بسبب أن الوالد لم يكن راغباً في وجود خلف له، بل كان يريد أن يكون هو الخلف الخالد، وهي رغبة تعرضها الأسطورة عن طريق ارتكاب أوديب الفسق مع أمه. وهذه الفكرة تجعل أوديب نفسه ممثلاً للأب الذي لا يريد أن يكون له أولاد بل كان يحاول مع ذلك أن يحتفظ بنفسه إلى أجل غير محدود. وهذا الفسق مع الأم الذي نتج عنه أولاد أيضاً يبرهن على أنه توفيق بين الرغبة في عدم الحصول على الأولاد إطلاقاً (أي فكرة لايوس، الأب) وبين ضرورة التخلي عن الخلود الذاتي لمصلحة الأولاد. وهذا التوفيق المؤدي إلى ولادة الشخص كابن للأم وأن يولد ثانية منها، لا بد وأن يفشل بطبيعة الحال فشلاً ذريعاً. وهذا هو الإثم الحقيقي لأوديب لا قتله للأب واحتلال مكانة لدى الأم، إذ مهما كانت رغبة الأب في الاستمرار في الوجود عن طريق أولاده ضعيفة، فإن ميل الابن أن يلعب دور الخلف فقط ليس أقل منه ضعفاً.

وفي هذا المعنى يثور أوديب بطريقة مماثلة ضد دور الابن لثورته ضد دور الأب، وليس كابن ضد أبيه. وهذا الصراع المزدوج في الفرد نفسه الذي لا يريد أن يكون لا أباً ولا ابناً بل أن يكون نفسه فقط، تصوره الأسطورة في جميع جوانبها التي لا

يمكن فهمها بالنظر إليها من الناحية السيكولوجية الفردية، بل باعتبارها رسوبات للتطور الاجتماعي فقط. وتعني المقاومة ضد إنتاج الابن في هذا المعنى مقاومة الشخص للمجيء إلى العالم كابن، والتعرض لخطر الموت يعني رغبة الابن في أن لا يربى في بيت الوالدين كابن، ولكن أن ينمو رجلاً حراً في الفلاة، وبهذا المعنى يرغمه الحظ أو النصيب أخيراً على قتل الوالد، والزواج من الأم لا يعني فقط رغبة الابن الفردية، كما يعتقد فرويد، بل يعني كذلك القسر الذي تفرضه الأنواع التي توجب الزواج والأبوة ضد إرادة الإنسان.

3- الطفولة الثانية

مر ابني في عدة مراحل من طفولته.

فنحن عودناه على أشياء كعادات النظافة وتسمية الناس والأهل من عمة وخالة وعم وخال ...إلخ.

لكن لا يسمع لنا الكثير مما نقوله له، أو أنه يتجاهل ذلك؟

عبير. ت

غالباً ما نرى في الولد حاجة لاستجابة المستمعين، وبهذه الطريقة يتعلم طبعاً الشيء الكثير. فهو يتعلم مثلاً طرق تدبير الناس، وهذه المهارات التي تظهر خلال الاختيار الانفصالي لا تساعد على نشوء ذات وافية مناسبة. وابنك لا شك لم يدخل في سن الطفولة الثانية، لأن هذه المرحلة تكون مصحوبة بالألفاظ والأعمال وغير ذلك بسبب تبني أنواع الثقافة السائدة. لذلك تصبح بعض البواعث مصعدة. والتصعيد يكون جزءاً كبيراً من التعلم. وتدعى تصعيداً أو تسامياً تلك العملية التي بوساطتها يتكامل الاختبار بطريقة تجعل الدوافع التي تصطدم بنظام الذات (أي تثير القلق) تمتزج، عفواً، بنماذج العمل الموافق عليها اجتماعياً، بحيث يشيع الدافع الأساسي جزئياً وبدون أن يثير قلقاً. ومحاولة إيجاد تعبير تركيبي (بالنسبة للاختبار التركيبي) تجعل ذلك مستحيلاً، لأن هذا يؤدي إلى بعث الدافع ووضعه في مجال الوعي الناضج. وإن أجزاء الباعث الأساسي غير المشبعة يفرج عنها في النوم (الأحلام) أو خلال شرود الفكر العميق (أحلام اليقظة) أو في نواح أخرى من السلوك لا تمكن ملاحظتها. ولا حاجة للقول، إن هذه ليست الطريقة المثلى للتعبير عن الدوافع. حين تفشل محاولات إعادة الصياغات التصعيدية، وبعبارة أخرى، حين يتفكك نظام الدوافع، لا بد من وجود:

1- تهذيب لعملية التكامل القديمة.

2- إعادة التكامل بأشكال جديدة من السلوك.

3- إعادة تنشيط الأنماط الأصلية، أي التراجع أو النكوص، أي إن الولد يسلك سلوكاً غير مناسب مع عمره، مثل أن يعود إلى سلوكه وهو في عمر أصغر.

وفي حالة البند الثالث يبدو الاختبار وكأنه قد تهدم. أما التراجع فليس من الأمور النادرة، إذ عندما يكون الولد تعباً قبل النوم، يظهر غالباً تراجعاً أو نكوصاً.

إن الاختبار ينمو على كل حال عن طريق التوحيد والتكامل. وفي حالة تخييب حاجة الولد للعطف والحنان مراراً بسبب تقلبات الوالدين (العاطفية) قد يحدث من جراء ذلك تحول سيئ في الشخصية. وإن الشعور بالحاجة للعطف والحنو يصبح عندئذٍ مشتركاً مع الشعور بالخيبة. وبعبارة أخرى، عندما يشعر بحاجة إلى العطف عندها يكون في حالة من إظهار الذات الرديئة، ويكون سلوكه غير مرضي عنه، ويصبح الشعور بالحاجة للعطف مرتبطاً بالشعور بالقلق. ولا حاجة للقول إن هذا يؤدي إلى سلوك غير مسر، فيشعر الولد بأنه محاط بالأعداء وإن لنشوء مرض البارانويا (جنون الاضطهاد) علاقة بهذا الأمر.

كما أننا نرى في الطفولة الثانية الغضب مساعداً كبيراً كإجراء معقد لتخفيف القلق. وبالرغم من أنه لا يهرب من القلق، إلا أنه يمكن تجريده من قوة تأثيره بوساطة الغضب. وبعبارة أخرى، عندما يهدد الشخص بالقلق يحتدم غضبه ضد أحد الناس أو شيء من الأشياء فلا يعود يشعر بالقلق. ويصبح القلق مخفياً لأن انتباهه يكون قد صرف عنه في ذلك الحين. وبسبب سوء استعمال الغضب هذا، قليلون هم الناس الذين يعرفون متى يكونون في حالة قلق.

ويلاحظ أن الضغط يزداد أكثر فأكثر كلما تقدم الصغير في دور الطفولة الثانية. ويحاول الكبار أن يجعلوه مطيعاً إن أمكن. وبدلاً من أن يعبر عن الخيبة، ينمي مضاعفات من الغضب والقلق ...إلخ. وعندما لا يستحسن استياؤه، الذي يحتمل أن يحس به في بادئ الأمر، يزداد فيه توغلاً، ثم تبعده الذات عن دائرة الوعي جزئياً على الأقل، ومن ثم ينشأ شيء آخر وهو أن المرء يشعر بنفسه تعباً مشغول الاهتمام.

في هذه المرحلة أيضاً تنشأ وتنمو عمليات شرود الفكر لدى الطفل. ذلك أن لعناصر تكرار وثبات الاختبار في التعلم أثراً كبيراً في الحصول على نماذج سلوك معقدة. وفي الواقع، ربما لا يوجد هناك شيء يترك أثراً في الشخص من ناحية صحة الفكرة أو الحادثة أكثر من تكرار أو ثبات الحادث. فالطفل يتعلم عن طريق التمثيل بالإشارات، وإن رد فعل أو استجابة الوالدين لمحاولات الطفل استعمال كلمات تصبح من أهم الأمور، وتراه يعمد إلى تعلم عظم أهمية الألفاظ، ويكتسب تدريجياً كيفية استعمال الكلام. ومع تطور المهارة في السلوك اللغوي، أي استعمال اللغة، الذي يمكن أن يشير إلى الحوادث بدقة أكثر، يبدأ الفكر بالظهور.

تفرض بعض الروادع الضرورية، أو التي تعتبر ضرورية على حرية الولد لجعله مخلوقاً اجتماعياً ولتدريبه كي يصبح شخصاً يعتبر مناسباً ومرغوباً فيه في المجتمع الذي سوف يعيش فيه، ويقيم فيه كيانه. وأهم عمل تقوم به هذه الروادع هي أنها تمهد السبيل لتطور قوة الذات الحركية. وخلال هذا التطور تنشأ أيضاً نواحي أخرى في الشخصية، كالعمليات المنفصلة التي يجري انتخابها بدون انتباه من قبل الشخص أي تلك التي تحدث خارج نطاق وعي الذات.

إن الطفولة تشير إلى الفترة الواقعة بين الولادة ونضج المقدرة على التصرف باللغة. وفي هذه الفترة ينقل بعض وجهات نظر الوالدين أو المربية عن طريق التأثر الوجداني. فلو فرضنا أن الأم كانت متعبة أو مضطربة أو غضبى عندما تكون على اتصال وثيق بالطفل، أي مثلاً عندما ترضعه أو تغسله، عندها ينتقل شيء من حالتها أو وجهة نظرها إليه، فينخفض شعوره بالخير والرفاهية إلى حد ملحوظ. والأم التي تلاحظ ذلك أو تحس به على الأقل تصبح قلقة، وهذه الحالة النفسية تنقل إلى الطفل، وهذا لما يزيد في هبوط شعوره بالخير والرفاهية، ويزيد أيضاً في شعوره بعدم الأمن والطمأنينة. وهكذا تستمر هذه العملية التي هي من العمليات الزاخمة بالقوة الحركية.

ومن الأمور التي يتعلمها الولد تدريجياً تركيز انتباهه على السلوك الذي

يجلب الرضا وعدم الرضا كي يظفر بالمكافآت والحنو والرضا، وكي يتخلص من العقوبة وعدم الرضا والاستنكار. ونستطيع الآن أن نشرح بتعابير عامة أساس وطبيعة ووظيفة قوة الذات الحركية فنقول: إن أساس هذه القوة يعود إلى حاجة المرء إلى أن يكون متيقظاً لرضى وحنو وعدم رضى الآخرين. ونريد أيضاً أن نلفت النظر إلى وظيفة هذه القوة الحركية المحددة فنقول: إن قوة الذات الحركية تتكون من هذا الاختبار الخاص بالاستحسان وعدم الاستحسان والثواب والعقاب. والصفة المميزة في قوة الذات الحركية هي أنها عندما تأخذ في النمو تعمد إلى القيام بعملها منذ البدء تماماً حسب حالة تطورها ودرجته. وكلما تطورت تصبح وظيفتها أقرب فأقرب إلى وظيفة المجهر. وبما أن استحسان الشخص ذي الشأن في حياة الولد كبير القيمة بالنسبة له، وبما أن عدم الاستحسان يحرم المرء من إرضاء رغبته ويسبب له قلقاً، لذلك فإن الذات تصبح في غاية الأهمية. فهي تسمح بتركيز الفكر بدقة على تلك الأعمال التي يقوم بها الولد والتي تسبب الاستحسان وعدم الاستحسان، لكن يكون ذلك التركيز شبيهاً جداً بالنظر في المجهر، فهذا يتدخل في ملاحظته ما يجري في العالم، لأنك عندما تنظر بتفرس خلال المجهر فإنك لا ترى كثيراً سوى ما يظهر لك من خلال تلك الوسيلة. وهكذا تكون الحال في قوة الذات الحركية. فهي تميل على تركيز الانتباه على الأعمال التي يقوم بها المرء مع الشخص الآخر ذي الأهمية في حياته، والتي تؤدي إلى الاستحسان أو عدم الاستحسان، وهذه الميزة المتصلة اتصالاً وثيقاً بالقلق تستمر فيما بعد طيلة الحياة.

وينتج عن ذلك أن الذات، أي ذلك الشيء الذي نشير إليه عندما نقول (أنا) هو الشيء الوحيد الذي يملك صفة التيقظ والانتباه، والذي يلاحظ ما هو جار حوله ولا حاجة للقول إنه يلاحظ ما هو جار في محيطه الخاص. أما ما يتبقى من الشخصية فيتكيف خارج نطاق الوعي، وتكون دوافعها وأعمالها خارج مجال المشاهدة. نخلص القول إن تقدم ابنك في العمر ستعود إليه الملاحظات التي أسديت له في الغالب، قبلاً.

4- كيفية الوصول إلى الداخل

سألني طفلي من أين أتى فقلت له من داخل بطني.
إني أراه يتطلع إليّ وإلى بطني باستغراب؟

فاتن. د

إن مشكلة الشعور الجنسي الطفلي بأكملها في مرحلة معينة من حياة الطفل متمركزة في السؤال: من أين يأتي الأولاد؟ ويحاول الولد البحث في نفسه عن الذكرى الضائعة لمكان إقامته السابقة، والتي لا يستطيع إيجادها بسبب عملية الكبت الأولى. ويحتاج الولد عادة إلى منبه خارجي كولادة أخ أو أخت له كي يتمكن من التعبير عن ذلك السؤال بدقة. إلا أنه حتى عندما يعطي الآباء جواباً صادقاً، لا يستطيع الطفل فهمه على الوجه الصحيح أو قبوله على الأقل بسبب عمليات المقاومة والكبت الداخلية الشعورية. إلا أن الاهتمام الحقيقي للولد منحصر في (كيفية الوصول إلى الداخل) أي الرجوع إلى المكان الذي جاء منه.

وإذا كان القلق الأولي يشكل الأساس لكل ما يتبعه من قلق أو خوف، فإن كل لذة ترمي إلى إعادة توطيد اللذة الأساسية الناشئة عن الحالة داخل الرحم. ويقال إن وظائف الطفل العادية كامتصاص الغذاء والرضاعة وإخراج الفضلات توضح وتدل على الميل لاستبقاء الحرية المطلقة لحالة ما قبل الميلاد لأطول وقت ممكن، وكذلك يعتبر التعلق المستمر بأنواع مسرات طفلية أخرى تعبيراً عن الرغبة لاستعادة الحالة الأصلية.

يشبه النوم الحالة الشبيهة بالحياة داخل الرحم، وهذه الحالة التي تجري بصورة (آلية) في كل ليلة تدل على أن حتى الفرد العادي لا يتغلب تماماً على العطب الولادي. ففي أحلامنا نعود إلى أو نعيد حالة داخل الرحم أو نعيش العطب الولادي مرة أخرى. والواقع هو أن الأحلام، أكثر من مجرد النوم، تمثل عودة أقرب إلى الحالة الأصلية. والتفسير التحليلي لرموز الحلم هو أقوى مؤيد لنظرية العطب

الولادي. لهذا فإن كل اكتشاف هو مجرد إعادة اكتشاف شيء كامن دفين، ويمكننا درس وفهم الحلم الآن من إرجاع التكوين الثقافي إلى مصدره في أعماق اللاشعور. فالمساكن البدائية كالمغاور أو الشجر التي تحيط بشيء ما قد أقيمت أو اختيرت كتذكارات غريزية للرحم الدافئ الواقي، كما تفعل الطيور التي تبني أعشاشها كغطاء واق لها. وإن اكتشاف الأدوات والأسلحة التي هي تقليد مباشر لعضو الذكر التناسلي تمثل محاولة لشق الطريق عنوة للوصول إلى المادة المستعاض بها، إلا أن هذا الجهد يستمد باعثه اللاشعوري من الميل الدائم الجشع لشق الطريق كلية وعنوة إلى داخل الأم. وإن تكوين الرموز يخدم كبديل للحقيقة الأصلية الضائعة، بينما يجب أن تذكرنا أيضاً، إلى أقل حد ممكن، بالعطب الأصلي المتصل بها. وقد شمل التطور الثقافي بوجه عام، في غضون الكبت المستمر انسحاباً تدريجياً من العطب الأصلي متخذاً أشكالاً من الاستعلاء كاستعاضة عن الوضع الأصلي.

يعتبر (أوتو رانك) العمل الجنسي آخر وأسمى بديل للانضمام إلى الأم. ولكنه فضلاً عن ذلك، وبغض النظر عن الاحساس الشديد باللذة الناشئ عنه، يدل على إشباع جزئي للرغبة الأصلية، العودة إلى الرحم، أو التحقيق الرمزي له. ودخول الرجل في فتحة المهبل (فتحة عضو المرأة التناسلي) يدل ولا شك على رجوع جزئي إلى الرحم مع القضيب (الذي يعرف في الأساطير الشعبية كرمز للطفل – أي الرجل الصغير) يصبح هذا الرجوع ليس رجوعاً تاماً فقط بل طفلياً أيضاً. وإنا لنجد الموقف متشابهاً في حالة المرأة، كما دلت على ذلك الدراسات التحليلية. فبواسطة لذة (ليبيد) البظر الذي يشتد الاحساس بها أثناء الاستمناء، تستطيع المرأة – وغالباً ما تستطيع– دمج ذاتها مع القضيب أو الرجل، وهكذا تستطيع الوصول بصورة غير مباشرة إلى الرجوع للرحم. والميل للذكورة الظاهرية (التي تتبين في البظر) يعتمد على الاندماج اللاشعوري مع الأب، وأخيراً تهدف المرأة إلى أن تصبح على الأقل شريكاً في الميزة التي لا تقدر والتي يمتاز بها الرجل عليها، وهو أنه (أي الرجل) يمكنه جزئياً الرجوع إلى الأم عن طريق قضيبه

ذاته الذي يمثل الطفل. وينتج عن ذلك إشباع طبيعي وبعيد المدى أكثر مما سبق لهذه الرغبة الأصلية في المرأة، وهذا الإشباع يظهر ذاته بشكل حب الأمومة عن طريق الاندماج بثمرة الجسد.

إن عقدة أوديب تمثل أول تعبير واضح عن الغريزة الجنسية، وتدل على أول محاولة ناجحة للتغلب على القلق المتعلق بأعضاء الأم التناسلية وذلك عن طريق المقدرة على قبولها بطريقة مسرة كهدف جنسي. وبعبارة أخرى، تدل عقدة أوديب على محاولة لنقل لذة الشهوة الجنسية الأصلية بالوجود داخل الرحم إلى الأعضاء التناسلية المشبعة بالقلق، ومن ثم الكشف عن مصدر سابق للذة دفنه الكبت، إلا أن هذا الجهد مقضى عليه بالفشل، لا لعدم نضج جهاز الطفل التناسلي فحسب، بل لأنه مبني على مصدر العطب الأصلي الذي يرتبط به قلق عنيف. وهكذا يمثل هذا الجهد الفاشل مرة أخرى إعادة للعطب الولادي في أول دور من تطور الطفل الجنسي كعطب جنسي، أي انفصال عن الأم على مستوى جنسي. إلا أن هذه الإعادة تعتبر حالة ضرورية لنجاح التحول العاطفي لاختيار الحبيب فيما بعد. وهذا التحول الذي لا يوضحه رانك بطريقة مفهومة يتم إلى حد ما عند البلوغ حين يكون الاختبار الأصلي المؤلم المتعلق بالأعضاء التناسلية قد عاد القهقرى بنجاح إلى أقرب طريقة للوصول إلى اللذة التي اختبرت في داخل الأم بصفته الموطن الأصلي للإنسان.

يمكننا القول إن الأصل الحقيقي للفن يتشابه مع نمو الفرد ومنشئه من وعاء الأم. ويرى رانك أننا قد نضطر أن نبحث عن بدء كل فن في الفن التشكيلي، وإن الإنسان البدائي على كل حال (كون في بادئ الأمر وعاء يكون له مستقراً وحماية على شاكلة الرحم. وقد تطور الوعاء في اتجاه يمثل الطفل أو رأسه، ثم زيد عليه البطن والأذنان والأنف ...إلخ، وتطور الفن فيما بعد إلى تمثيل المخلوقات البشرية بصورة تامة. وجدير بنا أن نلاحظ في هذا التطور الميل لتجنب العطب الولادي. فالفنان بخلقه آدميين على صورته يحقق دائماً أعمال ولادة جديدة متكررة. وفي

أعمال الولادة هذه يضع نفسه بين آلام الأم في الخلق والتكوين). وقد رفع الفنان اليوناني نفسه، بالاندماج مع الأم، إلى خالق بشر، من حيث أنه يحاول في عمله الفني فصل نفسه تدريجياً، تحت مقاومة عنيفة، عن الأم، كما يدل على ذلك جميع الأشخاص الخرافيين الشبيهين بأبي الهول دلالة قاطعة. (إن تمثال أبي الهول رأسه رأس إنسان وجسده جسد أسد وهو موجود في مصر.. ويبدو في الأساطير اليونانية والنحت اليوناني بطرق مختلفة. ويقال أنه كان وحشاً خرافياً يعرض لغزاً على المارين بالقرب من طيبة وأنه كان يقتل كل من لا يستطيع حل لغزه، إلى أن جاء أوديب وحل اللغز وعندها قتل الوحش – أبو الهول – نفسه). ومن هذه اللحظة التي يتوق فيها المرء لتحرير نفسه من الرحم البهيمي تحريراً لا يرغب فيه مع ذلك، ومن هذا الالتصاق الشديد الدائم بالولادة الذي يعانيه العصابي دوماً من جديد كقلق متعلق بالوضع الأصلي (أولي)، وجد الفنان اليوناني ومعه الجنس البشري بكامله الطريقة لتمثيل أو تصور الأشياء بهيئة كمالية عن طريق حفظ هذه الحركة العاصفة في الحجر الجامد، كما حفظها رأس مدوسا (يشير هذا الرأس إلى الخرافة اليونانية القائلة بأن البطل برسيوس قتل ثلاثة غيلان وأن رأس أحدها حمل على ترس أثينا) بكل أهميتها الفظيعة.

من هذا يتبين لنا أن أهمية تطور الفن اليوناني، الثقافية والتاريخية تنحصر في كونه يعيد العملية البيولوجية والسابقة للأزمنة التاريخية التي أدت إلى صيرورة الإنسان إنساناً وانفصاله عن الأم، ووقوفه منتصباً من الأرض عن طريق تمثيلاته الجمالية للجسم البشري بطريقة مثالية. وإن المصدر الأصلي لهذا التطور هو القلق – القلق الأصلي (الأولي) في الحالة القصوى والجهود للتغلب عليه. ومن هنا نرى أن أمثال أبي الهول الذي ينشأ قسمه الأعلى البشري من جزئه الأدنى الشبيه بأنثى الحيوان بدون أن يكون باستطاعته التحرر منه، هو رمز للأم وصفتها (كخالقة) هي لما يجعل الإشارة إلى قلق الولادة واضحة. وبهذا المعنى فإن دور أبي الهول في قصة أوديب الخرافية يبين بوضوح أنه كان على البطل في عودته للأم التغلب

على قلق الولادة الممثل للحاجز الذي يصطدم به العصابي مراراً وتكراراً في جميع محاولاته للتقهقر. وبعبارات سيكولوجية تمثل قصة أوديب تكرار القلق الأصلي على المستوى الجنسي أي على مستوى عقدة أوديب، بينما يمثل أبو الهول (السفنكس) العطب الأصلي (الأولي) ويصبح البطل الذي لم يبتلعه أبو الهول قادراً عن طريق مجرد تغلبه على القلق أن يكرر الرغبة اللاشعورية على شكل وقاع جنسي مسر مع الأم. وإن لغز أبي الهول لا ينحصر فقط في كونه يمثل في مضمونه الكامن الرغبة للعودة إلى الأم كخطر ناشئ عن الابتلاع بل إنه في مضمونه الظاهر، يمثل النفاس نفسه والكفاح ضده. وقد حقق اليونان بثبات ميلهم للتحرر من الرحم، وهذا يعني أنهم كانوا قادرين على حل لغز أبي الهول، كما فعل أوديب في رواية سوفوكليس.

5- الأم الحقيقية

اسمع كثيراً عن الأم الطيبة في رعايتها لأطفالها.
ولكنني قرأت في كتاب نفسي أن هناك الأم الرديئة في نفس المرحلة.
كيف تكون هذه الازدواجية لأم تجاه أطفالها؟

سهام. م

نرى في الطفولة نوعان أولان من التشخيص: أولاً (الأم الطيبة) وهو تشخيص غامض مبهم مختلط مع الشعور باسترخاء التوترات الناشئة عن الحاجات المتكررة، و(الأم الرديئة)، وهو تشخيص متعلق بتحمل القلق. ومن ثم يختلط التشخيصان كي يطابقا بصورة تقريبية الأم الحقيقية كما هي في الواقع. إلا أن الناس يظهرون طيلة حياتهم كلها، وفي أوقات الضيق، صفات التشعب الأصلي للاختبار في ناحيتي الأم الطيبة والأم الرديئة أو الشريرة. وإن جميع الأشخاص الوهميين الذين نتخيلهم فيما بعد ويحمل كل منا تتمة لهم ويعيش فيها، مبنيون على الاختبارات الأصلية لهذين التشخيصين الخياليين.

إن الذات تبدأ بالتطور في الطفولة المتأخرة، ويستنتج أن كثيراً من العمليات المخفية والظاهرة تتطور خلال الاثني عشر شهراً الأولى. وبعبارة أخرى، إن الحاجات تظهر نوعاً من النظام المتدرج. ففي بعض الأحيان يعترض الجوع شيئاً آخر يكون في حالة الاستمرار. وعندما يكون الجوع قد أخمد يستمر السلوك المعترض ولكن بشيء من التغير. ويستنتج من هذا أن شيئاً ما كان في حالة استمرار بينما كان العمل الآخر، أي الجوع وعملية إرضائه، في حالة ظهور. والاستنتاج بأن السلوك المعترض استمر بطريقة ما طيلة الوقت، بدون إزعاج هو مصدر نظرية العمليات المخفية أو الكامنة. وكثير من العمليات المخفية في الطفولة تثير القلق فيما بعد بسبب ما لها من علاقة بعدم رضى الوالدين، وتبقى خارجة عن نطاق الوعي والشعور وتصبح لوحدها.

إن الطفولة عموماً تعيد تمثيل ذكريات إنسان وبشرية ما قبل التاريخ، فنحن من ناحية تاريخ جنسنا وناحية نشوئنا وتطورنا قد خرجنا من حدود الأرض المظلمة. والأم هي الصورة البدائية الأسرع ظهوراً أو النموذج الأصلي. وبما أن الولد لم يصبح بعد فرداً مستقلاً بمعنى أنه لا يدري أنه شخصية فريدة مميزة، فهو يبقى لمدة من الزمن ملحقاً سيكولوجياً لوالديه. وهو لا يعرف أمه كشخصية أنثوية فريدة ومحدودة بحد ذاتها بل كأم مدفئة، حامية، مغذية. فهي بالنسبة له نموذج أصلي، أي نموذج مركب من جميع الأمهات السابقات فهي مثال أو نموذج لجميع المؤثرات الحامية والمدفئة والمغذية التي اختبرها الإنسان أو سيختبرها الطفل. وتقرن الأم الحامية أيضاً بالأرض المغذية والحقول الرازقة والموقد المدفئ والمغارة الآوية والخضرة المحدقة، والبقرة الحلوب والقطيع. ويشير رمز الأم إلى مصدر النشوء كالطبيعة مثلاً، وإلى ذلك الذي يخلق بطريقة سلبية، إلى المادة، إلى اللاشعور، إلى الحياة الطبيعية الغريزية. وإذ تبقى آثار اختبارات البشرية راقدة في شكل إمكانية في دماغ الولد تصبح مع الوقت نشيطة وممتزجة مع أقرب وأقوى اختبار، أي مع أم الطفل، مخرجة إلى عالم الوجود الاختبار النموذجي الأصلي للأم.

ويعتقد (يونغ) أن الطفل يخاف الأم حتى ولو لم يكن هناك سبب معقول للخوف. ففي حالة كهذه تعتبر حالة الخوف من النوع النموذجي الأصلي، والفزع الطفولي هو إعادة تجسيد سيكولوجية بدائية، أي إنه بقايا آثار تاريخ الجنس البشري.

بيد أن الخوف الزائد عن الحد يستقى من سلوك الآباء الحقيقيين السيكولوجي، ولهذا علاقة مباشرة بعقدة أوديب. يقول يونغ هنا: (يجب أن لا نجعل النموذج الأصلي مسؤولاً عن الخوف إلا إلى درجة صغيرة عادية محدودة. ومن جهة أخرى إذا ما حصل تزايد ملحوظ في الخوف وشعرنا أنه تزايد غير طبيعي فلا بد وأن يكون له أسباب خاصة). وينسب فرويد هذا الخوف إلى اصطدام ميل الولد

لمضاجعة المحارم بتحريم إشباع هذا الميل، أي إنه يفسره من ناحية الولد نفسه. وإني لا أشك في أنه يمكن أن يكون في الأولاد ميول جنسية محرمة بالمعنى الموسع الذي يستعمله فرويد. إلا أني أشك كثيراً فيما إذا كان يمكن أن تنسب هذه الميول بدون أخذ ورد إلى نوعية سيكولوجية الطفل.

إذا ما كبتت الأم عقدة مؤلمة أو مخيفة تشعر بها كأنها روح شريرة تتبعها – أي هيكل عظمي في الخزانة، كما يقول الإنكليز. وهذا التعبير يبين أن العقدة قد اتخذت لنفسها قوة نموذج أصلي – ويثقل عليها كما لو أنه كان جبلاً أو كأنه كابوس يعذبها. وسواء روت للطفل قصص الليل، أي قصصاً مفزعة أم لم ترو فهي مع ذلك تنقل إليه العدوى وتوقظ في عقله الخوف النموذجي الأصلي من سيكولوجيتها ذاتها.

تتألم بعض النساء من الفراغ الذي يشعرن به في جسمهن ويخيل إليهن أن كنزهن قد سرق منهن، ولكن كل أم شابة تحس في نفس الوقت بفضول متعجب. إنها لأعجوبة غريبة أن يرى المرء وأن يمسك بيديه كائناً حياً تكون ضمن ذاته وخرج من ذاته. لكن ماذا كان بالضبط دور الأم في هذه الحادثة الخارقة التي قذفت إلى الأرض بوجود جديد؟ إنها تجهل ذلك. لولاها لما كان الطفل موجوداً ولكنه مع ذلك يفلت منها. إنها لتحس بالحزن المندهش وهي تراه في الخارج منقطعاً عن ذاتها أو غالباً ما تحس بخيبة الأمل، وهي تريد أن تحس به تابعاً لها بصورة أكيدة مثل يدها الخاصة بها.

وهي لا تملك أي ماض مشترك مع هذا المخلوق الصغير الأجنبي، وكانت تنتظر أن يكون مألوفاً لديها مباشرة. إلا أنه قادم جديد وهي مندهشة من اللامبالاة التي تقابله بها. لقد كان صورة وشيئاً لامتناهياً أثناء الحمل. وكانت الأم تلعب في مخيلتها دور أمومتها المقبلة. وإنه الآن شخص صغير محدود موجود وجوداً واقعياً وأنه ضعيف وملح. ويتمازج الفرح بوجوده الفعلي مع الأسف من أنه ليس سوى هذا. ولكن عن طريق الإرضاع تجد ثانية كثير من الأمهات الشابات علاقة

حيوانية أليفة مع طفلهن. والإرضاع أكثر إرهاقاً من الحمل ولكنه يتيح للمرضع أن تمدد حالة الفرحة والأمن التي كانت تتمتع بها وهي حامل. إلا أن هناك نساء لا يستطعن تغذية طفلهن وتدوم لديهن اللامبالاة المندهشة الخاصة بالساعات الأولى إلى أن يجدن مع الطفل علاقات ملموسة متوافقة.

في حين نجد أيضاً أمهات كثيرات يحل بهن الخوف من مسؤولياتهن الجديدة. فخلال الحمل، لم يكن عليهن إلا أن يتوكلن على جسمهن ولم تكن تطلب منهن أية مبادرة. أما الآن فأمامهن شخص له عليهن حقوق. وإن بعضهن يدغدغن طفلهن ما دمن في المستشفى فرحات ولامباليات، إلا أنهن يبدأن بالنظر إليه كعبء حالما يعدن إلى بيوتهن. وحتى الإرضاع لا يسبب لهن أي فرح، بل على العكس، فهن يخفن على صدورهن. إن فم الطفل يجرحهن ويبدو لهن أنه يمتص منهن القوة والحياة والسعادة. ويفرض عليهن عبودية صعبة، مع أنه لم يعد جزءاً منهن. إنه يبدو لهن كطاغية فينظرن نظرة الخصام إلى هذا الشخص الأجنبي الصغير الذي يهدد جسمهن وحريتهن وكل ذاتهن وفرديتهن.

إن موقف الأم يتحدد بمجموع وضعها وطريقة أخذ هذا الوضع على كاهلها.

6- القلق الأولي

منذ أيام ولدت ابني البكر.

أتطلع إلى وجهه فأرى ما يخيل إليّ أنه قلق.

علماً أنه صغير السن ولا يفقه شيئاً من الدنيا؟

ابتسام. ي

تحدث معاناة عملية الولادة هزة عنيفة للكائن الحي العاجز، فهي لا تنطوي فقط على انفصال جسمي عن الأم ولكنها تنطوي على مخاطر فيزيولوجية وتغييرات في الوضع. ويرافق هذا الاختبار المؤلم أول وأشد شعور بالقلق يختبره المرء في حياته، وهذا ما يسميه رانك (القلق الأولي) وهذا من شأنه أن يطمس ذكرى حالة السرور الأولى السابقة للولادة. ويتكون حاجز عقلي لمنع استذكار الحالة الأولى. وهكذا يوضع الأساس لكبت (أولي). وعندما يبدو ميل للرجوع إلى حالة يحاول المرء فيها استرجاع (السرور الأساسي) يتصدى له القلق فيمحو ذكرى ذلك السرور، وفي نفس الوقت، وبسبب ما ينطوي عليه الوضع من ألم، يحط من عزيمة المرء المقدم وعلى عملية كهذه.

في مرحلة الطفولة ليس من تمييز بين (الأنا) والبيئة الخارجية. إذ يعيش الطفل في الأشهر الأولى من حياته مشتتاً بين أوضاعه الشخصية، وبين الكائنات والأحداث والأشياء القائمة في محيطه. لذلك يحسن هنا التحدث عن (سامية) بدلاً من فضولية. ونظراً لعدم تمكنه من تحديد وضعه الحقيقي، فإنه يشعر أن وجهة نظره فريدة ومطلقة.

تميز ظاهرات العدوى العاطفية السنوات الأولى من حياته، بدليل أنه يبتسم إذا ابتسم الجميع، ويبكي إذا علا صراخهم، وكثيراً ما يقلد حركات والديه وإخوته، غير أن هذه المشاركة ليست التودد نفسه. كذلك فإن حالات المقابلة والتعاقب، كالأخذ والعطاء، والاختباء والاكتشاف، حيث يدرك الطفل طرفي الوضع، لا تعتبر

حالات يعيشها عن طريق ازدواج التصرف، بل كمظاهر متضامنة لمجموعة كاملة.

ورغم هذا، شرعت تظهر، نزعة نحو الاندماج في المجتمع، تتجلى بالإشارات ولاسيما الابتسامة التي يسببها مجرد النظر والصوت الإنساني. بالإضافة إلى ذلك فإن التصرفات المتبادلة بين الأطفال الرضع تنطوي على معنى خاص: فقد أثبتت التجربة أن هذا الأمر يتوقف على السن، وعلى موقف الطفل الآخر. فهو ينشأ إذاً عن صلة اجتماعية بدائية، حيث يبدو أن كلاً منهم يفقد استقلاله الذاتي ويتلقى دوره في الوضع الذي يساهم فيه. فالطفل الذي يتعرض لسوء معاملة رفيق شرس، يقابله بالخضوع أو الفرار، أما إذا كان قرينه مسالماً فبوسعه أن يعكس الوضع رأساً على عقب.

يتبدل تفسير الطريقة الاجتماعية حسب المؤلفين: فعالم النفس (بياجيه) يرى أن الطفل يبدو في بادئ الأمر سجين نفسه، وأن إدماجه في المجتمع أمر بطيء وتدريجي، ويتم تبعاً لتكوين الذكاء الموضوعي.

فالطفل الذي يحوّل كل شيء لصالحه، ولا يتصور رغبات الآخرين إلا حسب رغباته الخاصة، يكتشف تدريجياً أن ثمة كائنات تخضع لرغباته أو تعارضها، وأن هناك أقراناً له يجب أن يضيف نفسه في عدادهم. يتدخل المجتمع إذاً كفترة من نموه الإنساني وإثر تجارب عديدة تظهر له المصاعب الناجمة عن وجهة نظر شخصية بحتة.

أما (فالون) فإنه يرى، على النقيض من ذلك، أن الطفل هو في الأصل اجتماعي، بدليل إدراكه أولاً صلة التبعية التي تربطه بوالديه: فعلاقات التفاهم ووسائل التخاطب، تقوم باكراً بينه وبينهم.

إن اكتشاف الغير ليس منوطاً بتقدم الاستدلال المنطقي، بل بتطور المشاركة العاطفية الغامضة في بادئ الأمر. إن ظهور (الأنا) يسير إلى جانب ظهور الغير، والتمييز بينهما متبادل ومتضامن، إذ عن طريقها تتأسس الشخصية النفسية – الاجتماعية. لهذا تنشأ في الطفولة فكرة غامضة عن (جسدي). أو ينشأ تدريجياً من

إحساس الطفل بجسده كأساس، ثلاثة تشخيصات (للأنا) هي: (الأنا الصالحة) (الأنا الرديئة) و(اللاأنا). أما (الأنا الصالحة) فهي تنظيم من الاختبارات في الرضى والحنو والشعور الطيب العام، و(الأنا الرديئة) هي تنظيم من الاختبارات مرتبطة بحالات من القلق متزايدة – أما التشخيص الأولي المتعلق (باللاأنا) فينمو بصورة تدريجية جداً. وتعود العمليات المشار إليها باللاأنا إلى نواحي الحياة المجهولة إلى أبعد حد، وتشير إلى الاختبارات الشاذة المزعجة كالفزع والخوف والاشمئزاز والرهبة. وليس في الإمكان معرفة كنه هذه الاختبارات الغريبة المزعجة، لكن يبدو أنها نشأت خلال اختبارات من القلق أيام الطفولة ويمكن أن ندعوها (القلق الأولي أو الفطري). وهي تحدث في أسلوب الاختبار الانفصالي، أما تشخيص اللاأنا فلا يتكون عن طريق عمليات الاتصال، لذلك لا يمكن التحدث إلا القليل عنه. وإن معاناة الكوابيس وبعض اختبارات الفصام يمكن أن تتخذ كأمثلة على اختبارات (اللاأنا) الشاذة والمزعجة بصورة غير طبيعية.

7- من تأثيرات الفطام

ابنتي في الشهر التاسع.

(فَطَمتُها) قبل ثلاثة أيام.

أرى (الزوغان) في عينيها.

ما هو التأثير النفسي لذلك؟

ابتسام. ع

تمثل عملية الفطام التي يختبرها الطفل شعورياً وبألم، الذي يكبتها فيما بعد، عطباً ولادياً ثانياً، إلا أن جزءاً كبيراً منه يستمد تأثيره العطبي من العطب الأول.

ويرى فرويد أن تطور البنت الصغيرة هو أصعب من تطور الصبي وأكثر تعقيداً. فعدا الفرق بينهما من ناحية تكوين الأعضاء التناسلية وغيرها من أعضاء الجسم الملازمة لها هناك فروق في الميل الغريزي أيضاً. فالبنت على وجه العموم أقل تحدياً وأقل مناوءة وأقل إتكالاً على نفسها. وتبدو أكثر احتياجاً لإظهار العطف نحوها، وهي أسهل انقياداً وأكثر اعتماداً على الغير. ويشعر فرويد أيضاً أن البنت أكثر ذكاءً وحيوية من الصبي، وأكثر ميلاً للتساهل، وأقدر على تكوين ارتباطات عاطفية أقوى بالناس.

أما الأنثى في طفولتها فهي شبيهة بالذكر من حيث أن الأم هي وسيلتها الأولى للتعبير عن ميلها الغريزي الجنسي، لأن كلاهما يتغذى من ثديها ويتلقى العناية منها، وغالباً ما تبقى الأنثى مرتبطة بالأم إلى ما بعد سن الرابعة. وعلاقتها الليبيدية (الجنسية) متعددة متنوعة، إذ إنها تمر أيضاً بالدور الفمي والدور السادي – الأستي (أو الشرجي) ودور العضو التناسلي. وفي مختلف هذه الأطوار تجد رغباتها مجالاً للتعبير عن ذاتها. وهي تظهر النواحي الإيجابية والنواحي السلبية من الرغبات الليبيدية، ومن هنا تنشأ كلا الرغبات الذكرية والأنثوية. ويظهر عندها التناقض الوجداني كما هي الحال عند الصبي، وفي طور العضو الجنسي تكون

البنت رجلاً صغيراً. وتكون فيها رغبة لتلقيح الأم والرغبة أن يكون لها ولد منها. وتنشأ عند الطفلة تخيلات بمعنى أنها أغريت على الزنا من قبل الأم، وهذه التخيلات تحوم فيما بعد حول الأب.

ولعدة أسباب مختلفة، تعرض الطفلة عن الأم في جو مليء بالكره، ويبدو لفرويد أن تذمرات الطفلة من عناية أمها لها ما هي إلا تعبير عن حاجتها الملحة إلى النوع الأول من الغذاء (أي حليب أمها)، ويبدو أنها لا تستطيع التغلب على الألم الناشئ عن فقدان صدر أمها.. ثم إن ظهور ولد آخر في العائلة يثير شعوراً هو مزيج من الحسد والكراهية ضد القادم الجديد، والسخط على الأم الخائنة. وكنتيجة لذلك تصبح البنت خبيثة وشرسة. وحتى عندما لا يوجد منافس للبنت وتبقى هي الطفلة المحبوبة المفضلة لدى الأم تكون طلباتها لاكتساب عطف أمها دون حد، فهي تتطلب التفاتاً خاصاً بها ولا تتحمل أية مشاركة لها في حب أمها مهما يدل على الاستمناء، أي، أثناء طور العضو الجنسي، تصاب الطفلة بأعظم إحباط لرغباتها الجنسية وشهواتها.

يرى فرويد في جميع هذه الإخفاقات وألوان الحرمان أنها تصيب الصبي لكن بدون أن تقصيه عن أمه، والعامل الخاص الذي يجعل البنت تنصرف عن أمها ينحصر في عقدة الإخصاء. ولسبب مبهم تحمّل البنت أمها مسؤولية عدم حيازتها على قضيب، ولا تسامحها على ذلك مطلقاً، والبنت الصغيرة لا تتغلب بسهولة على حسدها من القضيب، ولأمد طويل تتعلق بإمكان الحصول على شيء يشبهه، وحتى عندما تتخلى البنت بعقلها الواعي عن الرغبة في الحصول على قضيب خاص بها، تحت ضغط الواقع، تبقى هذه الرغبة عندها كامنة لاشعورية.

إن اكتشاف البنت قضية إخصائها تؤدي بها تدريجياً إلى الانصراف عن الأم. فهي تقبل الإخصاء كحقيقة واقعة، بينما الصبي الصغير، يخشى إمكان حدوثه خلال الأطوار التي يمر بها. وما دام خوف الصبي من الإخصاء يعتبر من أقوى العوامل في عملية الكبت، وفي أكثر الأحيان يهدم عقدة أوديب ويكون الأنا

العليا، لذلك فالبنت لا تستطيع تكوين أنا عليا قوية. ولا بد للتربية والتهديد بفقدان الحب من أن يساعدا عملية الخوف من الإخصاء عند الصبيان.

تظهر الأنا (الذات) كنمو تدريجي خلال سيرة حياة الفرد وتاريخ تطور الجنس البشري على السواء. فالطفل في بادئ الأمر لا يستطيع التمييز بين نفسه والعالم الذي حوله، لأن الذات في الأصل تشمل كل شيء، ثم تفصل عن نفسها فيما بعد العالم الخارجي.. وأن شعورنا كبالغين الآن إن هو إلا بقية متقلصة من شعور أكثر اتساعاً وشمولاً – شعور كان يشمل الكون ويعبر عن اتصال وثيق، لا يفصل بين الذات والعالم الخارجي. وعن طريق مقتضيات الحياة يتعلم الطفل تدريجياً التمييز بين نفسه وخارجها، ويشعر بالتباين بين مختلف اختبارات الحياة، ويدرك فيما بعد أن بعض التهيجات الصادرة عن جسده يمكن الشعور بها في كل وقت، ويتعلم أخيراً أن أمور أخرى، كثدي أمه مثلاً تتحجب عنه حيناً وتعود إليه إذا ما بكى. وهكذا يبدأ التمييز بين الوسيلة (الغرض) والذات (الأنا) ويتضح له تدريجياً، وتدريجياً جداً. وبذلك يرتد منتكساً على أعقابه ذلك الدافع المبهم الذي يحث الطفل على الجد في طلب اللذة بلا تمييز.

ويرغم الألم والشعور غير المسر الطفل تدريجياً على الاعتراف بوجود العالم الخارجي المنفصل عن (الأنا) (الذات)، ويتعلم تدريجياً أيضاً طرق التمييز والإدراك والاحتيال كي يحمي نفسه من الشعور المؤلم أو تهديداته. وبهذه الطريقة فإن (مبدأ الواقع) الذي من شأنه عادة ضبط سير التطور المقبل، إلى جانب مبدأ اللذة، يفرض على الذات (الأنا) النامية المتكاملة الاعتراف به.

ودعماً لما نقول، فإن الاختبارات الجنسية أو الليبيدية تنشأ في الطفل منذ ولادته، لا في سن البلوغ فحسب، كما قد يفترض المرء، ولاسيما إذا كان قد نسي اختباراته الخاصة في زمن الطفولة. إن ثدي الأم هو الوسيلة الأولى لشهوة الولد الجنسية. وتظهر التعابير الأولى عن هذه الغريزة خلال الرضاعة. وتشمل الرضاعة بالطبع ابتلاع الغذاء الذي من شأنه إشباع غريزة أخرى هي غريزة الجوع، إلا أن

الطفل يرغب في إعادة عمل الرضاعة بدون أن يكون جائعاً بالفعل، لأن عملية المص نفسها تكسبه اللذة. ويقال بأن هذا الاكتفاء و(الرضى) الناتج عن الرضاعة هو جنسي أو ليبيدي، وهو نموذج أولي لما سيتبعه من إشباع جنسي. ويختبر هذا الاكتفاء خلال ابتلاع الغذاء، إلا أن الطفل سرعان ما يتعلم أن الرضاعة ملذة في حد ذاتها، وتنسب لذة الرضاعة إلى تهيج الفم والشفاه، وهكذا فإن الفم والشفاه هي من بين مناطق الجسم التي توفر للمرء لذة جنسية.

ويعقب ذلك استبدال الطفل ثدي أمه كمصدر للذة بجزء من جسده الخاص كإبهامه أو لسانه أو ما هو أشد إثارة من ذلك، أعضاؤه التناسلية. وعندما يبحث الطفل ويجد نواحي في جسمه من شأنها توفير اللذة له، عندها نقول أنه يتمتع بلذة جنسية ذاتية. ولا يلبث الطفل أن يكتشف مصدراً آخر للذة هو برازه فالمخاط الغشائي للأمعاء هو مصدر لذة، أي إنه من مناطق الجسم التي توفر للمرء لذة جنسية بطريقة سلبية. فالطفل يفرز برازه في بادئ الأمر بطريقة شبه آلية، وشيئاً فشيئاً (يتهذب) الطفل ويتعلم أن يكف عن اكتساب اللذة عن طريق التبرز، ويعوّد عن طريق الكلام والإشارة وتعابير الوجه وغيرها، على أن كل ما يتعلق بعملية الإفراز هو مشين ومعيب وقذر ولا بد من إخفائه. وحتى ذلك الوقت لا يشعر الطفل بأي قرف من برازه بل يعتبره جزءاً من جسمه. وبعد برهة وجيزة يتعلم بأن ينظر إلى عملية الإفراز نظرة خجل واشمئزاز وقرف. وينتظم إفرازه حسب مطالب الأم أو المربية أو المجتمع الذي تمثلانه في السلوك.

8- الإخصاء

أشعر بقلق نفسي حيال (طهور) ابني.

وأخاف عليه كثيراً من الناحية الجسمية أو النفسية نتيجة لهذه العملية؟

سميرة. م

إن عملية الإخصاء أو الطهور بالنسبة للولد تصيب العطب الأولي والعطب الثاني أيضاً، وهذا يفسر بوضوح لماذا يحدث خطر الإخصاء تأثيراً عجيباً ودائماً في الولد. وهذا الخوف الجنسي من الإخصاء يعتبر ذا قابلية لتحمل أكبر جزء من قلق الولادة بشكل شعور بالإثم، إلا أنه بالنسبة إلى اختبار العطب الحقيقي المؤلم الناشئ عن الولادة والفطام يبدو حتى أن تهديد الإخصاء الحقيقي يجعل التفريغ أو التصريف العادي للقلق الأولي بشكل شعور جنسي بالإثم أكثر سهولة خاصة عندما يكتشف الطفل بطلان التهديد بالإخصاء كما يكتشف جميع أباطيل حياة البالغين الأخرى. وهنا يعتقد (رانك) أن أعمق درجة في اللاشعور (الهي عند فرويد) لا تعرف إلا القلق الولادي الأولي العام.

إن ما يسمى بعقدة الإخصاء ما هو إلا رمز، رمز تضحية بالذات، وتعتبر هذه التضحية ذات شأن في هذا الوقت لأن التخيل بتضحية الذات يعني تضحية رغبات الطفولة. وكلما ازداد الشعور الجنسي نضجاً كلما اضطر الشخص إلى ترك العائلة واكتساب الاستقلال والحكم الذاتي. وإن الولد لشديد الاتصال بالعائلة من ناحية تاريخه الفردي، ولاسيما بوالديه. لذلك فهو لا يستطيع في الغالب تحرير نفسه من محيطه الطفولي الذي حوى تاريخه الشخصي وعمل على تطوره إلا بصعوبة كبيرة. وإذا لم يتمكن الكبار من تحرير نفوسهم روحياً، عندها ينشأ صراع من عقدة أوديب أو عقدة إلكترا، ومن هذا الصراع تنشأ إمكانية ظهور اضطراب عصابي. ويتخذ الليبيدو المتطور جنسياً شكلاً مولداً عن العقدة، فيخلق مشاعراً وأوهاماً من شأنها إظهار العقدة، التي كانت حتى الآن لاشعورية، بوضوح تام. ويتبع ذلك

مقاومات حادة ضد الدوافع الداخلية غير الأخلاقية التي نشأت عن العقد النشيطة الآن. ففي حالة الابن قد تنشأ مقاومات عنيفة ضد الأب، وينشأ شعور ودي نموذجي وموقف اتكالي نحو الأم. أو قد تنشأ نتيجة غير مباشرة، أي إذعان نموذجي نحو الأب يقابله موقف ثائر معاد نحو الأم. وقد تحصل نتائج مماثلة من ناحية البنت.

قد يبدو أن (يونغ) ما يزال قريباً في النواحي الأساسية من مبادئ (فرويد) التقليدية، وهو يرى أن لعقدتي أوديب وإلكترا معنى عارضي ومعنى رمزي. وهنا يجب عدم التقليل من قيمة تكوين الرموز هذه، فأهميتها تنحصر في كونها تمثل محاولة للتوضيح لما هو غير معروف تماماً بعد ولا يزال في دور التكوين. وإذا ما قللنا من قيمة الرموز، يظل الناس يبحثون عن منفذ أفضل من مجرد المنفذ الطبيعي لأن الإنسان لا يمكن أن يبقى قانعاً بمجرى الأمور الطبيعي، ما دام يملك فيضاً من الليبيدو.

إن الرمز ليس أبداً موضوع تفكير شعوري، فهو يتكون دائماً بطريقة لاشعورية، أي بالطريقة المسماة: الوحي والحدس. ويبين يونغ هنا الاختلاف بالرأي بينه وبين فرويد في كلماته الخاصة: (إن موقف مدرسة فينا مقصور بالأساس على مفهوم جنسي، في حين ترتكز مدرسة زيوريخ على مفهوم رمزي. وتفسر الأولى الرمز السيكولوجي على أساس أنه عارض من العوارض، أي كعلامة أو دليل إلى بعض العمليات النفسية الجنسية البدائية، وطريقتها هي تحليلية وسببية. وتعترف مدرسة زوريخ بالإمكانية العلمية للفكرة التي تعتنقها مدرسة فينا، إلا أنها تنكر صحتها إلى الحد الذي يستثني كل شيء سواها، فهي لا تكتفي بتفسير الرمز النفساني كعارض فقط بل تفسره كذلك من ناحية رمزيته أيضاً، أي إنها تنسب إلى الرمز قيمة إيجابية. وهذه القيمة التي نعزوها للرمز لا تعتمد فقط على الأسباب التاريخية. وأهميتها الرئيسة تكمن في أن لها معنى للحاضر الواقع وللمستقبل في نواحيهما النفسية. فالرمز بالنسبة لمدرسة زوريخ ليس مجرد دليل على شيء مكبوت

ومخفي بل محاولة في نفس الوقت لتفهم وإظهار طريق نمو الفرد النفسي إلى حد أبعد. وعلى هذا فإن مدرسة زيوريخ تعتبر أفكار الشعور ودوافعه الأساسية كرموز دالة على خطة معينة للنمو في المستقبل.

9- بكاء الطفل

رزقنا قبل شهر بطفلة جميلة نبذل قصارى جهدنا لتوفير الرعاية لها.
إلا أنها تبكي كثيراً وغالباً ما تدعنا ننام.
أخذناها لعند الطبيب فوصف لنا بعض الأدوية.
ولكن وضعها لم يتغير كثيراً؟

سهيل. ع

اختلفت الآراء كثيراً في مسببات بكاء الأطفال. بيد أن المتفق عليه هو أن الطفل يبكي للتعبير عن مشاعره وللفت النظر لمشكلة يعاني منها، وهذا ما يثير بال الآباء وقلقهم وإزعاجهم.

أما عن ابنتك، باعتبار أن عمرها تحت السنة وفي الشهر الأول من حياتها، فيمكن تعداد بعض الأسباب المسببة لبكائها مثل:

1. الجوع: ويأتي في المرتبة الأولى، وهو يسبق ميعاد الرضعة، ويكف الطفل عن البكاء بمجرد إطعامه.
2. العطش: وفي هذه الحالة يجب إعطاء الطفل الماء بين الرضعات، خاصة لو كانت حليباً صناعياً، وفي فترة الصيف أو عند ارتفاع درجة حرارته.
3. التقلصات المعوية أو المغص: وهنا يكون البكاء له نغمة عالية مع ثني الفخذين نحو البطن واحمرار الوجه.
4. في حالة الرغبة في تغيير ملابسه المبتلة.
5. التهابات الأذن وانسداد الأنف.
6. في حالة البرودة أو التدفئة الزائدة.
7. في حالة عدم التجشوء بعد ابتلاع كمية من الهواء أثناء الرضاعة.

ويرى بعض العلماء ترك الوليد يبكي لمدة تتراوح بين 15-20 دقيقة، وهي حالة تقوي عضلات الصدر والرئتين، والبعض يرى أن يستجيب المجتمع فوراً لبكاء

الوليد، خاصة إذا كان له دافع كالجوع، أو الألم الناتج عن أي سبب آخر. وقد يكون البكاء تعبيراً عن تعب عام ورغبة في النوم، لذلك يجب تهيئة المناخ المناسب الذي يساعد الطفل على الاسترخاء والنوم المريح، وهنا يمكن اللجوء إلى وضع الأطفال على فراش من الصوف أو أي نسيج ناعم طري.

تستطيع الأمهات عادة تمييز بعض الصيحات وأسبابها، كما أنه يمكن الاستعانة بالألوان في تهدئة الأطفال بدهان أرجاء الحجرة بالأبيض أو البرتقالي أو أي ألوان أخرى فاتحة.

ميز الدكتور محمد عماد الدين إسماعيل بين أربعة أنواع من الصياح أو الصراخ أو البكاء:

1. بكاء الولادة ويستمر لثانية أو لبضع ثوان بعد أخذ نفسين عميقين يسببان أحياناً آلاماً في الرئتين.

2. البكاء الأساسي بسبب الجوع، ويسمع عالياً بعد بضع ساعات من الوجبة السابقة، من 2-4 ساعات.

3. استجابات بكاء الألم، وأمكن دراستها نتيجة آلام الشك بالإبرة أو عند الحقن، وهي طويلة عنيفة يعقبها صمت طويل ثم بكاء مرة ثانية بعد استعادة التنفس، ويصاحبها توتر عضلي في الوجه وتقلصات عديدة في عضلات مختلفة من الجسم.

4. بكاء الغضب ويشبه البكاء الأساسي مع مزيد من دفع الهواء عبر الأحبال الصوتية.

ويعتبر بكاء الأطفال حديثي الولادة أسلوبهم في التفاهم. ولذلك نجد أن الكثير من الأمهات والمربيات يمكنهن أن يتبين دافع البكاء ونوعيته. ويهم المربين أو الآباء إيقاف البكاء، لصالحهم أحياناً، ولفائدة الوليد أحياناً أخرى. وقد يتم ذلك أولاً بالإطعام، فإن لم ينفع فباستعمال المص. وقد وجد أن الهدهدة والطبطبة قد تفيد تماماً، وكذلك الهزهزة السريعة لتأثير كل ذلك على الجهاز العصبي اللاإرادي.

ومع ذلك فإن بعض العلماء يرون ألا يستجيب المسؤولون عن رعاية الوليد لبكائه بهذه الأشكال من الرعاية، وذلك حتى لا تدعم عادة البكاء كوسيلة لإشباع الحاجات غير الضرورية، خصوصاً وأن الوليد، بعد أن يكون قد تعود الالتصاق بالأم أو المربية، قد يستعمل البكاء، عادة، كأسلوب لاستمرار صحبتها له أو احتضانها إياه. وقد يتعرض الطفل بعد ذلك للحرمان من الأم لظروف خارجة عن إرادتها، ولذلك تصبح عملية رعايته مهمة شاقة إذا كانت قد طالت فترة الاتصال العضوي بينه وبين الأم بتلك الصورة السابقة.

إن الأبحاث الحديثة المتعلقة بسيكولوجية الطفل تؤكد أنه يشعر بالضيق من الصمت الشديد، ومن كثرة الضجيج، ويعبر عن رفضه لهما بميله إلى الصراخ والبكاء المتواصلين، وبثني رجليه الصغيرتين نحو بطنه. ويكون هذا مدعاة لاستعمال أنواع اللعب أو الكرات أو الصناديق الصغيرة المختلفة التي تصدر أصواتاً معينة، وذلك بتقريبها منه ومداعبته بها فيشعر بالطمأنينة والهدوء. كما يمكن الاستعانة بالموسيقا الهادئة لتهدئة الصغير.

ولكن على كل أم مراعاة عدم وضع الطفل أصبعه في فمه لشغله عن البكاء. فقد أثبتت التجارب أن هذه العادة غير المستحبة يصعب التخلص منها مع تقدم سنوات الطفل، كما يجب أيضاً عدم تعويد الطفل على تناول الحلوى عند البكاء فهي أيضاً عادة تستمر معه طوال مراحل حياته وتساعد على إتلاف الأسنان وتسوسها.

هناك أيضاً عوامل أخرى مهمة تساعد على بكاء الطفل، كما يحدث عندما تكون الأم مضطربة أو عصبية، خاصة الأم البكر التي تمر بتجربة جديدة في حياتها، فتكون قلقة، وهذا الشعور ينعكس تلقائياً على الطفل.

ومن الأسباب النفسية أيضاً إحساس الطفل بالوحدة والرغبة في المزيد من الحنان، وعادة ما يتوقف الطفل عن البكاء في هذه الحالة بمجرد حمل الطفل وضمه لصدر أمه.

كذلك تعم المواليد عادة استجابة البكاء في مواقف الإحباط فيما بعد. وإذا لم تكن هناك أسباب عضوية، فإن البكاء الكثير يعتبر عادة ظاهرة سلوكية ترتبط بالرعاية الزائدة والتدليل واستمرار احتضان الوليد، مع عدم تعويده بالتدريج على الاستقلال والانفصال المناسب من دفء صدر الأم.

إن الأم هي أقدر الناس على معرفة دوافع بكاء الطفل، وبإمكانها التمييز بين البكاء الطبيعي أو الفسيولوجي، أي البكاء دون أسباب عضوية أو نفسية، وهو يحدث غالباً في الليل في الشهور الأولى من العمر.

كما أن الأم بإمكانها التفرقة بين بكاء الألم وبكاء التدليل.

وغير هذا وذاك على الأم أن تعير بكاء طفلها العناية اللازمة.

10- تغيّرات عاطفية

عادة، نحن الكبار، لا تتغير عواطفنا بسرعة، كما هو الحال مع الأطفال.

وهذه الحال لمستها من خلال المذكرة التي كنت أدون بها ذكرياتي مع ابني.

على ما أذكر حين كان عمره بين الأسبوعين والثلاثة لاحظت عليه القنوط.

وفي شهره الخامس بدأ انفعال الغضب.

في الشهر السادس بدأ يظهر انفعال الاشمئزاز.

في الشهر السابع بدأ يظهر انفعال الخوف.

وغير ذلك الكثير من التغيرات العاطفية.

كيف تحلل هذه التغيرات العاطفية خلال نمو الطفل منذ الولادة إلى شهره الخامس عشر أو الثامن عشر؟

صبحية. ي

يلاحظ في مرحلة الطفولة المبكرة ظاهرة التهيجات العمومية وهي تصنف إلى عواطف سارة وغير سارة، ومع أن الدراسات تفيد بأنها تظل بشكل غير مميز خلال العامين الأولين من الحياة إلا أن دراسات أخرى كشفت عن ظهورها في البالغين.

أما ملاحظتك للقنوط على ابنك في المرحلة الأولى فهو صحيح.. ذلك أنه يمكن تمييز القنوط من بين العواطف غير السارة عندما يبلغ الرضيع من العمر أسبوعه الثالث ويظهر من جراء تأثير منبه غير سار، مثل الكفاح من أجل التنفس، أو النوم وفوطة مبتلة، أو الالتهابات في إليتيه، أو أثناء انتظاره حتى يأكل. ويختلف نموذج الاستجابة في حالة القنوط عنه في التهيج العمومي من عدة وجوه. ففي القنوط نجد العضلات تتوتر بشدة أعظم، ويصعب التنفس، ويتكرر إغلاق جفون العينين، ويكون البكاء مرتفعاً ومتقطعاً بشدة أعلى. وأما في الأطفال الذين يبلغون من العمر أكثر من شهرين، فقد تبتل العينان فتحملقان بشدة، ويحمر الوجه،

وتغمض قبضته، ويتشوه الفم. وحسب هذه الدراسات ينقسم القنوط فيما بعد إلى العواطف غير السارة الأخرى، مثل الغضب والخوف والغيرة والاشمئزاز.

فانفعال الغضب الذي لا يمكن أن نخطئه يظهر عند الطفل عندما يبلغ من العمر شهره الخامس. ويحدث ذلك بسبب التدخل في نشاط يمتعه. لأن الطفل الطبيعي بهذا العمر يكون قد تعلق بالأشياء الصغيرة، مثل اللعبة ذات الخشخشة، والحيوانات المحشوة، وزجاجات الحليب. فبإبعادها عنه قد نثير فيه استجابة القنوط أو نهيج غضبه وسخطه. وإن أوضح إشارة نميز فيها الغضب عن القنوط هي احتجاجه بالعويل دون أن يغمض له جفن.

كما بينت هذه الدراسة أن الطفل الذي بلغ الشهر الخامس من عمره، يظهر انفعال الاشمئزاز بوضوح لا يخطئه أحد. فنجده يسعل أو يقطب أو يبكي أو ينفث طعامه إن أراد. أما الأطعمة الحلوة فإنها تقبل بمظاهر الفرح والسرور. وأما قصاصات الخضراوات، والأطعمة المرة، والحساء السميك، فإنها تثير انفعال الاشمئزاز في بعض الأطفال.

حتى يبلغ الطفل الشهر السابع من عمره تظهر انفعالات الخوف بوضوح عليه. وأكثر مثيرات الخوف لمن بلغ هذه السن هو رؤية شخص غريب، وأما نموذج السلوك في الخوف فيكون إسكان جميع الحركات إسكاناً كلياً. ويتبع ذلك انهمار سيل من الدموع أو البكاء المتواصل. ويظل الجسم متيبساً ومعطلاً عن الحركة، وتغمض العينان بشدة، وينحني الرأس، وإذا لمس الغريب الطفل يبتعد بنفسه عنه. وتصبح هذه الانفعالات ظاهرة المعالم كلما كبر الطفل. وإذا ما صار عمره اثني عشر شهراً فيمكن تهيج نموذج الخوف فيه بسهولة بمجرد سحب مساند الجسم فجأة. ثم إن الدلائل الحالية تشير إلى أن أي مثير قوي وغير متوقع، مثل إشراقة نور مفاجئ، ينتج الخوف في الطفل.

وفي هذا السن يصبح أكثر اهتماماً بالأشياء الصغيرة، ويحاول أن يمد جسمه ليقبض عليها حتى ولو كانت بعيدة عن متناول يديه. فإذا ما نجحت محاولاته

يظهر عليه انفعال عاطفي من النوع المعروف بالنشوة. ويبتسم الطفل، ويتنفس بعمق، ويعبر عن رضائه بأصوات جوفية مبهمة. وبعد أن يتفحص الشيء لبرهة وجيزة يهمله ويتجه بانتباهه إلى غيره. ويتكرر هذا النوع من النشاط مراراً. وعندما يصبح عمره ثمانية أشهر تراه ينتشي بصورة خاصة لسماعه رنين الملاعق، وعندما يتعلم المشي ينغمس في سرور لانهائي.

أما انفعال الغيرة العاطفي فيظهر ما بين الشهر الخامس عشر والثامن عشر، ويعطي الطفل اهتمام الكبار به أهمية بالغة. فعندما يمنع هذا الاهتمام عنه، وخصوصاً إذا توجه نحو طفل آخر، فإنه من المحتمل أن يحدث رد فعل من الغيرة عنيف. وعادة يقف الطفل الغيور جامداً لا يتحرك ويحني برأسه إلى الأمام وينفجر بالبكاء والعويل. ويوجه بعض الأطفال جام غضبهم ويصبونه على الطفل المنافس. ويؤدي ذلك إلى الضرب وشد الشعر حتى وإلى العض والخمش. ويشترك الغضب مع الخوف بمد الغيرة ببعض عواملها. وعادة تتهيج بأعمال الكبار أكثر من أعمال الأطفال الآخرين، إلا إذا كان الطفل الآخر موضع اهتمام وعناية الكبار.

والعواطف المرحة لا تظهر بوضوح إلا بعد بضعة أسابيع من ظهور القنوط. إذ إن الطفل الذي لم يبلغ من العمر شهره الأول إما أن يكون هادئاً وساكناً وإما أن يكون متهيجاً. وقد تدفع الأرجحة والتربيت والهز بالطفل لأن ينام، لكنه لا يظهر أي دليل من البهجة لا في قسمات وجهه ولا في استجابته البدنية. وأما في شهره الثاني فيبتسم الطفل بانطلاق عند إطعامه، ولفه بدفء، وهدهدته وملاعبته، وعندما تحدثه أمه. وأما في الشهر الثالث فيمكن تمييز عاطفة البهجة بكل وضوح. وتختلف البهجة عن القنوط في أنها تطلق حركات الجسم بحرية بينما تنقبض هذه في حالة القنوط، ولا تغمض الأعين وإنما تفتح، ولا يقطب الطفل جبينه بل يبتسم، ولا يبدي حركات التقهقر وإنما يتقدم إلى الأمام، ويسمع صوت بهجته بشدة أخف منه في القنوط، وتكون حركات الأذرع والأرجل منتظمة تقريباً.

إن الطفل العادي يظهر علامات الحب والشغف بالكبار إذا ما بلغ الشهر

الحادي عشر من عمره. فنراه يطوق بذراعيه عنق أمه، أو يلمس وجهها ويربت على وجنتيها بأنامله فرحاً مسروراً. ويقرب شفتيه من وجوه الكبار ويبدأ بتحريكهما حركات تقبيل بدائية. وفي بادئ الأمر يتوجه الشغف إلى الكبار ويهمل الأطفال الصغار. ولا يتجه شغف الأطفال ببعضهم البعض عادة إلا عند بلوغهم الشهر الخامس عشر. إذ نراهم يمسكون بأيديهم ويربتون بعضهم البعض ويبتسمون، ويطوقون بأذرعهم أعناقهم، ويتبادلون القبلات. ويستمر هذا النمط من السلوك إلى أن تظهر أصوات المحبة المبهمة حوالي الشهر الثامن عشر، حيث يبدأ الأطفال بإظهار انفعالات الحب تجاه الكبار أو الأطفال الآخرين على أساس من الاعتبار حسب ميول كل منهم. مع أنهم يستمرون في الشجار كلما دعت الحاجة إلى ذلك. ومن الممتع أن نعلم أن الأطفال الذين يبلغون هذه السن لا يظهرون أي ميل خاص بالجنس الآخر ولا يفرقون بينهما، كما وأن الكبار منهم لا يتجهون إلى حماية الصغار من بينهم.

يبقى أن نشير في الأخير إلى أن معظم الدراسات التي تناولت هذا الشأن لم تظهر أي أثر لعاطفة الخجل بين الأطفال الصغار، مع أنها مألوفة لدى الأطفال الكبار والراشدين على السواء. ولم يعرف سبب انعدام عاطفة الخجل في الأطفال الصغار. ويشير علماء الإنسان إلى أن الأحوال المثيرة للخجل تختلف من حضارة إلى أخرى. فالناس يخجلون من الأشياء التي لا ترضى عنها حضارتهم. وهذا يدل على أن الخجل مكتسب وأنه مبني في الأصل على عوامل الخوف. ويعتقد البعض أيضاً أن الخجل عاطفة موروثة ولا تظهر إلا نتيجة للنضوج. ولا يكون مكتسباً إلا أنماط التعبير والأحوال المثيرة للخجل. ولم يعتبر علماء النفس صحة هذين الفرضين حتى الآن، وذلك لصعوبة فصل عوامل النضوج والتعليم عن بعضها. ولكن بغض النظر عن أصل الخجل، تدل الأساليب المتعددة التي يطورها في الحضارات المختلفة على الطريقة التي تستطيع فيها الخبرة الاجتماعية تعقيد السلوك العاطفي وإبعاده عن المنطق السليم.

11- التأثر الوجداني

منذ سبعة أشهر رزقنا الله بمولودي الأول.

طفلة جميلة الشكل.. باسمة المحيا.

اعتنائي بها لا يوصف.

أشعر أن بيني وبين ابنتي نوع من التناغم والتفاهم والمحبة.

فمثلاً إذا ما نظرت بعدم الرضى لها أو شعرت بخوف عندما يقرب وقت إطعامها، فقد يؤدي ذلك إلى صعوبات كثيرة لها وقت الطعام.

ما هو تحليلك لهذا التناغم غير المرئي بيني وبين ابنتي التي لا زالت طفلة لا تفقه شيئاً؟

ماري. ج

من الخطأ أن نعد الطفل لا يفقه شيئاً طالما كان لا يمشي أو لا يتكلم بعد. ذلك أن هناك علاقة عاطفية غريبة بين الطفل والأشخاص الذين يعتنون به. وقبل أن يصبح قادراً على فهم ما هو جار له بزمن طويل تتكون هذه العدوى أو المشاركة العاطفية بينه وبين الكبار ذوي الأهمية في حياته كالأم أو المربية. ويظن أن أهم فترة تتكون فيها هذه العلاقة هي بين الشهر السادس والشهر السابع والعشرين. وقد يظن أن هذا النوع الغامض من الاتصال العاطفي هو أمر بيولوجي، لأن بعض الحيوانات تبدي ظاهرة مشابهة. وبما أن وضع الأم أو المربية يتكيف اجتماعياً، فإن هذا النوع من الاتصال العاطفي الذي لا يبدو أنه يحدث، عن طريق أعضاء الحواس العادية، هو أمر مهم جداً لفهم عملية تبني الثقافة. وهذا التأثر الوجداني يفقد فيما بعد وجوده إلى حد كبير.

ويلاحظ هنا أن الاختبار يحدث من جميع نواحيه بأسلوب واحد أو أكثر من الأساليب الثلاثة التالية:

1. الاختبار البدائي (الترتيب الأولي) وهو اختبار الأوضاع المؤقتة على

أساس أنها غير متصلة بعضها ببعض وغير مميزة بعضها عن بعض.

2. الاختبار الانفصالي (الترتيب اللغوي) وهو تكوين المهارات والمواقف والأفكار دون ربطها بعناصر الشخصية وأوجهها.

3. الاختبار التركيبي (الترتيب الصرفي النحوي) وهو الاختبار الذي يمكن التعبير عنه بواسطة آراء مرجعها حقائق واقعية ملحوظة أو لاإرادية، باشتراك الشعور.

وكما يقول عالم النفس (هاري ستاك سوليفان) فإن أسلوب الترتيب الأولي كما يدل عليه الأصل اليوناني يشير إلى اختبار الطفل الأولي والنظام أو الترتيب الذي يحدث فيه. أما نحن الكبار فنختبر الأشياء بالنسبة إلى الوقت والمسافة، أي بالنسبة لهذا المكان أو ذاك، أو ما هو قبل وما هو بعد. وبعبارة أخرى إننا نقسم اختبارنا إلى العناصر التي يتكون منها كي نستطيع السير في العالم. وبالإضافة إلى هذا يمكن إرجاع اختبارنا أو الكثير منه على الأقل إلى الذات التي تقوم بالاختبار، باعتبار أن الذات هي المركز الذي يرجع إليه كقولك: (ذهبت للتمشي في المنتزه في الساعة الرابعة). وهذا مثال على ما نقوم به من تمييزات في حياتنا اليومية. وهناك طبعاً تمييزات أخرى تستلزم مهارة أكثر وثقافة كبيرة.

إن الطفل لا يميز بين الأمور في بادئ الأمر لأسباب مختلفة، فما عدا الحدود التركيبية والوظيفية فإن جسم الولد عند الولادة لم يحصل طبعاً على اختبار مباشر مع الميراث الثقافي. وسنتجنب القول بأن الطفل لا يملك عقلاً بعد – لأننا سوف لا نتعرض هنا لمشكلة طبيعة العقل أو لمشكلة ما يرثه الطفل من حياته في الرحم، وهي من الأمور التي على ما يظهر لا نعرف الشيء الكثير عنها، على الأقل تلك الخاصة بالعقل.

ويفترض أن كل ما يعرفه الطفل هو الحالات الوقتية، أما التمييز بين ما هو قبل وما هو بعد فيكتسبه الطفل في وقت تال. والطفل يشعر شعوراً غامضاً بالحالات المبكرة والمتأخرة أو يدركها بدون أن يجد علاقة متسلسلة بينها. وهو لا

يملك ذاتاً بأي معنى مميز واضح، لأن الذات لا تكون قد تكونت في هذا السن بعد. فلهذه الأسباب تراه لا يعي نفسه كذات مستقلة منفصلة عن سائر العالم. وبعبارة أخرى يشعر الطفل باختباره كتلة واحدة غير مميزة وبدون حدود ثابتة، أي ككل يسير نفسه بنفسه. وهذا الشكل من الاختبار يلاحظ غالباً في بعض حالات الشيزوفرينيا.

إن الطفل يتعلم تدريجياً أن يميز إلى حد ما بين نفسه وسائر العالم، فالطفل يتوقف عن مد يده ليلمس القمر. وبعبارة أخرى، يتعلم تدريجياً أن يقوم بتفريقات بدائية في اختباره. كما نتعلم في الطفولة أن الأشياء التي تواجهها عن بعد حواسنا المستقلة كعيوننا وآذاننا مثلاً تختلف في وضع علاقتها عن الأشياء التي تواجهها حواسنا اللمسية والذوقية المستقبلة. فالشيء الذي في أفواهنا والذي يستطيع المرء تذوقه، حتى ولو أحدث جيشاناً في المعدة يتضايق منه الجميع، يظل في وضع مختلف جداً عن وضع البدر الذي تراه عيوننا ولكنها لا تستطيع التصرف فيه بأية وسيلة ما.

وأخيراً فإن الطفل كلما نما وتقدم نحو النضج يتحطم الاختبار الكلي الأصلي الذي لا تمييز فيه. ومع ذلك فإن أجزاء الاختبار والنواحي المتباينة فيه وأنواعه المختلفة لا تكون مترابطة متصلة بطريقة منطقية. وتحدث هذه الأمور معاً أو لا تحدث بطريقة عفوية، وهذا إنما يتوقف على الظروف. وبعبارة أخرى يشعر المرء بالاختبارات المتنوعة على أساس أنها متلازمة. ولا يدركها كأنها مرتبطة معاً بطريقة منتظمة. والطفل لا يستطيع بعد أن يربطها ببعض أو أن يميز بينها تمييزاً منطقياً. ويفترض أن يدخل في حيز الاختبار هو الطريقة الطبيعية لمثل هذه الحوادث بدون إجراء أي تأمل أو مقابلة. وبما أن الطفل لم يكوّن بعد أية ارتباطات أو علاقات، لذلك لا يوجد أي انتقال في التفكير المنطقي من فكرة إلى أخرى. فالترتيب اللغوي التركيبي ليس من الأساليب التي تسير خطوة خطوة. والاختبار هو ثمرة حالات مؤقتة وغير مرتبطة ببعضها يمر بها الفرد ويتحمل ثقلها.

12- حنان الأم

بيني وبين ابني علاقة محبة وحنان لا أقدر على وصفها.

حين يبكي أحس بقلبي وقد تمزق.

وحين يفرح يقفز قلبي من مكانه.

لا أشعر بالراحة إلا إذا أمنت له كل حوائجه.

إنه في السنة الأولى من عمره.

كيف تحلل هذا الحنان بين الأم وابنها؟

لطفية. ط

هذا الحنان بين الأم وابنها غريزي نراه لدى بني البشر كما نراه لدى الحيوان. ويعتقد فرويد أن نظرية الغرائز تلعب دوراً جوهرياً في حياة الإنسان، فهي في نظره فكرة أساسية رغم اعترافه بغموضها وبكونها مسألة تقليدية. ويمكن إثبات فكرة الغرائز جزئياً من ناحية علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا). فقد استفدنا من الفيزيولوجيا فكرة المنبه وطريق قوس الفعل المنعكس، وخلاصتها أن المنبه الصادر من العالم الخارجي إلى الأنسجة الحية (الأعصاب) يصرف إلى العالم الخارجي بعمل ما. وغرض هذا العمل هو تخليص العصب المتأثر من فعل المنبه وسحبه من نطاقه. فوقوع الضوء على العين مثلاً يؤدي في الحال إلى رد فعل خاص، وهذا المنبه هو خارجي. إلا أن هناك منبهات أخرى تصدر من داخل الجهاز الإنساني، وهذه المنبهات الداخلية تختلف عن المنبهات الخارجية من نواح حيوية عديدة. وإحدى مميزاتها أنها لا تعمل كمؤثر مؤقت بل كقوة دائمة لا يمكن التهرب منها. فقد نستطيع التهرب من النور ولكننا لا نستطيع التهرب مثلاً من المنبه الداخلي المعروف لعقولنا بقرصات الجوع. ففي هذه الحالة نتحدث عن المنبه الداخلي كمنبه غريزي. ويمكن وصف الغريزة بأنها كمية معينة من النشاط المندفع في ناحية ما. وتبدو (الغريزة) لفرويد من الناحية البيولوجية كفكرة متوسطة بين ما

هو عقلي وما هو جسماني بصفتهما معاً الممثل العقلي للمنبهات المنبثقة من داخل الجهاز الإنساني والنافذة إلى العقل، كما أنهما يكوّنان مقياساً لما يفرض على نشاط العقل نتيجة لعلاقته بالجسم.

وهكذا فإن الممثل العقلي للغريزة الجنسية في البالغ يبدو بشكل شعور خاص ويعرف بالهيجان الجنسي المنبثق عن المنطقة التناسلية في الجسم. وفي نفس الوقت تعتبر حدة الشعور أو الهيجان دليلاً (مقياساً) على الجهد الذي يتطلبه العقل (النفس الباطنية) للتفريج عن هذا الهيجان بنشاط جنسي مناسب، وذلك على ما يبدو على أساس أنه كلما اشتد المنبه الغريزي معبراً عنه شعورياً، ازدادت كمية الطاقة اللازمة للتفريج عنه.

يعتبر (سوتي) أن طابع الحنان يغلب على الصلة الأولى بين الطفل وأمه. وليس بوسع الحنان أن يكون بقية من رغبة مجردة من النزعة الجنسية، أو نوعاً من العلاقة المبتورة، أما إذا كان ناشئاً عن عدول عن الهدف الأول للحب، فإنه يبدو بمثابة شعور جديد ويكون بالتالي متناقضاً. ولا يمكن تكوين الأواصر الاجتماعية في طريقة الدفاع عن الذات أو في أسلوب التشخيص، بل في الانتقال من الحب الأصلي مع ركائزه الحسية إلى أشكال أخرى من المودة والمصلحة. يتصل هذا الانتقال بنمو وسائل الطفل المحركة والمدركة، وتحل تدريجياً محل فترة الاختلاط العاطفي التي يكون فيها مندمجاً بوالدته، وسائل النشاط التعاوني وبعض الأساليب المتصلة بمجموعة من المواقف المتناسقة أو الإضافية. فهذه الطرق المؤدية إلى الانطلاق والانفتاح على العالم الخارجي، تتيح له فيما بعد، إقامة علاقات عاطفية مبنية على توزيع الأذواق والمصالح. جميع هذه الأمور تكفي لتقييم وجود الأخرين، خارج نطاق الارتياح الحسي أو الجنسي، وهكذا تنشأ علاقات اجتماعية جديدة مع رفاق اللعب وزملاء العمل دون أن تكون مبنية على حب سابق.

فيما يعتقد فرويد أن الحب إن هو إلا الناحية النفسية والمظهر العقلي للدوافع الجنسية، إلا أن رضاعة ثدي الأم – على حد قوله – تصبح للطفل النموذج لكل

علاقة حب. والأم أو بديلتها، المربية، تعتني بالطفل في كل ناحية لازمة للحياة. فهي تقبّله وتداعبه وتدلله، بل وقد تثير أعضاءه التناسلية أيضاً، وهذا كله ما يزيد في لذته. وبالإضافة إلى هذا توقظ بعطفها وحنانها اهتمامه الجنسي وربما تهيئ لاشتداد هذا الاهتمام في المستقبل. وهكذا تعلّم الأم الطفل أن يحب.

ويذهب فرويد أيضاً إلى أن الولد يبدأ بحب نفسه أولاً وفيما بعد يتعلم أن يحب الآخرين وأن يضحي شيئاً من ذاته (الأنا) لشخص آخر. وفي الحقيقة لا يميز الطفل في بدء حياته بين الذات والوسيلة (المحبوب)، وإذا ما بدا على الطفل أنه يحب الآخرين منذ البدء فإن هذا ليس سوى مظهر من مظاهر حاجاته. فهو لا يستطيع أن يستغني عن الآخرين، وانفصاله عن حبل السرة عند الولادة أدى إلى انفصاله البدني ولكنه يبقى في كل ناحية أخرى مرتبطاً بالأم من أجل حاجاته جميعها. ويتطلب تطوره التالي أن يتجنب أو بالأحرى أن يخضع إشباع شهوته الجنسية ذاتياً، وأن يستبدل جسمه بشيء غريب عنه. وعندما يحدث ذلك هناك ما يبرر القول – حسب نظرية فرويد – أنه يحب شيئاً. وبما أن الأم هي الشخص الذي يعنى به عادة منذ الولادة تصبح بطبيعة الحال الوسيلة الأولى لشعور الحب في الطفل. وإذ يكبر الطفل نراه يكوّن (تعلقاً شهوانياً) بأمه، فقد يرغب في النوم معها في الليل، وأن يكون حاضراً وهي ترتدي ثيابها وأن يعانقها. وقد يبدو للطفل أن من مصلحته أن لا تهتم بأحد غيره وأن لا توجه انتباهها لآخرين، إلا أن هذا ليس عقدة الموضوع.

ومما عرضناه نرى مدى التباعد في الرؤيا بين علماء النفس فيما يمكن أن يكون حنان الأم به.

13- أكثر استقلالية

ألاحظ على ابني البالغ من العمر سنة واحدة، في كل مرة أتركه بها لوحده، أنه يبكي.

وما أخشاه أن تكون عادة البكاء عنده ما هي إلا وسيلة لإرغامي على تلبية طلباته، ومن ثم تصبح عادة عنده يستغلها لتحقيق مقاصده!

ما هو تحليلك لمثل هذه الحالة؟

فريده. ج

يصبح الطفل، منذ السنة الأولى، أكثر تعلقاً بأمه، لكنه في الوقت نفسه يريد أن يكون أكثر استقلالية. فإذا لاحظت، أن ابنك بدأ يبكي في كل مرة تتركينه فيها لوحده، لا تعتقدي أنه بدأ يكتسب عادات سيئة، بل على العكس تماماً، يريد أن يكون باستمرار في رفقة عائلته لاسيما والدته. وهذا دليل صحي ممتاز.

ويجب الحذر هنا من الذهاب إلى أن ما يقدم عليه ابنك يخرج عن الإطار الذي قلناه. فكثيراً ما يخلط ذلك مع الوهم الموجه بحيث يصير وسيلة وحيلة يستخدمها الطفل للتخلص من شعوره بالقصور، فيصدر التعويض عن ذلك الوهم الذي يخضع هو نفسه للرغبة في الأمن. وكلما ازداد الشعور بالقصور عمقاً وشدة، ألحت الحاجة إلى خطة للتوجه تكون الغاية النهائية منها هي الأمن، وازدادت تلك الخطة وضوحاً وتحديداً.

عليك إذا لمست أنه بدأ يشعر بحريته، وأنه يريد اكتشاف كل زوايا المنزل وخباياه، وأنه يريد التعرف إلى وجوه أخرى، أن لا تخافي. فالطفل في هذه السن يتأرجح ما بين ضرورة الشعور بالحنان، وضرورة الانزواء إلى نفسه.

ويترتب على الأم هنا أن تدرك الفرق ما بين معنى ضرورة إشعار طفلها باستقلاليته، وبين إعطائه حريته. فأكثر الأمهات وتحت شعار الحرية يتركنه وحيداً في قفصه، أو في غرفته المقفلة، ليدبر نفسه بنفسه، حتى لو أدى هذا الأمر إلى

بكاء الطفل بشكل مرير. وهذا تصرف خاطئ، خصوصاً أنه كلما شعر بضرورة قربه من أمه.

إن الاستقلال لا يكمن في تركه وحده، بل في شعوره بثقته بنفسه: إنه حر التصرف في المنزل، وبأنه قادر على الاتصال بالغرباء. بيد أنه لا يملك كل الأطفال القدرة على الاتصال بالغرباء. وهذا يعود إلى أجواء المنزل، فمنهم من لا يقترب البتة، في حين أن البعض الآخر، وهم الجزء الأكبر، يظهرون أنهم غير مبالين بالشخص الذي يتردد عليهم.

وبالتكرار شيئاً فشيئاً ما يلبث أن يذوب الثلج، فيقتربون منه يراقبونه أو يقدمون له أشياء بطريقة استعراضية ومن ثم يستردونها، أو يضعون في خرجه كل الأشياء التي يجدونها أمامهم. إن مثل هذا الأمر معروف للجميع.

يعد الزمان مفصلاً مهماً جداً بالنسبة لإدراك الطفل للعلاقات السببية البسيطة. فالطفل في سن السنة والسنة والنصف عندما يركل برجله الفراش يتحرك السرير فيهز شيئاً معلقاً فيحدث صوتاً، فيعيد الطفل هذا الفعل مرة أخرى، ويظل يعيده ويعيده طالما يجد في هذا عملاً ممتعاً، كأنما يقرر الطفل في هذه الحالة أنه قد أدرك التعاقب الزمني بين حركته من ناحية، وكل الفراش، والحدث المترتب عليها من ناحية أخرى، وهو الصوت.

إن إدراك التعاقب الزمني هنا يعتمد عليه نمو مفهوم السببية عند الطفل. ولا يحدث ذلك بالنسبة للمكان. فالطفل في سن السنة والنصف يعرف من خلال تجاربه أن البكاء يحضر أمه، وأن الضغط على زر معين يشغل المكنسة الكهربائية، وأن الضغط على مكان معين في التلفاز يشغل التلفزيون وأن زراً كهربائياً يدق الجرس وأن رافعة معينة تجعل الماء ينساب في المرحاض. إن الطفل يعرف هذه الأشياء بسهولة، لأنها مرتبطة زماناً وليس مكاناً. فبعد المكان بين الجرس والزر الذي يجعله يدق، أي بين الشيء الذي يسبب، وبين الحدث الذي يحدث، لا يشكل أي صعوبة بالنسبة للطفل، أما البعد الزمني فإنه قد يشكل بالطبع صعوبة كبرى.

بالنسبة لك: هناك أساليب عديدة تستطيعين فيها تشجيع طفلك على نيل استقلاليته منها: شراء حذاء ذي نعل حين يبدأ بالسير – تعريفه إلى العالم الخارجي بسرعة – الاتصال المستمر بأصدقاء عندهم أطفال من سنه، أو حتى أكبر منه سناً، فهو سيفرح كثيراً عندما يراهم يلعبون حتى لو لم يستطع المشاركة. ومنها أيضاًن إخراجه من عربته أثناء النزهات في الأماكن الآمنة، وتركه يلعب وحده، من دون أن تشعريه بأنك تراقبينه باستمرار، ولا تؤنبيه في حال اتساخ ثيابه. كذلك لا تؤنبيه بصوت مرتفع أو تصرخي في وجهه أو تقولي له بصوت عال: لا، في حال استطاع الوصول إلى نيل أي شيء في المنزل.

حاولي أن تأخذي منه الشيء عن طريق إلهائه بلعبة جديدة أو بأمر جديد.

كذلك حاولي أن تخرجيه من قفصه قدر الإمكان، وأن تسمحي له بأن يلعب في إحدى زوايا المنزل.

كل هذه الأمور تدفع طفلك إلى أن يكون مستقلاً في طفولته وفي نضوجه.

14– الترتيب اللغوي

عمر ابني سنة.

نتلهف لسماعه وهو ينطق بأولى كلماته.

وبنفس الوقت أخشى أن لا يكون نطقه سليماً.

إن القدرة على النطق بالنسبة للطفل تحيرني.

أي، كيف تتأتى للطفل هذه الملكة وفي سن معين؟

جاسر. ع

يحدث الترتيب اللغوي عن طريق وسائل السمع والبصر. والأحلام هي في الغالب أمثلة على هذا النوع من الاختبار الذي يحدث في كثير من أوقات حياتنا الواعية. وبعبارة أخرى لا ننظم – ولا نستطيع أن ننظم – اختبارنا دائماً في مجموعة مرتبطة متصلة، بطريقة منطقية، تقابل فيها جميع العناصر وتناقض وتنظم بطريقة محكمة. وإنا لا ندخل عادة في جدل منطقي جدي عندما نلبس في الصباح ونتوجه إلى عملنا وغير ذلك من الأعمال. فنحن لا نجد ذلك ضرورياً، وعلى كل حال فإنا لا نجد وقتاً كافياً لذلك بالتأكيد.

وحين يتعلم الطفل مبادئ اللغة الأساسية، يعتبر أنه دخل في (عهد) الطفولة الثانية. إلا أن المقدرة على التفاهم عن طريق الأفعال في هذه الفترة تكون بعد في أول ظهورها ويكاد لا يكون قد تم تكوين أو تعلم أدوات اللغة ومفرداتها وصرفها ...إلخ. وبما أن جهاز الطفل محدود وكذلك اختباره بعملية الرموز التي يستخدمها الآخرون، لذلك تكون عملية رموزه الشخصية كيفية وخاصة به إلى حد بعيد دون ضبط أو فحص لذلك فليس هناك ما يكبح خياله كي يطابق واقع الحياة اليومية. إلا أن الرموز الخيالية تفيد من ناحية التبصر والتذكر.

ويمكننا البرهان على ذلك بالمثل التالي: ولداً أعطي كتاباً مصوراً يحتوي على كلمات، ولنفترض أنها تسمي الصور أو تصفها. ولنفترض أيضاً أن في

الكتاب صورة أو فوقها أو في مكان ما في الصفحة كلمة (قطة) التي ينجح الطفل أخيراً في تعلمها. وكي نتم المثل أيضاً دعنا نتصور أن الحيوان الذي يتجول في البيت يشار إليه أيضاً بنفس الاسم الذي ألحق بالصورة الملونة أو السوداء أو البيضاء في الكتاب. وفي ذلك يقول سوليفان: (أنا متأكد أن ما من ولد يستطيع أن يتعلم لم يلاحظ تناقضاً شديداً بين الصورة الثابتة في الكتاب حيث ربما تشبه إحدى الحالات المؤقتة التي كانت فيها القطة في وقت ما وبين القطة الحقيقية. وأنا متأكد أن كل ولد يعرف أن هناك شيئاً غريباً جداً في هذه الصورة المطبوعة من حيث أنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنفس الكلمة التي يبدو أنها تصف بطريقة مناسبة الحيوان المدلل كثير الحركة والمزعج والمسلي في نفس الوقت، إلا أنه بسبب الاختبارات العديدة التي يتلقاها الطفل من ناقلي الثقافة، أي الوالدين، والتي تكون متصفة أحياناً بالذكاء والحذق، وأحياناً بالسخف والركاكة، تراه في النهاية يقبل كحقيقة واقعة وكشيء مفيد له ربط صورة القطة بالقطة ذاتها).

وعلى هذا يتعلم الولد بعض معاني الرمز الأكثر تعقيداً وتمييزها نقيضاً عن الواقع الذي يشير إليه الرمز الذي هو مرجعه. وبعبارة أخرى يتعلم التمييز بين الرمز والشيء الذي يرمز إليه. وهذا يحدث على كل حال قبل أن يكون الطفل قد كون المقدرة على الكلام. ويتقدم الولد من الصورة التي في الكتاب والكلمة التي ينطق بها في ثقافتنا الحاضرة إلى الكلمة المطبوعة ويكتشف في النهاية أن الحروف التي تكون لفظة (قطة) تعني بطريقة عجيبة القطة التي يعرفها، وأنها تعني ذلك دائماً. وليست هناك طريقة أفضل من الاختبار الثابت لإقناع الشخص بصحة فكرة ما. وهكذا يصل المرء إلى نقطة تصبح الكلمات المطبوعة عنده، سواء أكان متفقاً على صحة معانيها أم لا، شديدة الأهمية خلال تقدم المرء في تعرفه على العالم. وعلى هذا يتابع سوليفان: (ولم يكن في بادئ الأمر سوى الحيوان المدلل المؤثر في النفس عن طريق النظر وغيره من الطرق والذي يدعى القطة – وهي لفظة صوتية مشتركة – ثم جاءت صورة القطة والآن تأتي الفكرة النوعية

الشاملة للقطة التي تحتوي على القطة وصورة القطة، والقطة بشكل لعبة وقطط الشارع التي ترى من النوافذ. وبما أن هذه الأمور كلها يتعلمها المرء بسهولة – إلى حد لا يجعل أحداً يهتم بأن يشير إليها – فإنه لا يوجد فهم واضح لأنواع الحقائق والأشياء المتنوعة المرموز إليها التي يختبرها المرء، والألفة في هذه الحالة تسبب عدم مبالاة، وهكذا تبقى إمكانات التشويش في معالجة مختلف أنواع الرموز كبيرة بطبيعة الحال).

يتدرج الطفل تدريجياً بالتعرف على نماذج من العلاقات، والتركيبات الصرفية في اللغة، وإلى العلاقات العادية والمميزات الشائعة في مجتمعه. وتزداد مقدرته على فهم مميزات الشخص الآخر أي المستجيب لطلباته. فالولد مثلاً يفهم الآن بوضوح أكثر أنه عندما يبكي يستجيب الشخص الآخر أي الأب أو الأم بطريقة خاصة تقريباً، وهكذا يتعلم الطفل توقع استجابات الآخرين. وهذه الاستجابات تصبح مرتبطة باستعمال بعض الكلمات والإشارات. وبعبارة أخرى، تعطي ردود الفعل الخاصة، التي يقوم بها الآخرون، معنى للغة، أي المعنى المتفق ضمناً عليه بهذه الطريقة. وبالطبع لا يعمد الولد إلى تعلم معاني اللغة المستعملة في الحياة اليومية بصورة منتظمة، بل يتعلم بطريقة التجربة والخطأ. وبذلك يتعلم أيضاً أن اختبار الآخرين لا يقل أهمية عن اختباره الخاص، ويتعلم كذلك استعمال الرموز الفعلية كطريقة اقتصادية كي يعبر عن كثير مما يحدث بوقت قصير وببذل القليل من الجهد. وهناك بالطبع أشياء أخرى أكثر كثيراً من هذا يمكن أن تقال عن عملية التعلم، إلا أن هذا المختصر يمكن أن يدل على بعض الطرق التي يعتقد أن الولد بواسطتها استعمال اللغة التي تعبر عن العلاقات المشتركة بين الناس.

إن الولد يتعلم تدريجياً معاني اللغة المتفق إجماعاً على صحتها – أي اللغة بأوسع معانيها. وهذه المعاني تكون قد اكتسبت من الأعمال الجماعية، والأعمال الشخصية المشتركة والاختبار الاجتماعي. وإن عملية الرمز المتفق على صحتها عفواً وإجماعاً تشمل الرجوع إلى مبادئ مقبولة كمبادئ صحيحة من قبل السامع.

وعندما يحدث هذا يكون الصغير قد حصل على أو تعلم أسلوب الاختبار التركيبي – الترتيب الصرفي النحوي. إلا أن عملية التعلم ليست ثابتة دائماً، لأن الأشخاص الآخرين ذوي الأهمية للولد لا يظهرون ثباتاً وانسجاماً دائماً في سلوكهم. وبالإضافة إلى هذا، فإنه من المعروف أن الناس لا يهتمون دائماً بأن يعلّموا الولد الفرق بين مختلف الرموز والأشياء التي تشير إليها. وإن طريقة التجربة والخطأ الذي يحدث، بحكم الضرورة، كثير من التعلم بواسطتها، لا تناسب الحصول على تمييزات دقيقة. ولأسباب كهذه يصبح للغة معنى مزدوج – أي معنى شخصي ومعنى متفق بالإجماع على صحته، أو يكون مزيجاً من المعنيين. وبهذه الطريقة وغيرها من الطرق، يصبح لدى الناس مجموعة كبيرة من الأخبار الخاطئة والأوهام عن الآخرين وعن أنفسهم وما إلى ذلك.

15- العطب الولادي

يبدو على طفلي صغير السن القلق بشكل أو بآخر.
سألنا أنا ووالده أحد الأطباء عن ذلك.
فكان أن أخبرنا أنه بخير وتسمى حالته بالعطب الولادي.
ما هي علاقة العطب الولادي بالقلق؟

رغداء. ج

تدين نظرية (العطب الولادي) إلى فرويد، بيد أن هذه النظرية لا تلعب دوراً حيوياً في سيكولوجيته، وهو يرفض بصورة حازمة (الاستنتاجات المتطرفة) التي توصل إليها (رانك) من ناحية النظرية والتطبيق.

ثمة اختلاف كبير بين نظريتي فرويد ورانك المتعلقتين بالعطب الولادي نفسه، عدا عن نتائج ذلك العطب. فبينما يشدد فرويد على المخاطر المادية والصعوبات الفيزيولوجية التي تواجه عملية الولادة ويعتبرها سبباً للقلق، يؤكد رانك أن انفصال الكائن الحي أو حرمانه من الحالة الأولية المسرة في الرحم، هو أمر في غاية الأهمية. إلا أن الاختلاف بين الرجلين لا يتجاوز الاختلاف في درجة الأهمية التي يعلقانها على هذه الناحية. ويعتقد رانك أن الحالة في داخل الرحم مفعمة بالهناء والسعادة إلى حد يجعل المرء يحن إلى الحياة الأصلية فيه ويحاول استرجاعها بطريقة ما. وما عدا الموت، الذي يقال أن المرء يعتبره لاشعورياً كرجوع إلى الرحم، فإن الولادة الطبيعية هي أشد الاختبارات التي يجتازها الإنسان قلقاً وألماً. وإن المكان الأول الذي يسكن فيه الإنسان، أي جسم الأم، حيث يعطى كل شيء حتى دون أن يطلب، لهو جنة عدن، والولادة هي الطرد من جنة عدن، ويقضي الإنسان بقية عمره لاستبدال هذا الفردوس المفقود على قدر استطاعته وبطرق متنوعة.

إن مصدر ما هو نفسي وعقلي هو القلق الناشئ عن العطب الولادي، وإن

الانتقال من حالة مسرة جداً إلى حالة مؤلمة جداً يؤدي إلى اكتساب المرء لشعور ذي صفة نفسية، وعلاوة على ذلك، ليس فقط كل ما هو ذو قيمة اجتماعية من أعمال الإنسان أو حتى ما هو مبالغ في قيمته من أعماله، بل حتى مجرد أنه قد أصبح إنساناً، ينشأ من رد فعل خاص حيال العطب الولادي. ويعتقد رانك أن كل مخلوق يحتاج إلى زمن من الطفولة بكامله كي يتغلب على العطب الولادي بصورة طبيعية تقريباً. والعصابيون هم الأشخاص الذين لا ينجحون في هذه المحاولة. وإن قابلية الطفل للقلق تنشأ في العطب الولادي، والقلق الأصلي يمكن تحويله إلى كل شيء تقريباً، وكل خوف طفلي وكل قلق يستعمل المرة بعد المرة للإفراج عن أو تصريف أثر القلق الأصلي الذي لم يجر تصريفه بعد. وبهذه الطريقة يتخلص تدريجياً من قلق الولادة أو يخفف منه على الأقل. وبعبارة أخرى هناك تنفيس أو تطهير عقلي تدريجي للقلق الأصلي.

في العادة، يستطيع الذكاء إرضاء رغبته الأصلية جزئياً على الأقل ببقائه متصلاً (بنفس) الهدف الذي يمثل بالنسبة له الأم، والمحبوبة والزوجة. وبعبارة أخرى، تصبح شريكته الأنثى نائبة أو بديلة عن الأم وتصبح في نفس الوقت المحبوبة والزوجة. إلا أن هذا الوضع يختلف بالنسبة للمرأة. فقد كان عليها أن تحول جزءاً من (طاقة الأم الجنسية الأصلية) إلى الأب إلى جانب استلامها لدور أكثر سلبية واستكانة. لذلك يتوجب على الفتاة أن تتخلى عن كل فكرة تمت إلى الرجوع الفعلي للأم بصلة. أي عن فكرة إمكانية الاختراق التي أصبحت من الأمور المسلم بها أنها امتيازاً للذاكرة أو المتخيلة أنها كذلك وعليها وهي تتمتع بلذة الأمومة الفائقة، أن تقنع بالرغبة في إعادة الحالة الأصلية الهنيئة، عن طريق التناسل السلبي – أي عن طريق حملها طفلها وولادته.

أما أولئك الأشخاص الذين لا يستطيعون تكييف أنفسهم لنوع الإرضاء الجنسي المتوفر لهم، فإنهم يرغبون في إرضاء الشهوة الأصلية الجنسية للأم كتعويض عن العطب الولادي، وهم يصبحون عصابيين. وإن أحسن الوسائل

لتجنب إعادة نشاط العطب الولادي هو الحب الجنسي العادي. وأولئك الذين يسعون وراء نوع الإرضاء الأصلي بوساطة الاندماج بالأم أحياناً يتعثرون على (تخوم القلق) الخاص بالعطب الولادي ويكونون عصاباً. ويجد الأصحاء من الناس إرضاء للرغبة الأصلية عن طريق إرضاء جزئية واستبدالية ورمزية، فيما العصابيون الذين يبقون (طفليين) يرغبون في الرجوع رجوعاً كاملاً إلى (داخل الأم).

كان فرويد يعتقد أن مصدر الانحرافات وأمراض العصاب يعود إلى الشعور الجنسي الطفولي وأنها تمثل في الواقع تأخراً نفسياً في النمو أو تراجعاً إلى أشكال اللذة الجنسية الطفلية بسبب عقبات في طريقة الحياة لا يمكن التغلب عليها. ويعتقد أن مقت أعضاء الأنثى التناسلية يوضح سبب الجنسية المثلية. فالذكر المتصف بالجنسية المثلية ينظر إلى المرأة كعضو الولادة العمومي ولا يعترف بها وبأعضائها التناسلية كوسيلة لمنح اللذة. وعلاوة على هذا، يلعب الجنسيون المثليون من الجنسين لاشعورياً، أو شعورياً عند النساء، دور الأم والطفل الذي هو استمرار مباشر للحالة الخنثية ولكنه يربط الحالة الأصلية برباط جنسي.

ويروى أن التراجيديا الروائية نشأت من التمثيلات التقليدية للطقوس الأسطورية وأنها ترمز إلى الأم وعقوبات البطل الأسطوري بسبب إثمه المحزن، وهو على شكل مخفف للرغبة الأصلية المكبوتة. وقد أصبح هذا معروفاً لنا، من ناحية أهميته اللاشعورية، من تحليل التقاليد الأسطورية، وإن منشأ المأساة من رقصات وأغاني المشتركين في التضحية يبين بوضوح الأمور التي كانت تشملها. فالجلد الذي كان المشتركون في الاحتفال يلتفون به بعد التضحية ونزع أحشاء الحيوان هو أيضاً لا شيء سوى بديل عن الرحم الحامي. وهذا التحقيق الجزئي للعودة إلى الأم قد وجد أيضاً تعبيراً صورياً دائماً في آلهة الحقول والرعاة ذات القوائم والرأس الماعزي في الأساطير اليونانية وصناعة نحت التماثيل. وفي فن المأساة – كما هي الحالة في الرقص – حيث يتخذ المخلوق البشري الحي نفسه كهدف له، تعيش الصفة البدائية المخيفة للرغبة الأصلية المكبوتة كإثم محزن في

شكل مخفف، ويستطيع كل فرد بشري متفرج أن يعيد تمثيل هذا الإثم عن طريق العودة إلى اختباره بصورة مستمرة، بينما نرى في الشعر القصصي البطولي محاولات للتغلب على الرغبة الأصلية عن طريق تحولات وهمية، كقصة الحصان الخشبي الذي حوى جوفه أبطال اليونان الذين وصلوا (إلى أبعد حصن) في داخل طروادة. وأكمل تمثيل للعطب الولادي توصل إليه الفن التشكيلي هو في المأساة المثيرة للحنان – وقد فسرت ضمن القلق العاطفي الأولي القادر على الظهور. بينما نرى في الشعر القصصي والشعر التهكمي أن هذا التمثيل يظهر على شكل بهتان تبجحي.

وتوجد أمثلة أخرى على التصور الفني الكمالي وعلى تمثيل الوضع الأصلي ...إلخ يقدمها رانك من ثقافات أخرى، إلا أننا لا نود تلخيصها هنا لضيق المكان.

يبقى أن نشير أن المنشأ الأصلي لمشكل الفن هو قضية الشكل. ويبدو لرانك أن جميع أشكال الفن تعود إلى الشكل الأصلي لوعاء الأم (الذي أصبح معضلة الفن إلى حد بعيد). وإن الشكل الفني يجعل الشكل الأصلي المكبوت بطريقة تصورية مثالية مصعدة مقبولاً، ذلك أنه في الإمكان إظهاره والإحساس به كشيء جميل.

16- مزاجية الطفل

ابننا تجاوز الثانية من عمره قبل ثلاثة أشهر.

نعيش معه أحلى لحظات عمرنا.

فيوم تراه يحب جده.

ويوم (يحرد) منه.

كذلك الأمر مع هذا وذاك، على حسب مزاجه.

وبما أننا نحن الكبار لا نبتعد بمواقفنا كما يفعل ولدي، فإن المشكلة التي أود أن اقرأ تحليلكم لها هي هذه (المزاجية) التي تصيب الأولاد في فترة معينة من عمرهم.

نظيرة. م

يحاول بعض أتباع فرويد أمثال أبراهام وفينيشيل، استكمال مخطط فرويد، إذ أقروا توافر مستوى في النضج خلال التطور النفساني، يسمح بالتوصل إلى الحنان بوصفه قوة ذاتية قابلة للانتقال إلى الآخرين. ويشير فينيشيل إلى أنه من الصعب تفسير شعور الاتحاد هذا لتعذر تحوّله إلى التشخيص، الأمر الذي يحول دون إقامة علاقة غيرية تتعلق بالآخرين كما لو كانت قائمة في الذات.

كما ينتقد شيلر فرويد، في هذه النقطة، مستنداً إلى نظرية النزعة الظاهرية التي تؤدي إلى التمييز بين أنواع متعددة من التشخيص تتصف جميعها بحالة من الغموض والاندماج بين (الأنا) والغير. فالميل العاطفي الحقيقي يفترض وجود تفاوت بين الأفراد، يسمح لهم بالاتصال والتفاهم دون اضطراب. يبدو غريباً بالنسبة لشيلر أن نتمكن من مشاركة نزعات الآخرين العاطفية، والمساهمة فيها فعلاً، كأن نشاركهم فرحهم دون أن نشعر بالفرح. ولكن هذا هو طابع الميل العاطفي، فهو ليس مجرد شعور خاص إنما مهمة بين الأفراد تعتبر الشرط الأساسي للاندماج في المجتمع.

ويتم الانفصال التدريجي من تلقاء نفسه وعلى عدة مراحل. إذ يتبع المشاركة الأصلية المتميزة بالعدوى العاطفية، ما يسميه (فالون) بالإدراك المميز. في هذه المرحلة، يظهر نوع من التودد والغيرة البدائية، فيحاول الطفل حسب الظروف والأشخاص، تارة التقرب وإقامة علاقات جديدة تدخل السرور إلى قلبه والاحتفاظ بها، وطوراً نراه ينغمس في خلاف يمكن أن يتخذ طابع المنافسة النشيطة المؤذية، أو غالباً طابع الاستياء أو التفكير الساكت المؤلم.

مثل هذه الحالة الأخيرة تظهر الصلة الأصلية بين التودد والغيرة، والتي لا يشوبها أي شك. فالغيور يماثل منافسه ويرتضي الهزيمة التي يصبح بها بمثابة شبه شريك. وقد أثبت علماء تحليل النفس بواسطة الغير، أن الغيور ينضم بصورة غير مباشرة إلى الشخص المحبوب أو الغرض المنشود. فالغيرة إذاً هي نوع من التودد المتألم والسلبي.

إذا كان التودد يسجل تقدماً ملحوظاً على المشاركة بفضل طابعه الاختياري، فإن ثمة تصرفات تساهم أيضاً في تمييز عالم الطفل. فبعد العدوى شبه الآلية للعواطف والتصرفات، يأتي التقليد الأكثر وعياً والمنبثق عن الإرادة، حيث يختار الطفل بضعة نماذج، فيريد أن يكون كالآخرين أو أن يعمل مثلهم. كما يتوخى حسب عبارة (مان دوبيران) الشهيرة: إثبات وجوده عن طريق المعارضة. عندئذٍ تظهر أولى أشكال المقارنة والمنافسة. فالتشبه بالغير يصبح بصورة لاشعورية موقفاً مناوئاً لهم.

إن أزمة الشخصية تظهر في السنة الثالثة، إذ إن الطفل يفرض (الأنا) ويعارض في الوقت نفسه الآخرين. وهذا العمل لا يسمح له باكتشاف وجود الآخرين أمامه فحسب، بل يبين له قيمته إزاء قيمة الآخرين. والكلام الذي يتفوه به يعبر تماماً عن هذا التطور. فبينما كان الطفل يتكلم في السابق عن نفسه، بصيغة الضمير الغائب أسوة بوالديه اللذين ينادونه باسمه أو لقبه، أصبح يستعمل نهائياً صيغة المتكلم. فيقول بكل اعتزاز (أعرف)، و(أرغب) و(أستطيع لوحدي) ويواجه

الأخير بضمير المتكلم في كل مناسبة، باعتبار أن استعمال الضميرين (هو) و (هم) يجافي رغباته ومبادراته وهما يجب أخذهما بعين الاعتبار ولو ظاهرياً.

ويمكن القول إنها لمرحلة رئيسة تشهد ولادة المجابهة الخطيرة بين الفرد والمجتمع حيث تتبلور فيها مواقف نفسية واجتماعية ذات هدف صارم.

17– الأطوار العاطفية

كثيرة هي الأطوار العاطفية التي مرت على ابني من تمييزه للقنوط والغضب وانفعالات الخوف والغيرة وعلامات الحب والشغف بالكبار وغير ذلك.

لا أطرح مشكلة بقدر ما أريد الاستزادة في فهمي النفسي لهذه الأطوار؟

إلهام. س

قد يلاحظ القارئ أن جل المشكلات المطروحة في هذا الكتاب هي ليست لأصحابها، بل لأناس يخصون صاحب المشكلة. فالأم أو الأب أو الأخت وغيرهم يطرحون مشكلات أطفالهم النفسية بقدر ما يلاحظون من تطورها.

وسيان فيما إذا كان ما يطرح عليّ هو مشكلة أم سؤال، فمشكلات الطفولة تتضمن السؤال والمشكلة معاً، لأن صاحب المشكلة غير قادر على التعبير عن مشكلته النفسية تماماً.

وفيما تثيرينه من سؤال عن الأطوار العاطفية للطفل أقول إن التهيجات العمومية تختص بمرحلة الطفولة المبكرة وتصنف إلى عواطف سارة وغير سارة، ومع أن الشواهد تبين بأنها تظل بشكل غير مميز خلال العامين الأولين من الحياة إلا أن دراسات أخرى كشفت عن ظهورها في البالغين الكبار.

فإذا بدأنا بالقنوط يمكن تمييزه من بين العواطف غير السارة عندما يبلغ الرضيع من العمر أسبوعه الثالث ويظهر من جراء تأثير منبه غير سار، مثل الكفاح من أجل التنفس، أو النوم وفوطة مبتلة، أو الالتهاب في إليتيه، أو أثناء انتظاره حتى يأكل. ويختلف نموذج الاستجابة في حالة القنوط عنه في التهيج العمومي من عدة وجوه. ففي القنوط نجد العضلات تتوتر بشدة أعظم، ويصعب التنفس، ويتكرر إغلاق جفون العينين، ويكون البكاء مرتفعاً ومتقطعاً، بشدة أعلى. وأما في الأطفال الذين يبلغون من العمر أكثر من شهرين، فقد تبتل العينان وتسيل الدموع في حالة القنوط، وهذا لا يحدث في حالة التهيج العمومي بالمرة، وأما

العينان فتحملقان بشدة، ويحمر الوجه، وتغمض قبضته، ويتشوه الفم. وحسب هذه الدراسات ينقسم القنوط فيما بعد إلى العواطف غير السارة الأخرى. مثل الغضب والخوف والغيرة والاشمئزاز.

إن الطفل يظهر انفعال الغضب الذي لا يمكن أن نخطئه، عندما يبلغ من العمر شهره الخامس. ويحدث ذلك بسبب التدخل في نشاط يمتعه. لأن الطفل الطبيعي بهذا العمر يكون قد تعلق بالأشياء الصغيرة، مثل اللعبة ذات الخشخشة، والحيوانات المحشوة، وزجاجة الحليب. فبإبعادها عنه قد نثير فيه استجابة القنوط أو نهيج غضبه وسخطه. وإن أوضح إشارة نميز فيها الغضب عن القنوط هي احتجاجه بالعويل دون أن يغمض له طرف. وتبين هذه الدراسة كذلك أن الطفل الذي بلغ الشهر الخامس من عمره، يظهر انفعال الاشمئزاز بوضوح لا يخطئه أحد. فنجده يسعل أو يقطب أو يبكي أو ينفث طعامه إن أراد. أما الأطعمة الحلوة فإنها تقابل بمظاهر الفرح والسرور. وأما قصاصات الخضروات، والأطعمة المرة، والحساء السميك، فإنها تثير انفعال الاشمئزاز في بعض الأطفال الصغار.

أما انفعالات الخوف فتظهر بوضوح عندما يبلغ الطفل الشهر السابع من عمره. وأكثر مثيرات الخوف لمن بلغ هذه السن هو رؤية شخص غريب، وأما نموذج السلوك في الخوف فيكون إسكان جميع الحركات إسكاناً كلياً. ويتبع ذلك انهمار سيل من الدموع أو البكاء المتواصل. ويظل الجسم متيبساً ومعطلاً عن الحركة، وتغمض العينان بشدة، وينحني الرأس. وإذا لمس الغريب الطفل يبتعد بنفسه عنه. وتصبح هذه الانفعالات ظاهرة المعالم كلما كبر الطفل. وإذا ما صار عمره اثني عشر شهراً فيمكن تهيج نموذج الخوف فيه بسهولة بمجرد سحب مساند الجسم فجأة. ثم إن الدلائل الحالية تشير إلى أن أي مثير قوي وغير متوقع، مثل إشراقة نور مفاجئ، ينتج الخوف في مثل هذا العمر.

وفيما يخص انفعال الغيرة العاطفي فيظهر ما بين الشهر الخامس عشر والثامن عشر. ويعطي الطفل اهتمام الكبار به أهمية بالغة. فعندما يمنع مثل هذا

الاهتمام عنه، وخصوصاً إذا توجه نحو طفل آخر، فإنه من المحتمل أن يحدث رد فعل من الغيرة عنيف. وعادة يقف الطفل الغيور جامداً لا يتحرك ويحني برأسه إلى الأمام وينفجر بالبكاء والعويل. ويوجه بعض الأطفال جام غضبهم ويصبونه على الطفل المنافس. ويؤدي ذلك إلى الضرب وشد الشعر حتى وإلى العض والخمش. ويشترك الغضب مع الخوف بمد الغيرة ببعض عواملها. وعادة تتهيج بأعمال الكبار أكثر من أعمال الأطفال الآخرين، إلا إذا كان الطفل الآخر موضع اهتمام وعناية الكبار والبالغين.

إن العواطف المرحة لا تظهر بوضوح إلا بعد بضعة أسابيع من ظهور القنوط. إذ إن الطفل الذي لم يبلغ من العمر شهره الأول إما أن يكون هادئاً وساكناً وإما أن يكون متهيجاً. وقد تدفع الأرجحة والترتيب والهز بالطفل لأن ينام، لكنه لا يظهر أي دليل من البهجة لا في قسمات وجهه ولا في استجابته البدنية. وأما في شهره الثاني فيبتسم الطفل بانطلاق عند إطعامه، ولفه بدفء، وهدهدته وملاعبته، وعندما تحدثه أمه. وأما في الشهر الثالث فيمكن تمييز عاطفة البهجة بكل وضوح. وتختلف البهجة عن القنوط في أنها تطلق حركات الجسم بحرية بينما تتقبض هذه في حالة القنوط، ولا تغمض الأعين وإنما تفتح، ولا يقطب الطفل جبينه بل يبتسم، ولا يبدي حركات التقهقر وإنما يتقدم إلى الأمام، ويسمع صوت بهجته بشدة أخف منه في القنوط، وتكون حركات الأذرع والأرجل منتظمة بشكل مرضي.

من الملاحظ أن الطفل عند بلوغه الشهر السابع من عمره يصبح أكثر اهتماماً بالأشياء الصغيرة، ويحاول أن يمد جسمه ليقبض عليها حتى ولو كانت بعيدة عن متناول يديه. فإذا ما نجحت محاولاته يظهر عليه انفعال عاطفي من النوع المعروف، بالنشوة. ويبتسم الطفل، ويتنفس بعمق، ويعبر عن رضائه بأصوات جوفية مبهمة. وبعد أن يتفحص الشيء لبرهة وجيزة يهمله ويتجه بانتباهه إلى غيره. ويتكرر هذا النوع من النشاط مراراً. وعندما يصبح عمره ثمانية أشهر تراه ينتشي بصورة خاصة لسماعه رنين الملاعق، وعندما يتعلم المشي ينغمس في سرور

كبير.

في الشهر الحادي عشر من عمره، يظهر الطفل العادي علامات الحب والشغف بالكبار. فتراه يطوق بذراعيه عنق أمه، أو يلمس وجهها ويربت على وجنتيها بأنامله فرحاً مسروراً. ويقرب شفتيه من وجوه الكبار ويبدأ بتحريكهما حركات تقبيل بدائية. وفي بادئ الأمر يتوجه الشغف إلى الكبار ويهمل الأطفال الصغار. ولا يتجه شغف الأطفال ببعضهم البعض عادة إلا عند بلوغهم الشهر الخامس عشر. إذ نراهم يمسكون بأيديهم ويربتون بعضهم البعض ويبتسمون، ويطوقون بأذرعهم أعناقهم، ويتبادلون القبلات. ويستمر هذا النمط من السلوك إلى أن تظهر أصوات المحبة المبهمة حوالي الشهر الثامن عشر، حيث يبدأ الأطفال بإظهار انفعالات الحب تجاه الكبار أو الأطفال الآخرين على أساس من الاعتبار حسب ميول كل منهم. مع أنهم يستمرون في الشجار كلما دعت الحاجة إلى ذلك. ومن الممتع أن نعلم أن الأطفال الذين يبلغون هذه السن لا يظهرون أي ميول خاص بالجنس الآخر ولا يفرقون بينهما، كما وأن الكبار منهم لا يتجهون إلى حماية الصغار من مجموعهم.

من الملاحظات المهمة في الموضوع أن عاطفة الخجل ليس لها من أثر بين الأطفال الصغار، مع أنها مألوفة لدى الأطفال الكبار والراشدين على السواء. ولم يعرف سبب انعدام عاطفة الخجل في الأطفال الصغار. ويشير علماء الإنسان إلى أن الأحوال المثيرة للخجل تختلف من حضارة إلى أخرى. فالناس يخجلون من الأشياء التي لا ترضى عنها حضارتهم. وهذا يدل على أن الخجل مكتسب وأنه مبني في الأصل على عوامل الخوف. ويعتقد البعض أيضاً أن الخجل عاطفة موروثة ولا تظهر إلا نتيجة للنضوج. ولا يكون مكتسباً إلا أنماط التعبير والأحوال المثيرة للخجل. ولم يعتبر علماء النفس صحة هذين الفرضين حتى الآن، وذلك لصعوبة فصل النضوج والتعليم عن بعضها. ولكن بغض النظر عن أصل الخجل، تدل الأساليب المتعددة التي يطورها في الحضارات المختلفة على الطريقة التي

تستطيع فيها الخبرة الاجتماعية تعقيد السلوك العاطفي.

وأخيراً يمكن القول إن الاستجابات العاطفية في الصغير تكون عادة، سواء أكانت سارة أم غير سارة، شديدة ومنطلقة غير مقيدة، وذلك بغض النظر عن قوة المثير. ومع أن انفعاله العاطفي لا يلبث أن يزول ولا يدوم مدة طويلة إلا أن شدة توتره قلما نراها في السنين التالية.

18- لذة

ألاحظ على ولدي حين (يجلس) على كرسيه (للتبرز) شدة لذته في ذلك.

وكم من مرة طلبت منه أن يقوم من على كرسيه بعد الوقت المعهود في ذلك، ولكنه يرفض ويحرد.

إنني أستطيع أن أطعمه بهذه الطريقة وهو جالس للتبرز.

ما مصدر لذته في (الجلوس) على كرسيه هذا ورفضه من القيام عليه؟

حنان. ش

أول من بحث في مثل هذا الموضوع هو فرويد في مقال له نشره عام 1908 وموضوعه (الأخلاق واللذة الجنسية الشرجية) وقد أحدث ضجة كبيرة بين علماء النفس الذين كانوا قلة وفي بدايات عملهم النفسي العلمي بعيداً عن الفلسفة. من المعلوم أن علم النفس يعتبر من حيث تاريخ الإنجازات العلمية، من الفروع الحديثة نسبياً بين العلوم الأخرى. فبينما تمتد جذور فروع أخرى من العلوم – كعلم الأحياء، وعلم الطبيعة، وعلم الكيمياء إلى التاريخ القديم، ترجع البدايات الحقيقية لعلم النفس إلى العام 1879 فقط. وقد اختير هذا التاريخ لأنه يوافق تاريخ إنشاء أول معمل لعلم النفس على يد ولهلم فونت (1832- 1920)، والذي تم انشاؤه بجامعة ليبزغ بألمانيا. وعلى الرغم من أن باحثين آخرين قد سبقوا فونت في إجراء بعض الدراسات النفسية إلا أن فونت يعتبر أول من كشف النقاب عن نفسه كعالم نفسي، وأظهر براعته العلمية داخل العمل النفسي. كما أصدر فونت أيضاً – أول مجلة لعلم النفس وألف كتاباً في مجال علم النفس الفزيولوجي.

ذكرنا ما ذكرناه لأن هذا المقال لفرويد شكل منعطفاً في التحليل النفسي. وفي هذا المقال يصف مزيجاً مطرداً لبعض الخصائص التي وجدها عند نوع خاص من الناس. وهذه الخصائص أو الصفات هي النظام والبخل والعناد، وكل من هذه الألفاظ تشير في الواقع إلى مجموعة أو سلسلة من الصفات المتداخلة.

فالنظـام مـثلاً يشـمل النظافـة، والاسـتيثاق، والضـمير الحـي فيمـا يتعلـق بصـغائر الأمور. وقد علم فرويد من تاريخ طفولـة بعض النـاس الذين يملكون هذا المزيج المنظم من الصفات أنهم يستمدون لذة عرضية من التبرز ويظهرون سمات مختلفة بارزة فيما يتعلق بحركة الأمعاء بما فيه لعب غير لائق بالبراز. واستنتج من هذا أن أهميـة الشـبق الجنسـي فـي المنطقـة الاسـتية قد ازداد عنفاً فـي التركيـب الغريـزي المختص بمثل هؤلاء الناس.

وبما أن جميع هذه الصفات البارزة المختصة بحركة الأمعاء لا تدوم، استنتج فرويد أن المنطقـة الشرجية قد فقدت أهميتهـا الشـبقية خـلال عمليـة التطـور، وأن الصـفات الـثلاث، أي النظـام والبخـل والعنـاد هـي ذات علاقـة فعليـة باختفـاء الشـبق الاستي. وبدون أن ندخل في جميع التفاصيل سنعطي مثلاً أو اثنين عن الكيفيـة التـي ربـط بهـا فرويـد مختلـف المظـاهر. فقد اعتقد فرويد أن النظافـة والترتيـب والاستيثاق تكون (تركيبات ردود فعل) ضد الاهتمام بأشياء غير نظيفة ودخيلة ولا يجوز أن تكون علـى الجسم. والعنـاد متعلق بصورة مباشرة بالتحدي الطفولي فيمـا يختص بالتخلص من البراز. وبالمثيرات المؤلمة لجلد الإليتين – حسب تعبير فرويد – التـي تعمـل كوسيلة فـي تعليم الولـد، والمراد بهـا تحطـيم إرادتـه وجعلـه خاضـعاً مستسلماً.

وعلـى هـذا، فقد وضـع فرويد قاعدة لفهم الخلـق وهـي أن الصـفات الخلقيـة الدائمة تكون إما استمراراً غير متغير للدوافع الأصلية، أو تصعيداً لهـا أو تركيبـات ردود فعل ضدها.

وقد وسـع العلمـاء ومـن جملـتهم (ابراهـام) نظريـات فرويـد المختصـة بـالخلق الشرجي. وقد ميزوا اللذة الناتجـة عن عمل الإفراز عن اللذة الناتجـة عمـا يفـرز، وتشمل اللذة إرضاءً نفسياً.

إن مـا يفـرض علـى الولـد مـن ناحيـة التنظـيم والنظافـة يعـرض عشـقه لذاتـه (النرجسية) لامتحـان عسير. ومـع أن أكثريـة الأولاد يكيفـون أنفسـهم، إن عـاجلاً أو

آجلاً، حسب مطالب الأم، إلا أن بعضهم يبدون تمسكاً عنيداً بحقهم الفطري في تقرير المصير من هذه الناحية ويخفونه وراء ما يظهرونه من تأدب وطاعة كتعويض زائد عنه. وعندما ينجح الطفل في خلق فضيلة من الحاجة، عندها يكون قد اندمج بمطالب مربيه وأصبح فخوراً بهذا النجاح، وهكذا يعوض عن الأذى الأساسي الذي لحق عشقه لذاته، كما وأنه يبدل الشعور الفطري بإرضاء الذات بشعور بالرضا لكونه أصبح ولداً طيباً. إلا أن عشق الطفل لذاته قد يصاب بأضرار إذا ما أرغم على عادة قبل الأوان. فمثلاً إذا ما طولب بالنظافة في دور مبكر، تراه يكتسب تلك العادة عن طريق الخوف، وتبقى في نفسه مقاومة داخلية لها، ويستمر الليبيدو في تثبيت نرجسي منيع ومعه اضطراب دائم في المقدرة على الحب.

وفي اعتزاز الطفل بعملية التبرز لدليل على وجود شعور فطري بالقوة، ويبقى هذا الشعور لاشعورياً في البالغين. ويكون الأشخاص ذوو الخلق الشرجي حساسين جداً تجاه أي تعد على ما يعتبرونه ضمن نطاق نفوذهم، وينظرون إلى سؤالات وتحريات التحليل النفسي كتدخل لا يطاق في طريقهم في الحياة، ويتمسكون بعناد بطريقتهم في تدبير الأمور وينتظرون موافقة عليها من الآخرين.

وإذا لم ينظم الليبيدو تنظيماً جنسياً كاملاً، أو إذا كان هناك ارتداد إلى الطور السادي – الشرجي، لا يفقد الشخص مقدرته الإنتاجية بالمعنى التناسلي فحسب، بل يفقد أيضاً مقدرته الإنتاجية والابتكارية في نواح أخرى، إلا أن التأثيرات تبقى أعم وأشمل.

يرافق نشاط المرء الجنسي اتجاه شعوري إيجابي نحو هدف حب الشخص، وهذا الاتجاه يمتد فيشمل سلوكه نحو الأهداف الأخرى ويظهر في مقدرته على التكيف الاجتماعي، وعلى اخلاصه لبعض المصالح والأفكار ...إلخ. ويكون تكوين الخلق في الطور السادي – الشرجي في جميع هذه النواحي أدنى منه في الطور الجنسي. فالعنصر السادي، الذي هو في حياة الرجل العادي العاطفية في منتهى الأهمية، حالما يكون قد تحول تحولاً صحيحاً عن طريق التصعيد، يظهر بقوة خاصة في الخلق

ذي الوساوس المتسلطة (شرجي)، ولكنه يصبح عاجزاً تقريباً كنتيجة للتناقض الوجداني في حياة هؤلاء الناس الغريزية. فهو يحتوي أيضاً على ميول مخربة معادية للهدف، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يصبح مصعداً إلى طاقة حقيقية في سبيل الإخلاص لهدف حبه. ولا يجوز الخلط بين تركيبات ردود الفعل المتصفة بالليونة والكياسة التي تلاحظ في هذا النوع من الناس وبين الحب المحول الحقيقي. أما تلك الحالات التي يكون فيها حب الهدف وتنظيم الليبيدو الجنسي قد وصل إلى درجة معقولة فإنها أحسن من التي وضعناها أعلاه. وإذا ما اقترفت صفة التمادي في اللطف المذكورة أعلاه بحب جزئي من هذا النوع للهدف، عندها ينتج نوع نافع اجتماعياً ولكنه في نواحيه الأساسية، بالرغم من ذلك، أدنى من حب الهدف الكامل.

19- ممن الخوف؟

في الثامن من شهر حزيران سيبلغ ابني الثالثة من عمره.

ذكي جداً وفهيم لا يخاف من شيء.

وهذا ما يسرني أكثر مما يخيفني.

فالخوف يقضي على الرجولة ويمزقها.

من هنا لا أعرف كيف سيكون مصير ابني هياباً لا يخاف من شيء أم جباناً رعديداً يخاف مما يصادفه من أمور الحياة؟

سامية. ق

لا يعني الخوف أن الإنسان يكون جباناً رعديداً، فلولا الخوف لما أصبح الإنسان هياباً جريئاً، إنما الخوف المرضي هو الذي يقضي معالجة نفسية، وبما أن ابنك لا يشكو من (مشكلة) نفسية، وإنما تتوجسين خيفة من أن يصبح في المستقبل (خويفاً) – كما تقول العامة – لذا بعثت برسالتك.

على أي حال، لا حاجة للمثير المهيج العاطفي لأن يكون موقفاً من صميم الحياة، وإنما يمكن أن يكون المثير كله تلفظ أو عبارة تقال، بحيث تمثل بعض الأحوال أو الفعاليات. فعندما ينمو الطفل ويتعلم استعمال وفهم كلمات أكثر، تتخذ هذه الكلمات صفات عاطفية، فيصبح بعضها مخيفاً والبعض الآخر مفرحاً، ويبعث غيرها الاشمئزاز والكره.

تقتضي رغبة الطفل في الحصول على رضى الجماعة عنه أن يسلك إيجابياً أو سلبياً تجاه بعض الرموز. فكلما قام بعمل لا توافق عليه أمه، رآها تقطب جبينها وتقول (شيطان)، ويصبح لكلمة (شيطان) نفس الأهمية من السلوك الذي تحمله التقطيبة. وإذا صاحبت صفعة كلمة (شيطان)، أو إزالة لعبة مرغوب فيها، تصبح مثيراً أقوى في الأحوال المناسبة. ولهذا يخشى الأطفال أشياء غير موجودة مثل الأشباح عند سماع أحدهم يتحدث عنها.

ليست الكلمات، آخر المطاف، من الرموز المختلفة اللانهائية التي تستطيع أن تثير الاستجابة العاطفية. فالشعارات التي يحمل لواءها الطلاب قد تثير الحماس والعواطف الدافئة في نفوس أصحابها، بينما تثير الغضب وروح التنافس وحب السيطرة عليها من طلاب آخرين لا يعتنقونها. فهكذا وعن طريق عملية التعلم، تتخذ الرموز والأشياء صفات المثيرات التي تهيج الفرد.

وإذا كان العلم مهم دون شك، إلا أن دراسات عديدة قد دلت على ما للنضوج من أهمية بالغة في ممارسة نماذج الاستجابات العاطفية. إذ إن العواطف التي لم تكن واضحة في أيام الطفولة تظهر بعد وصول الطفل إلى السن المعينة. وقد ثبتت صحة هذه النظرية في جميع الأطفال الأصحاء. وكما في النماذج العاطفية، كذلك في صفوف أخرى من التطور، نرى أن النضوج ينمي التفرقة المتزايدة ويساعد على تركيز السلوك والإدراك. وقد أوضحت البحوث المتكررة ما للنضوج من أهمية عظمى في تنمية مشاعر الخوف عند الأطفال. ففي إحدى الدراسات تمت مراقبة واحد وستين طفلاً من أجل التحري عن سلوك البكاء فيهم، فوضعوا تحت سلسلة من التجارب في كل شهر للعام الأول من حياتهم. وبذل اهتمام خاص لمراقبة بكائهم من الخوف عند وضعهم في محيط غريب عليهم. وقد حدث هذا الصنف من سلوك الخوف كلما وضع الطفل في غرفة غريبة أو كلما تناوله شخص غريب عن أمه. وكان سلوك الخوف يختفي عندما يعتاد الطفل الغرفة أو الشخص الغريب. وأظهرت نتائج التحريات الشهرية المتتالية أن عويل الأطفال من المحيط الغريب لم يبدأ إلا بعد مرور الشهرين الأولين، ولكن عندما بلغ الأطفال الشهر العاشر من عمرهم، كان الربع من بكائهم كله يعزى إلى الخوف من الأماكن غير المألوفة لهم.

وهذا ما يفرض السؤال، لماذا إذن يكثر البكاء عند الخوف من الأماكن الغريبة كلما كبر الطفل؟ قد يكون أحد الإيضاحات لهذه الحالة هو أن الأطفال أصبحوا في موقف اشترطوا فيه على أن يخافوا الأوضاع الجديدة. إن هذا الإيضاح

ممكن لكنه غير محتمل الوقوع. إذ اتخذت الاحتياطات الضرورية في التجربة السابقة حتى لا يتضرر الأطفال وحتى لا يسمح لهم إشراك الأشخاص والأماكن الغريبة بالمخاوف الموجودة عندهم، لكننا نورد إيضاحاً آخر أكثر احتمالاً وهو أن زيادة العمر تزيد الذكاء وتمنح بالتالي إدراكاً أكثر وضوحاً عن كون الأماكن والأشخاص مألوفين أم غرباء. وتوضح التجارب، بوجه عام، دور النضوج الذي يلعبه مع التعلم غير المباشر في نمو السلوك العاطفي.

إضافة إلى ما تقدم، يمكننا أن نضيف برهاناً آخر وهو أن نلقي بثعبان كبير ونشيط أمام جماعة من الأطفال والراشدين، ونتيجة لملاحظة القائمين على هذه التجربة كانت النتيجة التالية: (في مجموعة مؤلفة من واحد وخمسين طفلاً وحوالي تسعين راشداً، لم يظهر الأطفال حتى عمر سنتين أي انفعال بالخوف، وأما الذين بعمر ثلاث أو ثلاث سنوات ونصف فقد أظهروا حذراً ملحوظاً، واهتم الأطفال بهذه السن بحركات الثعبان وكانوا هيابين في تقدمهم إلى لمسه. وحدث سلوك مشوب بالخوف الواضح مرات أكثر في الأطفال بعمر أربع سنوات. وكان جلياً وعميقاً في الراشدين أكثر منه في الأطفال، ولم يظهر أي أثر للفروق الجنسية على مخاوف الجميع). وهنا أيضاً يعكس السلوك نضوجاً عاماً في الذكاء كلما ازدادت الحساسية والتمييز. فعندما ينضج الطفل يكون لنفسه صوراً عن أحوال الحياة. فالطفل بعمر سنة واحدة لا يندهش بشكل خاص عندما يجد ثعباناً في علبة سوداء مثلاً، لأنه لا يكون لديه من الخبرة ما يكفي لكي يعرف أن هذا العمل غير عادي. وقد تثيره آلة كاتبة موجودة في هذا الصندوق الأسود مثلما أثاره الثعبان تماماً، لكن عندما يتعلم الطفل ما يتوقعه من كل حالة فإنه يميل لأن يخشى الأشياء غير المألوفة أو التي لا تحدث حسب توقعه لها. إذن يظهر أن انفعالاتنا العاطفية تتأثر بخبراتنا في بيئتنا وبمستوى نضوج مقدرة الذكاء والإدراك فينا.

20– سن القراءة

تحمل المرأة وتلد وتربي وهي تتطلع إلى الأبعد من ذلك في مستقبل ابنها أو ابنتها.

ابني طوى السنوات الثلاث من عمره وهو يخطو الآن في عامه الرابع.

من رأي والده أن ابننا صغير على القراءة فيما رأيي أن سنه مناسب لذلك؟

صباح. س

لا يتعلم الطفل شيئاً إلا إذا كان مستعداً لتعليمه، هذا إلى جانب ضرورة توفر أشياء أخرى منها بيئة الطفل، محصوله اللغوي، الجو المدرسي. ولا يكون الطفل مستعداً لتعلم القراءة إلا إذا بلغ حداً من النضج، والمقصود من ذلك نمو السمات الكامنة في الفرد بعكس التعلم الذي يحدث عن طريق نشاط الطفل نفسه أو بالتدريب الموجه. فمثلاً الطفل لا يتعلم المشي أو يتدرب عليه إلا إذا بلغ حداً من النضج، والتعلم يؤهله للنجاح في هذه العملية.

وهذا لا يعني الفصل بين النضج والتعلم كعاملين منفصلين، متميزين، لأنهما متداخلان إلى حد بعيد، وقد يسبب أحدهما تعويق الثاني أو مساعدته، بمعنى أنه لكي نساعد على نمو السمات الكامنة في الفرد لا بد أن نبذل جهدنا في التعليم والتدريب، وإذا لم تنضج هذه السمات فإن أي جهد يبذل سيكون غير مجد لأن النضج يعد المادة الأولية في التعلم، فالنمو الجسمي والعقلي لا بد أن يحدثا قبل بناء مهارات جديدة.

واقع الحال في أيامنا هذه هو أن كل الأطفال رغم الفوارق البيئية بينهم جسمياً وعقلياً، وحتى في مستوى الذكاء ونوعية البيئة الاجتماعية التي جاءوا منها، واختلافهم من حيث الخبرات التي اكتسبوها قبل أن يأتوا إلى المدرسة، رغم كل هذه الفوارق يطبق عليهم جميعاً منهج واحد وأسلوب تعليمي وتربوي واحد وكأنهم نسخة مكررة من أصل واحد، والنتيجة أن البيت يتهم المدرسة بالإهمال والفوضى،

والمدرسة تتهم البيت بعدم المتابعة والرعاية.

القراءة وظيفة عقلية يمكن أن تنمّى ويمكن أن تهمل. ويتوقف نمو هذه الوظيفة على توفر العناصر الغذائية، الوراثة، البيئة، النضج، والتعلم. ولعل هذا يبين خطورة نظرة بعض الآباء الذين ينزعجون جداً إذا لم تقم المدرسة بتعليم أبنائهم القراءة والكتابة خلال شهور قليلة من التحاقهم بالمدرسة.

ليس في الإمكان أن نفصل بين النمو العقلي والنمو اللغوي للطفل، فالنمو اللغوي أيضاً يخضع لعاملي النضج، والتعلم، وهذا يعني لغة لها خصائص تختلف عن لغة الكبار، وحتى عن لغة الكتب والتعليم، والدليل على ذلك أن كلمة بحر تعني بالنسبة لنا غير ما تعنيه بالنسبة له، إذ إنه يعتبر أي تجمع للماء هو بحر، وفي السادسة يطلق على الترعة أو المستنقع كلمة بحر. أيضاً كلمة فرح تعني بالنسبة لنا إما حفلة عرس أو حالة نفسية خاصة لكنها بالنسبة له تعني فقط حفلة عرس. إذن هناك اختلافات ويجب على كل من يتعامل مع الطفل أو يكتب له أن يلم بها ويضعها في اعتباره.

حتى نقرب الطفل من القراءة والمدرسة وحب المعلم يجب أن تكون المناهج والحياة المدرسية بكل ما فيها امتداداً للبيت. التعليم والتلقين يتمان من خلال نشاط تلقائي حر من ألعاب وتربية حيوانات الحديقة وتأملها. وعلى الأبوين أيضاً أن يدركا أنه لا يهم أن يتعلم الطفل في السنة الأولى مبادئ القراءة والكتابة، الأهم أن يتأقلم مع عالمه الجديد ويحبه، أن يتخلص من ارتباطه الشديد بأبويه وأن يشكل شخصيته الخاصة، أن يتعلم من خلال رفاقه معنى الأخذ والعطاء والتعاون والتخلي عن أنانيته، وأن يتشرب كل القيم التي تتيح له أن يكون نواة لإنسان جديد بناء.

وهذا لن يحدث إلا إذا جعلنا عالم المدرسة رحباً منطلقاً يتيح للطفل أن يعبر فيه عن نفسه بحرية بعيداً عن الأوامر والنواحي التي لا معنى لها، والاهتمام باختيار نوعية من يقومون بتعليمه، وإلزامهم بدورات تدريبية من وقت لآخر، ووضع وسائل علمية ونفسية متخصصة لمعالجة المتخلفين في القراءة والكتابة منذ السنة

الأولى.

وينبغي عن طريق الإعلام والمدرسة نفسها توعية الأبوين بهدف ضمان حد أدنى من الأخطاء التربوية والتناقضات بين البيت والمدرسة والتي عادة ما يكون الطفل نفسه ضحيتها الأولى.

ويرى أدلر أن دخول الطفل المدرسة نوع من المواقف الجديدة التي يختبر فيها أسلوب حياة الفرد ومبلغ استعداده لاستقبال ما تواتيه به الحياة من جديد، فمن الخير لو أننا أردنا أن نحسن توجيهه في مختلف مراحل الدراسة، بل في حياته العاملة كلها أن نبكر بتقييد ما يبدر منه منذ نعومة أظفاره في سجل تقوم بتحريره روضة الأطفال والمدرسة الابتدائية تبعاً لما يصدر عن الصغير من ميول أو نقائص، وحبذا لو قامت الأسرة بما يجب عليها في هذه الناحية.

كما يرى أدلر أن الانتباه للدرس يعتمد إلى حد كبير على شغف الطفل بمعلمه، إذ إنه من فن المعلم أن يجتذب انتباه التلميذ وأن يعرف إن كان حاضر الذهن أو غائبه. ومع هذا فهناك فئة من الصغار تأتي إلى المدرسة وقد تركت أذهانها خارج أسوارها، تلك هي الفئة المدللة، لن ينفع معها نقد أو تأنيب إلا أن يزيدها نفوراً من التعليم ويبعث في نفوس أفرادها اليأس من القدرة عليه والتشاؤم من الحياة جميعها.

21- الطفل وحريته في اللعب

كثيراً ما انبه زوجتي إلى سوء معاملتها لطفلتنا حيث تعنفها أو تضربها على يديها إذا ما مست غرضاً من أغراض البيت الثمينة، أو صعدت الكرسي لتجلس فوق الطاولة.

أنا أقول لها يجب أن تعطي للطفل حريته في عبثه بالأشياء فيما هي ترد عليّ قائلة أن ذلك يخرب من نفسية ابنتنا ويجعلها (فوضوية) لا تقدر للأشياء أثمانها؟

عدنان. ت

يذهب علماء النفس إلى أن التربية الأكثر ملاءمة لمتطلبات الطفل هي تربية لا تتجاهل الدور الذي يستطيع الطفل الاضطلاع به، ولا تعتبر الطفل (عاجزاً) عن استنباط ما يبتغيه. فلا يحق للكبار أن يرغموا الطفل على ما يتوخونه هم منه، إنما عليهم الفسح في المجال أمام الطفل ليتخذ مبادراته ويكتشف بنفسه ما يثير اهتمامه ولكن يجب السهر لكي لا تكون هذه المبادرات خطرة بالنسبة إليه.

إذا كانت الأم لا تسمح لطفلتها بتسلق الطاولات والكراسي في المنزل، متذرعة بخوفها من أن تصاب بأذى، فهي تمنع الطفلة عن اكتساب الرشاقة وتدفعها إلى الجمود. الطفلة التي تمنع من أن تلمس ما تشاء، تصبح خرقاء جسدياً. ليس لأنها غير حاذقة ذهنياً. بل قد تصير حاذقة إنما لا جسد لها. وهذا ما يؤدي إلى اضطرابات نفسية لدى الأطفال، كالعصاب النفسي مثلاً، وسببه عدم تفهم الكبار لكون الصغار يبحثون في الحركة عن أنفسهم. مع العلم أن بحث الإنسان عن ذاته في الصغر ترافقه رغبة التشبه بالراشدين. ولكن ليس للراشد أن يرغب في أن يتمثل به الإنسان.

فمثلاً نحن نجد أن المدرسة تعتمد إرضاء الراشد الذي يقترح الأسئلة والأجوبة في آن معاً، أي الأجوبة التي يعرفها المعلم، لا غيرها. بينما الأفضل أن يطرح

الطفل الأسئلة ويجد لها الأجوبة الملائمة بنفسه.

إنهم يحشون الطفل بالمعلومات حشواً، ليس أكثر. ففي البيت يمنع من الحركة، وفي المدرسة، كما في البيت، لا تتيح له أن يستنبط بنفسه الجواب الذي يشبع فضوله. مع الأسف! نلقنه ما يجب أن يعرفه وليس ما يود معرفته. في حين أن ما يحث الطفل على التعلم هو متعة العثور على الجواب، نجد أن ما يحفز الأطفال حالياً هو إرضاء الراشد، وهذا الموقف من الراشد هو موقف انحرافي.

لذا دعي طفلتك تعبث ما شاء لها دون أن تضعي أمامها الأشياء الثمينة، أشعريها بحرية حركتها، لا تلزميها بالموانع والنواهي، الطفل يريد أن يتعلم ولو على طريقته، فلا تمنعي ذلك...

فإذا ثارت طفلتك وقلبت المقعد قولي لها: (ما أسوأ أن وقع المقعد! هل أصبت بسوء؟ يا سلام ما أشد ما أثار من جلبة وضوضاء!) فيسقط في يد ابنتك، ولا يحتمل أن يدفعها عنادها وكبرياؤها إلى تصحيح خطأك في فهم ما بدر منها، فتقلع عن فعلها مستيئسة من جدواها.

مثل هذه الحيل لعلاج نزوات الصغار لا تضمن صلاحيتها إلا مع حسن فهم المعلم أو الوالد أو الوالدة للسيكولوجية الفردية، وعلى حضور بدهيته ورحابة صدره وبعده عن الناس على أي فعل يصدر عن الطفل بل أخذه بالرفق الممزوج بالفكاهة والمرح. ويرى علماء النفس، وخاصة منهم أدلر، وجوب فهم النظام، وخاصة في المدرسة على منوال جديد تتحطم معه تقاليد النظام الحربي، فينبعث الأطفال إلى فهم النظام والإيمان به إيماناً تلقائياً ويعملون على إقامته راغبين فيه، تدفعهم إليه روح التعاون والتعاضد، ذلك لأن التلميذ إذا لم يمل المدرسة لن يعبث بسير العمل فيها. ولم نعد نحن في حاجة إلى فرض الطاعة والصمت عليه فرضاً.

هذا إلى أنهم يرون أن أشد الأذى الذي يصدر عن الأشكال الخاطئة من التربية لا ينشأ عن المبادئ التي تقوم عليها، بل عن أساليب الحياة التي ينتهجها الآباء والمربون وعن سوء تكوينهم النفسي، وما يملأ نفوسهم من ألوان الأخطاء

والغايات الموصوفة التي يتوقون إلى تحقيقها من سلوكهم. فلا تكون علاقتهم بالصغار سوى جانب من نشاطهم في المجتمع كله. فإذا كان المرء قد قاسى في طفولته من قسوة الأهل والناس عوّض عن ذلك بفرض سطوته على النشء وحاول أن يبرر سلوكه تبريراً لاشعورياً، بما يؤمن به من أصول التربية، فهو يقيم الحجة، في نفاق بيّن واضح، على أن من المحال تنشئة الصغار دون عقوبة صارمة وحزم تام شديد. وهو بذلك لا يبعثهم على حب العمل والإيمان بالنظام وعمل الخير بعثاً تلقائياً، بل يفرضه عليهم فرضاً، ينفرهم منه ويستثير فيهم الحفيظة والثورة عليه. كذلك الأمر يفسد في من دللوا من قبل إذا اعوجت حياتهم لأي علة من العلل.

إن الكثير من الناس لا يقدّرون جدوى التربية حق قدرها. بل إن بين المربين أنفسهم كثيرين ممن لا يؤمنون بما لها من نفع وأثر، فهم إن كانوا يسلمون أن طرائقها يمكن أن تصلح جانباً من النقائص والأخطاء التي يقال إنها فطرية في الطفل. إلا أنهم ينكرون أن التربية يمكن أن تقوم بدور كبير في توجيه الصغار، ويؤيدون رأيهم بالقول بأن فردية الطفل تنمو وتتحدد منذ وقت مبكر وأنها تقاوم التربية مقاومة تبلغ من الشدة حداً لا يمكن أن تجدي معه طرائق العقاب والثواب المألوفة فتيلاً.

22- أسر مفككة

زوجي خريج سجون!

فما إن يخرج من السجن حتى يعاود بعد فترة أعمال الاحتيال والسرقة، ويكون ذلك جواز سفر جديد لدخوله إلى السجن.

وبين خروجه ودخوله للسجن أثمرت علاقتنا الزوجية ولدين.

أعمار ولديّ الثلاث والخمس سنوات.

يتذكران والدهما.. كما يتذكر واحدنا أحلامه.

فالفترة التي مكث بها معهما كانت متقطعة.

ما أريد قوله في مأساتي (وأنا العاجزة عن الطلاق من زوجي) هو: ما تأثير هذه المشكلة على نفسية ولديّ؟

سعدى. ب

نسب إلى ج. ب. واطسون مؤسس المدرسة السلوكية قوله إنه إذا قدم له أي طفل بشري، فباستطاعته إذا تحكم في بيئته ومحيطه، أن يسيطر على النمو العقلي لذلك الطفل ويجعل منه موسيقاراً أو عالماً .. أو أي شيء آخر!

وهذا بدون شك رأي متطرف عن خطورة المحيط في تقرير السلوك. لكن الفكرة الأساسية في هذه الناحية لا تزال قائمة. والحقيقة أن مؤثرات وعوامل السلوك لا تزال غامضة ولا تزال تغري الكثير من علماء النفس والأمراض العقلية وعلماء الوراثة لدراستها وتتبعها.

من الواضح الآن أن جرائم الأحداث واضطرابات السيكوباثية وكثير من الأمراض العقلية تتعلق بظروف غير ملائمة في حياة ذلك الإنسان الأولي. فقد درس (دوغلاس) 2300 صبي ولدوا في آذار 1946 وتتبعهم لأكثر من عشرين سنة، فوجد أن 288 منهم قد أصبحوا جانحين، وعند مقارنتهم بشباب غير جانحين وجد أن نسبة كبيرة من الجانحين قد ترعرعوا في بيوتات محطمة وأسر مفككة

بالطلاق والافتراق.

بالنسبة لك يبقى الأمر أفضل من غيرك، حيث إنك تعيشين مع ولديك، وفي هذا الكثير مما يرغبه المحلل النفساني. فالافتراق المبكر عن الأم أو إبعاد الطفل إلى محيط غير مألوف لديه عامل آخر مهم في سلوك الجنوح. أما إذا بقي الطفل في بيئة مألوفة لديه فإن الافتراق عن الأم أو موت أحد الأبوين ليس له تأثير معاكس عليه. كذلك يكثر بين الجانحين إهمال وانحطاط مستوى عناية الأم، وكذلك صنف التحصيل الدراسي الذي له علاقة باهتمام الوالدين أيضاً. أما أخطر عامل مساعد للسلوك الإجرامي فهو وجود العلاقات السيئة بين الوالدين، بينما الفقر والبطالة وازدحام السكن ليس لها نفس التأثير الواضح.

لقد أعار (جان بول) أهمية خاصة للروابط العاطفية بين الأبناء والآباء بصورة أعمق. ويبدو أن السلوك الشاذ والاكتئاب يسبقهما اضطراب مبكر في تلك الروابط العاطفية. فكأن عدم الاكتراث أو البرود العاطفي لبعض السايكوباثيين يماثل الانفصام العاطفي الذي يبديه طفل عمره ثلاث سنوات إذا ما أعيد إلى أمه من دار للحضانة بعد مكوثه فيها أسبوعين أو ثلاثة.

في أوضاع مثل ولديك، سترين مستقبلاً أن الطفل المحروم، حين يحاول التخلص من حالة فقدان الاتزان العاطفي، لا يكتشف في لاوعيه أكثر من إمكانيتين: الانحراف أو العصابية، بحسب ما تنقاد نفسه إلى الميول أو إلى قوى الكبت فيها.

الولد بحاجة إلى أن يُحِب ويُحَب، إلى الشعور بالأمان، وكذلك بأن ينمو ويفرض نفسه. وهذه الحاجات تترجم إلى ألوان من التعبير النفسي، كثيرة التنوع، لكن جذورها العميقة تظل جسدية بيولوجية.

والشيء الأكيد أن أكثر من نصف الأحداث المنحرفين قد عانوا من قصور عاطفي، وهو نتيجة، إما لوفاة الوالدين أو أحدهما، وإما لافتراقهما، وإما لقلة اكتراثهما أو برودتهما، أو أنانيتهما، أو عجزهما عن أن يحبا. وفي حالات أخرى

يعوم الطفل في مناخ من العطف الفوضوي حيث تعقب مشاهد من الضجيج تعبير الأم عن حبها لطفلها، وحيث لا يكون هناك أبداً تناغم في التعبير ولا نعومة. وفي مواقف أخرى يشكو الطفل بقساوة من عجزه عن التمثل بوالديه اللذين يتوجب أن يكونا له المثالين الأولين، كما يتوجب أن يسمو نحوهما من خلال حرارة الحب والاعجاب اللذين لا ظلال عليهما. وهو في بعض الحالات يتواتره منزلان: منزل أبيه ومنزل أمه، فقد يكون والداه مطلقين ومتزوجين من جديد، أو عائلتان: عائلة بالدم وعائلة بالرضاعة. ويصبح في تلك الحالات ألعوبة النزاعات العنيفة.

علينا أن نشير أخيراً إلى أن عزل مقومات السلوك البشري إلى محيطية ووراثية مهمة ليست هينة. وكما أوضح الدكتور كارتر أن كثيراً من علماء البيئة يصرون على أن الوراثة لا تأثير يذكر لها على السلوك. لكن علماء الوراثة لا ينكرون عامل المحيط قطعاً. ويبدو أن الأدلة الوراثية تدعو من جديد مؤيدي البيئة والمحيط إلى إعادة النظر وإلى دراسة أكثر لعالم السلوك.

23- التجارب النفسية

زوجي طبيب أسنان يهوى علم النفس.

يجري تجاربه (النفسية) على طفلتنا أحياناً.

من تجاربه..

أنه كان يضع الطعام على طاولة في غرفة مظلمة في بيتنا، ثم يدعو طفلتنا للطعام مدعياً أن الكهرباء مقطوعة لسبب ما ويذهب إلى غرفة أخرى (دون أن يشعرها بذلك) ليرى مدى خوفها أو اعتيادها على ذلك.

وحين كنت أعلم بما كان يجريه على ابنتنا من (تجارب) كان يقول لي إنه يقوي من إرادة ابنتنا وذلك بإزالة الخوف منها.

عائدة. ج

أكبر خطأ نرتكبه حين (نعد) أولادنا أغبياء فنجري تجاربنا كأنهم (لا يفقهون شيئاً). أما إذا تم الأمر عفوياً، فإن الأمر يكون مغايراً لذلك.

إن التنبيه الاختياري للعضلات ليس إلا حالة خاصة من حالات الإرادة، وإن التأثير المباشر لكل إرادة هو بقاء الفكرة في مركز الشعور، لأننا حين نريد الاتيان بحركة لا نفعل شيئاً أكثر من تعزيز فكرتها وتقويتها حتى تؤدي نتيجتها، ولهذا يصح أن نجاري العلامة (جيمس) في قوله: إن عمل الإرادة ما هو إلا حصر الاهتمام في مسألة صعبة والتشبث بها أمام العقل، وإن المجهود الإرادي هو الظاهرة الجوهرية للإرادة، أما في الحالات التي يكون فيها الشيء الذي نوجه إليه اهتمامنا بمجهودنا الإرادي حركة جثمانية فإن الحركة تتبع الفكرة مباشرة للصلة الخفية القائمة بينهما والتي لا نعرف عنها شيئاً أكثر من الواقع الذي نشاهده. ويذهب العلامة (فند) المذهب ذاته فيقول: إن الإرادة هي مظهر من مظاهر الإدراك الكلي، وهو في ذاته وجوهره منع سائر الأفكار الأخرى عدا الفكرة الماثلة أمام مركز الشعور.

ونستخلص مما يقوله هذان العالمان الكبيران أن الإرادة في ذاتها عملية سلبية، أي منع الأفكار الأخرى من الظهور أمام مركز العلامة الشعور، ولكن لم يقل لنا أحد منهما كيف يحدث المنع؟ ومن أين تنبعث قوته؟ وما هي الظروف المحيطة به؟ ولعل العلامة (جيمس) هو الذي عنى هذه الناحية بقوله: إن هذه هي النقطة التي تصطدم عندها كل محاولة في سبيل الاهتداء إلى باعث العملية الإرادية بجدار سميك من السر وستار كثيف من الألغاز والغموض، لأن المنع منبعث من إقليم لا تصل إليه مداركنا أو يحدث بلا تمهيد ولا مقدمات.

إن عملية الإرادة هي في ذاتها عملية الرغبة من حيث احتجاز الفكرة منها أو الغاية أمام مركز الشعور، بحيث تعمل بقوة على تحقيق غايتها، بتغلبها على سائر الأفكار والنزاعات الأخرى. أي إن نفس الإنسان تنحاز إلى جانب الدافع الذي يراد أن يتغلب على ما عداه.

كما أن نمو هذه العاطفة يأتي تدريجياً فلا يتيسر إذن تعيين الحد الفاصل بين النزاعات المركبة الإرادية وبين غير الإرادية منها، وبين الرغبة البسيطة الشاعرة بغايتها، ولكنها ليست مركبة بامتزاج الشعور بالذات معها. وبين المجهود الأدبي الذي يهيئ الغلبة والفوز للدافع التالي، وهو الإرادة بأتم معانيها، عدة نزعات مركبة تقوم فيها عاطفة الإحساس بالذات بأدوار متفاوتة في الخطر وبالغ الأثر. ويحسن هنا أن نورد طائفة من الحالات التي تمثل الأدوار المهمة في الانتقال من الدوافع البسيطة إلى الإرادة بكل معانيها.

وسنورد مجموعة منها:

1. حالة طفل يرغب في طعام موضوع في غرفة مظلمة وقد تنازعته الرغبة في الطعام والخوف من الظلام، فإذا تغلب أحد الدافعين على الآخر وتبعه التنفيذ، فليست هذه بحالة إرادة.

2. لنفرض أن هذا الطفل عوقب مرة لغلبة الخوف عليه وأن ذكرى تلك العقوبة وكراهيته لها ساعدتا رغبته في الطعام على التغلب على الخوف، فهل هذه

حالة من حالات الإرادة؟ والجواب في هذه الحالة التي تعد من أبسط مظاهر السلوك هو أنها ليست كذلك.

3. ولكن إذا كان الطفل قد أدرك حداً من الشعور بالذات فقال لنفسه: لست أريد أن أعاقب، ولهذا سأذهب فآخذ الطعام. ففي هذه الحالة يصح لنا أن نقول إن الفعل إرادة في مرتبة دنيا.

4. إذا فرضنا أنه راح يقول: سأذهب وآتي بالطعام، لأن أمي ستعنفني إذا لم أفعل، أو ...

5. سآتي بالطعام، لأن الصبيان الآخرين سيقولون عني إنني جبان إذا لم أفعل.

6. أو لعله قائل: سآتي بالطعام، لأنه ينبغي للإنسان أن يكون قادراً على إطراح هذا الخوف السخيف، وسأخجل وأستحي إذا عرف أحد ما أنني خفت من الدخول.

ففي هذه الحالات كلها – عدا الأولى – يبدو أن تأثير البيئة الاجتماعية هو العامل المؤدي إلى غلبة أحد الدافعين على الآخر، بينما يؤخذ من الحالتين الأخيرتين أن هناك إحساساً بالذات متعاوناً مع دافع آخر، وأنهما لذلك من حالات الإرادة.

ويمكن أن نمثل السلوك الغريزي عند الأطفال بالمثال التالي:

لنفرض أن طفلاً شعر بالجوع، فوجد بالمصادفة طعاماً في دولاب مفتوح فأكله.

فماذا يصنع في المرة التالية إذا عضه الجوع، وهو قريب من هذا الدولاب؟

والجواب أنه سيدور في الحال بعينه إليه، ويتناول منه الطعام الذي يسد جوعه.

وهذا هو وجه الانتفاع بالتجربة الذي تمتاز به الأنواع العليا من الحيوانات.

ولنفرض أيضاً أن هذا الطفل شعر بالجوع، وهو في ناحية أخرى من البيت، فماذا يكون منه؟

إن فكرة الدولاب والطعام المحفوظ فيه لا تلبث أن تتمثل لشعوره، فينطلق ويكرر غارته الموفقة عليه.

ولنفرض أيضاً أنه في مرة أخرى وجد عند وصوله إلى الدولاب أنه مقفل بالخطاف وأن الخطاف دون منال يده.

فهو في هذه الحالة يذهب يلتمس مسند (قدم) ليصعد عليه. ولكنه مع ذلك لا يبلغ الخطاف بكفه.

ولعل هذا الحائل دون رغبته سيثير غضبه ويدفع به إلى ضرب الدولاب بعنف على أمل أن يلين له، ولا يزال يضربه هكذا حتى يسلمه الغضب العاجز إلى اليأس، فتتراخى جهوده ويأخذ في البكاء.

أما إذا كان طفلاً ذكياً فقد ينثني عن مسند القدم، ويلتمس كرسياً، ولا يزال به يجره حتى يضعه إزاء الدولاب وينهض فوقه فيبلغ الخطاف، ويظفر بالطعام المنشود.

وليس من شك في أن كل هذه الحركات المتتابعة إنما تسلسلت على هذا النحو من دافع واحد. وهو غريزة الجوع، وإن لهفة الطفل على التماس الوسائل التي يستعين بها على بلوغ الغاية لم تكن أقل من لهفته على الطعام، وهي الغاية التي ترضي دافعه وتشبع غريزته، أي إن الجوع جعل النشاط يتجه إلى الاهتمام بالوسائل اللازمة لإرضائه، كما جعله يتجه نحو الطعام ذاته، وحين تتكرر هذه الحادثة لا يتردد الطفل في التقدم إلى الكرسي مباشرة، ويغفل مسند القدم، لأن لذة النجاح مكنت هذا النزوع من نفسه، وألم الإخفاق قضى فيها على فكرة الالتجاء إلى المسند الذي لم يُجْدِهِ نفعاً في محاولته.

دعنا عزيزي القارئ وعزيزتي صاحبة المشكلة نتصور محاولة أخرى، فنفرض أن الطفل يهم بتناول الطعام الذي يشتهيه بوغت بكبير في البيت فكشف فعلته وعاقبه عقاباً شديداً بأن حبسه في غرفة مظلمة فأحس فيها الخوف ووقعه الأليم.

فإذا تكرر الموقف بعد ذلك ودفع به الجوع إلى التماس الطعام وبينما هو يهم

بتناوله، إذا به يسمع من بعيد صوت ذلك الكبير الذي عاقبه، ففي هذه الحالة لا يلبث الصوت أن يحضر في عقله صورة ذلك الكبير، وتعود الصورة فتهيج في نفسه الخوف الذي انتابه من العقاب، وعندئذ يقوم النضال في خاطره بين دافع الجوع ودافع الهرب، وقد لا يني الدافع الثاني أن يقوى ويتغلب على الدافع الأول فلا يتردد في الفرار والاختباء. ولكن قد لا يلبث الخوف أن يتلاشى، فتعاوده الرغبة في الطعام المشتهى ويظهر الدافع الأصلي فيتقدم إلى تحقيق غايته.

نستخلص مما ذكرناه أن زوجك نزوع إلى اعتبار ابنته قطعة منه، وصورة مصغرة له، لعلمه أن العالم يعد محاسنه ومساوئه إلى حد ما صوراً منه ويحسب مردها إليه، فلا تني عاطفة الشعور بالذات أو احترامه لنفسه أن تشمل الطفلة وتمتد إليها، فكل ما يستحق الإعجاب فيها يرضيه ويشبع اعتزازه الذاتي، ويصبح ما يعيبها يعيبه وما يكسبها الحمد يكسبه، وكل تجربة تنجح بها فوز له، وهذا الاندماج بين الغيرية والأنانية في العاطفة الأبوية هو الذي يجعل لها هذا الأثر البالغ في طبائعنا ويحيلها إلى عاطفة وإعجاب نستمد منها أشد لذاتنا وأحد آلامنا.

24- المشاركة الوجدانية

نحن أسرة صغيرة.

أنا وزوجتي وابني البالغ من العمر ثلاث سنوات.

كيفما تحرك ابننا نتابع حركته ونبتسم لبسمته ونضحك لأعماله.

لكن إذا مشى في الحديقة لوحده يبقى طويلاً يصرخ عليّ أو على أمه حتى نأتي ونراه.

وكم بقي ينادي لخمس دقائق أو أكثر كي نشاهده.

فهل هذه المطالبة دليل عناد أم أن ذلك شيء طبيعي بالنسبة لعمره؟

غسان. ب

غالباً ما نشهد فريقاً كبيراً من الأطفال أوتوا هذا النزوع إلى حد ظاهر، فلا يفتأون يطلبون إلى الكبار مقاسمتهم في شعورهم، ويروحون يصرخون قائلين: تعالوا انظروا، إذا هم مشوا في بستان أو رتعوا في حقل وأخذت أعينهم منه شيء يسرهم، أو يثير فضولهم. وإذا اتفق أن كان رفيقهم في النزهة جامداً أو متململاً من كثرة مطالبتهم له بمشاركتهم في شعورهم فلا يلبثون أن يشعروا بألم أو غضب، أو يسترسلوا في بكاء ونحيب.

ومع ذلك، نرى طفلاً آخر نشأ في ظروف مماثلة ولكن هذه النزعة فيه ضعيفة، يقنع بالتجول في البستان وملاحظة كل ما يقع تحت بصره، والوقوف عند كل ما يسترعي اهتمامه، دون حاجة إلى مشاركة أحد له في شعوره أو مناداة أنسان إلى مقاسمته. ومن هنا يصح لنا أن نعد المشاركة الوجدانية ضرباً من الأنانية أو مظهراً من مظاهرها، لأنها التماس لإشباع رغباتنا، وفي الناس قوم أنانيون يغلب هذا النزوع عليهم، حتى ليزهقوا أزواجهم أو المحيطين بهم من فرط إلحاحهم عليهم في مشاركتهم انفعالاتهم غير آبهين بما في ذلك من ضغط عليهم، ومراعين أمزجة أصحابهم ورفاقهم. وهؤلاء الناس يطلبون من غيرهم المشاركة ولا يعطونها،

ويسـألونها ولا يتقـدمون بهـا، أو قلمـا يفعلـون. ولهـذا لا يصـح أن نعـد المشـاركة الوجدانيـة مبعـث الغيريـة وإنكـار الـذات، ولكـن يصـح مـع ذلـك أن نعـدها مـن أهـم العوامل في تكوينها، وتنمية التعاون الاجتماعي على تحقيق أشرف المقاصد وأنبل الغايات.

لقد ورث الإنسان هذه الغرائز، ومنها نشأت المشاركة الوجدانية، لذلك فإن الدافع الأعمى الذي يدفع الحيوان النازع نحو الاجتماع إلى التماس أشباهه كلما استثيرت غرائزه الأخرى، هو سر الرغبة التي تنازعنا إلى رؤية الناس محيطين بنا مشتركين معنا في انفعالاتنا، وقد تتجه أحياناً إلى التماس الاستجابة عند فرد منهم إذا تحققنا من إثارتها فيهم، فلا يلبث أثرها أن يتم ويستكمل ويزداد قوة عما كان يصح أن يكون إذا بقي عاماً دون تخصيص. ودليلنا على أن الأصل في المشاركة الوجدانية راجع إلى غريزة قديمة متأصلة هو تلك الفروق الكبيرة بيننا من ناحيتها على الرغم من تشابه الظروف المحيطة بحياتنا. فمنا قوم يكادون يكونون أخلياء مـن المشـاركة الفعليـة، إذ يكتفـون بـأن يعجبـوا أو يغضـبوا أو يحنـوا أو يتـأثروا بالصنيع، ولا يجدون لذة كبيرة أو لا يجدون منها شيئاً من علمهم بأن غيرهم مشاركون لهم في هذه الأحاسيس، ولكن ليس معنى هذا حتماً أنهم عاجزون عن الشعور بالحنو أو الحب، فقد يكونون متفانين في الحنو على أهلهم وذويهم، قادرين على الظهور بأصدق الإخلاص وأبعد المواقف من الأنانية، ولكنهم بحكم الفطرة والطبع نزّاعون إلى الانفراد والعزلة، لأن الغريزة الاجتماعية فيهم ضعيفة على حد شاذ، فهم قانعون بدفن أحزانهم وأفراحهم في نفوسهم.

وفي الجانب الآخر، هناك قوم قويت فيهم هذه الدوافع فلا يجدون لذة في الوحدة ولا يرون في العزلة من السرور والابتهاج ما يرونه في الندوة والجماعة والرفقة، وقد يكون أحدهم مثلاً معجباً أشد الإعجاب بجمال الطبيعة ولكنه إذا سار يومـاً وحـده وسـط أجمـل المشـاهد الطبيعيـة، اختلطـت بلذتـه النفسـية رغبـة أليمـة غامضة قد لا يدرك في ذاته سرها ولا يتبين سببها، ولكن الواقع أن لذته لا تستكمل

فـي العزلـة، ولا تسـتتم بـالانفراد، وقـد يسـتفيض هـذا الـنقص بتـدوين ملاحظـات أو بالإسراع إلـى البيـت لكـي يصـف مـا شـاهده لـبعض أهلـه أو صـحابته ليشـركهم فـي إحساسه.

كما أن هناك فريق يشيع هذا الإحساس عندهم في كل شيء، ويتأثر وشيكاً، ويتجسم قوياً بالغاً، فلا يهدأ لهم بال حتى يجعلوا من حولهم مشتركين معهم في مشاعرهم وحتى ليغضبوا أو يمتعضوا إذا شاهدوا في الجماعة أحداً لم يتأثر كما تأثر الآخرون، أو لبث جامداً لم يبد أي انفعال.

وممـا لا شـك فيـه أن الرجـل الـذي لـم يـؤت هـذه النزعـة مطلقـاً أو كانـت مخصصة لا معممة، أو موجهة إلى شخص بذاته أو أشخاص بأعيانهم، لا يمكن أن يصبح زعيماً أو ملهماً الناس أو حافزاً الجماعة إلى الإصلاح، أو قائداً لها في الوطنية أو سواها من الأغراض النبيلة التي تربط الناس بعضهم ببعض وتؤلف بين القلوب والأرواح.

ولا معـدى فـي دراسـة علـم الـنفس الاجتمـاعي مـن عـرض هـذه الصـور مـن العواطف، لصلتها الوثقى بحياة الفرد في المجتمع، بل يصح لنا أن نقول إنها قواعد هذا العلم وأسسه، لأن المفروض فيه أن يبين كيف تتشكل حياة الجماعة تبعاً لاستعدادات الفرد وخواصه ونزعاته، وكيف تؤثر الجماعة بدورها في تطور الفرد والتأثير في حياته.

25- التقليد

أمس احتفلنا بعيد ابننا الرابع.

ما أجملها من سهرة قضيناها ونحن نضحك مما كان يمثله لنا ابننا.

فقد كان يقلد جده في نومه وصوت (شخيره) المتصاعد.

كما قلد لنا عمته وهي تتلو مواعظها عليه.

وحاول أن يوهمنا أنه سيارة تسير بسرعة بعد أن أقلعت.

هذه المظاهر هل تستمر معه أم أنها مرحلة من عمره؟

نادرة. ب

بالطبع هي مرحلة يجتازها الولد، لأنه كلما زاد إدراك الطفل لشخصيته، كلما وجد نفسه مضطراً لمجابهة الآخرين – راشدين ومعاصرين – وتجربة مقدرته عليهم. إنه ينمي من جهة مواقف المعارضة والمنافسة، لكنه يبقى من جهة ثانية خاضعاً لمحيطه فيما يختص بالصورة التي يكوّنها عن نفسه، واتجاهات مصالحه وتصرفاته. وكما يقول فالون: (لا يستطيع الطفل أن يكون راضياً عن نفسه، إلا إذا كان لديه الشعور بإمكان إرضاء الآخرين. كما لا يمكنه إبداء الإعجاب بنفسه إلا إذا آمن بأن الآخرين معجبون به). ففي سن الرابعة، يبدي اهتماماً قوياً بنتائج تصرفاته. تلك هي سن الهزل، حيث يكثر من حركات الوجه، كالملاحظة، والابتسامة أو الاستياء، مبتغياً من كل ذلك، لفت نظر الآخرين وإثارة اهتمامهم به.

بيد أن خبرته ضئيلة ومجال عمله ضيق. ولذلك فإنه يجد ملاذاً في مخيلته، وفي تقليد أدوار الراشدين. فنراه يقلد أثناء لعبه، شخصيات اجتماعية بارزة (فهو المكتشف، أو ربان الطائرة، أو السيارة نفسها) أو أشخاصاً يراهم يومياً (كالأب والأم والجد والعمة وأستاذ المدرسة والبائع الذي يجول الشوارع لبيع الخضر أو لشراء الأغراض المستعملة). من خلال الأدوار المتعددة التي يمثلها، والحركات الإيمائية العفوية التي يقوم بها، يدشن الطفل تدريبه الاجتماعي، ويتمرن على أن يحل جزئياً

محل الآخرين وأن يحترم بحرية مجموعة القوانين الموضوعة والمعمول بها.

وأكثر الفقهاء الذين توفقوا في إظهار أهمية هذه الأدوار في تقبل الأنظمة وبناء الشخصية الاجتماعية هما (ميد وبياجيه). فالأول وضع نظرية مبتكرة عن إدماج الفرد في المجتمع، بالرغم من التقائها في بعض الأحيان مع مخطط التحليل النفساني. وقد استنبط منها بعض المعلومات وأهم الأساليب النفسية الاجتماعية. يرى (ميد) كذلك، أن (الأنا) الإنساني، ينمو بفضل القدرة على اتخاذ وتفهم عدد كبير من المواقف، (فيصبح الطفل هدفاً له باتخاذه مواقف الآخرين بالنسبة إليه ضمن بيئة اجتماعية محددة). وتتخذ الحركات والأقوال معنى يسمح بتعدد تبادل الآراء مع الآخرين. ولا يعني الكلام مجرد التعبير عن الذات وإنما هو القدرة على التنبؤ ببعض أجوبة الغير، أو الحلول محلهم جزئياً. فعندما يسمع الطفل ما ينطق به، فإنه يتحرر من حالة ذاتية بحتة. وكلما تقدم في اكتساب ملكة الكلام والسيطرة عليها، وكلما كثر عدد محدثيه، فإنه يكوّن شخصيته، وينزع نحو الظهور أمام نفسه بمظهر شخص آخر يندمج فيه، على حد قول ميد. ويميز ميد بين (الأنا) وبين نظام المواقف المشتركة المندمجة، وكذلك بين الأجوبة المتلائمة مع المواقف الاجتماعية وبين الأنا، كمبدأ عفوي ومبتكر.

إن (الأنا) الاجتماعي يتم إعدادها أولاً ضمن نطاق اللعب، وذلك بفضل ليونة الموقف وتناوب الأدوار التي يتطلبها. فالحصول على الدور والشعور به، هما دليل القدرة الاجتماعية. وتتداخل في هذه الأساليب الكوادر الاجتماعية، كالقواعد، والنماذج، والتوقعات، دون أن تكون مقرونة بأي صفة قسرية، وإنما تلتقي مع المقدرة على القيام ببعض الأدوار، بحيث تبدو المراقبة والتنظيم الاجتماعي متلائمين مع التعديلات العضوية.

وفيما يخص (بياجيه)، فقد أثبت في كتب أصبحت كلاسيكية، دور اللعب التثقيفي في استيعاب القواعد الاجتماعية، خاصة في الألعاب المتضمنة تناوب الأدوار واستكمالها. وليس في الأمر تقليد من النوع السلبي ذي السياق الواحد،

والقاضي بتحديد نموذج واحد، وإنما وضع متداخل مع الآخرين، أو مع الذات إذا كانت الألعاب منفردة أو خيالية – مما يشكل تدريباً للعلاقات والقواعد الاجتماعية.

ومن نافلة القول، إن علم النفس الخاص بالأطفال، اهتم، إلى جانب علم النفس التحليلي، بوصف وتفسير نمو الاندماج في المجتمع. ويرى معظم الباحثين، أن هذا النمو يتم حسب تجزئة تدريجية، تبدأ بنوع من الاندماج في المجتمع الذي يشوبه الغموض، حتى يصل إلى مرحلة الشخصية التي تسمح للطفل من التمييز بين نفسه والآخرين.

إن التقليد كعامل كبير في تطور الفرد هو الوسيلة التي تتهيأ للطفل فتنقله من حياة الحيوان ودوافعه الغريزية إلى حياة الإرادة والتفكير وضبط النفس، وهذا هو الأثر ذاته الذي أحدثه في تطور البشرية عامة وترقية الجماعة.

وهناك اختلاف بين التركيب العقلي للإنسان عنه في الأنواع العليا من الحيوان، ووجه الفارق بينهما هو أن الإنسان أوتي قدرة أكبر على التعلم والانتفاع بالتجربة، واكتساب وسائل عدة لحل مختلف المسائل وعلاج شتى المواقف، والظاهر أن سر هذا التفوق هو في الغالب لتميزه بعقل كبير ينطوي على مجموعة من الأنسجة اللينة المرنة العصبية تتجاوز في مجموعها جملة الأجزاء الدقيقة فيه، ويتكوّن منها الشطر الأكبر من المخ ونطاقه، ولا بد من أن يكون هذا المخ الكبير والطاقة البالغة على الاقتباس والاكتساب التي أوتيها قد تطورا مع تطور الحياة الاجتماعية واللغة، وهي من أكبر العوامل التي تقدمت بالبشر إلى ربوة الحضارة، بل لعلهما تفاعلا وأثر كل منهما في الآخر، فقد نما المخ البشري واتسعت آفاق عمله باتساع نطاق الحضارة، كما نمت الحضارة من أثر ازدياد مقدرة المخ على العمل والإنتاج.

إن مخ وطاقة الإنسان لا نفع منهما ولا فائدة لفرد يعيش بمعزل عن أية جماعة بشرية، بل يظلان لديه كامنين لقلة عمله وامتناع الوسائل أمامه لاكتساب الاعتقادات والعادات أو مجاراة الغير فيها، وفي حين نرى أن الحيوانات ترتقي إلى

الطبقات العليا من الحياة العقلية بفضل التطور والتحسين الذي طرأ على تركيبها العقلي في أجزائه الدقيقة ونواحيه الصميمة، رأينا الإنسان منذ أصبح إنساناً قد تقدم في الغالب بفضل ازدياد معارفه ونمو معتقداته ونشوء العادات التي تتألف بها تقاليد كل جماعة من الجماعات، وكان تفوّق الجماعة البشرية في التقاليد والعادات والتطور العقلي هو سر تفوّق الإنسان المتحضر على الناس البدائيين الغابرين.

هذا الارتقاء العقلي جاء على خطوات لا تحصى، ومراحل صغيرة لا تكاد تذكر، وكان حافزها الأكبر العقول الكبيرة على قلة عددها في الأجيال المتعاقبة، ومجاراة الناس لها، وأخذهم عنها، وإقبال الجماهير على اقتدائهم وتقليدهم وقبولهم لآرائها ومبتكريها.

إن صورة التقليد لابنك هي مجموع ما تتألف الثقافات منه، وتتكوّن الحضارات منه، بل كل ما يميز المثقف المتحضر عن الإنسان في العصر الحجري، يجتمع في كلمة واحدة، وهي التقاليد، وليست التقاليد في جوهرها إلا التقليد الذي نحن بسبيله، لأن كل جيل يأخذ بالتقليد وحده عن الجيل الذي سبقه ويصطنع هو تقاليد أخرى لنفسه، وبالتقليد وحده يتيسر إدماج كل تحسين يبتكره أو يهدي إليه عقل من تلك العقول النادرة التي ألهمت شعلة الابتكار وقريحة التفنن والاستحداث في تقاليد المجتمع.

ويبدو من هذا كله أن التقليد بصورته البسيطة الذي قام به ابنك، وبالتقليد المعمول به بين الأفراد والجماعات والأمم، نقول ليس بالقوة الفعالة التي تصون الحياة وتبقي على الجماعة فحسب، ولكنها أيضاً العامل الذي لا غناء عنه في تقدم الجماعات.

26– ما يملكه الصبي

يردد ابني كلمات تعلمها من الشارع.

وهي تعني أنه يملك (قضيباً) فيما البنات لا يملكن ذلك؟

أروى. غ

كان فرويد يصر على نظريته القائلة إن كل صبي يعتقد في بادئ الأمر أن كل مخلوق بشري يملك عضواً تناسلياً (قضيب) وأنه (أي الصبي) يتمسك بهذه الفكرة أطول مدة ممكنة. أما رأي (رانك) من هذه الناحية فهو أن الصبي يتمسك بفكرة كهذه ليس فقط بسبب (تطرف في تقدير الذات الناتج عن عشق الذات) بل لأنه يريد أن ينكر وجود أعضاء الأنثى التناسلية لكونها تذكره (بفظاعة) ولادته، التي يرغب في تجنب ذكراها بأي ثمن ما دامت تعيد إليه القلق الأصلي. وكذلك (اشتهاء القضيب) من جانب البنت مبني في الدرجة الأولى على مركب رد فعل ضد وجود أعضاء الأنثى التناسلية التي طردت منها بشكل مؤلم كما حصل للصبي.

إن (يونغ) لا ينكر وجود الناحية الجنسية في الأطفال، ولكنه لا يتوسع في معناها كما يفعل فرويد. ويعتقد أن علامات الاهتمام والنشاط التي يمكن أن تدعى جنسية بحق هي التي تظهر حوالي نهاية دور ما قبل الجنسية، مع العلم أن هذه الدلائل تعبّر عن ميزات ساذجة وعديمة الضرر. ويرى أن الميل الجنسي ينمو تدريجياً، فكلما تقدم الفرد في النضج والنمو ينشأ عن الليبيدو أنواع جديدة من الرغبات والنشاط ووسائل الإشباع، وينتقل النشاط الأصلي النموذجي المنتظم الذي كان يقوم به الطفل أثناء الرضاعة وما كان ينشأ عنه من رضى ولذة على عمليات أخرى تؤدي في النهاية إلى الشعور الجنسي.

وفي رأي يونغ إن ما يسميه فرويد دور الكمون الجنسي، والذي يظهر حوالي السادسة، أي عندما يختفي فيه في الغالب السلوك الجنسي الظاهر هو في الواقع

بدء الحياة الجنسية، ويعتقد أن كل ما هو سابق لهذا إن هو إلا مقدمة تعوزها الصفة الجنسية الحقيقية مهما كان نوعها.

إن الليبيدو، أو بالأحرى جزء منه، لا يمكن أن يفصل ذاته عن ميزات عملية التغذية كي ينتقل تدريجياً إلى ميزات العملية الجنسية إلا بكثير من التمهل والصعوبة. ويتميز هذا الانتقال بدورين: دور الرضاعة ودور النشاط المنتظم المستبدل. ففي بادئ الأمر يؤخذ الغذاء عن طريق الرضاعة المصحوبة بحركات منتظمة يقوم بها الطفل، وهذا العمل يؤدي إلى شبع ورضى تامين. ومن ثم يستبدل الطفل تدريجياً الحصول على الغذاء بالرضاعة ويصبح الغرض الحصول على اللذة والرضى من الحركات المنتظمة ذاتها بدون الحصول على الغذاء. وكلما نما الولد يصبح لليد شأن في الحصول على اللذة خصوصاً خلال دور النشاط وغيرها من التأثيرات وبين ما يمكن أن يوصف بأنه الطريق الفردي الحقيقي في الحياة. ولا بد لجميع الأفراد المدعوين من أجل أن يعيشوا حياة مستقلة ومنتجة من مواجهة هذا الصراع. أما العصابيون فيحتفظون بطريقة غير شعورية، إلى درجة أبعد مما يفعل الأخرون ببعض تظاهرات وآمال وأوهام الطفولة التي لا تتناسب وعالم الواقع والحقيقة.

يجب التنويه هنا أن عقدة أوديب تنتج نسلاً من العقد الثانوية، وكلها تفهم، وتدرك، بطريقة التناسل بغير إخصاب ذكرى، وبنفس الخصوبة التي في الفرض. فإن فرض (مضاجعة المحارم) بوصفه حباً للأم، تضمن أيضاً (حسد الأب)، وهذا بدوره خلق حالة عداء ورغبة في استبعاده واحتلال مكانه. ولكن الوالد شيء (مرهوب الجانب) لما يتمتع به من سلطة، ولأنه يهدد، ولكن ماذا يهدد؟

وللإجابة يجب أن تكون تهديداً جنسياً، ومن ثم تظهر في الوجود عقدة عجيبة أخرى هي (عقدة الخصاء)، وعنها كتبت المجلدات الضخمة بغير رقيب أو حسيب. وفي كل هذه المجلدات لا تجد أثر أي دليل إذا استثنينا خيال الطفولة، وسوء تصرف الآباء أو المربيات. ويا لها من إضافة منتقاة إلى نظرية جنسية؟

قد يظن أن الفرض وصل إلى غاياته، وأنه أحدث من الارتباك والبلبلة ما لا مزيد عليه، ولكن بقيت عقبة تافهة، فإن أوديب كان ذكراً، وبما أن التحليل النفسي يطبق على الجنسين من ذكور وإناث، فإنه يجب أن تستقى مادته من الجنس. ولكن هذا لم يفت في عضد المحلل النفسي، فجعل حبكته قابلة للتغير، ورداء يصلح للجنسين، ولكل الحالات النفسية. وهنا تقدم (إلكترا) في ثياب حداد خاصة لإنقاذ الموقف، وما تند به هو فقد نفس الشيء الذي يهدده الوالد، فإن خيال الطفولة يزعم أنها المخلوق الذي أصابه الخصاء. وهنا تكشف وسائل الافتراض، وقد سمت إلى أرفع مستوياتها، عن أن اعتبارها على هذا الأساس يجعل نيران الحسد تشتعل فيها من اكتمال الحالة التشريحية في الذكور.

ولا يعتبر هذا الكلام بخاتمة المطاف في هذا الفرض، فإن المحلل النفسي المتتبع لأحوال الإناث يكتشف وجهاً أنانياً في تطور الذكور، أي إنه اكتشف (عقد الأنوثة) وذلك عندما يتشبه الفتى بالفتاة في اتهام الأم. والفتاة تلوم أمها من أجل نقصها التشريحي، وتتحول إلى والدها لتجد ما يعوضها. وحتى لا يكون المحلل النفسي المشتغل بشؤون الذكور دون زميله، فإنه يصف (عقدة الذكور) في الإناث التي تنشأ من المعلومات القتالية عن الاختلاف الجنسي الواضح، ولا ريب أن كشفها ليس من الأسرار الغامضة التي تؤدي إلى لغز محير أو صدمة عنيفة. وبينما يصبغ تذلل الابن الصغير أمام المسلك الصارم لوالده بالطابع الجنسي، ويسمى (بعقدة الخصاء) تهديداً، فإن تصرف الابنة الصغيرة يتحول أيضاً إلى (عقدة خصاء) قائمة فعلاً. وبهذه الطريقة تعمم بنجاح عقدتي أوديب والخصاء، وتنطبقان على الجنسين.

وكما يقول فرويد (لقد عرفنا من اشتغالنا بالتحليل النفسي أن جميع النساء يشعرن بأنهن أوذين في طفولتهن، وأنهن، لخطأ لم يرتكبنه، كن موضع الاستهانة، كما سلبن جزءاً من جسمهن. وتمتلئ نفوس كثيرات من الفتيات بالمرارة حيال أمهاتهن، ويلمنهن لسبب لا مفر منه، وهو أنهن جلبنهن إلى هذا العالم إناثاً بدلاً

من أن ينجبنهن ذكوراً).

هذا المنطق الفرويدي نـال الكثير من النقد، ومن أبرز من انتقد ذلك عالم النفس جوزيف جاسترو.

27– طفلي العبقري

أرى سمات العبقرية على ابني الذكر.

فهو سريع البديهة، نشط الذهن، متوقد الذكاء.

ربما كان وضعي يحمل المبالغة، أو تقدير لموقف مرحلي.

لهذا أود أن أقرأ تحليلك في هذا الشأن؟

بديعة. ص

بما أن الأسرة هي أهم حقيقة اجتماعية في حياة الطفل في مرحلة العمر (3 – 13 سنة)، فقد أولاها علماء النفس والاجتماع الاهتمام الأكبر في بحوثهم حول علاقة السياق الاجتماعي بالإبداع.

إن الشعور بالاطمئنان الوجداني أو احترام الذات متى تم غرسهما في الطفل من خلال (الآخر المهم) – وليكن الوالدين أو أحدهما أو أحد الأقارب أو المعلمين – فإن ذلك الشعور يصمد ضد سلبيات ومثبطات العناصر الأخرى في السياق الاجتماعي في المراحل التالية من العمر. كما ثبت أن غرس مثل هذه المشاعر وغيرها (مما يساعد على تحويل الكوامن الإبداعية إلى سلوك فعلي ظاهر) لا يرتبط بالضرورة بالوجود المادي المستمر (للفواعل الاجتماعية) التي أحدثتها في الفرد المبدع في بداية تنشئته الاجتماعية. بتعبير آخر، حتى عد زوال الفاعل الاجتماعي الأصلي (الأم، المعلم، الصديق، الزميل) الذي استثار وغرس أو دعم هذه المشاعر في مرحلة سابقة، فإن قوة دفع هذه المشاعر قد تظل قائمة في مراحل لاحقة.

أما الذكاء فرغم أنه هبة وراثية، إلا أنه قابل للتغير والارتقاء عند الأفراد بحسب اختلاف البيئة الاجتماعية – الاقتصادية التي ينشأون فيها. فالأطفال المتساوون في اختبارات الذكاء عند سن الثالثة، يكتسبون أو يفقدون ما بين عشر وعشرين درجة خلال السنوات الخمس أو العشر التالية طبقاً لمقدار الرعاية

الوجدانية التي يتلقونها من أمهاتهم أو حاضناتهم، وطبقاً لنوع المنبهات المنشطة لمهاراتهم وقدراتهم اللفظية والحركية. وقد تأكدت هذه الملاحظة بدراسة الأخوة التوائم المتماثلين الذين أدت الظروف إلى تنشئتهم في عائلات أو سياقات اجتماعية متفاوتة من حيث درجة الرعاية الوجدانية والاستمالة الذهنية المقدمة للطفل.

إن القدرات الإبداعية لدى الأبناء الذين لا يتعرضون كثيراً للعقاب من الوالدين، ترتفع كثيراً. أما إذا أوقع العقاب عليهم فإنه يكون غالباً لفظياً ورمزياً أكثر منه مادياً وبدنياً. كما أن هذه القدرات الإبداعية تكون عند الأبناء الذين يتعودون، بالتشجيع وليس بالقهر، منذ الطفولة المبكرة على معايير عالية من الأداء والانضباط والتدريب المبكر على وظائف الإخراج (التبول والتبرز) والعناية بالنظافة الذاتية والانتظام في مواعيد تناول الوجبات والنوم واللعب، مع زيادة مطردة لهامش الحرية الذي يسمح به الوالدان بعد ذلك (من ثلاث سنوات فصاعداً).

وبصفة عامة ترتفع القدرات الإبداعية للأبناء في الأسرة التي تسود فيها علاقات المودة والحب والديمقراطية والاحترام بين الوالدين، عنها في الأسر التي يسودها جو مبالغ فيه من الحرية أو التدليل أو الفوضى.

إن المستوى التعليمي والثقافي للوالدين أو أحدهما أهم في توفير هذه الشروط من المستوى المالي – المادي. فكلما ارتفع المستوى التعليمي – الثقافي، مع ثبات المتغيرات الأخرى على حالها، كلما كان توفر هذه الشروط أكثر احتمالاً، بينما ارتفاع المستوى المادي للأسرة في حد ذاته لا يضمن توفر هذه الشروط.

تناول أدلر لمقاييس الذكاء ولذيوعها في المدارس الحديثة ورأى أنها جزيلة النفع للمعلمين، وخاصة عندما تكشف لهم في التلاميذ عن أمور تخفى عليهم بالاختبارات العادية. كما أنها قد تكون منقذاً للطفل حين تسوء التقارير عنه ويود الأساتذة النزول به عن فرقته فتزكيه نتيجة اختبار ذكائه، فإذا وضع بين طبقة ممتازة من التلاميذ شعر بالنجاح وانصلح حاله. ويرى أدلر أن تبقى نسبة ذكاء التلميذ سراً لا يصل إليه والداه ولا الطفل نفسه، إذ هم لا يعرفون القيمة الحقيقية

لها، ويرون فيها ما يعيّن قدر الطفل. لأن أدلر ولو أنه لا يود أن يحط من شأن مقاييس الذكاء إلا أنه لا يرى أنها المفتاح الوحيد لحياة المرء فيما بعد، فقد تسوء حال الذكي وتسعد أيام الغبي إذا اختلفت صروف الدنيا مع هذا عن ذاك. ثم يقول أدلر إنه رأى بالتجربة أنه إذا أثبت الاختبار نقصاً شديداً في الذكاء أمكن تحسين النتيجة إذا وصلنا إلى الطريقة الصحيحة لقياسه، وإحدى هذه الطرق تدريب الطفل على المقياس الواحد حتى يصل إلى ما فيه من حيل وكي يحصل على الإعداد اللازم للقيام بمثله. وبذلك يتقدم الطفل وتزيد خبرته فيحصل على خير من نتيجته الأولى في الاختبارات التالية.

28- سيكولوجية لعب الأطفال

ابني في الرابعة من عمره.

يحب اللعب والدمى كثيراً.

يميل إلى نوع معين من اللعب فيما يعزف عن لعب أخرى.

لماذا هذا التفريق ولم يزل صغيراً؟

يسرى. د

يحاول الطفل عن طريق اللعب والدمى أن يعبر عما يريد، صحيح أنه لا يستخدم لغة يتكلمها لأن ثروته من الكلمات قليلة أولاً، ولأنه لا يستوعب معاني تلك الكلمات – حتى ولو أنهى السنة الثالثة أو الرابعة في المدرسة – ذلك لأن للكلمات أكثر من معنى، الأول الذي يتعلمه الطفل في المدرسة والثاني ما يقترن في ذهنه ويكون محملاً بظلال المعاني المختلفة والقيم تختلف أيضاً – وتأنيب الضمير الذي يحس به الطفل يكذب يختلف كثيراً عن شعور الشخص نفسه حين يكون كبيراً أو قد تجاوز السابعة عشر أو العشرين من العمر.

إن مراقبة طريقة لعبه بالدمى المعطاة له، يمكن أن تدل على نفسيته وشخصيته وأكثر من ذلك، مراقبة الألعاب التي يقوم بها، والدمى وكيفية التعامل معها تعطينا فكرة واضحة جداً عنه. ذلك أن الطريقة التي يلعب بها الطفل هي الوسيلة التي يستخدمها ليعبر بها عن نفسه أمام الآخرين وفي مواجهة الاحتياجات اليومية كما يعبر عن نفسه ومشاعره تجاه الأشخاص والأشياء وما يتعرض له. وحين يهتم الأب مثلاً بمراقبة كيف يلعب ابنه بالدمى والألعاب فإن ذلك يساعده كثيراً في فهم نفسيته.

كما أن دراسة طريقة اللعب وما هي الألعاب التي تعجب الطفل أكثر من غيرها، تعطينا صورة واضحة عن نفسيته وشخصيته، وتدل كثيراً على الاحتمالات التي يمكن أن تكون عليه شخصيته في المستقبل. مثال ذلك الطفل الذي يفكك

اللعبـة لـيفهم كيـف تعمـل ومـا فـي داخلهـا ومـا يجعلهـا تتحـرك أو تفـتح عينيهـا أو تصـدر صـوتاً، هو ذكـي جداً ويحـاول دومـاً العودة إلـى المسببات الرئيسـة، ويتمتـع بدرجة عالية من الذكاء تستحق التشجيع. والطفل الذي يؤنب لعبته ويصرخ عليها هو طفل تعيس فـي حياتـه، يقلد أبويـه أو أحدهما ولذلك فهو يقلدهما فـي تـوبيخ اللعبة، ويقوم بحركة تعويض عما هو بالذات من توبيخ الضمير. ولو دققنا النظر لوجدنا أن هذا الطفل حين يصرخ على لعبته ويؤنبها فهو يقلد والديـه أو أحدهما ومراقبته قد تؤدي أن يتفهم الأب أو الأم نقطة الضعف في مناقشة ابنهما بعض ما يشكو منه.

والملاحظـة الجديرة بالانتبـاه هـي حـين تتكسـر لعبـة، فمـن المهـم أن نراقـب سلوك الصغير وردة الفعل لديه، فإن أبدى اهتماماً وقلقاً لعله يجد من يساعده في إصلاح المكسور، فهذا يدل على أنه يتمتع بعقلية سليمة وبموقف جيد جداً. بيد أن الطفـل الـذي لا يبـدي اهتمامـاً إن انكسـر شـيء بـين يديـه، فهـو طفـل فـي حاجـة لمساعدة متخصصة من أحد أطباء علم النفس، ذلك خشية أن تكون تلك المواقف بداية نمو مشاعر عدوانية في داخله، كما يلاحظ أن الطفل الذي يضع ألعابه كلها تقريباً في عربة يجرها في أرجاء البيت أو الحديقة، هو في الواقع شخص لا يشعر بالاطمئنـان والاستقرار، وفـي الغالـب يشـعر أنـه محـروم مـن شـيء. ولذلك فهـو فـي حاجـة لـبعض الحريـة كـي يمـارس بعـض ألعابـه دون ضـغط أو توجيـه مباشـر مـن أبويه أو من أحدهما. والطفل الذي يتحدث إلى ألعابه كما لو كانت مخلوقات واعية مثلـه، هو شخص يشعر بالحاجـة إلـى أصدقاء من عمره يتحدث إليهم. ولكن فـي بعض الحـالات يمكن أن يكون هذا الطفل ذكياً جداً ولا يجد متعة في معاشرة أطفال من سنه لكونهم أقل منـه ذكـاء وقدرة. ولهذا يجب أن يهتم الآبـاء والأمهات بمعرفة أسباب إقدام ابنهم أو ابنتهم على التكلم مع الألعاب كما لو كانت حية. أما الطفل الذي يتعود أن يحمل لعبته معه إلى السرير، قد يكون يفعل ذلك لمجرد العادة وربما أن ذلك ظـاهرة مرضـية وسـلوكية. فالطفل الـذي يحمـل كـل ألعابـه إن اسـتطاع فـي

عربة واحدة ثم يروح يتجول بها، هو شخص يشعر بالقلق وعدم الارتياح، مثل هذا الطفل حين يحمل ألعابه إلى السرير، هو يحاول أن يحيط نفسه بأشياء تجعله يشعر بالأمان لوجودها معه.

أما الطفل النظيف جداً والمرتب جداً والذي يصر أن يعيد كل شيء إلى مكانه الطبيعي، إنما يخفي في داخله قلقاً وشعوراً بعدم الاستقرار والقلق. والطفل المرتب أكثر من المستوى الاعتيادي والمهتم بأشيائه الخاصة فهو سهل التعامل ويمكن استنطاقه دوماً ليتحدث بما لديه. وأخيراً فإن الطفل الذي يمضي وقتاً طويلاً في بناء شيء أو صنع أي شيء في البيت أو في ورشة البيت، فهو في الغالب شخص يبذل اهتماماً خاصاً بكل شيء وذكي جداً كما أنه يعتمد على نفسه في أمور كثيرة.

29- البعد عن الغير

لفت انتباهي أكثر من مرة أنه كلما زارتنا أخت زوجي فإن طفلنا باسم يبتعد عنها.

علماً أنه في الخامسة من عمره ودود ولا يبتعد عن الغير، لكن قصته مع عمته غريبة.

أفهمه أن تصرفه خطأ وعليه أن يكون مثال التهذيب.

لكن ما إن تزورنا ثانية حتى يتخذ نفس الموقف.

لا أعرف مدى انعكاس ذلك على نفسيته في المستقبل؟

عبير. ب

على ضوء رسالتك فلا شك أن أخت زوجك قد وبخت أو ضربت ابنك في مرة من المرات دون أن تعود إليه ثانية بشكل يرضيه. ومثله في ذلك كما نشعر نحن الكبار حيال شخص ما بعواطف متناقضة، تنطوي على مزيج من الصداقة والعداء. إن هذا التناقض ينشأ في المراحل الأولى من حياة الطفل، إذ إن الانتقال من حالة الرضى إلى حالة الحرمان، قد يحدث ردود فعل تهجمية. ذلك أن أولى علاقات الطفل العاطفية، قد حدثت في فترة كان فيها الأشخاص الذين يحبهم، تارة يوفرون له السرور وطوراً يحيطونه بالحرمان، الأمر الذي يترك أثراً كبيراً على جميع علاقاته المقبلة. وقد تعرضت نظريات فرويد إلى انتقادات عديدة، لظهور الحنان والملاطفة بمثابة عواطف مشتقة وثانوية بالنسبة إلى الرغبة والتطابق، فضلاً عن أن القسم الذي خصصه فرويد للعلاقات العاطفية نحو الآخرين لهو ضئيل جداً، إذ غالباً ما تتأرجح عواطفنا بين الموقف الأناني، التهجمي، أو العدواني. في هذا المجال، يبدو الالتقاء والتبادل من الانجازات غير الأكيدة، ويمكننا التساؤل عندئذٍ هل أن نظريات فرويد قد بنت قواعد للاتصال الحقيقي بين الأفراد.

من خصائص حاجات الأفراد إرضاء للذات، فقط عن طريق تحقيق نوع من العلاقة مع الغير تتطلب أسوة بالحاجات البيولوجية، نوعاً من التوازن بين الجسم وما يحيط به. هذا التوازن منوط في آن واحد بدرجة المتطلبات والوسائل وضغوط المحيط الخارجي وتوافقها جميعاً. لذلك فإن حالات اختلال التوازن الناتجة إما عن عدم الرضى أو عن الإشباع، تُحدث لدى الفرد شعوراً بالقلق، ومن حيث النتيجة مسلكاً وعقلية مرضية. وفي ذلك يرى عالم النفس (شوتز) أنه يمكن التمييز بين ثلاث حاجات أساسية: الإدماج والمراقبة والمودة، وهي تساعد على إعطاء فكرة عن مجمل التصرفات الاجتماعية.

ويبدو أن حاجة الإدماج، قديمة جداً، وتظهر باكراً عند الطفل بشكل رغبة في الاتصال والاحتكاك وجهد متواصل ليصبح محط الأنظار ويحظى بالعناية مع الخوف من الإهمال أو النسيان. فإذا كانت رغباته تتحقق بصورة طبيعية ضمن نطاق الأسرة، خاصة بفضل علاقاته الدائمة مع والدته، فإننا نلاحظ أهمية هذه الحاجة وأهمية الخلل الذي يؤثر على نمو الطفل من جراء التقاعس عن تقديم العناية له، أو عند الفراق أو الإهمال. وقد تمتد هذه الحالة في ريعان الشباب بشكل حرص متواصل على الانتماء إلى فئة معينة، أو شعور دائم بضرورة تمتعه بالاعتبار والتقدير، مما يفترض الاحتفاظ بمستوى كاف من المصلحة المتبادلة بين الشخص وبيئته.

وتتصل حاجات المراقبة بوظائف السلطة والأمن، سواء أكان الأمر يتعلق بسيطرة الشخص على غيره للاطمئنان على تصرفاته، أو على النقيض من ذلك، شعوره بضرورة تسييره وحمايته من قبل الآخرين كي يطمئن على نفسه ويلقي عن كاهله العديد من المسؤوليات الضخمة. وهكذا تبدو هذه الحاجات ذات اتجاهين متعارضين، وقد تظهر خلال المرحلة الثانية من الطفولة، عندما يترتب على الطفل استيعاب الأنظمة الأساسية للتوصل تدريجياً إلى بعض الاستقلال الذاتي عن طريق إدماج المراقبة في حياته الخاصة. وتمتد هذه الحاجات زمنياً عبر الكوادر المدرسية

والمهنية والوطنية ويتوصل تحقيقها بشكل وثيق بشعور المسؤولية والاحترام المتبادل بين (الأنا) والآخرين. أما على مستوى الجماعات، فإن هذه الحاجات تتحقق بصورة شبه تامة تبعاً للأنظمة التسلسلية.

هذا وقد بين (شوتز) إمكانية تأثير التناقض على تصرفاتنا، بحيث يمكن توقع انقلابات في الحالات المتطرفة خاصة. إذ إن خاصية الشخص ليست في وضعية ثابتة بقدر ما هي في سلوكه المألوف. والآن نتساءل: ما هو موقفنا من محاولة التنسيق هذه؟ بوسعنا أن نتساءل في الحقيقة فيما إذا كانت الحاجات الثلاث والمظاهر المؤيدة لها منفصلة ومتتالية بالوضوح الذي يدعيه (شوتز) نفسه. يبدو أن الأبحاث المتعلقة بالاستشفاء، التي قام بها (سبيتز) و(آنا فرويد)، قد أثبت ظهور ملامح اختبارية مبكرة بين الأطفال فيما بينهم من جهة، وبين الأطفال والممرضات من جهة أخرى وإخفاق بعض محاولات الأزواج. لذلك، يكون الإدماج والمودة متصلين بشكل وثيق خلال السنوات الأولى، إذ حتى ولو سلمنا بقبول أولوية حاجة الإدماج، فإنه يبدو أن الانتقال إلى المودة لا يحتاج لمرحلة وسطى من المراقبة.

أما بالنسبة إلى ضرورة الحماية التي يظهرها الطفل، فيبدو أنها مناطة في آن واحد بحاجة الاندماج الأصلية وحاجة التوجيه والمراقبة التي لا تتكشف إلا في المرحلة الثانية، كما يؤكد ذلك (شوتز). وهكذا لا يمكن عزل الإدماج كحاجة مجردة، إذ إنه يتضمن أصلاً بذور المودة والمراقبة، أو يبقى على النقيض من ذلك أدنى مكانة من الأخيرتين. ويبدو بصورة عامة أن التحدث عن حاجات منفصلة في ميدان العلاقات القائمة بين الأفراد، أمر يشوبه الشك. فعبارة التوجيه التي استخدمها (شوتز) في سياق نظريته، تبدو أكثر ملائمة عندما يثير فكرتي: العناصر السائدة، وعناصر التركيب، اللتين تتداخلان دون أن يصل هذا إلى حد الامتزاج. وأخيراً فإن الفائدة الرئيسة لهذه النظرية تبدو من خلال استنباط الأبعاد الديناميكية للاندماج في المجتمع، والتي يمكن إقامة العلاقات بينها وبين نماذج من التنظيمات الثقافية.

30- الطفل والأخذ بأمور الحياة

صدقني إنني لا أفهم طفلي؟

إنني أود بكل جوارحي أن أمسك بالخيط الرفيع الذي بواسطته أسحب طفلي لنفسي لأفهمه وأحقق رغباته.

تناقشت مرة مع معلمة ابني بهذا الأمر فكان أمرها مثل أمري، وهو عدم فهمها للفروق الفردية بين تلاميذها، وتود من صميم قلبها أن تسبر أغوار هذا العالم الغامض، عالم الطفولة، لتميز بين هذا الطفل وذاك، فتعطي لكل منهم ما يستحق من عناية ورعاية وعطف لتحقق هدف التربية الحديثة القائل بإنماء شخصية الطفل من جميع الجوانب.

لهذا فإن أمري ليس غريباً في عدم فهم سلوك طفلي.

ومن هنا أتوجه لكم بعرض هذه الحالة، عل تحليلكم ينير الطريق أمامي وأمام بقية الأمهات والمعلمين ليفهموا أطفالهم؟

سها. ص

إن فهم الطفل فهماً دقيقاً صحيحاً لا يتم عن طريق التقدير الصحيح للكيفية التي يتم بها نمو الطفل، وبالتالي علاقة سلوكه بنمط هذا النمو ومؤثراته الداخلية والخارجية. ونحن لا نقصد بالكيفية تلك العلاقات والتفاعلات والتأثيرات المتبادلة التي تتم بين العقل والجسم بصورة عامة، بل حسبنا أن نتعرف على سلوك الطفل المعبر عن نفسيته. هذا السلوك المرتبط أتم ارتباط بجهاز الطفل العضوي والعصبي من جهة، وبالبيئة المحيطة أو الواقع الخارجي الاجتماعي من جهة أخرى.

يلاحظ في السنة الأولى من عمر الطفل القدرة على التقاط الأشياء، فيقف على أول درجة من درجات هذا السلم الطويل المتصاعد من عمر الطفل النمائي. وهذه المرحلة مهمة جداً في إكساب الطفل كمية كبيرة من الخبرات السلوكية.

فالتقاط الأشياء بالنسبة للإنسان هي بداية السلسلة، وهي بالتالي لا بد منها من أجل كل ملاحظة وفي سبيل كل عمل تجريبي وبالتالي من أجل المعرفة العقلية المنظمة، يساعد على ذلك نضج العضلات والمراكز النيورونية الموصلة اللازمة لعملية القبض السريع والمنظم. ولا يتم هذا دفعة واحدة، كما يمكن أن يظن البعض، بل إن هذه العملية تتدرج من البساطة إلى التركيب، ومن انعكاس طبيعي إلى عملية انعكاس شرطي تتدخل في تعقيدها عناصر متشابهة ومتباعدة.

وإذا نظرنا إلى الطفل في شهره التاسع نراه أصبح بإمكانه أن يلتقط الأشياء ليس براحة كفه فحسب، بل وأن يقبض عليها بأصابعه أيضاً، إذ تكون الوحدات العصبية عنده قد كونت ارتباطات أكمل فأكمل مع مجموعة الجهاز العضلي، وبالتالي ترابطت أيضاً هذه الشبكات الموصلة بين الأنسجة والأجهزة مع الخلايا العصبية في الدماغ واكتسب الطفل المرونة الحركية المبدئية والتمايز الشكلي التقريبي. حتى إذا ما صار الطفل ثلاثة عشر شهراً أخذ يمسك الشيء بكل كفه وأصابعه مستعملاً إبهامه وكل أصابعه بدقة ومرونة وتكيف وأصبح بإمكانه أن يحرك الأشياء ويقلبها إلى جهات متعددة، ولكنه وفي نفس الوقت سرعان ما يرميها من يده وكأنه بذلك يريد أن يتعرف عليها ويعرف علاقاتها مع الأشياء وكنهها. لكن هذا الإطلاق يتم بعفوية وتلقائية وكأنه نوع من الفعل المنعكس الطبيعي، ولكنه لا ينسى أن يطلق في هذه المرحلة بعض العبارات التي قد تعلمها، وقد تساعده هذه العبارات على إطلاق بعض الأنماط السلوكية العفوية التي تتم في هذا الوقت.

وفي هذه الفترة يصبح الطفل قادراً على الحبو وتتقدم عنده عملية الضبط الحركي. فإذا وضعت أمامه شيئاً تجده يمسكه مستعملاً أصابعه كالكماشة ويشده إليه في ضبط وسرعة، ذلك لأن ملايين عديدة من اللويفات العضلية والعصبية قد تشابكت واتصلت وتناسقت أعمالها بحيث أمكنها أن تنظم له حركاته وتتحكم بها. على أن التقاط الأشياء والقبض عليها وإدراك العلاقات القائمة بينها في هذا السن سرعان ما تتحول في الشهر الخامس عشر إلى نوع من الدفع والقذف وكأنه بذلك

يحاول أن يسبر غور العلاقة القائمة بين الشيء المقبوض عليه وبين الأشياء الأخرى، أو ليتعرض على نوعية الصوت الذي يحدثه عند ارتطامه بالأشياء. فمن الملاحظ أن الطفل لا يقذف بيده فقط بل تشترك معها في هذه العملية حواسه المبصرة والسامعة أيضاً، فهو يستعمل عينيه وأذنيه بغاية اليقظة ليرى أين يسقط الشيء حين يقذف وما هي نوعية الأصوات التي يصدرها.

ومن الأشهر الأولى لحياة الطفل وإلى سن الخامسة عشر يمر بعدة تطورات نمائية وقفزات متولدة من نماء وتطور جهازه العضوي في عملية التقاط الأشياء وحدها. إذن كيف لا تكون حياة الإنسان الطويلة المعقدة سلسلة من العمليات المتشابكة التي يكتسب فيها الفرد كل خصائص سلوكه وتكيفه مع المجتمع المحيط به؟

إذا كان الطفل الرضيع يتعلم من الحياة أو تعلمه الحياة والوسط المحيط كل هذه الحركات والملاءمات والتناسقات تبعاً لتطوره البيولوجي إلى أن يقف على رجليه، فكيف هي إذن، تبعاً لتلك الحوادث التي يتعلمها الإنسان منذ أن يقف على رجليه إلى أن يهال عليه التراب؟ إنها أكثر من أن تحصى. وهي مع ذلك مجموعة السلوكيات والأنماط والأفعال التي يكتسبها ويستدق في معرفتها يوماً بعد يوم تبعاً لتطوره البيولوجي من جهة وتبعاً لطبيعة المجتمع المحيط به من جهة أخرى.

31- التحكم بالعواطف

كلنا نعلم أن الطفل في سنواته الأولى يسرح ويمرح دون التحكم بعواطفه.

وكثيراً ما أفهمنا أن الطفل في سنواته الثلاث الأولى يكون (بريئاً) لأن عواطفه تكون طبيعية لا تحمل المسايرة أو المخادعة.

المسألة التي أود طرحها عليكم هي الخلاف بيني وبين زوجتي فيما إذا كان التحكم العاطفي يكون بقمع الطفل لعواطفه، أم يكون عن طريق التحكم فيها بإيجاد الأسلوب الموافق عليه للإفصاح عنها.

تيسير. م

ليس التحكم العاطفي هو أن يقمع الطفل عواطفه، بل يكون التحكم فيها عادة عن طريق إيجاد الأسلوب الموافق عليه للإفصاح عنها. فعادة يتعلم الأطفال كيفية الإفصاح عن مشاعرهم بطرق غير مباشرة، مثل التحدث عنها في كثير من الأحيان، وعندما يغضب الطفل الكبير فبدلاً من أن يرفس برجليه أو يصرخ نراه يعبس أو ينسحب أو يتشاجر. وتصبح خصائص التريث في الإفصاح من مميزات التعبير عن العواطف السارة أيضاً. إذ إنه يضحك أقل من السابق وبصوت أقل عصفاً مما كان عليه وهو صغير، لكنه يبتسم مرات أكثر، ويصبح حذراً من إظهار شغفة علانية، لكنه يتعلم طريقة جديدة للإفصاح عن حبه بالتفتيش عن المحبوب ومحاولة إسعاده.

وقبل هذا وذاك يمكننا القول إن انعدام التحكم في العواطف يستمر مميزاً لخصائص الاستجابات العاطفية في أيام الطفولة المبكرة. لكن يزداد تنويع الاستجابات ويصبح عدد كبير من الأحوال مجلبة للانفعالات الشديدة. إذ لا يغضب الطفل مثلاً من العوائق الطبيعية فحسب بل ومن العدد المتزايد من التحذيرات الاجتماعية التي تقع كلما اتسعت رقعة البيئة التي يعيش فيها. ولا يزال البكاء هو الاستجابة العمومية ولكنه يستبدل في بعض الأحوال بطرق احتجاج

أخرى، مثل هز الرأس، والرفض بقوله: كلا، أو عدم الطاعة ...إلخ.

ومن الملاحظ أن الأطفال الصغار يميلون في استجاباتهم العاطفية إلى الحوادث الملموسة، إذ يغضبون من عدم قضاء حاجاتهم المباشرة. ويملأهم البشر والفرح من الأشياء الظاهرة والقريبة منهم، مثل إنجازاتهم الخاصة، والأصوات المضحكة، والمتناقضات. وتصبح مخاوفهم من الأشياء الملموسة أكثر من الأشياء الخيالية ويتهيجون من الأشياء التي تظهر مخيفة لكونها غير مألوفة. وعندما تزيد مقدرة الطفل على إدراك الأشياء بدقة، وعلى تذكر وتوقع الحوادث، يبدأ بالاستجابة عاطفياً للحوادث والأحوال. وتصبح استجاباته هذه أساس فشله أو نجاحه في المستقبل. ويصاحب هذا التغير ظهور عاطفة جديدة هي القلق. وإن أكثر المصادر العمومية للقلق أثناء مرحلة الطفولة التالية هي المشاكل العائلية والمدرسية، والتكيف الاجتماعي والشخصي والصحة. ومع أن الطفل يقلق بشأن كثير من الأشياء المتزايدة كلما اكتسب خبرات جديدة إلا أنه يفقد العديد من مخاوفه السابقة بعد أن ثبت له أنها ليست واقعية بحكم الخبرة.

في الغالب، يتم عادة خلال مرحلة الطفولة المبكرة إيفاء معظم مطالب الطفل المتركزة في شخصه. وتكون هذه المطالب من الصنف الذي يحتاج إلى إيفاء فوري لضمان سلامته. لكنه سرعان ما يصل إلى مستوى التطور الجسمي والنفسي ويتعلم كيف يتحمل الخيبة والفشل، أي إنه الإرضاء الكلي لحاجاته ويبدأ بتحقيق مطالب حضارته الخاصة. ويتعلم أن العنف والتعبير العاطفي المنطلق غير المقيد لا يقبلان في المجتمع. وهكذا فبينما تزيد التقيدات الاجتماعية المتكاثرة في توترات الطفل العاطفية فإنها كذلك تفرض الحظر على الطريقة التي سيطلقها فيها. لكنه يستطيع لحسن الحظ ولتضحيته ببعض حاجاته أن يكسب الرضا العاطفي من الشغف والثناء والاهتمام والموافقة التي يغدقها عليه الآخرون.

وتبين لنا الوقائع أنه ليس من السهل أن يتحكم الطفل بعواطفه، ذلك أن الانفجارات العاطفية تستمر بالوقوع بصورة ملحوظة خلال معظم مرحلة الطفولة. إذ

يختزن الطفل الطاقة المتزايدة والتوتر العاطفي إلى أن يتعذر عليه اجتناب الانفجار الذي يتخذ شكل الضحك العاصف أو اللعب العنيف أو النوبة العصبية من البكاء الشديد – ويعتمد ذلك على المثير المباشر وعلى شخصية الطفل.

وقد تتعدد العواطف التي يكتسبها الإنسان تبعاً لتعدد الأشياء التي تتركز فيها، وإن كان لكل امرئ عدد قليل من العواطف، أو عاطفة واحدة، تغلب فيه على سائر العواطف الأخرى في القوة والنمو والاشتداد وبنسبة السلوك الذي تدفع إليه.

كما أن لكل عاطفة تاريخ وحياة كسائر الأفاعيل والنظم والأحاسيس، فهي تنشأ رويداً، ثم تزداد تعقداً وتشعباً وقوة، قد تظل تنمو بغير انقطاع أو تنتابها فترة اضمحلال، أو قد تتلاشى رويداً أو وشيكاً، أو جزئياً أو جملة واحدة.

32– أسئلة عن الجسم

ابننا في الخامسة من عمره.

حين يأتي والده من عمله يجلس إليه وينهال عليه بالأسئلة.

من هذه الأسئلة ما يختص بجسمه والمقارنة بينهما.

أبعد ابني عن والده لكثرة أسئلته.

ولكن زوجي يقول لي دعيه يسأل ما يشاء .. إنه بحاجة للجواب عن أسئلته؟

فدان. ك

أجل إن ابنك بحاجة إلى الاستماع لكل سؤال يسأله، وعدم نهره، بل إشعاره بالرغبة في الإصغاء إلى ما يريده. إن بداية تساؤلات الطفل ترتبط بوجوده. فأول ما يثير اهتمامه هو نفسه.. هو جسمه. أهم ما يود اكتشافه هو جسده وما يستهويه. فحشرية الطفل في صدد بدنه وكل ما يحيط به ويمسه هي المحرك الأول الذي يدفعه إلى المعرفة واستنباط العالم من حوله.

إن أي طفل يتساءل؟ كيف تصنع الأشياء؟ أي، كيف له أن يصنعها بإمكاناته الجسدية؟ جسم الإنسان ضحية تجاهل، أحياناً.

العوامل الاجتماعية – الدينية كثيراً ما تقلل هذا التجاهل، إذا هي لم تزد من حدته، فينعكس على الطفل الذي يشعر بفضول نحو جسمه يفوق شعوره بضرورة تعلم القراءة والكتابة، وخلافاً لما يعتقده بعضهم، الطفل يدرك ما ينبغي، حتى في سن مبكرة. وله حاجات خاصة بطفولته. ولكن، كثيراً ما يغفل الكبار هذا الواقع ويطلبون إليه، منذ الصغر، اتباع أنماط تفكيرهم والاهتمام بما يرونه هم مهماً. وبذلك لا يستطيع الطفل أن يصبح عقلانياً وحسياً، على غرار ما يتوخاه الكبار، في حين هو لم يكتشف جسمه بعد، إلا على حساب اضطرابات نفسية تنجم عن موقف البالغين هذا. وعلى هذا فإن تفهم الكبار لحاجات الطفل أمر على جانب كبير من الأهمية. على البالغ أن يحدث الطفل عن جسمه، أن يعطيه (مفردات

الجسم) عبر تساؤلاته عما هو هذا العضو؟ ما هي وظيفته؟

يجب أن يعرف مثلاً أن العضو التناسلي هو لإنجاب الأطفال وليس للتجاهل. كما أن الفم هو للأكل وأن الأكل للاغتذاء وليس لإرضاء الأمهات. غلط أن يسعد الطفل لسعادة أمه بدلاً من سعادته هو. وهذا للأسف، ما يحدث غالباً. وبذلك يساهم المجتمع في الانحراف دون أن يدري.

إن صورة الجسد تنشأ، ليس فقط عن تجربتنا الإدراكية الحسية الحركية، لكن أيضاً، وبنوع خاص عن حسنا الجنسي الذي ترهقه تموجات رغباتنا ولذاتنا وأحلامنا. فنحن نعلم أننا نحيا جسدياً، على رأي فرويد، منذ طفولتنا الأولى، باعتباره غريزة جنسية أو ليبيدو متنوع، إما بما فيه من مصادر تحريضات، أي فتحات جسدية (الفم، الشرج، الأعضاء التناسلية) وإما بغايته (الرؤية والسيطرة). وتعمل كل غريزة من الغرائز الجنسية الجزئية، لدى الطفل الصغير، وتميل إلى إشباع ذاتها بمعزل عن غيرها، فيصبح الجسد بالنسبة إليه، فسيفساء، مؤلفة من مناطق شبقية، أو، بحسب تعبير (ج. دولوز في كتابه منطق الحس) المنمق (ثوب أرلوكين). فقد صنع هذا الثوب (على القياس) نوعاً ما، لأن تباين اللذات الشبقية يختلف من شخص إلى آخر، تبعاً لما يمنحه من أفضلية إلى هذه المنطقة أو تلك أثناء طفولته، أي بالتالي، لما يتعلق به من هذه المرحلة أو تلك من مراحل التطور الجنسي الذي يبرز فيه على التوالي تفضيل المنطقة الفمية، والشرجية والتناسلية. بتعبير آخر، يحيا كل طفل جسده حسب تفرد تاريخه الشخصي، أي تجاربه الخاصة في إشباع أو حرمان الليبيدو، الذي يحاول أن يتفرغ في غرائزه الجزئية المختلفة. وهذا ما أسماه فرويد بـ (الفساد متعدد الأشكال) لدى الطفل، دون أن يقصد الرذيلة لديه، بل قدرته متعددة الأوجه واللاأخلاقية على التلذذ. على أن هذا التمتع لا يستهدف الغير، أو شيئاً خارجياً، بل جسد الطفل إياه الذي يعيش التنعم، أو على الأصح ما يتكون منه من مناطق شبقية أو أعضاء. فلذة الطفل (شبقية ذاتية)، على اعتبار أن الليبيدو يشبع نفسه من تجزئة جسده الشخصي غير

المنتظمة.

ورغم هذا وذاك، علينا أن نفهم جيداً ماهية هذه التجزئة، أو على الأصح كيف نحياها، فنحن نخطئ إذا اعتقدنا أن هذا الجسد (المصنوع من رقع)، إذا صح التعبير، من مناطق شبقية متفاوتة الإثارة والتحريض، حسبما يقبل الطفل عليها أثناء تمتعه بها، ينطبق، رغم ذلك، مع الواقع الموضوعي والبيولوجي والتشريحي لأعضاء تقابل تلك المناطق الشبقية المتغايرة. وتقوّم رغبات الطفل أو تفضل هذه المناطق، فتفكك الجسد الموضوعي الذي وصفه المشرح أو تبطل بنيته، وتمحو واقعيته، وتزج به في أوهام الخيال أيضاً. فإذا أمعن الطفل في إشباع الليبيدو، الذي لا تحتوي متطلباته النهمة إلا مقدسات ثقافته الأولى، فهو لا يجابه جسده إلا من خلال اسقاطات رغباته البراقة، أي من خلال علاقاته الوهمية مع من ينبغي أن يرضيها. وهكذا تصبح جميع الأعضاء الموضوعية، مثلما تبدو لناظري مراقب خارجي، أي الفتحات (الفم، والشرج، والأعضاء التناسلية)، وجميع الأغشية المخاطية، وجميع الجلد والأجزاء التي يغطيها، متصفة بقيم رمزية تحبوها خارجياً بعيداً عن الواقع، وشبحياً، وبإيجاز، غير متناسق وغريباً عما حدده لها رجل العلم من بنية ووظيفة. فالطفل يحيا جسده وكأنه في حلم دائم: فيتمدد جسده، ويتقلص، وينفجر، ويتحول حسب شدة حاجاته العاطفية وطبيعتها واتجاهها ورغباته، وحسب ما يعترضها من عقبات. في الواقع، جل ما تقوم به أحلامنا الشخصية كراشدين، مثلما يلاحظ (شيلدرز) هو أنها تعيد (التبدل القديم الضعيف) إلى صورة الجسد لدى الطفل الصغير.

هل يعني هذا الكلام أننا أمام خاصة موقتة تتميز بها الطفولة الأولى وحدها، وأن الجسد يكتشف نفسه متى نما وصار مراهقاً، فيختبر بنفسه في نهاية الأمر في (واقعه الحقيقي) التشريحي والفيزيولوجي، وفي وحدته وتضامنه العضوي؟ فإذا اتضح أن تكون صورة الجسد، في ظاهرها، مثلما مر معنا، ينطوي على اكتساب هذه الوحدة التدريجي، الذي يترافق مع السيطرة على مجمل جسدنا، فإن جسدنا يحتفظ مع ذلك

ببنية شبقية وهمية أشادتها مخايل الطفولة الأولى وجميع ما تعرضنا له من صراعات عاطفية أقلقت تاريخ حياتنا ودونته. نرى أن هذا هو الدرس البليغ الذي يحسن أن نستخلصه من مقاربة الجسد الفرويدية.

لهذا، فإن التصور الغريب والذاتي للجسد نفسه، يتغير، ولا يفتأ يتطور، وتنتابه اضطرابات خطيرة، يستحيل معها عملياً التمكن من أي سيطرة على الفعل، وتتوعد أو حتى تهدم وحدة شخصيتنا. وقد اعتمد على مثل هذه التشوشات عالم النفس، وقبله الأخصائي في فيزيولوجية الأعصاب والطبيب النفساني، والمحلل النفسي، فاستطاعوا أن يدرسوا ويحددوا طبيعة الحلف السري الذي يوحد جسدنا، ونتوصل بفضله إلى اكتشاف بنية ولادتنا الحية، ونحقق هويتها، وننسقها ونستبطنها حتى أعماق عقلنا الباطن.

33- بناء البيت

بعد أن يفرغ ابني من تناول عشائه، وهو في السادسة من العمر، ينصرف إلى اللعب مع ألعابه الكثيرة والمنوعة، فيحرك القطار أو يبني بيتاً من القطع المفككة.

فإن حان وقت نومه أطلب منه أن يذهب لينام، فيجاوبني، إنه لا يريد الذهاب، لأنه يبني بيتاً جديداً، أو، لأنتظر لحظة.

ويتكرر ندائي عدة مرات حتى يستجيب لي أو أنني أعمد إلى الصراخ والضرب، فينصرف غاضباً.

من خلال ما ذكرته أرجو تحليل هذه الحالة.

نادية. ع

في مرات قادمة، إذا لم ينهض ابنك إلى فراشه بالسرعة التي تطلبينها منه، فالأصح أن لا يكون عقابه الضرب أو الصراخ. ولنذكر منظر طفلك المنهمك في اللعب حين تطلبين إليه أن يذهب لينام وجوابه لك بأن تنتظري لحظة لأنه يجب عليه أن يفرغ أولاً من بناء بيته، وهو يعني بذلك، كما يعلمنا علم نفس الأطفال، أن البيت نفسه يطلب إليه أن يفرغ منه، وأنه يشعر – أي الطفل – بأنه يجب عليه تنفيذ هذا الطلب. وهذه اللحظة مهمة جداً في حياة الطفل لأنها تدل على ميلاد الضمير الأخلاقي! حتى إذا أمرت الأم طفلها، بعد سنوات عديدة، أن يتم فروضه المدرسية فهم ذلك وأطاع شريطة أن يكون قد أدرك أن هذا الأمر لا يصدر عن سلطة معلم المدرسة أو سلطة أي شخص آخر، بل عن طبيعة العمل نفسه الذي يطلب أن يفرغ منه. وهكذا تتطلب الرسالة التي نتلقاها رداً عليها لأنه من طبيعة الأشياء الرد عليها ناهيك عن عوامل اللياقة والفائدة.

فالعالِم الذي يتخيل قانوناً علمياً أو الفيلسوف الذي يضع مشكلة فلسفية إنما يخضع كلاهما لتأثير هذا القانون أو هذه المشكلة، وهي أن القانون العلمي يطلب

أن (يخترع) كما تطلب المشكلة الفلسفية (أن تحل) ولا يحق لهما قبول هذا الطلب أو رفضه على السواء. كما أن الفنان ليس حراً في اختيار المواد التي سيستخدمها لتحقيق أثر فني. فهناك منظر آخر يتطلب استعمال الألوان الزيتية. كما أن رأس هذا النموذج يجب أن تنحت من الخشب، بينما يجب نحت رأس نموذج آخر من الحجر. تلك هي الشروط التي تجعل الأثر الفني حقيقياً (مقنعاً)، كما تتيح للفنان تحقيق مثله الأعلى الأخلاقي بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، فيمتاز بذلك عن الصانع الماهر.

وكم من فرد يعلم أن عملاً معيناً يعرضه لمتاعب جدية في صحته، ومع ذلك يضرب بهذا الإنذار عرض الحائط ويفعل ما هو محرم عليه. وليس ذلك دليلاً على الحمق والضعف بل هو معارضة لقوانين الأخلاق الواضحة. فلا يحجم هذا الرجل عن إفساد صحته والمجازفة بعمله والمخاطرة بحياته بينما جميع هذه النعم ليست ملكه وإنما هي أمانة في عنقه. ولهذا العامل نفسه تهتم المرأة بجمالها لأن هذا الجمال ليس ملكاً لها بل هو هبة لطيفة!

إذا كانت مهمة العقل هي التنبؤ بما سوف يقع من الحوادث والأمور، واصطناع الوسائل التي يستطيع أن يحكم بها قياد المقبل من الأشياء، فإن أهم وظيفة للنفس هي أن تكون أداة للهجوم والدفاع. ذلك لأن الإشباع الفسيولوجي الخالص لما فينا من غرائز، ولما نشعر به من حاجات، لا يكفي وحده لمواجهة الأوضاع الشتى التي تعرضها علينا الحياة. يثبت ذلك أن الطفل يبدأ منذ أواخر عهد الرضاعة في القيام بحركات وأمور نستبين منها رغبته في إثبات وجوده في المحيط الذي يعيش فيه. فيبدأ في تكوين صورة عن المثل الأعلى الذي يرى لزاماً عليه أن يشخص إليه، حتى يضمن لنفسه مركزاً في البيئة التي قدر عليه أن ينشأ فيها. ويستخدم قدرة العقل على التمثيل والتشبيه، فيرسم صورة لما سوف يكون عليه في مقبل أيامه، ويتمثلها على طراز واحد من أهله أو على شكل حيوان. وقد يسرف فيصل إلى التطلع لصورة الله نفسه. وتزداد تلك الصور وضوحاً وإسرافاً كلما ازداد

شعوره بضعة مركزه وتفاهته بالنسبة لمن يعيش بينهم.

تتميز تلك العملية بأن الذاكرة تخضع فيها خضوعاً تاماً للوهم الموجه وتخضع الصورة التي يتمثلها الطفل عن العالم خضوعاً بالغاً للقيود التي تصدر عن صغره وضعفه. يزيد على ذلك أن ما كان أول الأمر مجرد حيلة تخيلها المرء كي تتوافق مع موقفه، واتخذها وسيلة يشق بها سبيله ويحقق غايته، تصبح غاية في نفسها، يقوّم المرء كل الأشياء تبعاً لها منذ طفولته ويستمسك بها طول حياته. ولا تصبح الذاكرة وهي القدرة التي تستوعب تجارب الفرد نظاماً موضوعياً بل تصير وظيفة ذاتية، يضبط قيادها الوهم المرسوم عن الشخصية المقبلة.

من ناحية أخرى، فإن خير السبل لمعالجة نزوات الأطفال التي يتعمدون بها مضايقة الكبار أو إثارة حنقهم وغضبهم، هو تجاهل ما يفعلون تجاهلاً تاماً. لكن هذا التجاهل ينبغي أن يخلو تماماً من روح الزهو وألا يكون مشبعاً بالانفعال لأن في تجاهل أفعال الطفل تجاهلاً واضحاً متعمداً ما ينيله الفوز الذي يسعى إليه. إذ لا بد أن يؤمن الطفل حقاً بأن أحداً من والديه أو معلميه لم يتأثر بتاتاً بالعبث الذي بدر منه.

34- الابن الأكبر والأصغر

بعد زواجي بسنتين وشهرين أتى ابني (البكر).

وفي السنة السادسة لزواجنا ولدت بابني الثاني.

ملاحظاتي على ابني البكر وهو يرى أخاه ونحن نضحك له، كأنه في محنة قوية ملأى بالحسد الذي يفجره أو يكبته، حسب مزاجه وحسب مواقفنا نحن والديه؟

جانيت. ج

من الملاحظ أن للبكر، طفل العائلة الأول، بداية صعبة في الحياة، بالنسبة إلى أخوته الصغار. أولاً، لأنه عانى عدم خبرة الأهل، وقلقهم، واهتمامهم وعنايتهم الفائقة أو رعونتهم وعدم مهارتهم. ثانياً، لأن وضعه، كطفل وحيد، أوهمه بأنه محور العالم. لذلك، يجب ألا نتعجب، عند ولادة أخيه الصغير، إذا رأيناه يمر في محنة قوية ملأى بالحسد الذي يفجره أو يكبته، حسب مزاجه، وحسب مواقف الأهل، كما جاء في الرسالة.

هناك انطباع عام بأن حدث الولادة الثانية، بالنسبة إلى البكر، بمثابة نبذ. فإذا وضعنا أنفسنا مكانه، نرى أنه كان، حتى الأيام الأخيرة، أميراً صغيراً يتجمع حوله الحب والانتباه، ليس فقط من جانب الوالدين، بل أيضاً من جانب العائلة كلها. ونطلب منه فجأة أن يتقاسم هذا الانتباه وهذا الحب مع شخص آخر. حتى أننا لا نسأله، بل نضعه أمام الأمر الواقع (سيكون لك أخ أو أخت). وعندما يصل الثاني، تتحول الأنظار نحوه، نحيطه بالحنان، نداعبه، نفتتن بيديه ورجليه الصغيرتين، نشبهه بذلك أو تلك. والأسوأ عندما يعلن أحدهم (أخيراً صبي!) وتكون البكر ابنة، أو العكس بالعكس.

إن الابن الأول، الأكبر، المسن، يشعر بوصول الزائر الجديد، الذي زعزع الأسرة، كحدث كان في غنى عنه. إنه معزول نوعاً ما، ولو موقتاً، لكنه لا يدري.

وتتفاوت غيرة الابن البكر من أخيه الصغير بالقوة وبطريقة التعبير. تكون

قويـة قبـل سـن الخامسـة، لأن البكـر لـم يـزل صـغيراً، ولأن أبويـه يكوّنـان عالمـه الجميل. أما الطفل ما بعد الخامسة فيبدأ بمعاشرة الأطفال في المدرسة، ويصبح أكثر استقلالاً عن والديه ولاسيما عن والدته. يشعر بأنه أكبر من المولود الجديد، ويبرهن عن رفعة تدفعه إلى حمايته أكثر من حسده.

لو جرب واحدنا وسأل أهل الطفل البالغ من العمر ثلاث أو أربع سنوات عن ردود فعله إزاء الولادة الجديدة، لوجد عادة هذا الجواب: الغيرة مفقودة! إنه مسرور جداً، إنه يعبد أخوه الصغير ويرعى شؤونه.

والأهل الذين عاشوا هذه التجربة وكانوا كبار أخوتهم، يكتشفون، حسب تجربتهم، ما يمكن أن يدور في رأس طفلهم الصغير الذي لم يتجاوز بعد الثالثة أو الرابعة من العمر. وكذلك، فالغيرة والحسد لهما دعاية سيئة، فإذا اعترف الأهل بغيرة ولدهم، يتهيأ لهم أنهم لم يقوموا بواجباتهم كاملة لتفادي هذا العطل. بينما عندما (يعبد) البكر رسمياً أخاه الصغير، أو أخته الصغيرة، ويدعه يقع على الأرض، أو يملأ رأسه بالرمل، أو يقرصه خفية، تكون حجة الأهل عندئذٍ أن الطفل غير واع، أو يضعون ذلك على حساب الرعونة والانحراف. لكن الأهل، الذين يرفضون الواقع، ينسون أن الأطفال الصغار ليسوا ملائكة، وأن الأخلاق لا تكتسب، وأن الاندماج في الحياة الاجتماعية ليس فطرياً بل نتعلمه، وأن الغرائز في بداية عمر هذا الطفل تكون حادة وصريحة ومن غير مراوغة. وأخيراً، فالحسد، أي الخوف من الحرمان، من الحب، أو حتى إضاعة التفرد، هو شعور طبيعي لا نستطيع إلصاقه بالانحراف.

والطفل الذي، بعدما كان لأعوام قليلة ماضية يمتلك قلب والدته بمفرده، لن يرغب في إشراك أي متطفل في هذا الحب، حتى أنه قد يرغب بمحو هذا الدخيل، وإسقاط هذه المضاربة.

إن الابن الوحيد لا ينبغي أن يبقى وحيداً، فإذا لجأ الوالدان إلى ذلك خوفاً من ثقل التبعات الاقتصادية فكأنهم بخوفهم من تحمل التبعة التي سوف يلقيها عليهم

من لم يولد، يرتكبون إثماً في حق من أقبل على الدنيا فعلاً. إذ إن من أشد الأمور عسراً هو تربية الطفل الوحيد، هذا إلى الوحدة التي تفسد عليه أمره وتبعده عن العيش مع أترابه، ومع هذا فإذا قسم على الأسرة طفل وحيد لزم أن يتجنب الأهل تدليله بتربيته تربية يَعتمد فيها على نفسه، وبالتبكير في الجمع بينه وبين لداته تبكيراً يهيئ له العيش مع غيره وتحمل اليسر والعسر واستقبال الخبرة التي تتطلبها تلك المعيشة.

ونعود مرة ثانية إلى الطفل الأكبر، فمن الطبيعي أن تبقى وحيداً زمناً ما، وأن يكثر، تبعاً لهذا تدليله لمدة معينة لأنه يبقى مركزاً لرعاية أهله، وموضوعاً لوافر عنايتهم، لهذا ينبغي إعادة للتجربة الثقيلة التي سوف تنزل به حين يولد في الأسرة أخ أصغر منه، فإذا بالوليد قد جذب إليه الأنظار واحتكر العناية وقبض أمه إليه، توفر وقتها جميعه على رعايته، وإذا بصاحبنا الكبير مروّع مأخوذ لسلب أمه منه لا يدرك أنه أخذ دوره في ذلك من قبل وأن رعاية الأهل لأخيه لا تعني ذهوب عطفهم عليه، وإذا بالغيرة تأكل قلبه وتقض عليه أيامه ولياليه. لهذا ينبغي أن يعد الطفل الأول لاستقبال الوليد المقبل، وأن يوقن أن لا بد للإبقاء عليه من الانتباه له والعناية به بعد أن أخذ هو نصيبه من ذلك، وأنه يلزم الكبير أن يتحمل جانباً من تبعات الأسرة نحو الصغير، ففي ذلك ما يبعث الرضى في النفس ويزيد من زهو الطفل واعتزازه بشأن نفسه. كما أن في ذلك ما يمنع جبروت الكبير بالصغير ويحد من سطوته عليه، ولا يشجع تدليل الأهل للصغير، ذلك لأن للأطفال مهارة عجيبة في تربية الأطفال لأنهم يفهمون مشاكل من يصغرونهم ويتوقون إلى إسداء العون المستطاع لهم، بل لعلهم في ذلك يفوقون الكبار حذقاً ولباقة في كثير من الأحيان. يتكرر ذلك الموقف من الصغير ومن يليه، فإذا لم يهيأ الجو بينهما تهيئة صالحة يتعاون فيها الأهل جميعاً ويعملون لذلك ما وسعه العدل والحيلة كان العراك بين الصغيرين عنيفاً حاداً. تبقى في نفس كل منهما من آثاره ما يلازمه طوال حياته، وما يعيّن كثيراً أوجه نشاطه وسلوكه فيما بعد.

35– مساعدة أم عجز

تزوجت منذ ستة أعوام ورزقت بطفلين: صبي وبنت.

عودنا الصبي (وهو الكبير) أن يمسك بيد أخته ويمشي وإياها، باعتباره أكبر منها بسنتين.

وها هما في الرابعة والثانية من عمرها يمشيان معاً.

نطلب من البنت أن تمشي لوحدها فترفض وتريد يد الأخ في مساعدتها.

مهما حاولنا أن نثنيها عن ذلك فهي عنيدة لا تلين.

هل من دواء للحد من العناد بالنسبة لابنتنا؟

سلمى. ف

أنت تطلبين مني الدواء لابنتك في عنادها فيما أنت كنت السبب في موقف ابنتك هذا.

كنت تحسين بالفرح (أنت وزوجك) كما تشعرين بالسعادة حين تلاحظين أن ابنك يمسك بيد أخته الصغيرة ويحميها ويساعدها.

والخطأ كل الخطأ لأن ذلك ينزرع في عقلها الباطن وفي عقله أيضاً .. إنها في حاجة لمن يحميها وفي عقله أنه يجب أن يكون مسؤولاً عنها، أو أنه الأرجح عقلاً وقوة.

إن مثل هذا الأمر من الأم أو الأب، يزرع في نفس الطفلة أنها لا تستطيع الاعتماد على نفسها، ويزرع في نفس الطفل الأكبر أنه المسؤول عنها. وحين يكبر الاثنان، ويدركان المزيد من خبرات الحياة، وتتحول تلك المشاعر بحكم التقاليد والمجتمع والمفاهيم السائدة إلى أن تحس الفتاة أنها في حاجة دوماً لمن يحميها، ويحس الشاب أن الفتاة قاصر، وأنها ضعيفة، ضعيفة البدن، تجر في ذهنه وتصوراته أنها ضعيفة العقل أيضاً. وتتشابك الصور ليرى نفسه الوصي عليها، وأنه لا يجوز لها أن تتصرف بمعزل عنه. ومع الوقت تتبلور عقلية الرجل وعقلية

المرأة في شكل غير صحي.

على الأم في مثل هذه الحالة أن تبحث دوماً في ما يقوي الفتاة الصغيرة بحيث تشعر بالثقة بالنفس وبقوتها وقدرتها على مواجهة أي أمر. فحين تكون في الثانية أو الثالثة من العمر، لا بأس أن تقع الأرض وأن تُجرح أيضاً وتبكي، فذلك أسلم لنفسها من أن تحس أنها عاجزة أو قاصرة، وأنه لا حق لها أن تتصرف إلا بموافقة الرجل، لأنها هكذا نشأت .. تشعر بالرهبة تجاه الرجل – الأب، بدل أن تشعر بالمحبة والتفهم، وتشعر بالرهبة تجاه الأخ الأكبر، وقد يكون الأصغر، فتترسخ في عقلها مفاهيم تجردها من شخصيتها فيما بعد.

لا يعني هذا التفلت الأسري، كما يتوهم البعض، بل أن تنشأ الفتاة وهي تثق بنفسها وقدراتها، وتثق أنها تستطيع الاعتماد على قدرتها حتى ولو لم يكن ذلك تماماً، إلا أنه يمنحها المزيد من الشعور بالقدرة والقوة.

إن تربية الأطفال دون إثارة مشاعر الغيرة بينهم أو مشاعر الاتكالية، أمر صعب ويتطلب الكثير من اليقظة والاهتمام والمعرفة، ولهذا فمن واجب الأم أن تطلع وتقرأ وتستشير المتخصصين لتعرف كيف تعامل صغارها دون أن يترك ذلك في نفوسهم وعقولهم أية رواسب. لأن الأم تستقي معظم معلوماتها في تربية أطفالها إما من قريباتها (وخاصة والدتها) أو جاراتها، أو ذاكرتها. وقلما تستشير في ذلك طبيباً أو مربياً أو كتاباً (حتى ولو كان ذلك متوفراً وكانت تجيد القراءة). وبالتالي فإن أسلوب التنشئة للأطفال يميل إلى أن يكون تكراراً لأسلوب الجيل السابق. فالأم العربية تعتمد على الممارسة المستقرة، والخبرة الوجودية لها أو لغيرها من النساء اللاتي يكبرنها سناً وخبرة.

ومن المؤسف أن انتشار الأفكار الخاطئة لا يقتصر على مستوى العامة فحسب، بل نجده شائعاً أيضاً عند صفوة من المثقفين والمتعلمين. ومن هؤلاء من يعتقد جازماً أن السلوك الإنساني سلوك فردي، بمعنى أن كل فرد فريد في ذاته وليس شبيهاً بأي فرد آخر، وعلى ذلك فليس هناك مجال لاستخلاص قوانين أو

مبادئ عامة للسلوك. وبالتالي، لا يمكن التنبؤ بما يصدر عن الفرد سواء في حاضره أو في مستقبله. كما يوجد من يقول: إنه، حتى إذا كان هناك نظام سببي تخضع له الظاهرة السلوكية، فإن هذا النظام هو في الواقع من التعقيد بحيث يستحيل اكتشافه، أو وصفه أو تحديده. أو من يقرر أن مبدأ السببية في السلوك الإنساني يتعارض أصلاً مع حرية الإنسان ومسؤوليته الأخلاقية، ولذلك فلا نستطيع أن نسلم بإمكانية قيام علم للسلوك. وهذه الأفكار الخاطئة هي، بدورها، نتاج لعوامل وأسباب مختلفة، منها الجهل بالعوامل الحقيقية المسؤولة عن النمو الإنساني، ومنها طول الفترة الزمنية التي قد تحتاجها الملاحظة في هذا الميدان. على أن ثمة أسباب أخرى قد تكون أهم من هذه وتلك، ألا وهي الأسباب التي تتعلق بالدوافع الشعورية أو اللاشعورية، وبالمصالح الشخصية والفئوية عند الكبار ذاتهم.

أخيراً نشير إلى ناحية مهمة في هذا الموضوع إلى أن الكبير من الصعب عليه أن يعترف بالمسؤولية بالنسبة لما يترتب على تصرفه، أو أسلوب معاملته للأطفال. ففي أغلب الأحيان نجد أن الكبير باعتباره جزءاً من البيئة التي يعيش فيها الطفل لا يريد أن يسلم، من البداية، بأن نمو الطفل إنما يتحدد إلى درجة كبيرة بالطريقة التي يعامله بها، وبالقيم التي يؤكدها له وبالاتجاهات التي يتخذها نحوه. فمثل هذا التسليم يتضمن شعوراً بالذنب ومخاوف أخرى مختلفة. ولا يوجد من بين الناس العاديين من يستطيع أن يتخلص من هذه المعوقات، مهما كانت رغبته صادقة، ومهما كانت نيته الشعورية تؤكد حسن التعاون، خاصة إذا كان يعيش في ثقافة التسلط وتنكر الاستقلالية كقيمة ثمينة.

الحداثة

36- تفهّم سلوك ونفسية الأبناء

ما أشكو منه هو عدم فهم نفسية ابني.

لا أعلم سبب ذلك!

هل لجهل مني أم أن نفسية ابني مختلفة؟

نجاح. ع

الحالة التي تشكين منها كثيراً ما نسمعها من الأب أو الأم من حالة أولادهما وعدم الاستجابة لنصحهما أو لتمردهما بما يشبه عدم فهم سلوك ونفسية الأولاد.

وواقع الحال في مسألة كهذه أن الخطأ في الآباء والأمهات وليس في الأبناء. فالآباء – رغم كل الحكم والأمثلة وعبر التاريخ ورغم كل النصائح والتوجيهات – يصرون أن يطبقوا على أبنائهم مقاييسهم هم والقيم التي عاشوها في أيامهم ولا يأخذون اعتباراً لكل التغيير الحاصل.

إني لمقتنع أن مسؤولية عدم التفهم بين الآباء والأمهات من جهة والأبناء من جهة أخرى يرجع في أكثر من سبعين في المائة منه إلى الآباء أنفسهم، حتى في الثلاثين في المائة يتحمل الآباء والأمهات بعض المسؤولية. فالصغير حين يتخذ موقفاً – سلبياً أو إيجابياً – لا يتصرف كذلك إلا بناء على القيم والمفاهيم التي زرعها البيت في ذهنه. وفي هذا الشأن يمكن تقسيمهم إلى فئتين إن أردنا محاولة فهمهم وفهم سلوكهم وتصرفاتهم: الفئة الأولى من سن سنتين إلى ثلاث عشرة سنة والفئة الثانية من الثلاث عشرة إلى التاسعة عشرة أو العشرين، وبعد ذلك يمكن تطبيق مقاييس أخرى غير الأولى بما يتناولهم.

إن تكوين الوالدين السيكولوجي إن هو إلا مقدمة نستطيع أن نتعرف بها على المؤثرات التي تعمل على تنشئة الطفل، فالفتاة التي لا ترضى عن جنسها ولا تحس بين جنباتها باعثاً صحيحاً لتحمل الواجب الملقى عليها كامرأة لن تصلح بعد أمّاً. وهي إن أرغمت على ذلك لم يكن في سلوكها إزاء صغارها سوى ما يبعث فيهم العوج ويزيد

في الأمر سوءاً وتعقيداً. ومن الطبيعي أن يكون لكل طفل مركز خاص في الأسرة يختلف عن مركز أي طفل آخر اختلافاً كبيراً واضحاً ولو أن من المألوف ألا يؤمن القوم بتلك الحقيقة – هذا إلى أن الوالدين في الواقع لا يستطيعان البتة أن يعاملا طفلين اثنين معاملة واحدة متناسقة فلعل في عطفهما على الصغار تفاوتاً، بل من الحتم أن يكون في آرائهما عنهما خلف وتباين. لهذا كله يعني أصحاب السيكولوجية الفردية بتفصيل الظروف التي توجه الصغير في محيط الأسرة وما تتركه من أثر باق في بعث الشعور بالقصور في نفسه ومن ثم في تحديد سلوكه وأسلوب حياته كلها فيما بعد.

وقد تناول أدلر في أبحاثه أثر الأسرة في تكوين سلوك الفرد تفصيلاً مطولاً أفعمه بالأمثلة، وهو ينحرف في الغالب إلى تعميم الحالات الخاصة لبعض الأطفال على الصغار جميعاً. كأن يقول إن كل طفل يفضل أباه ويلتصق به، لا بد أن يكون قد اتخذ ذلك الموقف نكاية بأمه حين بدأت توجه عنايتها إلى أخوته الصغار كما يذكر أن الطفل إذا خاب في اجتذاب أنظار أحد من أهله لجأ إلى العزلة وفقد الأمل، لهذا نجد أن أكبر الأطفال في الأسرة يعيشون في الغالب طول حياتهم على ذكر الماضي وهم مولعون بالتحدث عن الأيام الخوالي وهم يكرهون المستقبل ويخشونه كما أنهم على الدوام أكثر تشاؤماً في الحياة من غيرهم. والمرء منهم في حياته العملية يود لو يفرض سيطرته وسلطانه على من يحيطون به، يدعو إلى احترام القوة والقانون، مولع بالمحافظة، دائم الظنة بالغير، كثيراً ما يخيل إليه أن الدسائس تحاك حوله لخلعه من مكانه.

وفيما يتعلق بالطفل الثاني فهو أحسن حالاً إذا لم يسرف أخوه الأكبر في الاستبداد به، وهو يتميز برغبته الملحة في اللحاق بغيره والتفوق عليهم. وفي التوراة قصة رائعة تمثل العلاقة بين الولد الأول والثاني، وكيف انتهى التنافس بينهما إلى سبق (يعقوب) وفوزه بعطف أبيه حتى ضاق أخوه الأكبر (عيسى) ذرعاً بذلك وتنازل عن حقوقه كلها تخففاً من الضيق الذي أزهق أنفاسه.

ولا يظهر الفرق بين هذين الطرازين من الناس في حياة الصحو فحسب بل هو

كثير الورود في أحلام كليهما. فالبكور في صغرهم وفي كبرهم غالباً ما يحلمون بالسقوط من شاهق، بينما يحلم من يتبعونهم بأنهم في حلبة السباق أو أنهم يعدون وراء القطار أو يلاحقون الترام حتى ليكفي أن تسمع حلم أحد الناس عن العجلة والإسراع لتعرف أنه طفل ثان.

أما الطفل الأصغر في الأسرة فيبقى في الغالب على عرشه لا ينازعه فيه أحد يتمتع فيه بنصيب كامل غير منقوص ولا منتهب من الرعاية والتدليل. ومع هذا فكثيراً ما يبز الجميع لأن كثرة أخوته تبعثه على وجوه كثيرة من المنافسة تعينه على النضوج والجد. ويكفي أن نذكر قصة (يوسف) مثلاً لذلك.

من ذلك خرج أدلر إلى أن مركز الفرد في الأسرة يلعب دوراً كبيراً في تحديد نفسيته ويقول: (إنني حيثما قمت بدراسة البالغين وجدت أن الطفولة الأولى خلفت فيهم آثاراً عميقة لازمتهم طوال الحياة. ذلك لأن مركز الفرد في الأسرة يترك طابعاً بارزاً على أسلوب الحياة. كما تنشأ كل المصاعب التي تعوق النمو من شدة المنافسة وقلة التعاون في ذلك).

37- الذاكرة التصويرية

ابني في السابعة من عمره.

له ذاكرة نادرة قلما سمعت عن مثلها.

إنه يتذكر أي شخص – على صغر سنه – قد لقيه في السنوات الأخيرة.

وإذا لم يعرف اسمه فإنه يتقارب مع الاسم في ذكر اسم مشابه.

كيف تحلل ذلك؟

انتصار. ن

وأقول في تحليلي أن ابنك له ذاكرة جيدة، ويقسم نشاط الذاكرة إلى عمليات التعلم، وفيها (تقرأ) الأحداث المتذكرة على الأقسام الملائمة من المخ، ثم عملية التخزين وهي التي تسمح بالاحتفاظ بالذكرى، ثم عملية الاسترجاع أو الاستعادة وفيها يتم تذكر الحدث بالفعل.

وهذه الأقسام الثلاثة تطابق من حيث الشكل الأقسام الموجودة في الحاسب الإلكتروني. ولا شك أن عبارة (تقرأ) – كما أطلق عليها جورج تايلور – إنما استعارها من لغة الحاسب الإلكتروني. ولكنها معبرة تماماً عما يحدث في المرحلة التعليمية الأولى من الذاكرة الإنسانية. على أنه من الضروري أن نحذر من المضي بعيداً في المشابهة بين الإنسان والكمبيوتر، فقد تكون مفيدة في حدود ما عرف حتى الآن عن الذاكرة الإنسانية، ولكن يجب ألا يعمينا ذلك عن الفروق. فالإنسان بلا شك ليس بالبساطة التي توجد عليها أجهزة الكمبيوتر في هذه الأيام. وتتكاثر الأدلة على أن ذاكرة الإنسان تعمل بطريقة مختلفة.

ومثل هذا الأمر يطلق عليه الذاكرة التصويرية وهو يحدث أساساً عند الأطفال، ويحتوي كمية هائلة من التفاصيل، فالأطفال الذين ينظرون لصورة ما لدقيقة واحدة أو أقل يستطيعون اكتشاف تفاصيل جديدة في كل مرة يسترجعون فيها الصورة إلى ذاكرتهم. ورغم ذلك فإن الصورة التصويرية تظل مختلفة عن الصورة

الفوتوغرافية لحدث أو خبرة ما، إذ إنه لا يمكن قراءة كافة تفاصيل الخبرة الأصلية فيها، خاصة الأجزاء الأكثر أهمية.

تطرح مسألة الذاكرة التصويرية دور التعلم في الحفظ، فهذا التعلم هو أكثر تعقيداً بكثير من مجرد قراءة أو استظهار الصورة في مخزن الذاكرة. فهو يتضمن عادة تكرار خبرة لعدد من المرات قبل أن يتم تطابق الصورة منها.

الذاكرة التصويرية تعتمد بصورة رئيسة على الإبصار، وهذا يعتبر من أكثر العمليات الحسية التي أولتها الدراسات والبحوث اهتماماً خاصاً، وربما يرجع هذا إلى أن جهاز الإبصار (العينان) يعد أقرب الحواس إلينا، فضلاً عن أن الفلاسفة القدامى قد اعتقدوا أن الإبصار يعتبر (الحاسة السائدة) لدى الإنسان.

ويمكننا شرح سلسلة الاستقبال البصري من حيث أنها تسير وفق سياق عمليات الإحساس الأساسية. ذلك أن وجود تتابع معين للأحداث ضروري حتى تتم عملية الإحساس، بصرف النظر عن نوع الحاسة التي نتحدث عنها. فلا بد أولاً، من توافر مثير مناسب لتلك الحاسة بشدة كافية حتى تبدأ عملية الاستقبال، ويقوم المستقبل (وهو عبارة عن نهاية عصب خاص بهذه العملية) بتلقي الإشارة ونقلها عبر الجهاز العصبي الطرفي، أو البدني، إلى المخ، فتنشط الإشارة جزءاً معيناً من المخ الذي يسجل الإشارة كإحساس، ومن ثم لا تتم عملية الإحساس إلا بعد وصول الإشارة إلى المخ.

تدخل الطاقة الضوئية إلى العين بالمرور خلال القرنية، وإنسان العين، والعدسة، ثم تلتقط بواسطة مستقبلات الإبصار الموجودة في مؤخرة مقلة العين في الشبكية، وهنا تتحول هذه الطاقة إلى إمكانية فعل أو نشاط وتنتقل عبر العصب القذالي إلى منطقة الإبصار في المخ، حيث تسجل وتفسر كمرئيات، وتتكون الصور على الشبكية في وضع مقلوب ولكن المخ يقوم بإعادتها إلى الوضع المعتدل مرة أخرى.

ويقوم الطفل عن طريق الإدراك بتفسير المثيرات الحسية، حيث تقوم عمليات

الإحساس بتسجيل المثيرات البيئية، بينما يضطلع الإدراك بتفسير هذه المثيرات وصياغتها في صور يمكن فهمها.

من ذلك يبدو، أن جوهر الجهد التذكري هو أن ينشر المخطط – وهذا المخطط إن لم يكن بسيطاً فهو على الأقل مركز – صورة تميزت عناصرها واستقلت بعضها عن بعض إلى حد ما. فحين ندع الذاكرة تطوف على غير هدى بدون جهد، فإن الصور تعقب الصور، وتكون كلها في مستوى شعوري واحد. أما حين نبذل جهداً، فإننا نتجمع في مستوى أعلى، ثم نهبط شيئاً بعد شيء نحو الصور التي علينا أن نتذكرها. فإذا كنا في الحالة الأولى، إذ تجمع صوراً إلى صور، تتحرك حركة ندعوها مثلاً حركة أفقية على مستوى واحد، فقد وجب أن نقول إن حركة في الحالة الثانية حركة عمودية وأنها تنقلنا من مستوى إلى مستوى آخر. إن الصور في الحالة الأولى متجانسة فيما بينها. ولكنها تمثل أشياء مختلفة. أما في الحالة الثانية فإن الشيء الذي نتصوره في كل لحظات العملية شيء واحد بعينه، ولكننا نتمثله على أنحاء شيء نتمثله بحالات عقلية غير متجانسة فيما بينها، فتارة بمخططات، وتارة بصور، والمخطط ينحو، نحو الصورة كلما اشتدت حركة الهبوط. وكل منا يشعر شعوراً واضحاً أن العملية تتم امتداداً وسطحاً في الحالة الأولى واشتداداً وعمقاً في الحالة الثانية.

على أن من النادر أن تتم العمليتان منفصلتين، وأن نجد أحدهما على حالتها الصافية. فمعظم أفعال التذكر تنطوي على هبوط المخطط نحو الصورة وعلى تطواف بين الصور نفسها. ومعنى ذلك، أن فعل التذكر ينطوي عادة على نصيب من جهد، ونصيب من آلية.

38- انتقال من طور إلى طور

بعد أن أنهى ابني مرحلة الحضانة والتحضيري مضى إلى مرحلة التعليم الابتدائي وأصبح في السنة الثانية.

وهو الآن في الثامنة من عمره بعد أن تأخر قليلاً في الدراسة.

إنني أرى التغير على نفسية ابني في هذه المرحلة.

فكيف تحلل ذلك؟

محمود. ظ

نرى الآن أن التدريب يفسح حالياً في المدارس، في ثقافتنا الحاضرة، المجال لاختبار مليء بالنتائج الخطيرة.

فإذا كان الصغير قد ربي في كنف أبوين غريبي الأطوار، عندها قد يكون للمدرسة نتائج مهمة جداً لخير الولد وصالحه. وقد يشعر الولد في البدء – وذلك بسبب الصعوبة التي يجدها في النظر إلى الاختبار والتمعن به ضمن حدود الذات – أن المعلم هو نوع غريب من المخلوقات الخطرة المنحطة، أي إنه نوع من الأشخاص الذين لا يخالطهم والداه، ومع ذلك حينما يرى بصورة تدريجية جداً أن الأولاد الآخرين الذين هم الآن شخصيات مهمة في المدرسة يتحملون ذلك ويسلمون به كأمر واقع، ويبدو لهم كشيء طبيعي جداً، وحين يتوفر له هذا التأييد أو الإثبات القوي لهذا الاختبار الجديد، يصبح من الممكن امتداد الذات إلى حد ما. وإنه لمن الصعب دائماً الوصول إلى هذه النتيجة. إلا أن الذات قد تبدأ بالشك بطريقة ما في بعض القيود الشديدة الصارمة التي خالطت ذلك الاختبار. ومع أن هذه القيود لا تزول بل قد تظهر ذاتها خلال الحياة بوضوح في أوقات الضيق، إلا أن اختبار المدرسة قد يوجه قوة الذات الحركية في وجهة أخرى من شأنها فسح المجال أوسع للعيش بقناعة والتمتع بصحة عقلية جيدة.

إن التعلم في المدرسة يسهل الحصول على بعض الاختبارات (التركيبية) –

(اللغوية)، إلا أنه لا بد من تصعيد الشيء الكثير من دوافع المرء. والتربية تستدعي نماذج مهيمنة في الذات، ويظهر محاسب داخلي أو (كاتب نقاد). وهذا النقاد الداخلي هو تركيب ثانوي في نظام الذات.

ويزداد التيقظ في هذه الفترة إلى ما قد يحدث في العلاقات الشخصية المشتركة. وبينما تظهر الحاجة للاتصال ولوجود أشخاص يحادثهم ويستمعون إليه في عهد الطفولة، فإن هذه الحاجة تزداد إلى حد لا يمكن ردها أو الاستغناء عنها خلال عهد الحداثة. وإذا ما جعلت اتصالات كهذه صعبة لسبب ما، عندها يظهر الشعور بالوحدة. وينشأ أيضاً خوف من التقدير الباخس وخوف من الفصل والإبعاد، الذي تعود جذوره إلى التعليم عن طريق عدم المبالاة التي يستخدمها الآباء في الغالب كسلاح في تهذيب الولد، ويقال إن مجتمع عهد الحداثة يسهم كثيراً في تشخيص الذات على شكل السمعة. فالسمعة تبدأ في هذه الفترة، ويكون الشخص إما محبوباً أو غير محبوب أو وسطاً بين الحالتين.

وإذا كان الحدث صادفه الحظ، يصبح أحدهم في النهاية مرغوباً فيه إلى حد ملحوظ، أي يصبح (الصديق المحبوب) الذي من شأنه أن يؤدي إلى إرضاء الرغبات وتجنب القلق. وهذه الظاهرة ترافقه إلى العهد السابق للمراهقة.

إن الولد خلال عهد الحداثة يتلبس شخصيات ثابتة، وهذه تصبح شخصيات مجردة له. فإذا كان الشخص ملتوياً من ناحية نفسية، عندها يمكن أن تكون هذه الظاهرة خطيرة جداً، ويمكن أن تتخذ اتجاهاً رديئاً، وهذه التشخيصات المجردة تستخدم كمحاولات لتجنب القلق، ومن هذه التشخيصات: البنات والصبيان وعندها تصبح الحياة في الغالب نزاعاً للتخلص من هذه التشخيصات المجردة.

ويلاحظ في هذه الفترة اتجاه الترقي في مجال النشاط الذهني من الإحساس إلى التصور الذهني. وليس الرقي هنا عبارة عن إضافة الجديد إلى القديم. بل إن ذلك يشير إلى اتجاه الترقي بعد أن يكون قد ارتقى السلوك الحركي الذي يتناول الأشياء الخارجية أو ما يرمز إليها بطريقة طبيعية مباشرة. فالجزء من الشيء أو

التنبيه الصادر عن الشيء أو ما يرمز إلى الشيء بطريقة مجسمة أو تخطيطية، كل هذه الرموز لا تزال متعلقة بالشيء الخارجي ومحصورة في دائرته إلى حد كبير. ولكن لكي يتقن الطفل استخدام قواه الفكرية لا بد له من أن يصطنع رموزاً تتحرر قدر الإمكان من الروابط الحسية المادية لكي تصبح صالحة لاستخدامها في أكبر عدد من المواقف التي تكون بعض عناصرها متشابهة. فرقي السلوك يقضي بأن يتمكن الحدث من أن يسترجع صورة الشيء بعد زواله وأن يدرك وراء الألفاظ التي يستخدمها أو الصور الحسية التي يتخيلها المعاني وعلاقات المعاني بعضها ببعض، وأن يكون قادراً على تصور المعاني الكلية وتعقل المعاني المجردة وتنظيمها في التفكير.

وفي جانب آخر نرى الحدث في كل أفعاله تصدر عن حرية إرادته واختياره، أو نتيجة عادات تكونت من الرقابة الإرادية أو وجدت التشجيع على طائفة منها، والضبط والردع لجملة أخرى بينها، فهو بدلاً من أن يندفع فوراً مع حافز غريزته، أو يحاول جاهداً إدراك كل غاية يطلبها، ويحقق كل شهوة يشتهيها، لا يفتأ يقاوم، إن لم يستطع أن يكبت، هذه الشهوات، ويغالب هذه الرغبات، ويتصرف تصرفاً معارضاً لها على خط صحيح.

ولا يمكننا القول إن تصرفه هذا نتيجة نضال بين الرغبات وتغلب القوي منها على الضعيف، بل قد يتصرف غالباً بعد أشد المقاومة لغرائزه، دون الاكتفاء بأهون الرغبات وأيسرها، وقد تكون دوافعه إلى هذا التصرف حقائق عرفها بالتجربة، أو نزعات أقل في شدتها كثيراً من الرغبات التي قاوم بواعثها.

ولا بد للحدث من أن يمر تدريجياً خلال أدوار نموه وتطوره من المرحلة الدنيا في السلوك – حين يكون طفلاً – إلى هذه المرحلة العليا. ويصح لنا أن نقسم السلوك إلى أربع مراحل متوالية، لا بد للفرد أن يمر بإحداها قبل أن يتجاوزها إلى التالية لها. وهذه المراحل الأربع هي:

1. السلوك الغريزي، وهو السلوك الذي لا يخضع لغير اللذة والألم اللذين

يجربهما الحدث في مختلف حياته الغريزية، كالطفل يلذ له أن يقتنص من الحدائق وينصب الحبائل لصغار العصافير أو يتألم من مشاهدة أمه تبكي أو أخ له يظفر بدمية دونه.

2. المرحلة التي تخضع فيها الدوافع الغريزية لتأثير الجزاء والعقاب اللذين تواضعت عليهما البيئة الاجتماعية، كالحدث الذي يذهب إلى البستان فيلتقط بيضة كانت مخفاة فيحضرها إلى أمه فتسر بفعلته، أو يعبث بأفراخ الدجاج فتعاقبه.

3. المرحلة التي يخضع فيها الحدث لشيء واحد، وهو ما يتوقعه من المدح والذم في المجتمع، كالحدث الذي يشي بصاحب له فيذمه الأهل أو كآخر ينزع إلى البر والاستحسان فيجد المديح والثناء.

4. المرحلة العليا التي يخضع فيها السلوك لمثل أعلى، وفكرة سامية تجعله يتصرف تبعاً لما يراه حقاً بغض النظر عما قد يصيبه في البيئة الاجتماعية من مدح أو ذم، كالحدث الصريح حتى في المواطن التي يتحرج أكثر أصحابه فيها من الإدلاء بآرائهم. ولا شك أن حدث كهذا يكون قد تربى على الصدق والمحبة حتى يكون قادراً على هذه الأمور.

إن عاطفة الاحترام عند الأحداث من ذوي الطبائع السليمة والأخلاق القويمة، تختلف عن الاعتزاز، لأنها تشمل الشعور بالإحساس السلبي والإيجابي على حد سواء، وهذا الشعور هو الذي يفرق بين احترام الذات والاعتزاز.

39– عزل الطفل عن الحياة الاجتماعية

قرأت عن حالة عزل بها طفل عن بقية أخوته ووضع في غرفة لوحده.

ونما الولد وهو مقيد الرجلين غير أنه كان أشبه بالأبله.

هل عزل هذا الولد عن المجتمع هو السبب في وضعه الراهن، أم أنه كان أبلهاً بالطبيعة؟

أحمد. خ

يمكننا إيراد قصة مشابهة للحالة التي نعرض لها لصبي أفيرون الوحشي الذي خرج من الغابة عام 1799 طلباً للدفء والغذاء واستسلم للناس. وقد عاش إلى الثانية عشرة من عمره في الغابة عارياً في جو قاس، متمتعاً بصحة جيدة ولم يتعرض لرذائل المجتمع العديدة، وكان يهز جسمه جيئة وذهاباً كما لو كان قرداً في حديقة الحيوان، وتعتريه حركات تقلصية، كما كان يعض ويخدش بأظافره من كان يحاول إطعامه دون أن يظهر محبة نحو أي إنسان. وقد اتفق رأي الفلاسفة مع الأطباء على أن ذلك الولد قد تركه ذووه في الغابة، لأنه كان أبله، غير أن أحد الأطباء، ويدعى كاسبار إيتار، خالفهم الرأي، حيث ذهب إلى أن الولد كان يتصرف كأبله، لأنه ترك وحيداً في الغابة منذ الطفولة.

وعزز كلامه هذا بإجراء تجارب التجربة والخطأ عليه. ولم تمض سنوات حتى كان هذا الصبي – الذي اسماه الدكتور إيتار، فيكتور – يفهم اللغة الفرنسية، ولكنه لم يستطع التكلم بها، رغم كل المحاولات. ويبدو أن سماع الآخرين يتكلمون خلال فترة الطفولة الأولى ضروري لتعلم اللغة. وأخيراً استنتج إيتار أن فيكتور لم يكن متخلفاً بأي شكل من الأشكال، ولكن العزلة الاجتماعية التي فرضت عليه كانت السبب في مصيبته، وأن أثرها غير قابل للإصلاح.

وفي حين لا يعتبر معقولاً أن يولد طفل بعقل كامل النمو، فإن النظرة الحديثة الآن تتحصر في اعتبار كل شخص يكون عقله محدود النمو (ضعيف

العقل). وعلى هذا الأساس لا يوجد جنون بين صغار الأطفال بالمرة. أما إذا أصيب عقل الطفل – ولد عادياً – بمرض أو إصابة أثناء مرحلة الطفولة فإن الأثر الذي يبقى ظاهراً فيه هو تأخره الفكري من جميع نواحيه مما يستحيل معه العلاج. وقد أصبح الضعف العقلي يعني حالة وقوف النمو العقلي أو عدم كماله قبل سن الثامنة عشرة، سواء كان نتيجة الوراثة أم متسبباً من مرض أو إصابة.

إن الضعف العقلي عند فيكتور هذا ناتج عن عدم القدرة على التكييف الاجتماعي، وعدم القدرة على التعلم نتيجة للوضع الذي وجد فيه هذه المدة وحيداً في الغابة.

وفي قرار اللجنة البريطانية الملكية سنة 1904 أن ضعيف العقل هو الشخص الذي يمكنه الحصول على عيشه في ظروف حسنة، ولكن ليس في وسعه بسبب عجزه المولود معه أو بسبب إصابته في سن مبكرة أن ينافس العاديين أو أن يعرف ويتصرف بالحذر والحيطة.

وفي الوقت الحاضر أصبح لدى علماء النفس قناعة أن هؤلاء الأطفال نادراً ما يكونون معاقين عقلياً. ولا ينتج سلوكهم غير المعتاد عن العزل بحد ذاته، بل من عدم إتاحة فرصة لهم ليتعلموا من بشر آخرين. وصحيح أننا نرث عن والدينا وأهلنا شكلنا الأساسي، ونسب أجسامنا وأجهزتنا التي تبقي الحياة مستمرة فينا، ولكن الأمر يحتاج شيئاً آخر غير ذلك ليصبح الواحد منا إنساناً كاملاً فعالاً. وهذا الأمر هو الاتصال بأفراد آخرين من نوعنا الإنساني.

فالأطفال الذين يعزلون عن غيرهم من الأطفال ليسوا في واقع الأمر بشراً غير أنهم يحملون في أعماقهم الإمكانات الإنسانية. وأطفال بني البشر يولدون ولديهم طرز سلوك قليلة جداً، بجانب بعض ردود الفعل، مثل القبض باليد والرضاع. ولا يمكنهم العيش بدون هذه الطرز التي يحصلون عليها لمجرد كونهم أعضاء في مجتمع إنساني.

والطفل الرضيع، أو الذي بلغ الفطام يحتاج أناساً آخرين لإشباع حاجاته

الجسمانية – وأيضاً لإعطائه الحب والاهتمام. وقد اتضح ذلك من التجربة القاسية التي قيل أن فريدريك الثاني، حاكم صقلية في القرن الثالث عشر، أمر بإجرائها. وكان هذا الحاكم شاعراً موهوباً وفناناً وعالماً طبيعياً. فعنّ له أن يعرف أية لغة وبأي أسلوب سيتكلم الأطفال عندما يكبرون إذا لم يسمعوا كلاماً من أحد في فترة طفولتهم. ولذا أمر بدفع عدد من الأطفال حديثي الولادة إلى مرضعات ومربيات ليرضعنهم وينظفنهم، ويعتنين بهم، ولكن دون أن يصدر عن المربيات أي صوت – لا مناغاة ولا كلاماً – وكان هدفه من إجراء هذه التجربة معرفة ما إذا كان الأطفال سيتكلمون عندما يكبرون العبرية باعتبارها أقدم لغة نزل بها كتاب سماوي التي كانت الأقدم أو اليونانية أو اللاتينية أو العربية أو اللغة المحلية في صقلية التي يتكلمها آباؤهم وأمهاتهم. ولكن جهده ذهب عبثاً، إذ مات جميع الأطفال بدون تدليل المرضعات ورؤية وجوه باسمة وسماع كلمات أو أصوات تشعرهم بالحنان والحب.

ودعماً لما أوردناه، فإنه في عام 1915 لاحظ طبيب في مستشفى جونز هوبكنز في الولايات المتحدة، أن نسبة هائلة تقدر بحوالي 90% من الأطفال الذين أدخلوا إلى المياتم ودور الحضانة في بالتيمور بولاية ماريلاند الأمريكية ماتوا خلال العام الأول من إدخالهم – رغم أنهم حظوا بعناية ورعاية كافيتين. وفي عام 1958، توصل باحث في التحليل النفسي إلى الاستنتاج بأن انعدام عناية الأم وإثارتها لأحاسيس طفلها وإظهار حبها له يؤدي إلى تخلف جسماني وعاطفي وإلى معدل وفيات عال. فقد وجد أن من مجموع 91 طفلاً كانوا موضوع دراسته في بيوت حضانة في الولايات المتحدة الشرقية وكندا مات 34 طفلاً رغم الطعام الجيد والعناية الطبية الفائقة والخدمة الممتازة.

إن ارتباط الفرد والطفل بالمجتمع الإنساني يثير في دوره سلسلة كاملة متتالية من الحاجات الأخرى التي بدورها تثير حاجات غيرها. ويتضح من هذا أن عزل الطفل عن المجتمع يوقعه في التخلف العقلي ويشده إلى البدائية والحيوانية في

سلوكه وغرائزه، وإن حاجة الطفل إلى أقرانه في المجتمع حاجة نفسية ماسة.

والأطفال في صغرهم إلى كبرهم بحاجة إلى العاطفة، فهي الميل الانفعالي الذي يتركز في فكرة ما أو ينحصر في شيء معين، أو شخص بالذات، ولا تتكون العاطفة وتنمو وتستقر في أعماق النفس إلا بالخبرة والتجربة، وبمعنى آخر ليست العاطفة إلا تطوراً في التكوين العقلي لا يأتي بالفطرة ولا يصدر عن الغريزة، إذا استثنينا عاطفة الأم نحو أولادها، فهي تكاد تلوح غريزية، إذا تذكرنا أنها تبدأ تنمو عندها من ناحية ولدها قبل أن تضعه، وينشأ الحنو عليه في نفسها قبل خروجه إلى الوجود.

إننا لنرى في نمو العواطف الأثر البالغ في مسلك الفرد والجماعة، ولولا العواطف لكانت حياتنا الانفعالية فوضى خالية من النظام، والتماسك والاستقرار، ولأصبحت علاقاتنا الاجتماعية وسائر نواحي سلوكنا مضطربة غير مستقرة، إذ لا يتيسر ضبط دوافعنا والرقابة على انفعالاتنا إلا بتنظيم عواطفنا وميولنا، ولا يتهيأ لنا الحكم على قيم الأشياء وأقدارها إلا عن طريقها، ولا تقوم مبادئ الأخلاق إلا على أسسها، لأنها تتكوّن من حكمنا على هذه القيم بما لها من صلاحية علينا.

40- الطفل والأستاذ

لعل المشكلة التي أعرضها عليكم تدخل في باب التربية أكثر من علم النفس.

ولكني أتمنى لو تعالجوها فيما تكتبونه.

أشعر من خلال ردود ولديّ – هما في الصفوف الابتدائية – تجاه معلميهم ببعض النقص وعدم الفهم لنفسية الطفل.

هناك هوة بين عقلية التلميذ الصغير والأستاذ في تعليم الطلاب.

اسمع كثيراً عن ردم هذه الهوة في بعض البلدان.

ولكني أراها في بلادنا أمراً لا محيد عنه!!

حنان. خ

لو كان الأمر قاصراً على المدرسة والمعلمين فيما يتعلق بتربية الطفل لهان الأمر. ولكن التربية الراهنة مبنية على أساس انحرافي. ذلك أننا نطالب الأطفال بأن يكونوا عقلاء، مجتهدين، مطيعين .. بينما لا نطلب منهم أن يكونوا سعداء .. سعداء مع الآخرين.

نفس الشيء ينطبق على المدرسة .. فهي أيضاً لا تهتم بما يهم الطفل. نحن، الكبار، لا نعرف ما يستأثر باهتمامه. الطفل وحده يعرف ما يهمه. لذا ينبغي علينا أن نتحدث إلى الأطفال ونطلب مساعدتهم لمعرفة ما يتوقعون من المدرسة. يجب أن نشركهم في المدرسة ذاتها وفي عملها وفي أهدافها.

وإذا ما دققنا في العلاقة المبنية في المدرسة بين المعلم والتلميذ فإننا نرى أن أساليب التعليم المنتهجة حالياً في المدرسة تعتمد جميعها، في الواقع، مبدأ يكاد يكون عاماً هو: على الطفل أن يعيد إلى الراشد النص الذي لقنه إياه. فكل ما يطلب المعلم من تلميذه هو ترديد كلمات وردت على لسانه، ليس أكثر. ولا يتقبل أن يبادره الطفل بأجوبة مغايرة لما اقترحه هو عليه من أجوبة.

مثل هذا الوضع ينم عن نرجسية الملقن الذي يسعى، قبل أن يهتم بتنمية طاقة الطفل الاستكشافية والخلاقة، إلى تثبيت سلطته كمعلم. فهل هذا هو الهدف من المدرسة.

إن مثل هذا الأسلوب يعوق نشوء الحوار بين الطفل والبالغ. فالتلميذ المجتهد، في نظر المعلم، هو في الحقيقة تلميذ تنازل عن أي حوار مع الراشد. وهاجس الطفل في هذا الشأن هو امتداد لتصرفه مع الأب والأم. إذ إن النظام التربوي يريد من الصغير أن يستمر في الأخذ عن المعلم كما كان يأخذ عن أهله. والمعضلة أن المعلم يساير الطفل في هذه اللعبة – وكثيراً ما يدعوه ابني – بدلاً من أن يقول له: أنا لست أباك ولا أمك. إنني ممثل عن المجتمع. فهمي أن أساعدك على أن تصير عضواً في هذا المجتمع.

وانعكاس هذا الامتداد لعلاقة الطفل بأهله إلى المدرسة يبقي الطفل طفلاً يحتاج أبداً إلى حضانة أهله، أو من ينوب عنهم، بدل أن يتيح له أن يبدأ مسيرته إلى (البلوغ) و(الرشد) في كل معنى الكلمة. في هذا السياق، التبعية للأهل تصبح أساساً لعدد من العلاقات التي يقيمها الإنسان في المجتمع، وأولها – بما هو طفل – مع أستاذه في المدرسة، ومن ثم مع راشدين آخرين يتولون، بحكم مناصبهم، الدفاع عنه بدعوى أنهم يدركون مصلحته أكثر منه. من هنا إن المجتمع يغص بالراشدين الذين ما يزالون أطفالاً في عقليتهم.

إذا أردنا إصلاح التربية (كان لا بد أن نبدأ بتربية المربين) كما يقولون، نأسو ما أصابته العلة منهم ونصلح ما اعوج في نفوسهم، ثم ننظر إلى ما يؤمن به كل منهم ويسير عليه من نهج في تنشئة الصغار، حتى نستطيع أن نهديه سبيل التربية السليمة التي لا يبتغي فيها المربي إشباع أهوائه، أو تكرار الأسلوب الذي نشأ هو على منواله، بل عون الصغير على النماء الصحيح المتناسق.

غير أن ما نراه من تتابع تلك الأخطاء من السلف إلى الخلف، لا بعامل الوراثة بل تبعاً لتأثير البيئة التي يحيون فيها، وللعوامل المتشابهة التي تؤدى جيلاً

بعد جيل إلى نفس النتائج: يخطئ الآباء في حق أولادهم، ثم يكبر هؤلاء فيخطئون بدورهم في حق أبنائهم – يدفعنا إلى القول بأن إصلاح التربية سوف تقوم في طريقه عقبات سيكولوجية هائلة قد يعسر التغلب عليها.

وفي ذلك يرى البعض أن ليس هناك من أمل في إصلاح سريع للتربية السيئة التي تتوارثها الأسر جيلاً بعد جيل، إلا أن نستبدل بها التربية الشعبية. ذلك لأنه سوف يمكن تجنّب الأخطاء القديمة في المدرسة بانتقاء المعلمين انتقاء حسناً تبعاً لما يتوفر فيهم من الكفايات المهنية والنفسية التي تهيئ لهم القيام بالمهمة الملقاة على عاتقهم، بينما لا يمكن أن ننتقي الوالدين أو نستبدل بهما غيرهما. وهم يقولون إنه مع أن الأسرة سوف تبقى عاملاً مهماً من عوامل التربية إلا أنه من الواضح، كما يرون، أن العصر الحاضر عصر انحلال للأسرة.

41- المنافسة

هنالك أمور كثيرة في مجتمعنا لا نعرف جواباً علمياً عنها.

فمثلاً كلنا نحبذ المنافسة ونجعل من أولادنا يتبارون في المنافسة على عدة أشياء.

قبل فترة قرأت أن المدارس تتجه في الغرب نحو إلغاء المنافسة بين التلاميذ!!

فهل المنافسة مضرة بالطفل؟

عباس. ن

تعددت الآراء بالنسبة لعلماء النفس حول المنافسة، بيد أنني أؤيد المنافسة لأن الطفل في حاجة إليها لأنها تشبع نرجسيته. لكن المنافسة كما هي مفهومة حالياً .. تسيء إليه. إذ يجب أن تشمل كل الميادين وليس الدراسة فقط. عندئذٍ قد يصبح كثيرون أولين. لماذا لا تشمل المنافسة سرعة نمو الشعر، أو سرعة نمو الأظافر؟ أو سرعة الملاحظة.

المنافسة في كل شيء تعطي الفرصة للجميع كي يشعروا بالثقة، وهي ضرورية لكل إنسان. إلى هذا يتوجب تغيير مفهوم المنافسة. فالأولية بذاتها ليست أمراً حسناً. عندما يطلب البالغ من الطفل أن يصبح مثله فإنه يعوق مهمة الطفل الباحث عن تفهم وجوده. ففي مثل هذا الموقف للراشد انحراف، والراشدون، مع الأسف، أسرى هذا الانحراف. العالم مقلوب رأساً على عقب.

إن خروج عوامل المنافسة إلى ساحة الوعي والإدراك ما هو إلا جزء من الفعالية بأسرها في نشوئها الزمني. فليس هناك عملية نفسية بحتة تتبعها فجأة عملية جسمية مغايرة لها أصلاً، ولكن هناك سلوكاً موحداً يسير باطراد من حالة الشك والانقسام والتردد إلى حالة الظهور والبت والتكامل، فتنطوي الفعالية غالباً في بدء أمرها على حالات من التوتر والتكيف في داخلية الكائن الحي، حتى إذا ما

وفق بينها فتألف منها موقف موحد عمل الكائن الحي بكليته، أي شرع في القيام بعمل معين. وطبيعي أننا نستطيع أن نميز في الفعالية المطردة ناحية تغلب عليها الحالة الواعية فنسميها عقلية أو نفسية، ولكننا بذلك لا نفعل أكثر من تعريف ما هو نفسي في الفعالية بأنه حالة الفعالية في طور تكوينها حين تكون غير مستقرة بعد، فإذا ما اكتملت اقتضت بذل النشاط الظاهر لأجل تبديل المحيط.

ومن الملاحظ أن ما نفكر فيه وما نرغب فيه أو نرغب عنه، كل ذلك أمور ذوات بال لأنها تمثل فعالياتنا وهي في طور النشأة وعدم التكامل. وهي تبلغ نهايتها باستحالتها فيما بعد أعمالاً معينة ملموسة. وما أهمية هذه التكييفات العضوية البدائية المتفتحة إلا في أنها مهربنا الوحيد من سلطان العادات الرتيبة والنزوات العمياء، فهي فعاليات ذات معان جديدة سائرة في طريق التكامل. ولذلك نرى، في العادة، أن وعينا الشخصي يزداد حدة كلما اصطدمت غرائزنا وعاداتنا الحاضرة المستقرة بظروف جديدة تسد الطريق عليها، فنضطر حينئذٍ إلى الرجوع إلى أنفسنا لإعادة تنظيم موقفنا قبل أن نبدأ العمل في اتجاه معين لا يمكن الرجوع عنه. فما لم نحاول شق طريقنا بمجرد القوة العمياء، فإنه ينبغي لنا أن نبدل مرافقنا الحيوية فنكيفها وفق الخواص المعينة للوضع الذي نحن بصدده. إذاً فالتفكر بالمنافسة والرغبة الواعيان اللتان يسبقان العمل الظاهر ليسا إلا ما تتطلبه الفعالية في الأوضاع غير المستقرة من إعادة تكييف المرء نفسه تكييفاً منظماً.

بيد أن هذا الدور الذي يلعبه العقل في الفعالية المطردة لا يدوم كل حين، ذلك أن الرغبة في شيء جديد، وكراهية الوضع الراهن التي يسببها سد سبيل النجاح على الفعالية، تثيران الخيال. ولا تعمل الصورة الخيالية للوضع الجديد المختلف عن الوضع الراهن دائماً على إذكاء الملاحظة الابتكارية والتذكر حتى تهيئ للعمل سبيلاً للخروج يسير فيه. فإن لم تكن ميول الفرد مدربة جنح الخيال به إلى الجموح، فبدل أن ترجع الأخيلة إلى الظروف المحيطة ليعرف أتحقيقها ممكن أم غير ممكن، إذاً بهذه الأخيلة يؤذن لها في التعاظم والتضخم لما يجده المرء فيها

مـن رضــى عـاطفي موقـوت. ومـا أيسـر مـا نـتخلص مـن الظـروف الطبيعيـة والاجتماعية المعاكسة، إذا حالت دون نجاح مساعينا ونشاطنا، ببناء الصروح في الهواء والاستعاضة بها عن كل عمل واقعي ينطوي على معاناة وكد في التفكير. وهكذا يعترينا الهمود في أعمالنا الظاهرية فنبني في عقولنا عالماً خيالياً، ثم ينعكس هذا التصدع بين الفكر والسلوك على تلك النظريات التي تفصل فصلاً قاطعاً بين العقل من حيث هو داخلي، والسلوك والعواقب من حيث هي خارجية تماماً.

42- تقليد المعلم

رأيت عدة مرات ابني – وهو في الثامنة من عمره – يضع في فمه ملعقة البلاستيك التي تكون موضوعة عادة في علبة الحليب الكبيرة المستوردة.

سألته لماذا يضع يد الملعقة في فمه ويضع رجلاً على رجل، فأجابني إنه الأستاذ عادل. وعادل هذا معلم ابني في مدرسته. وهو في ذلك يقلده حين يضع الغليون بين شفتيه.

وكم أضحكنا ابني من خلال إعادته لهذا المشهد.

هل لك أن تحلل لنا هذه المسألة.

محمود. ي

إذا ألقينا نظرة على المواقف التي تستدر منا الضحك نجد أن (موضوع) الفكاهة هو الإنسان. فنحن نضحك لأن أحداً من الناس استثار فينا (بسبب سلوكه مثلاً) هذا الانفعال الذي يشبع فينا الفرح والمرح والسرور مع شيء كثير من الزهو والاعتداد بالنفس، كما يحدث ويستثير فينا الغضب كذلك شخص آخر بمسلكه العدائي المثير.

ويجب التفرقة بين الحالتين: ففي خالة الغضب أو الخوف قد تستثيرنا عوامل غير إنسانية كالحيوانات أو الجمادات، فنحن نفرق بين الوحوش والحشرات السامة، كما تفزعنا الأماكن الموحشة والوديان السحيقة، وتغضبنا وقاحة سفيه كما تغضبنا قطعة من الصخر وقفت عائقاً في طريق نسلكه اعتيادياً.

بينما في حالات الضحك جميعاً يكون مصدر الانفعال إنسان آخر. وهذا ما حدا بنا إلى اعتبار الضحك غريزة اجتماعية. أما كيف أننا نسخر من حيوان كالقرد مثلاً أو نتفكه بدمية من الدمى، فذلك لأن القرد بسبب شبهه للإنسان يدخل في روعنا أن سلوكه تقليد لسلوك الإنسان وليس سلوكاً طبيعياً، وهذه المفارقة هي مصدر الفكاهة، لهذا السبب لا نجد ما يضحك في سلوك حيوان كالثور لبعد الشبه

بينـه وبـين الإنسـان. ففـي كـل حالـة مـن هـذه الحـالات التـي لا يكـون فيهـا مصـدر الفكاهة إنساناً حقيقياً نكتشف أن هنالك من يقوم مقام الإنسان ويمثل دوره، فالثور لا يستدر منا الضحك إلا إذا حاول أن يتشبه بالإنسان في مظهره أو سلوكه، كما نشاهد ذلك في الأفلام الهزلية التي تدور حوادثها حول بعض الحيوانات كالفئران مثلاً.

إن سلوك الآخرين هو المنبع الأصيل للفكاهة والمرح والتندر والسخرية، وجميعها ألوان من ألوان الضحك، وقد يكون هذا التأثير مباشراً بمعنى أن وجود شخص آخر أو سلوكه مسلكاً خاصاً يستدر منا الضحك، وقد يكون ذلك بطريق غير مباشر بمعنى أن الموقف يستدعي وجود شخص ثالث يلفت النظر بالإشارة أو القول إلى ما يستثير الضحك في سلوك الغير.

يعتبر ضحك الأطفال – إلى حد كبير – نوع من الشماتة، فإذا اكتشف الطفل ضعفاً أو عجزاً فيمن يعتقد أنه صاحب قوة وحول بالنسبة إليه استخدم الضحك وسيلة للرضا عن نفسه، ولا يقتصر الطفل فحسب في كثير من الحالات بل على السخرية من الشخص الآخر بمعنى أنه يصحب الضحك بما يعبر عن شماتته بالشخص الآخر، وذلك بالإشارة أو بالكلام.

وأبسط وسيلة للسخرية عند الأطفال هو أن يقلد الطفل الشخص الذي جعله موضعاً لهزئه، فإذا رأى رجلاً بديناً يحاول الإسراع في مشيه، سار وراءه خفية مقلداً مشيته ثم يندفع بعد ذلك ضاحكاً.

والحياة المدرسية مليئة بأمثلة سخرية الأطفال من معلميهم أو مفتشيهم. والمعلم لا يكون موضعاً لسخرية الأطفال إلا إذا كانت علاقته بالأطفال مما تستوجب الثورة الصامتة عليه، كأن يكون صارماً في معاملته أو يعلم فناً بغيضاً للأطفال، عند ذلك يحاول الأطفال اكتشاف (جبهة ضعيفة) في شخصيته ينفذون منها لمهاجمته كما إذا كانت في جسمه عيوب ظاهرة أو كان في ملابسه إهمال أو نبو أو في عاداته غرابة.

يضحك الأطفال من معلميهم ساخرين من غفلتهم، ذلك أن المعلم شديد النسيان لا يسلم من هزء الأطفال، وكذلك المعلم الذي تحكمت فيه بعض عاداته، فيتخذون من ذلك وسيلة للنكاية به كالذي يميل إلى النوم في دروس النهار الأخيرة إذا اشتد الحر، فالطفل في هذه الحالة يهاجم الآلية في السلوك، لأنه يعتبرها ضعفاً هو براء منه.

وقد لا تقف سخرية الأطفال من البالغين عند هذا الحد بل قد يستعمل كبار الأطفال النكتة لتحقيق هذا الهدف. وسخرية الأطفال من معلميهم مدونة في كتب الأدب القديمة والحديثة، وهي كذلك مروية عن الأدب اليوناني ومعروفة في كتب الأدب العربي القديم. وقد عقد الجاحظ فصولاً عن أخبارهم كما فعل ابن الجوزي ذلك في كتاب (الأذكياء) وكتاب (أخبار الحمقى والمغفلين). وللتلاميذ مع معلميهم نوادر تروى وتكاد تتشابه بين جميع الأمم وجميعها تهدف إلى غاية واحدة، هي أن الصبي يسخر من معلمه أو من التعليم المدرسي حتى يبدو لعينه سخيفاً، فجهله به ليس مما يحقر الناشئ لأنه جهل بما لا ينفع.

43- التكرار وعلاقته بالذكاء

لم أرزق إلا ببنت واحدة.

في الثامنة من عمرها.

ألاحظ عليها حين تقرأ أنها تعيد الموضوع أكثر من خمس مرات، ولكنها بالمحصلة تحفظ الدرس جيداً.

فيما ابن أختي يحفظ درسه بمجرد أن يعاود الاطلاع عليه ولو لمرة واحدة.

لماذا هذا التفاوت في الحفظ بين ابنتي وابن اختي؟

مريم. أ

تختلف عدد المرات المطلوبة في التكرار للتعلم التام اختلافاً هائلاً. فالذئب قد يتعلم تجنب الفخاخ بعد خبرة مؤلمة واحدة. أما الدودة فلا تتعلم أن تنحرف عن مسارها إلى اليمين لتتجنب صدمة كهربائية مؤلمة وتكافأ بالارتماء على أرضية طينية رخوة إلا لعد عدد من المحاولات تتراوح من مائة إلى مائتين. وبالمثل فإن التلميذ قد يحتاج إلى تكرار قطعة من شعر شكسبير اثنتي عشرة مرة تقريباً ليتعلمها حتى يتجنب عقاباً بدنياً أو معنوياً في اليوم التالي في الفصل. وهكذا فإن التعلم يتضمن التخزين والاسترجاع بالإضافة إلى الاستظهار المبدئي للخبرة المكتسبة.

وعلينا القول إن عملية التعلم البالغة التعقيد لدى الإنسان لم تفهم على وجهها الصحيح بعد، إلا أن جوانب مهمة منها قد بحثت ودرست لدى الحيوانات الأبسط في ظل ظروف مضبوطة. وقد أدت اللحمة البسيطة التي حصل الإنسان عليها من عالم التعلم الأخاذ إلى تطبيقات بعيدة الأثر في معالجة مرضى العقل وفي التربية. وأساس هذا النجاح في تعليم الحيوان هي أنه يتعلم القيام بفعل معين إذا كوفئ في كل مرة يؤديه فيها بنجاح مكافأة مناسبة.

وهكذا فالفأر الجائع في صندوق سيتعلم أن يضغط على زر ليحصل على الطعام إذا كوفئ في كل مرة يضغط عليه بطرق المصادفة. وتكون المكافأة

(الطعام) تعزيزاً لقيامه بعملية الضغط على الزر.

كما يمكن رؤية عملية التعزيز هذه في عمليات التعلم الإنساني، ولو أن المكافأة أو الثواب لا يتم الحصول عليها مباشرة دائماً كما هو الحال مع الفأر الجائع. بالإضافة إلى أن المكافأة التي يحصل عليها الإنسان ليس من السهل تعيينها دائماً خاصة إذا كان الحصول عليها متقطعاً، على فترات. وتستخدم عملية التشكيل غالباً في تعلم العمليات المركبة، مثل تعلم لعبة الغولف مثلاً، حيث تمنح مكافأة لكل تحسن مهما كان بسيطاً مع كل ضربة، بحيث يتم في النهاية تعلم الضربة بنجاح. ولقد وجد أن التشكيل يقوم بدور فعال في تعليم الحيوانات القيام بحركات مركبة.

واستقر الرأي أخيراً لدى أكثر من عالم نفس درس مثل هذه الحالات أن يدع الطالب يتقدم في برنامج دراسته بالسرعة التي يستطيعها، وبين كل حين وآخر يجيب على الأسئلة الموضوعة عن المعلومات التي اكتسبها لتوه. ويتعزز تعلمه عن طريق معرفته بمدى صحة إجابته. فإذا لم تكن صحيحة فإنه يراجع المادة ويحاول مرة أخرى. ولقد أثبتت هذه الطريقة نجاحاً كبيراً للمعلم، الذي وضع برنامج التعلم وللطالب، فكلاهما يستفيد من معرفة ما إذا كان الطالب قد تعلم المادة.

إن استخدام التعليم المبرمج سيمكن الملايين من غير المتعلمين على نطاق العالم كله أن يتعلموا بكفاءة أكثر حيث إنه يستغرق وقتاً أقل بكثير، كما أنه يسمح للطفل بالتقدم في تعلمه وفقاً لراحته، وبالتالي يكون أكثر كفاءة للمستقبل.

وكما يقول عالم النفس (جان بياجيه) في نظريته عن النمو العقلي المعرفي فإن ابنتك في سنها الحالي تكون قد مرت بالمرحلة الحس- حركية ومرحلة ما قبل العمليات، وهي الآن تمر بمرحلة العمليات العيانية وستمر فيما بعد بمرحلة العمليات الشكلية التي تبدأ في حوالي الحادية عشرة من العمر. وابنتك تعلمت بالطبع عدة أمور بالفعل مثل الإحساسات والمدركات، اللغة، تكوين المفاهيم، وبعض المنطق، وأن في وسعها أن تقدم سلاسل متسقة من الأفكار، ومع ذلك فما

زال أمامها أن تنمي القدرة على استخدام المنطق المجرد والقدرة على التعميم.

كلمة أخيرة قبل أن أنهي تحليلي:

ابنتك تمر في طور لا يمكن أخذ عدد المرات التي تعيد بها درسها معياراً على تخلفها الدراسي، والمهم لها في الوقت الراهن أنها تحفظ درسها جيداً. وعندما تكبر يمكن أن نقول إن تفكيرها محدد حين يؤدي إلى استجابات صحيحة لحل المشكلة ولكنها استجابات روتينية أو شائعة. أما التفكير فيؤدي إلى محاولات تستهدف الوصول إلى استجابات غير عادية أو جديدة لحل المشكلات. وغالباً ما يؤدي التفكير المنطلق إلى استجابات ينظر إليها باعتبارها أفعالاً ابتكارية أو مبتكرة. فيما لا يبدو الذكاء المقاس جانباً مهماً من جوانب الابتكار إلا أن هناك العديد من الخصائص التي يبدو أنها تميز الأشخاص المبتكرين عن الأشخاص غير المبتكرين. وبصفة عامة يعد الشخص المبتكر مرناً تماماً في أنماط تفكيره، مهتماً بالأفكار المعقدة، ويبدي نمط شخصية يتسم بالتعقيد. وفضلاً عن ذلك يميل الشخص المبتكر إلى أن يكون حساساً للجمال مهتماً بغير العادي والجديد ويبدي شخصية متفتحة بعض الشيء.

44- طبيعة التجريد

يلعب زوجي بالشطرنج حين يكون لديه وقت فراغ مع صديق أو قريب.

لنا ابن في الثامنة من عمره يحرك قطع الشطرنج خلسة عن أبيه، وكم من مرة وفق في ذلك.

ولكن إذا سألته هل لك أخ فهو سيقول تلقائياً نعم، أما إذا سألته ألأخيك أخ؟ فسيرتبك ويقول لك نعم أو لا.

كيف تحلل هذا التناقض؟

سوزان. ص

إن كل مهارة يكتسبها الطفل تزيد من شعوره بالسيطرة على البيئة كما تزيد من شعوره بالكفاءة. فإذا فرضنا أن طفلاً ما غير واثق مثلاً من قدرته على الإمساك بسماعة الهاتف والتحدث، فإن محاكاته لهذا الفعل يزيد من شعوره بالثقة في قدرته. فالأطفال في هذه المرحلة تزداد حساسيتهم نحو أنفسهم كأفراد ذوي تأثير في البيئة المحيطة بهم. ولذا فإنهم ينتهزون كل فرصة لكي يزيلوا عن أنفسهم كل شك في ذلك. ويمتد نشاطهم الذاتي هذا لكي يشمل أوسع مدى من الأعمال اليومية. فهم يبذلون كل جهد لكي يشاركوا في قدرات مثل الذهاب إلى الفراش، الملابس التي يرتدونها، المأكولات التي يفضلونها وهكذا. بل كل شيء يقوم به آباؤهم، أو إخوتهم وأخواتهم، يرغبون هم أيضاً في القيام به، وتتعدى رغبتهم هذه كل حدود إمكاناتهم. فما يريدون أن يقوموا به قد لا يتناسب بالمرة مع ما يستطيعون أن يقوموا به بالفعل. وكأن لسان حالهم يقول إن كل ما تستطيع أن تقوم به أنت أستطيع أنا أيضاً أن أوديه، بل وربما بشكل أفضل. إنهم يشعرون بأنهم أعضاء لهم قيمتهم في الأسرة، لأنهم قد أصبحوا الآن يستطيعون أن ينجزوا الأعمال التي يمكن أن يقوم بها الأخرون بشكل روتيني. ويتناسب شعورهم هذا مع مقدار ما يكتسبونه من مهارات.

وفي مرحلة لاحقة يصبح التوحد هو أعلى مراحل التقليد. وإذا كان التقليد يحدث في بداية هذه المرحلة، فإنه يصل إلى أقصى مرحلة في أواخرها. والواقع أننا لا نستطيع أن نفهم ما يصل إليه الطفل اجتماعياً دون أن نستعين بمفهوم التوحد باعتباره المتغير الذي يفسر لنا كيف يكتسب الطفل سلوكاً اجتماعياً، أو حتى سلوكاً غير اجتماعي، بشكل ثابت نسبياً. وإذا كنا قد عرفنا وظيفة التقليد في حياة الطفل النفسية في هذه المرحلة لا يصبح من الصعب علينا أن نتعرف أيضاً على وظيفة التوحد من هذه الناحية.

وعلى ما ذكرناه لنتصور فكرة الطفل الصغير عن لعبة الشطرنج. إن هذه اللعبة في نظر الطفل هي أن يجلس شخصان متقابلان بينهما رقعة مقسمة إلى مربعات عليها بعض القطع. ثم يتناوب الجالسان تحريك القطع هذه على مربعات الرقعة. وبعد هذا يعتقد هو أنه يستطيع أن يلعب الشطرنج أيضاً. وعندئذٍ يأخذ بتحريك القطع على مربعات الرقعة. وبعد مرور الزمن وبعد أن يبلغ الطفل الثامنة من عمره على الأقل يمكن إفهامه أنه لا يستطيع أن يلعب الشطرنج إلا إذا اتبع قواعد معينة. ولا بد من مضي مدة أطول قبل أن يتعلم ويصبح ذلك راسخاً في ذهنه من أن القطع والرقعة ليستا هما الأساس. بل إن القواعد هي الأصل. وإن الأدوار التي تنشر في الصحف والتي تتكون من الحروف والأرقام التي تشير إلى تحركات القطع، ليس من الضروري أن تمثل أشياء مادية البتة، بل يكفي أن تكون مجرد رموز تعبر عن اللعب فقط.

إن توفيق ابنك في إزاحة هذه القطعة أو تلك لا تعني أنه أصبح لاعباً ولو رافق ذلك .. النجاح.

ومما تجدر ملاحظته هنا أن التحرر التدريجي للمدركات من بعض التصورات يتوقف على نضج ناحية معينة انفرد بها الإنسان، هي القدرة على التجريد، القدرة على إدراك العلاقات مجردة عن الأشياء التي ترتبط بتلك العلاقات. هذه القدرة تبدو في تمكن الطفل من اللغة تدريجياً. فإذا كان للطفل أخ مثلاً وسئل:

ألك أخ؟ كانت الإجابة بطبيعة الحال: نعم. ولكنه لو سئل: ألأخيك أخ؟ لا يبعد أن تكون الإجابة: لا. ومعنى هذا أنه لا يزال في مرحلة لا يدرك فيها أنه أخ لأخيه. وبعد مدة يصل إلى درجة يفهم فيها أنه ليس من الضروري أن يكون الأخ شخصاً معيناً. وإن كلمة أخ ليست اسماً لشخص معين، وإنما هي اسم يطلق على علاقة معينة بين فرد وآخر. فالتجريد إذن يتضمن القدرة على تصور العلاقات وجعلها نابعة لعمليات الفكر بصرف النظر عن الأشياء التي تربطها هذه العلاقات بعضها ببعض.

إن أعمال ابنك وسجلاته في بيئاته تشجع على الاعتقاد بأنه قادر على أن يمضي قدماً في تكييف نفسه بحسب أوضاعها وتغيير تلك الأوضاع وحسب مقاييسها وحدودها.

45- مبدأ الواقع

لم يرزقنا المولى إلا بولد واحد .. في الثامنة من عمره.

ذكي وفهيم في كل الأمور.

بقدر ما نسر أنا وزوجي في أن ابننا قد أصبح شاباً.

بقدر ما أقسو عليه حين أراه يتصرف (أحياناً) وكأنه طفل صغير.

بين هذا وذاك فيما يكون الأصح؟

سميرة. م. ن

أنت في عمرك الحالي ألا تحنين إلى عهد الطفولة .. مهما كانت أعمالك ومهما علت مسؤولياتك. فإذا كان الأمر لك كذلك لماذا يحرم ابنك من مثل هذه الأمور، وهو لم يزل صغيراً .. مهما قلنا أنه أصبح (شاباً).

إن المجتمع عندما يدخله الفرد طفلاً يمثل، مبدأ الواقع، بحسب تعبير فرويد، فيفرض على الطفل كل الصفات والعادات والميزات التي تجعله إنساناً على صورة الإنسان في مجتمعه، ويجبره على ترك، مبدأ اللذة، عالم السعادة الطفولي المتناقض مع عالم الواقع الراشد. وهدف كل مجتمع تجاه كل طفل أن يصهره نفسياً وذهنياً ليطابق القالب الحضاري لذلك المجتمع، بترك عالم الطفولة، عالم الحرية والفرح، والانصياع لعالم الواقع، عالم الكبت والقهر والحرمان.

وأول ما تتم عملية الصهر هذه ضمن العائلة حيث يختبر الفرد أهم مرحلة من مراحل حياته، مرحلة تكيفه الأول مع عالم الواقع، عالم والده ووالدته وأخوته وأقرانه، وبداية هجره لعالم السعادة.

تذكر (ميلاني كلاين)، العالمة النفسية المتخصصة في علم تحليل الأطفال النفسي، في كتابها (مقالات في التحليل النفسي) أن الكثيرين من الأطفال الذين يظهرون في صغرهم، حتى السن السادسة، ذكاء ومقدرة غير طبيعيين يصبحون في كبرهم اعتيادين وغير متفوقين من حيث مقدرتهم وذكاؤهم، وإلى أن سبب هذا

التأخر، على حد قولها، ينجم، بحجم صغير أو كبير، عن ضرر يتعرض له الطفل في ناحية من نواحي نموه الذهني. وتقول هذه العالمة إن دافع الفضول والمعرفة عند الطفل كثيراً ما يتعطل من سببين رئيسين:

السبب الأول هو كبت ورفض العامل الجنسي والعامل البدائي في حياة الطفل، نتيجة نمط التربية الذي يصهر شخصية الطفل بحسب متطلبات قيم وعادات ثقافية اجتماعية معينة. والنقطة الأساسية في نظرية كلاين هي أن عملية كبت الجنس والنزعة البدائية عند الطفل يصاحبها عملية كبت، أفكار وأشياء أخرى، ترتبط بنمو الطفل الطبيعي وتطور فضوله الذهني نحو الإدراك والمعرفة.

والسبب الثاني ينجم عن فرض أفكار ومعتقدات جاهزة في شكل يقدر معه الطفل، من مستوى إدراكه غير المتكامل، أن يقاوم هذه الأفكار والمعتقدات أو أن يستخلص منها معاني أو نتائج واضحة له فيصاب بضرر ذهني دائم.

تنمو لدى الطفل خلال هذه المرحلة – التي تمتد من العام السابع حتى العام الحادي عشر من عمره – القدرة على ممارسة أشكال التفكير العياني أو الملموس، حيث يتصف تفكير الطفل بالمنطقية وفهم العلاقات بين الأشياء والقدرة على تكوين سلسلة مترابطة – متتابعة – من الأفكار حول موضوع معين، ومع ذلك نجد أن تفكير الطفل يرتبط بأشياء عيانية أو ملموسة، أما قدرته على ممارسة التفكير المجرد فلا تزال في مستواها البدائي.

إن الفرق بين كلمة (نضج) أو شاب كما نقول في الغالب وهي تستخدم في علم نفس النمو، والعبارة التي تقول: (إنه أصبح ناضجاً) التي يشيع تداولها بين العامة، تبين أن مصطلح (النضج) في علم نفس النمو يشير بصورة خاصة إلى النمو الجسمي للفرد، بينما تستخدم عبارة (إنه أصبح ناضجاً) في لغة الحياة العادية اليومية لوصف شخص ما (عادة ما يكون طفلاً أو مراهقاً) بأنه يمارس سلوكيات تماثل إلى حد كبير سلوك الفرد الراشد أكثر مما تماثل سلوك أقرانه، فضلاً عن أن عبارة (إنه أصبح ناضجاً) لا تعتمد على النمو الجسمي للفرد.

حيال هذا التفريق في المصطلحين يجب الأخذ بعين الاعتبار النمو الجسمي، والنمو العقلي المعرفي، والنمو الاجتماعي لابنك، بحيث لا تحمليه أعباء أكبر منه.

46- زجر الولد

بعد ولادتي لابني بعام سافر زوجي إلى أحد أقطار الخليج العربي للعمل.

مكث هناك ثماني سنوات، زارنا بها مرتين ولمدة أسبوع كل مرة.

ربيت ابني في هذا الوقت على الثقة المتبادلة والبعد عن الخوف والضرب.

رجع زوجي إلى بيتنا وصرت ألاحظ تصرفه الغريب مع ابننا.

فإذا طلب زوجي من ابنه أن يأتيه بشيء ولم يلبيه أو لم يسمعه تكون (الصفعة) قد نالت من وجهه.

وإذا لبى له الطلب في حدود فهمه وإمكانياته ناله سيل من الشتائم أو الذم والاستهجان.

ضمن هذا الجو صرت أخشى على نفسية ابني وهو لم يزل صغيراً في التاسعة من عمره.

منصورة. ظ

يخيل إليّ أن ابنك من خلال احتضانك له لتسع سنوات قد نشأ ضمن جو أخذ بالتهذيب به منذ أيامه الأولى: يوم كان يطلب الغذاء وكنت تنظمين له تناوله، ويوم يصرخ فتحسنين التصرف إزاء هذا العويل. في مثل هذا الوقت تكون التربية من أهم العوامل التي تكوّن نفسية الفرد وتقيم شخصيته، لأنها تعينه على تحديد موقفه إزاء القصور العضوي والمركز الاجتماعي والأسرة والجنس. ولهذا يحرص علماء النفس لعرض أصولها والتحدث عن طرائقها حديثاً مشوقاً مفصلاً مناهضين مبدأ السلطة والسطوة في التربية مناهضة قوية شديدة ويرون أن الآباء قد درجوا من قديم العصور على الاستمتاع بشعور القوة على حساب أطفالهم، ينظرون إليهم كأنهم متاع شخصي يتصرفون فيه كما يشاءون ويشكلون الواحد منهم تبعاً لما يرغبون، لا يدركون من التبعة التي تلقيها الإنسانية على عواتقهم، إلا أن أولئك الصغار ليسوا ميدان يشبعون فيه رغبتهم في الزهو والطموح وميلهم إلى التفوق

والكمال، فكم من أم تعامل وليدها كأنه في الواقع فلذة من كبدها يعلوها الخجل من أخطائه كأنها هي التي اقترفتها ويشيع على محياها الرضى لما يحسن القيام به كأنها هي التي أبدعت ذلك الحسن.

يقرر أصحاب أدلر عند الحديث عن السيطرة والسطوة في التربية أن الحديث عنها لا يعني في كثير أو قليل أي تعرض أو نقاش في صحة سلطة الوالد أو بطلانها. وإنما يقولون إن هذه السلطة بما لها من سيطرة وسطوة لا يمكن أن تلقن للصغار. كما يرى هؤلاء أن العقوبة البدنية جريمة شنيعة لا زالت أوضاع الحضارة المعاصرة تأذن بارتكابها، إذ إن القوانين ما زالت تسمح، في معظم الأقطار العربية بضرب الأطفال، وليس هناك من أمر أكثر هدراً لكرامة الصغير من العقوبة البدنية. ويعترف أدلر وأصحابه بما قد يكون في حديثهم عن السطوة في التربية من إسراف في النقد، وبما يمكن أن تجرح به حجتهم لاعتمادهم على النظر إلى الحالات الشاذة المتطرفة، وهم يسلمون بجانب من الخير قد ينتج عن ذلك اللون من التربية إذا لم تزد عوامل البيئة في سوءاتها ويقولون إن أذاها قد يهون إذا أشربت من ناحية الكبار العطف وروح الصداقة.

إن طفل هذه المرحلة، إذ يقدر تماماً مدى اعتماده على والديه، لذا فإنه يكون حساساً بشكل خاص للعلاقة العاطفية بينه وبين والديه. ومع ذلك فإن الوالدين قد يكونان بعيدين كل البعد عن تقدير مثل هذه الحساسية. فهما لا يعرفان مثلاً أن أي تهديد لهذه العلاقة هو بمثابة هدم لكيان الطفل ذاته. إن الأطفال يأخذون مثل هذا التهديد مأخذ الجد، ومعظمهم قد يكفيه في هذه المرحلة مجرد نظرة أو عتاب رقيق كوسيلة لمساعدته على تعديل سلوكه، ذلك أنهم غالباً ما يعرفون أنهم قد ارتكبوا خطأ بعد حدوث ذلك مباشرة. ومع ذلك فإن العقاب الشديد، أو التوبيخ أو التهديد بأشكاله المختلفة، قد يكون هو الأسلوب الشائع من ناحية الوالدين في مثل تلك اللحظات الحرجة، مما لا يترتب عليه سوى إثارة القلق عند الطفل، بدلاً من مجرد إشعاره بأنه قد أتى فعلاً غير مرغوب فيه.

الجو العام الذي يسود التنشئة الاجتماعية للطفل في هذه المرحلة، بما يعرضه لمواقف عصيبة، خاصة أثناء معاملته في المواقف الحساسة، واعتماد الطفل كلية على الكبار المحيطين به، وعدم قدرته بعد على الوقوف على قدميه إزاء المواقف العصيبة التي قد يقع فيها، وقصور خبرة الطفل وقدراته العقلية مما يدع مجالاً واسعاً للخيال والأوهام، وتغير معاملة الأبوين من المرحلة السابقة إلى هذه المرحلة بشكل مفاجئ بمجرد تعلم الطفل المشي والكلام، كل ذلك يشكل بالنسبة للطفل ظروفاً يسهل معها خلق الصراعات الانفعالية العنيفة، التي قد تترك في شخصيته وسلوكه أثراً باقياً.

إن نمو الطفل في جميع مظاهره المعرفية والحركية والانفعالية والاجتماعية يتأثر بمدى قدرتنا على إشباع تلك الدوافع لديه، وتجنيبنا إياه الوقوع في تلك الصراعات، وأطفال هذه الفترة يميلون بطبيعة نموهم إلى الاستقلال والانطلاق، وتقليد الكبار في كل ما يقومون به من نشاط نمطي، أي روتيني، هو جزء من حياتهم اليومية. بل إن إصرارهم على ذلك قد يصل في بعض الأحيان إلى حد العناد، والرغبة في تحطيم جميع العوائق التي قد تقف حائلاً في سبيل وصولهم إلى ذلك الهدف المنشود.

أخيراً يمكن القول إن رغبة الآباء الطبيعية ورغبة الأطفال التلقائية تلتقيان بسهولة عند ذلك الهدف – وهو تنمية الاستقلالية عند هؤلاء الأخيرين – على أن هناك متغيرات مهمة لا بد من أخذها في الاعتبار عند الكلام عن رغبة الآباء في تنمية الاستقلالية عند أطفالهم. أحد هذه المتغيرات هو التوقيت الذي يتوقع فيه الآباء من أبنائهم إنجاز واجبات معينة. ومتغير آخر هو الأسلوب الذي يعامل به الطفل في إنجاز تلك المهام أو الواجبات. إن هذه المتغيرات لها تأثير كبير في نمو الاستقلالية المنشودة. وإن لم يكن هناك وعي بذلك من جانب الآباء في غالب الأوقات.

47- عصاب الحدث

منذ زمن بعيد ومظاهر الحزن الطويل والقلق بادية على ابني.

إنه الآن في الثامنة من عمره.

قبل أربع سنوات كانت تنتابه المخاوف والكوابيس ونوبات الاعتداء والهياج وعدم الاستقرار والعناد والتحدي.

أما الآن فالمخاوف استمرت مع الحصر القهري والرعشة والتلعثم وعدم الطاعة والاستقرار والتأخر في الدراسة.

كم مرة حاولت أن أعرف منه لِمَ هذا الحزن كله ولكنني لم أستطع أن أعرف حقيقة الأمر إلى الآن؟

جميلة. ح

قليل من الناس من يعرف أن الطفل يصاب بالعصاب كشأن كبير السن، لا بل إن 2% من الأطفال يصابون بالعصاب. وليس هذا الأمر غريباً، فقد عرف هذا الأمر منذ القرن السابع عشر. لكن بقي الكثير من الأطباء يرفضون فكرة وجود العصاب عند الطفل أو الحدث، ولكن مثل العوارض التي ذكرتها هي بالمحصلة عوارض حقيقية لعصاب الحدث.

إن الفحص الطب – النفساني للأطفال يختلف عن البالغين بأمور تتعلق بطبيعتهم الجسمية دائمة النمو، وبرمزيتهم في التعبير وصعوبة التوصيل بين عالمهم والآخرين. وتتبع الخطوات التالية للإلمام بجميع نواحي حياة الحدث العقلية والاجتماعية والثقافية والمادية:

1. تجمع المعلومات الكافية من الأم على الخصوص ومن الأبوين بواسطة الباحثة الاجتماعية وكذلك الطبيب الفاحص.

2. تجمع المعلومات الكافية من المدرسة أو دار الحضانة أو الملجأ.

3. يفحص الطفل أو الحدث جسمياً من قبل طبيب المستشفى أو طبيب

أطفال مختص لمعرفة حالته الصحية.

4. يفحص الطفل من قبل أخصائي نفسي، غير طبيب، لبيان مستوى ذكائه وقابلياته العقلية بالوسائل الأخرى.

5. يفحص الحدث من قبل الطبيب النفساني لإجراء كشف عام على حالته النفسية ويتم ذلك بالوسائل التالية:

أ. بتبادل الحديث مع الحدث الذي يمكن أن يحكي عن أحلامه الليلية وعن أحلام اليقظة، أو يبين الذي يتمناه لو تيسر تحقيق ما يريد، ويرتكز كل ذلك على الكلام.

ب. بملاحظته عن كثب دون اللجوء إلى الكلام، ويتم ذلك بالوسائل التالية:

1. الطلب منه أن يرسم ما يجب وما يخطر بباله، ثم دراسة رسومه تلك
2. أو ملاحظة كيفية تكوين الأشكال والمواد، أو صياغة الطين الصناعي
3. أو بتهيئة اللعب له ثم دراسته عن كثب
4. أو تقدم له صورة فيها مضمون قصة يكملها الطفل بخياله ويرويها على هواه.

لقد اعتقد فرويد بأن العصاب هو نتيجة شدة نفسية جنسية الطاقة أثناء السنوات الأولى من عمر الإنسان. وانتقل بعدئذٍ إلى نظريته في نشأة (عقدة أوديب) وكيف أن الصراع حول هذه العقدة وبعدة أشكال يمكن أن يؤدي إلى العصاب. ثم عمم ذلك إلى الصراعات بين أجزاء الشخصية البشرية من (هو) و(أنا) و(أنا أعلى). وقال إن الكبت وآثار الكبت تقرر الحالات العصابية. ولذلك أدخل عوامل البيئة والتجارب المبكرة الطفولية كعوامل ممهدة ومعجلة لظهور العصاب. فأعراض العصاب هي (حلول) نسبية توصل إليها اللاشعور بعد عملية الكبت لكي يصل إلى نوع من التسوية والتوازن النفسي. فأعراض العصاب تتكلم بلغة ترمز إلى ما جرى في اللاشعور، وعلينا كأطباء نفسانيين أن نعرف الأصل الذي ترمز إليه لعلاج الظاهرة العصابية.

ومن ناحية أدلر فقد ارتكز على نظرية (حب السيطرة والاستعلاء) كغريزة أصيلة طاغية في الإنسان، وإن حب القوة هو الدافع الأقوى من طاقة الجنس (الليبيدو) التي تصورها فرويد، وإن العصاب هو نتيجة شعور بالنقص والضعف وعدم الكفاءة تجاه ظروف قاهرة. فالعصاب حسب النظرية الفردية هو نتيجة تهديد وحرمان لرغبة القوة، وهو محاولة للتعويض عن النقص بالظاهرة العصابية.

وكان رأي يونغ بأن الانبساط والانطواء هي الطباع المهمة في الإنسان، وهي المحور الذي يلتف حوله اتجاه الليبيدو. فهو يتجه إلى الداخل وإلى الذات عند الانطوائي، وإلى الخارج والعالم عند الانبساطي وانحطاط السلوك العصابي والذهاني يرتبط بهذا الطبع أو ذاك.

أما الفرويديون الجدد أمثال (رانك وهورني وفورم) فقد قدموا تعديلاتهم لنظرية فرويد كما سبق وأن تطرقنا إليها. ولكننا نخص بالذكر نظرية (آن فرويد)، ابنة فرويد، التي تقول إن العصاب هو (عصاب الأنا) وإن الأليات العقلية هي من صنع الأنا ومن نتيجة معاناته في تهدئة عناصر الشخصية.

وقد استفاد علماء النفس العاملين في نظريات التعلم الحديثة في نظرية (بافلوف) ومن النظرية السلوكية القديمة. وكان (آيزنك) أحد علماء النفس المعاصرين ممن دعوا إلى تفسير العصاب استناداً إلى النظرية الشرطية كبافلوف ونظرية الطباع ليونغ. وقد اعتبر آيزنك أن العصاب هو مجرد عادة خاطئة تعلمها الفرد نتيجة تجارب وظروف تركزت عن طريق المنعكسات الشرطية المتعددة، وأنه لا علاقة للعصاب باللاشعور والكبت، لذلك فإن المرض العصابي يمكن معالجته بإطفاء العادة المريضة و(تأسيس) عادة جديدة صحيحة أو (بناء) سلوك طبيعي جديد في محل السلوك الخاطئ. وقد أوضح نظريته تلك عن طريق المقاييس متعددة المحاور والأبعاد، وقال آيزنك إن بالإمكان تفسير ومعرفة طباعها الانبساطية أو الانطوائية وربطهما في علاقة ديناميكية واحدة.

إن وصفك لأعراض ابنك بهذا الشكل الدقيق يجعل مهمة المعالج ميسرة.

وتكون المعالجة عادة عبارة عن اجتماعات عائلية متكررة، وأحياناً بواسطة الطب النفسي أو الأدوية. ولذلك، يجب المباشرة بالمعالجة باكراً لتفادي الانتكاسات.

وهكذا يتبين أن العمل المشترك للمحيط العائلي والمدرسي والطبي يسمح عادة بتصحيح هذه الانهيارات المؤقتة أو الدائمة. كما يجب معرفة القيام بالجهد في الوقت المناسب.

48- التخيل من خلال اللعب

تلاحظ الأم على أولادها أموراً كثيرة.

فولديّ في التاسعة والسابعة من أعمارهم.

الكبير بهم يلعب لبضعة دقائق مع لعبه ثم يضجر.

فيما الصغير يجلس أحياناً لساعات وهو يصف جنده أو يلبس لباسها أو يسيّر قطاره وهو يقلد صفيره.

مثل هذه الأمور ماذا تعطي من مؤشر؟

جانيت. ج

إن الأدوار في اللعب الإيهامي، إلى جانب أنها صورة مصغرة لما يجري في الحياة، فهي فرصة في غاية الأهمية يتعلم منها الطفل معنى الدور كشيء له وجود ضمن إطار من العلاقات الاجتماعية، لا كشيء مستقل منفصل عن تلك العلاقات، كما يتعلم أيضاً قيمة التكامل بين هذه الأدوار كوسيلة للتوافق في الحياة الاجتماعية فيما بعد.

وإذا كان اللعب الإيهامي قد اعتبر تقليدياً كمظهر حتمي بين مظاهر النمو، إلا أن الدراسات عبر – الثقافية قد أوضحت أنه لا ينمو في جميع الثقافات بنفس الدرجة من الازدهار. فبعض المجتمعات يشجع اللعب الإيهامي في حين أن مجتمعات أخرى تمارس ضغوطاً قوية على مثل ذلك النوع من اللعب. وإلى جانب الظروف الثقافية كعوامل مؤثرة في درجة ازدهار اللعب الإيهامي عند الأطفال، أثبتت الدراسات المقارنة أن هناك فروقاً في هذه الناحية بين الفئات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة. وترجع هذه الفروق إلى توفر مواد اللعب، أو عدم توفرها بالنسبة لهذه الفئات. فلقد وجد بالفعل أن المساحات المتوفرة للعب خارج المنزل، وكذلك وجود أجهزة ومواد معينة للعب، هي أشياء لا يمكن الاستغناء عنها لكي يزدهر اللعب عند الأطفال. هذا ويفضل الأطفال اللعب بالأجهزة المعقدة على

اللعب بالأجهزة السهلة البسيطة. كذلك وجد أن الأطفال بعد مرور فترة معينة في ساحة اللعب، يزداد اتصالهم ببعضهم البعض أكثر من اتصالهم بأجهزة اللعب. ذلك أنهم يجدون في المشاكسات والشجار، سواء الحقيقي أو المفتعل، من التجدد والمفاجأة والتحدي ما يجذب انتباههم.

وإذا انتقلنا إلى الحالة الانفعالية نجد أن اللعب يكون أكثر ميلاً إلى الظهور عندما لا يكون الطفل واقعاً تحت تأثير دوافع احيائية أو انفعالية قوية. فبالرغم من أن بعض اللعب يعبر عن حالات من القلق والدوافع العدوانية، إلا أن التوتر الزائد مع ذلك قد يعوق الطفل عن اللعب. فالطفل قد يعزف عن اللعب تحت ظروف الاحباط، أو الانفصال عن الحاضن في حالة صغار الأطفال. ولقد وجد (مندل) أن هناك علاقة بين مستوى القلق من ناحية، وبين بحث الطفل عن الجديد وتجنبه من ناحية أخرى. فإذا كان مستوى القلق منخفضاً عند الطفل، فإنه يكون عندئذٍ أكثر ميلاً إلى استطلاع اللعب الجديدة مما إذا كان يعاني من مستوى مرتفع للقلق.

إن اللعب الإيهامي، إلى جانب أن له إمكانات علاجية بالنسبة للمشكلات التي يعيشها الطفل في حياته الواقعية، إلا أنه، أولاً وقبل كل شيء، يعتبر جزءاً أساسياً وطبيعياً من عملية النمو، لا بد من أن يمر به الطفل قبل أن يصبح كبيراً. ذلك أن له علاقة قوية ووثيقة بنمو مهارات التواصل المختلفة، وبالصبر، وبالقدرة على التركيز والانتباه، وبالمرونة والإبداع.

ويجدر التنويه هنا أن شخصية الطفل تتفاعل مع شخصية الرفاق، ومع البيئة، ومع مواد اللعب المتاحة، لكي يتحدد بناء على هذه العوامل جميعاً، مسار اللعب. فلقد وجد عالم النفس (سنجر) أن الطفل ذا الخيال الخصيب يمكن أن يجلس بهدوء لمدة أطول من تلك التي يمكثها الطفل ذو القدرة الأقل من حيث التخيل. بعبارة أخرى، فإن الطفل الهادئ من الناحية المزاجية تكون فرصته أوسع للقيام بعملية تخيل أشد خصوبة، وأطول مدى، من الطفل غير المستقر من هذه الناحية. وقد توصل سنجر إلى أن هذه النتيجة بناء على تجربة ظريفة أجراها على

مجموعتين من الأطفال: مجموعة ذات درجة عالية من الخيال، والأخرى ذات درجة منخفضة من الخيال. وقد بنى تقديره هذا على أساس الإجابة على بعض الأسئلة التي وجهها إلى الأطفال، والمقابلات التي أجراها معهم. وقد قامت التجربة على أساس إبداء الباحث رغبته في اختيار رجال الفضاء الذين يكون بإمكانهم أن يمكثوا خمس عشرة دقيقة، منبهاً إلى أن الذي يمل قبل هذه المدة، عليه فقط أن يعطي إشارة بذلك. وقد وجد الباحث أن الأطفال الذين مكثوا أطول مدة ممكنة، هم أولئك الذين كانوا يقومون بعمليات تخيل متطورة، كالعد التنازلي، وتصور انطلاق الصاروخ، وإدارة عجلة وهمية للقيادة وهكذا. وعلى العموم كانت المدة التي مكثها الفريق ذو القدرة العالية على التخيل أطول من تلك التي مكثها الفريق ذو القدرة الضعيفة.

إن شخصية الطفل، بشكل عام، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى ازدهار اللعب الإيهامي لديه، بل إن القدرة على التخيل قد تساعد الطفل على السيطرة على دوافعه العدوانية، كما أن للوالدين دوراً كبيراً في تنمية القدرة على التخيل عن طريق تشجيعها والاهتمام بها.

ويمكن أن نضيف إلى ما قلناه أن ركن الطفل مع لعبه يفسح المجال لكي يقضي وقته في هذا النشاط الإبداعي، سواء كان وحيداً أو مع آخرين، تبعاً لما يرغب. وفي أي الحالات، فإن الرحلات التي يقوم بها الطفل في الخيال قد تكون واحدة من أول الوسائل التي يستطيع بها، بشكل وقتي، وليس بشكل دائم أن يتجاوز مجال السلطة الأبوية، ويعيش في مغامرات إبداعية.

49- البلبلة الفكرية

هناك مسألة تشغلني كثيراً تتلخص في أن ابني البالغ من العمر التاسعة يكاد يتبلبل فكره ويشرد ذهنه نتيجة آراء وتقاليد وعادات مختلفة سيجابهها في مواقع حياته المقبلة.

إنه يأتيني بفكرة أراها غريبة على طباعي وحين أعنفه على ترديدها يقول لي إن المعلم هو الذي فاه بها.

وفي مرة أخرى يقول لي قصة يشوبها الخيال فأستفسره عن مصدرها فيقول لي أيضاً أنها من بنات أفكار رفيقه في المدرسة الذي يسبقه بصفين.

إنني في حيرة من أمري على تدفق الآراء والاعتقادات إلى تفكير ابني وأخشى عليه من البلبلة الفكرية.

أنس. ع

حين ينشأ الطفل في وسط جماعة متقدمة لا يلبث أن يحتك بمختلف الأوساط الاجتماعية التي تسير على هدى آراء وتقاليد وعادات مختلفة، ولا يني من كثرة قراءة التاريخ والقصص أن يلم بأنواع منوعة من الآراء والتقاليد الأدبية والأخلاق وضروب السلوك، كما تساعده اللغة أيضاً على تكوين جملة من المعاني الكلية عن السلوك والأخلاق مهما تكن من الغموض والتناقض.

أما إذا ترك الطفل في هذه الأحوال وحده، دون إرشاد ولا هداية، فقد يكتسب بعض العواطف الأدبية المجردة التي تتأثر بالأوضاع الانفعالية القوية في وسطه وظروف الحياة فيه. وقد تقع له أيضاً جملة من النزعات نحو أنواع السلوك التي تجلب إلى نفسه أبلغ الرضى والارتياح، أو بعض الكراهية للأنواع التي تثير وتنفر مشاعره، أي إنه يكون مجموعة من العواطف المجردة من طريق الأحكام الأدبية الصادرة عن انفعالاته وصميم مشاعره وفؤاده.

بيد أن الطفل في اتصاله بهذه الآراء والنظم والتقاليد لا يلبث عادة أن يتأثر

بتلك المؤثرات القوية التي تتكون منها عواطفه المجردة بينما تواجهه العواطف الأدبية الفاشية في عصره وبيئته من طريق الإدراك والقدوة، كحب الأمانة مثلاً، أو الإعجاب بالشجاعة، وكراهية الصغار والقسوة، ويجد العواطف الأدبية الأخرى المتصلة بالنواحي المهذبة من العادات والتقاليد المرعية من جانب بعض الناس وغير مرعية من جانب الآخرين، ويرى أن فريقاً منهم أبلغ أثراً من سواهم في الإيحاء إليه بعواطفهم المجردة، وهؤلاء عادة هم الذين يثيرون في نفسه الإعجاب بقوتهم أو عظم فعالهم أو رفعة أقدارهم ومراكزهم.

كما أن الإعجاب، هو من دون المؤثرات جميعاً، العامل الأكبر في السيطرة على النفس، وليس سر ذلك دقيقاً على الأفهام، فإن الإعجاب مزيج من العجب والشعور السلبي بالذات. أما العجب فهو الذي يجعل نظر الشخص متجهاً دائماً نحو موضع إعجابه، بينما يوحي إليه الشعور السلبي بالذات الخضوع له ويعده للإيحاء والتأثر به والانزواء حياله. ومن هنا يتلقى الطفل من طريق الإيحاء الآراء الأدبية ممن يعجب بهم وينزع إلى محاكاتهم وتقليدهم ومشاركتهم انفعالاتهم الأدبية. فتتشكل عواطفه المجردة تبعاً لوحي الأشخاص الذين يتملكون إعجابه.

أما إذا عمد هؤلاء إلى صياغة عواطفه وتشكيل مشاعره، فإن تأثيرهم يتوقف في هذه الحالة على مقدرته العقلية على تكوين المدركات والمعاني الكلية لمختلف ضروب السلوك والأخلاق.

وفي الجماعة المدينية لا يأتي هذا المؤثر من الاحتكاك الشخصي وحده، ولكنه يأتي أيضاً من طريق العلم والكتب، إذ على قدر فهمنا لشخصية الكاتب ومبلغ إعجابنا به، نتأثر بتعبيره عن المشاعر والعواطف. ولاسيما الشباب منا، لأن عواطفهم لم تستكمل التكوين والنمو بعد. ولهذا كان الأدب في تقدير الناس هو المرآة التي تنعكس عنها الشخصيات العظيمة التي تثير إعجابنا، كما رأيناه كبير الأثر في تغذية المطابع بالغذاء النفسي الذي يجدي علينا جدوى الغذاء المادي للأبدان، وكم من الكتب بلغ ذروة البلاغة وجمال الأسلوب، وامتلأ بأدق صور

الأخلاق، ولكنه لا يمكن أن يبلغ مبلغ الشخصية العظيمة من التأثير والسلطان.

وقد شاهدنا أيضاً كيف يستطيع المؤلف الذائع الصيت أن يؤثر في عواطف قرائه، لا لشيء سوى معرفتهم أن غيرهم معجبون به، فإن هذه المعرفة وحدها تزيدهم إعجاباً به من طريق إعجاب الجماهير به والاشتراك معهم فيه.

ولا يلبث النزوع الصادق عند الفرد أن يظهر ويحس تبعاً لمدى امتصاصه وتشربه من هذه النواحي الأدبية وتأثيرها، فإذا تهيأ له الإشراف على رياضة مشاعره من الحداثة، فلا يلبث نزوعه الصميم أن يظهر ويتجلى في قوة العواطف المختلفة، والانفعالات البالغة التي تستيقظ في أعماق نفسه أكثر من ظهورها وتجليها من حيث طبيعة الموضوعات والأشياء التي اكتسب الميل إليها أو النفور منها.

أما إذا وجد الطفل، كما هي العادة، شيئاً من حرية الاختيار فإن نزوعه الصميم لا يلبث أن يبعثه على التخير والانتقاء، ويجنح به إلى التأثر بطائفة من العواطف الأدبية دون سواها.

50- تبديل

ابنتي بنت موهوبة، ذكية، مواظبة على دراستها بانتظام وهي في الصف الثاني إعدادي.

ودليلي على ذلك أنه حين راجعت المدرسة بصدد أخذ أوراق تسجيلها من مدرستها إلى مدرسة ثانية، حيث انتقلنا من المنطقة القديمة إلى منطقة جديدة بعيدة عن المدرسة الأولى، كتبت المديرة تصف ابنتي: (لقد خسرنا طالبة مجدة وهي الأولى في صفها).

أما في مدرستها الثانية فقد عكست الأمور.

ففي حين كانت ابنتنا الأولى في صفها باتت في المدرسة الجديدة بحاجة إلى دروس خصوصية لمساعدتها في العديد من المواد الدراسية، حيث لم تستطع أن تجاري المستويات التي وضعت لزميلاتها في الفصل الدراسي.

أرجو أن تتكرم بتفسير هذا الاختلاف فيما حصل لابنتي؟

صباح. ب

قد تكمن المشكلة هنا في أن المعايير التي استخدمت في تقويم ابنتك في إحدى المدرستين مختلفة عن تلك التي استخدمت في المدرسة الأخرى. ففي المدرسة الأولى كانت ابنتك بالفعل من التلميذات الأوائل في فصلها الدراسي، أي عندما قورن أداؤها بأداء الأخريات في مجموعتها بدت تلميذة متفوقة. ومع ذلك عندما انتقلت ابنتك إلى المدرسة الثانية فإن عملية تقويمها حدثت بناء على معايير مختلفة، فعلى سبيل المثال قد تكون تلميذات المدرسة الثانية قد قطعن أشواطاً أبعد في اكتساب مهارات القراءة والكتابة والرياضيات.

وفضلاً عن ذلك يمكن أن تكون عملية التقويم في المدرسة الثانية قد اعتمدت على محك عملي أكثر من اعتمادها على معايير عامة، أي إنه بدلاً من الحكم على أداء ابنتك بالمقارنة لأداء التلميذات الأخريات، فمن المحتمل أن تكون

المدرسة الثانية قد قيمت ابنتك بناء على معيار أو محك كامل.

يعرض أدلر للمنافسة الفردية بين الطلاب (قد تكون المنافسة بالنسبة لابنتك خاسرة هنا) فيقول إن الفصل في المدرسة ينبغي أن يكون مجموعة يشعر فيها الطالب بأنه جزء من وحدة متضامنة، لهذا يجب على المعلم أن ينظم التسابق والطموح في حدود ذلك الوضع. فالمنافسة الفردية تسيء إلى الروح الجمعية، زيادة على الأذى الذي يلحق تكوين الطالب منها، ذلك لأن الطلاب أو الطالبات ممن في أعمار ابنتك، يكرهون أن يروا أترابهم، وقد خلفوهم وراءهم بمراحل، فإما أن تنقطع نياطهم للحاق بهم، أو يعانوا السقوط في اليأس والانقباض على أنفسهم. لهذا كان توجيه المعلم وإرشاده كبير الأهمية في نقل نشاط الطالب من ميادين المنافسة الفردية إلى وجوه التعاون والتعاضد بين الجماعة الواحدة، وفي العناية بإقامة المنافسة بين تلك الجماعات لا بين الأفراد.

ربما كان صف ابنتك مزدحماً بالتلميذات، وهي غير معتادة على ذلك في صفوفها السابقة. وفي ذلك ينقد أدلر ازدحام الفصول بالتلاميذ، فيلح في الإقلال من عددهم في الفصل الواحد، ويقترح الأخذ بنظام معلم الفصل الذي يلازم التلاميذ عاماً بعد عام، حتى يستطيع دراسة كل منهم عن كثب ويتتبع نموه، فيستطيع أن يعالج أخطاءه ويحسن توجيهه وإرشاده.

ذكرت أن ابنتك ذكية، ونحن نضع مقياس الذكاء هنا على قدر مدارك تلميذات صفها السابق، فلعلهم من متوسطي الذكاء أو أقل من ذلك، حتى ظهرت ابنتك بمظهر الذكية الأولى.

وكم من حوادث وقعت لنا في حياتنا وعرفنا من خلالها أن ما كنا نعتقده قمة الذكاء كان بالنسبة لغيرنا بداية الطريق. فإذا عرفنا الذكاء إجرائياً قلنا أن الذكاء هو ما تقيسه اختبارات الذكاء. وهناك حل أفضل إلا أنه لا يتسم بالوضوح ومؤداه أن نعرف الذكاء بأنه تلك الخصائص العقلية الثابتة نسبياً التي يمكن أن يستخدمها الشخص في حل مختلف أنماط المشكلات وما زالت هناك طريقة أخرى للنظر إلى

الذكاء تتمثل في تقسيمه إلى:

1. إمكانية موروثة.
2. مستويات ثابتة من الفهم والأداء.

ومن الواضح أن تباين هذه التعاريف يوحي بأن الاقتصار على تعريف واحد فقط ليس كافياً.

إن الصعوبة في استخدام نسبة معامل الذكاء تكمن في أنه بمجرد وصول الشخص إلى مستوى الرشد فليس ثمة وسيلة توضح أن اضطراد نمو العمر العقلي يتطابق مع استمرار الزيادة في العمر الزمني. فإذا ما استخدمت نسبة معامل الذكاء كمقياس للراشدين فإن قيمة معامل ذكائهم ستقل باستمرار مع تزايد أعمارهم الزمنية.

وضعنا حلاً لمشكلة ابنتك كما تصورناه، وقد يكون لنا رأياً آخر، فيما إذا تمكنا من مقابلة ابنتك.

51- كابوس

توفيت زوجتي قبل ثلاثة أشهر مخلفة لي ثلاثة أولاد.

أكبرهم وأشطرهم صبي في التاسعة من عمره.

منذ الشهر تقريباً أصبحت أفيق على صياحه وهو نائم، مطلقاً نداء الاستغاثة، مردداً كلمة ماما .. ماما.

وبالطبع (أفيق) على هذا الصياح وأيقظه وأهدئ من روعه.

ما أخشاه أن تتطور هذه الأحلام إلى أمور لا تحمد عقباها.

سهيل. ي

ينتاب ابنك الكابوس، وهو حلم مخيف يستيقظ الحدث على إثره خائفاً مذعوراً، إلا أنه يدرك أنه كان في حلم ويعرف من حواليه، ويستجيب للتهدئة فينام.

والكابوس دليل القلق .. وقلق ابنك ناشئ من افتقاده لأمه، وهي إنسانة عزيزة عليه. وقد يكون أثره طفيفاً ما لم يتكرر كثيراً ويكون شديد الوطأة.

أحياناً يمر الناس مر الكرام بما يقع لهم من أحلام، ولكنهم لا يستطيعون تجاهل ما يعتور نومهم من كوابيس. إذ يمكن أن تكون هذه الكوابيس باعثاً على الضيق والتعاسة إلى أقصى حد لأنها تلقي ظلالها القائمة على اليوم التالي بطوله. وقد أحجم (هاملت) عن الانتحار خشية ما عسى أن يتعرض له من أحلام بسبب التفكير في الانتحار. هذا والكوابيس من أسباب الأرق الشائعة، فالكثير من الناس، كالجندي، والمدني المصاب بصدمة الحرب، لا يجرءون على النوم خوفاً من الأحلام المرعبة التي يتوقعونها، ولا غرو فالإنسان لا يسلم نفسه هكذا ببساطة لحلم يرى نفسه فيه وقد نسف نسفاً، أو دفن حياً ليلة في أثر أخرى. ومن هذا القبيل ما يعانيه الأطفال من تجارب مرعبة. فهذه التجارب ليست مجلبة للفزع فحسب، بل إن آثارها تمتد فتملأ النهار بالتوجس وتوقع الشر.

إن الطفل الذي أفزعه كلب هاجمه في أثناء النهار، قد يرى في الليل كابوساً

عن وحش يدهمه مما يجعله نهباً للمخاوف طوال اليوم التالي. والطفلة التي ترى أمها في منامها في ثوب ساحرة مخيفة، يصبح عليها الصباح وقد استبد بها الشك، وغشيها الخوف من أمها، حتى حين تقبل نحوها في عطف وحنان، ظناً منها أن الأم الحنون قد تسفر عن ذئب مفترس، أو حادثة وفاة الأم كما جرى لابنك.

في العادة تتنازع الكثير من الأطفال مخاوف المرض، والاختناق، والانفصال، والولادة العسرة، دون أن تترتب على ذلك نتائج سيئة، وذلك لأن مخاوف موضوعية بحتة كهذه لا تلبث في المعتاد أن تنقضي، إلا إذا عادت فارتبطت من جديد ارتباطاً شرطياً. ثم إنها تنتهي أيضاً إذا كفلنا للطفل الشعور بالأمن. ولكنها إذا تدعمت بتأثير الخبرات التالية، أو استمر الطفل يحيا في جو من عدم الاطمئنان، فإن هذه المخاوف المبكرة ترسخ وتزمن. ومن الأمثلة الدالة على الحالة الأولى أن مريضاً احتجز وقتاً ما في مقصورة بسفينة حربية تغرق، وكان بصحبته جماعة أخرى من الرجال، ولكنه أفلت من الخطر دون أذى آخر الأمر. ثم أصيب فيما بعد بداء الكلوستروفوبيا، على حين لم يصب الآخرون الذين كانوا بهذا الداء.

فلماذا كان هذا؟

يرجع ذلك إلى أنه كان لديه استعداد لمثل هذه المخاوف نشأ عن حالة اختناق في أثناء ولادته. ولم يخلف هذا الاختناق أعراضاً مباشرة نظراً لما توفر له من أسباب الشعور بالأمن، ولكن هذه المخاوف بعثت من جديد بتأثير ما حدث له في مقصورة السفينة. فلم تكن هذه الخبرة ولا تلك بكافية في ذاتها وبمفردها لتكوين العصاب ولكن الواحدة منهما قوت الأخرى مما ترسب عنه ذلك النوع من المخاوف.

كثرة الكوابيس على ابنك قد تسبب له العصاب.. قد تقول ولماذا العصاب، على حين أن الكثيرين غيره تقع لهم كوابيس كهذه دون أن يصيبهم ما أصابه؟

للإجابة على هذا ينبغي لنا أن نكر راجعين إلى الخلف نبحث فيما وراء

العرض، لأن لهذه الحالات على الدوام أسباب نهيئها، كما أن ثمة أسباباً تعجل بها، وهذه الأسباب إما أن تكون بدنية، كأن يكون المريض مفرط الحساسية من الناحية المزاجية، أو أن يكون من ناحية سيئ التكيف لمواجهة مسؤوليات الحياة. وقد تكون الأسباب المهيئة ذات طابع نفسي ترجع في الأصل للظروف البيئية التي أحاطت به في طفولته. والأغلب الشائع أن يؤدي كل من العاملين دوره في الموقف حيث إنه من الجلي أن الطفل الذي يكون بمقتضى تكوينه شديد الحساسية يتأثر بصدمات الحياة بدرجة أكبر من الطفل الأمتن بنياناً وبأساً.

إذا قصرنا بحثنا على الأسباب النفسية نجد أن المشكلة الأساسية في جميع حالات العصاب النفسي – وفي ذلك نختلف مع فرويد – هي مشكلة افتقاد الأمن. ولكن، لما كان شعور الطفل بالأمن ناشئاً عن حب الأم وحمايتها له، فإن افتقاد ابنك للأمن يشعر به في صورة حرمان من حب الأم وحمايتها. وإذا ضمن ابنك لنفسه هذا الحب الذي يحميه ويصونه، فإنه يشعر بالأمن، كما يشعر بالثقة في مواجهة الحياة، ويجد لديه الشجاعة التي تؤهله للمغامرة، ويستطيع أن يحب الآخرين، ويكبر مستقلاً بنفسه، وينعم بالصحة العقلية، ويكون قادراً على مقابلة مطالب الحياة بكفاية. وحيث يكون محروماً من هذا الحب فإنه يشعر بعدم الأمن. ويقرب الحياة في توجس وترقب، ولا يستشعر الثقة بنفسه عندما يواجه مشكلات الحياة، ويعجز عن أن يحب الآخرين، ويصبح متمركزاً في ذاته، ويهرب من الحياة عن طريق المرض. وهو إذ يحس بأنه مهجور غير محبوب فإنه يستجيب للحياة على أنحاء مختلفة، فقد يكون ذلك عن طريق الاكتئاب، أو الخوف، أو الغضب، أو الكراهية، أو الحسد، أو الأسى على النفس، أو الشقاوة، أو ينغمس في شؤون الجنس يرى فيها همه لفقدانه الحب. وجميع هذه الاستجابات محاولات منه كي يعالج مشكلة عدم الاطمئنان، وجميعها يمكن أن تزمن لديه، وتستمر طول حياته كسمات شاذة في خلقه. إن هذا الإحساس بعدم الأمن يظهر في الكوابيس، وغير ذلك من الأمور التي يعالجها وحيداً دون أن تتوفر لديه أسباب معالجتها.

عليك مضاعفة حبك وحنانك لولدك لتعويضه عن فقدان أمه.

52- العواطف والخوف

أقرأ كثيراً المواضيع التي تتناول علم النفس وأريد الاستزادة فيما يخص علم نفس الطفل.

وبما أنني أم لها ثلاثة أولاد أكبرهم في التاسعة من عمره أريد أن أعرض عليك حالة ابني الكبير.

فمنذ كان صغيراً وإلى الآن ألاحظ عليه، كما هو الشأن مع أخوته، خوفه من بعض الأجسام المكتسية بالريش أو الفراء، والنار، والظلمة والزواحف وما إليها.

ربما مرينا نحن الكبار- بمثل هذا الخوف ولكن تطور الزمن والكشف عن المجهول الذي لم يعد مجهولاً جعلني أتوجس خيفة من استمرار ذلك في أطفالي.

ماجدة. ي

حين يولد الطفل يكون قطعة خام يكتسب المعرفة من محيطه .. من أمه ومن أبيه وأخوته والجيران والأصحاب في المستقبل. ومنذ القدم وجهت خرافات كثيرة عجيبة تفكير الناس ليتساءلوا عن أصل العواطف وأي منها يكون فطرياً أو مكتسباً من عملية الحياة الاجتماعية. وما ذكرتيه من أمور يخاف منها طفلك بقيت سارية إلى أن جاء علم النفس في النصف الأخير من القرن التاسع عشر بفحوصه المنظمة لكي يكشف عن صحة هذه الأحاسيس في محاولته للتوصل إلى فهم الحياة العاطفية فهماً علمياً من حيث كيف يصير الإنسان إلى ما هو عليه من التعقيد العاطفي؟ وما هو أصل مخاوفه المهلكة، وقلقه اليومي، وأحاسيسه السامية في الإخلاص والتضحية؟ وإلى أي حد يؤثر النضوج فيها، وإلى أي مدى تنتج عن الاكتساب والتعلم وغير ذلك...

بادئ ذي بدء الطفل ليس هو بالشخص (المصغر) للإنسان البالغ، كذلك اضطراباته النفسية تختلف بمظاهرها وتعابيرها وعلاجها عن اضطرابات الشباب والبالغين. وقد اتضحت أهمية السنوات الأولى في عمر الإنسان باعتراف كل

المدارس النفسية متعددة الاتجاهات والمبادئ. وأصبح الطب النفسي للأطفال اختصاصاً يتفرع عن الطب النفساني العام بل يفوقه أهمية نظراً للصعوبة التي تواجه الطبيب النفساني في فهم الطفل وفحصه واقتحام عالمه الخاص الذي لا يتمكن من التعبير عنه بيسر كالكبار، ولأنه يعد وقاية من الأمراض النفسية للكبار.

إلى عالِم النفس (واطسون) يعود الفضل في الكثير من الدراسات التي تناولت سلوك الطفل. وقد أضافت التجارب التي أجراها هذا العالم وأصحاب النظرية السلوكية في علم النفس في العقد الثاني من القرن الماضي، الكثير من المعلومات القيمة إلى فهم نمو العواطف الناضجة فهماً واقعياً. فبعد أن راقب واطسون عدداً كبيراً من الأطفال، قرر أنه لا يوجد سوى ثلاث استجابات عاطفية يمكن فصلها عن بعض الأطفال الصغار، وهي: الخوف والغضب والحب. استنتج واطسون هذه الاستجابات ووصفها من ملاحظاته بما يلي: (إنها تتعلق بأساس طبيعة الإنسان الأصلية). وأما الاستجابة للخوف فقد وصفها بقوله: (انقطاع مفاجئ للتنفس وتحريك الأيدي حركات عفوية وإغماض مفاجئ لجفون العينين، وزم الشفاه، ثم البكاء). وميز استجابة الغضب عن الاستجابة للخوف بقوله: (يتصلب الجسم وتضرب اليدان بحركات منظمة نوعاً ما، وترفع الأقدام والسيقان إلى أعلى ثم أسفل. وينقطع التنفس إلى أن يحمر وجه الطفل). وأخيراً وصف واطسون الحب بما يلي: (إذا كان الطفل يبكي فإنه يتوقف عن البكاء، وتظهر ابتسامة على وجهه، ويحاول إصدار أصوات تشبه خرير الماء وهديل الحمام). وقد حاول واطسون أن يثير هذه المجموعة من الاستجابات العاطفية في الأطفال بواسطة تعريضهم لكل ما من شأنه أن يخلق جواً مثيراً للسلوك العاطفي، حسب ما كان مألوفاً. إذ كان الاعتقاد السائد قبلاً، أن الرضيع والطفل الصغير يخافان الأجسام المكسوة بالفراء، لكن واطسون كان أول من وضع هذه الفكرة تحت الفحص العلمي المجرد من كل الخرافات السابقة.

انصبت دراسته نحو أطفال لم يبلغوا من العمر سوى أربعة شهور أو خمسة،

وكانوا قد نشئوا في جو المستشفى المعزول عن معظم المثيرات العاطفية التي يحياها الأطفال إذا ما تربوا في بيوت بمستوى متوسط من المعيشة. ثم وجه هؤلاء الأطفال بمثيرات يختبرونها لأول مرة في حياتهم تحت شروط الفحص، بينما يراقبهم بعناية مختصون ومدربون على تسجيل استجاباتهم. وجيء بقطة سوداء تفور حيوية ونشاطاً وعرضت أول الأمر في هذه المجموعة من الفحوص. وامتدت أيدي الأطفال دون استثناء لتلمس فراء الحيوان وعينيه وأنفه. وعندما عرض أرنب كانت الاستجابات متشابهة في الأصل، إلا أن الطفل كان يقبض على أذنيه ويهم بإدخالهما في فمه. ولم تدل نتيجة الفحص على أن أي طفل أظهر بادرة خوف من الأرنب. وعندما جيء للأطفال بكلاب صيد من الحجم الكبير والصغير على السواء، كانت النتيجة مشابهة للنتائج السابقة، ما عدا مع الكلاب الكبيرة فقد ظهرت بعض الحركات المسلكية. ولما رأى واطسون أن الأطفال الذين لم يحصلوا على أية فرصة للتعلم لم يظهروا بادرة خوف من الحيوانات التي استخدمت في الفحص، استنتج أن الاعتقاد السائد بأن الأطفال يخافون بالغريزة من الأجسام المكتسية بالفراء ما هو إلا خرافات عجائز كبار.

ومنيت بالفشل بعض الشروط الأخرى التي كان يجب أن تثير استجابات عاطفية – حسب الاعتقاد السائد – عندما فحصت بالتجربة. وبعد استطلاع احتمالات المثيرات العديدة، استنتج واطسون كذلك أن الأحوال الأساسية التي بعثت استجابة الخوف هي الأصوات العالية وفقدان مساند الجسم. كما وأمكن تهييج الغضب بوساطة تقييد حركات الجسم، وأما استجابة الحب فقد ظهرت عند ترتيب أو تحريك أجزاء الجسم المختلفة. ومن كل ما سبق استنتج واطسون أن المثير الذي ينبه العاطفة، قبل التعلم، يكون محدوداً جداً. وبالإضافة إلى إشهار عدم صلاحية نظرية العواطف الغريزية، اوضح واطسون والسلوكيون الأهمية العظمى للاشتراك في النمو العاطفي، وبينوا أن الأطفال يتعلمون الخوف ويتجنبون الأشياء التي كانت في الأصل محايدة، إذا ما صاحبتها خبرات مؤلمة أو سارة.

من الأمور التي سجلها واطسون قضية مشهورة لصبي عمره أحد عشر شهراً. كان هذا الطفل مرحاً جداً وقلما رآه أحد يبكي قبل إجراء أي تجربة عليه. وبعد إنهاء الفحوص المتكررة اكتشف أن الصوت المرتفع، وفقدان مساند الجسم هي وحدها التي تهيج استجابة الخوف في الطفل عندما أجريت محاولة لرؤية ما إذا كان يمكن اشتراط الخوف فيه مع فأرة بيضاء. وأما نتائج هذه التجربة فقد كانت ظاهرة بوضوح تام ونوجزها فيما يلي: أظهرت الفحوص المبدئية أن الصبي لا يخشى الفأرة البيضاء، وعند ابتداء التجربة المشروطة فوجئ الطفل بالفأرة أمامه، فامتدت يده لتأخذها، وحالما لمستها يده دوى صوت مرتفع صادر عن ضرب قضيب معدني خلف رأسه، فأحدث هذا العمل رجفة في الصبي لكنه لم يبك، ثم امتدت يده ثانية لتأخذ الفأرة، وضرب القضيب ثانية حالما لمستها يده، فقفز الطفل بشدة هذه المرة وبكى. انقضى أسبوع كامل قبل أن تجري أية محاولة لإعادة التجربة المشروطة. وعند أول محاولة فوجئ الطفل بالفأرة وحدها دون أن يصاحبها الصوت. فتردد في تناولها، وعندما لمستها يده سحبها فجأة. ثم أجريت تجارب مشروطة متعددة عرضت فيها الفأرة على الطفل مصحوبة بالصوت المرتفع. وفي كل مرة أظهر الصبي استجابته برجفة، وبكى أثناء التجارب الأخيرة. وفي النهاية قدمت إليه الفأرة وحدها ودون أن يصاحبها الصوت المرتفع. ابتدأ الطفل بالبكاء فوراً هذه المرة وأخذ يزحف بسرعة بعيداً عنها.

وهذا يعطي برهاناً على أن الاستجابة للخوف يمكن أن ترتبط بمثير كان في الأصل محايداً. وهذه النتيجة كانت مهمة لواطسون في إيضاح الأسلوب الذي يمكن فيه إثارة العاطفة. وظهر أن هناك عدداً كبيراً من المثيرات المختلفة تزداد كلما نما الطفل وكبر. ونتيجة لهذا تبدأ الأشياء الجديدة بإثارة استجابة العاطفة التي كانت في الأصل متعلقة بعدد ضئيل جداً من المخاوف الفطرية. ويتعلم الطفل الخوف – عن طريق إبدال المثير – من العدد المتزايد من الأشياء كلما اتسع نطاق خبراته وتجاربه.

وتعددت تجارب واطسون ليجد ما إذا كان الشخص الذي ألزم ليخاف من شيء ما ينمي مخاوفه من أشياء مشابهة. فالصبي الذي اشترط على أن يخاف الفأرة البيضاء كان في السابق يلعب بأقنعة وألعاب محشوة ومكتسية بالفراء، وأرانب وحمام وأشياء أخرى مشابهة، دون بادرة خوف من أي منها. ولم يسمح له برؤية أي منها في خلال خمسة أيام تبعت آخر اتصال مشروط بالفأرة البيضاء، ثم فحص في اليوم السادس، وعرض على الصبي أول الأمر مكعبات كان يلعب بها أثناء الفترات التي تخللت التجارب المشروطة مع الفأرة، فلعب بها فوراً. ودل هذا على أنه لم ينقل شيئاً من المخاوف المشروطة إلى المكعبات، لكنه عندما رأى الفأرة ثانية صرخ وابتعد عنها. إذن وبدون شك استمرت استجابته المشروطة بالفأرة مدة خمسة أيام. ثم عرض على الطفل بالترتيب: أرنب، وكلب، ومعطف مصنوع من فراء الحيوان، وقطن، وصوف، وشعر إنسان، وقناع وجه. وهيج كل واحد من هذه المثيرات استجابة سلبية، مع أن رد الفعل الذي أظهره الطفل كان أقوى تجاه الحيوانات والمعطف من الأشياء الأخرى التي قل شبهها بالفأرة، وحينما عرضت عليه المكعبات لعب بها فوراً كما كان قبل الاشتراط وتنفيذه. مما رويناه عن تجارب العالم النفساني واطسون يمكننا أن نجعل نتائجه متطابقة مع حالة ابنك، وهو ما يبين أن الاستجابة المشروطة للخوف من شيء ما قد تنتشر إلى أشياء مشابهة. وهذه العملية المعروفة باسم تعميم المثير تعقد تطور الاستجابات العاطفية تعقيداً متزايداً.

53- بين الشدة والمرونة

الفارق بين زوجي وسلفي (أخ زوجي) هو أن الأول يعطي الأوامر إلى ابنه بمنتهى الشدة.

فيما الثاني يوحي إليه (إيحاء) بما هو مفروض عليه أن يتعلمه أو يعرفه.

أسأل زوجي لماذا يعامل ابننا هكذا فيجيبني إن الشدة تعلم الإنسان الشعور بالمسؤولية.

وحين أسأل سلفي عن فلسفته في تربية ابنه يقول لي إن الإيحاء يعلم الإنسان الشعور بالذات؟

سوزان. ع

تستطيعين أن تتصوري مبلغ تطور فكرة النفس في الإنسان، ولك أن تتخيلين ناشئاً من المولد في وسط طبيعي محض، لا وجود فيه للناس والحيوانات. فهو في هذه الحالة لا ترتفع فكرة النفس عنده إلى أكثر من نفس أو ذات جسدية لا تمتاز عن الأشياء الطبيعية الأخرى إلا بوجود الحياة فيها، ومختلف الآلام التي يحسها وقيام خيط من التشابه يتكوّن من جملة المشاعر العضوية الناشئة من الأعضاء الباطنية، والأفاعيل الدقيقة التي تتألف منها النفس التجريبية، من انفعالات ونزعات وآلام ولذات بدائية. أي أن فكرة النفس عند هذا الإنسان المنفرد لا يمكن أن تتجاوز هذا الحد من التشعب لأن تطور الشعور بالنفس هو في جملته عملية اجتماعية.

إن الطفل في بداية الأمر يعجز عن التمييز بين طبقتي الأشياء التي يتألف منها العالم الخارجي لديه، وهما: الأشخاص والجامدات، ثم لا يلبث في الأشهر الأولى من الحياة أن ينتبه في الغالب إلى الأشخاص، لا لشيء سوى أنها أولاً الكائنات التي تتحرك أكثر من سواها أمامه وتنبعث منها الأصوات، ثم بعد ذلك لأنها الكائنات التي تسد جوعه وتخفف المتاعب الأخرى التي تضايقه، وهكذا يبدأ يهتم بهذه الكائنات المتحركة. ويأخذ في مراقبتها ويستريح إلى حضورها ويفزع من

غيابها، ويكفي مجرد سماع صوت أمه للعدول به عن البكاء، ومنعه من الصياح، وإشاعة الرضى في نفسه لتوقع ما سيناله من الغذاء، ولا تلبث الأمارات والبسمات الظاهرة، كالبسمة البادية على وجوه الناس وأصوات الأطفال الآخرين أن تثير لديه بسمات مماثلة بفعل الغريزة المحض، وما يصاحبها بالطبع من المشاعر المناسبة.

ومن هنا يبدأ الطفل يتعلم من تجاربه الظواهر والبسمات الخارجية، ويعرف كيف يربطها بالمشاعر والانفعالات التي يحسها هو في نفسه، ويجد أن بعض الأشياء تقاوم محاولاته الحركية مقاومة متفاوتة الدرجات وأنها تكره أعضاءه وأطرافه على جملة معينة منها، فلا يلبث في سلوكه حيال الأشياء الخارجية عنه أن يتخذ المشاعر، ويبذل المجهودات، ويؤدي الحركات التي جربها من قبل بذاته. وهو في بداية الأمر يتصور الكائنات الجامدة على النحو الذي يتصور به الأشخاص، ولكنه على مر السنين يبدأ رويداً يتعلم كيف يميز بينها، متخلياً شيئاً فشيئاً عن فكرته فيما يتصل بالكائنات الجامدة، ولكنه لا يتخلى مطلقاً عما ينسبه إليها من صفات الأشخاص. والظاهر من نظرته إليها على هذا النحو أن أفكاره عنها عامة مرتبطة، بل متأثرة بفكرته الأولى عن النفس ككائن قادر على الشعور والحركة.

وعلى ذلك، كلما تقدم في معرفة الفوارق بين الجمادات والأشخاص ظلت الأشخاص لديه أولى بالاهتمام وأحق بالعناية، لأنها ستبقي عنده مصادر لذاته وآلامه، فلا ينى يقلدها في سلوكها، ولكنه يتبين أنها تأتي أشياء كثيرة هو عن إتيانها لعاجز وإن كان بوده أن يقدر على إتيانها، وكثيراً ما ينزع إلى إتيانها لا لشيء سوى أن أفعالها تجتذب اهتمامه وتوجه فيض حركاته.

بيد أن أهم من حركات الناس المحيطين به، المشاعر والانفعالات التي تدفعهم إلى هذه الحركات، فلا يلبث الطفل أن يشعر بشيء من القدرة على تحريك هذه المشاعر إلى حد ما، وبذلك يتسنى له أن يفهم مواقف الناس منه وشعورهم نحوه. ولا يزال يوسع في نطاق اختباراته وفهمه للانفعالات والدوافع عند الغير، يقلدهم في ألعابه ورياضته وإقامة نوع من العلاقة الشخصية بهم فيتخذ دور الوالد

أو المعلم أو الأخ الأكبر، ويحمل طفلاً أصغر منه أو كلباً أو هرة أو دمية على الوقوف ويمثل دوره حيالها، مدركاً بذلك معنى سلوك الآخرين. وعلى هذا النحو تنمو لديه الفكرة عن النفس ومقدرتها على العمل والاحساس.

على أن تقليده للغير وما يستتبعه من إدراك معاني سلوكهم على اللعب واللهو وحدهما لا يقتصر على ذلك، بل يجري أيضاً على العلاقات الجدية المتصلة بالحياة اليومية، كما نرى الطفلة في الحول الخامس أو السادس تتحدث إلى أخيها الصغير باللهجة ذاتها التي تتحدث بها أمها إليه، وتلاعبه وتسليه أو تعتب عليه وتؤنبه. وهكذا تصبح فكرة الطفل عن نفسه من بكور الطفولة مجموعة علاقات بينه وبين الأشخاص الآخرين، لا مجرد نفس جسدية ذات طاقة معينة على الشعور والحركة.

إن الطفل البائس المنكود الذي لا ينقطع تأنيب أهله له، وقولهم عنه أنه شقي خبيث، لا يلبث أن يرتضي هذه الأوصاف ويتقبل هذه الإيحاءات، ويعد نفسه شقياً خبيثاً حقاً، وينطلق يؤدي هذا الدور ذاته في الحياة. أما إذا عدّه المحيطون به غلاماً ذكياً، أو صبياً فاتناً، فلا يني يتأثر بهذه الفكرة عن نفسه ويصبح سلوكه في المجتمع متشكلاً تبعاً لهذا الاعتقاد. ومن ثم يستمد الطفل شعوره بالذات من الصورة التي يجدها في أذهان الناس. ولا نحسبنا بحاجة إلى القول بأن هذا هو الواقع لا من ناحية نفسه العقلية فحسب بل من ناحية نفسه الجثمانية كذلك، فإن كل إنسان منا يتأثر مظهره الخارجي بأفكار الغير وتصوراتهم. والمغرور هو الذي لا يفتأ منشغلاً بفكرة مظهره الخارجي وأثره في أعين الناس، وهو الذي لا يثبت على تقدير أو رأي معين في نفسه أو مواهبه ومظهره وبزته، بحيث لا يكترث بآراء الناس ولا يحتفل بأفكارهم بأمكامهم فيما يخصه.

تتخذ عاطفة الاحترام الذاتي عند الطفل شكل اعتزاز لا حِوَل عنه، بل اعتزاز يلهو ويتلذذ أبداً بما يجده عند الناس من الإجلال والعرفان والإعجاب، ولا تتجاوز الميول والنزعات المتصلة بهذا الاعتزاز، الإحساس باللذات والابتهاج

والغضب لأن غضبه لا يفتأ يثور في نفسه كلما قصر أحد في الخضوع له أو تأبى على احترامه وتوقيره، وقد يشتد لديه الشعور بالذات ويطغى على سائر الأحاسيس، ولكنه مع ذلك يبقى ضعيفاً في مادته وجوهره، لأنه سيظل عاجزاً عن تنمية معرفته بحقيقة نفسه، ولا يجد فسحة لسماع أحكام الغير عليه، ولا يهتم بمعرفة رأي الناس فيه، وقلما يفكر في سلوكه أو يراجع تصرفاته، ولا يمكن أن تتجاوز العوامل المؤثرة في نفس إنسان كهذا غير التعليم الديني لما يوحى إليه من وجود قوة أكبر من قوته، وما يلهمه من الشعور بأنه سوف يسأل أمامها عما جنته يداه، وقد يتأثر أيضاً بانفعال الحنو وما يدفع إليه من الغيرية وإنكار الذات.

إن الاحترام الذاتي عند كثير ممن خفت موازين الأخلاق عندهم تقرب من هذا النوع من الاعتزاز المحض، فهم يغتبطون ويفرحون بإعجاب الناس بهم وملقهم لهم وعرفانهم لصنائعهم عليهم، ولكنهم يظلون مستخفين غير مكترثين بالرضى الصادق عن عمل حسن يأتونه، وقد يتألمون من السخرية الموجهة إليهم أو الازدراء منهم، ولكنهم قلما يأبهون بالانتقاد والاستهجان، بينما أكثرنا يجدون في إعجاب الناس بهم أو سخريتهم منهم حوافز قوية إلى الإحساس بالذات، ودوافع أشد أثراً من المدح والذم.

وينبعث الإحساس الذاتي السلبي من ظهور إنسان بمظهر يحملنا على الاعتقاد بأنه أشد منا قوة وأبلغ بأساً وسلطاناً، وكيف نستشعر الخضوع في حضرته، وهذا هو الإحساس الذي يبعث الطفل كلما نمت قواه العقلية على التقليد والمحاكاة ويهيئ نفسه لقبول الإيحاء. وهذا الإحساس السلبي هو الذي يجعل الطفل خاضعاً لسلطة الكبار، وتبدو هذه السلطة أولاً في صورة القوة الجثمانية، ثم تتحول إلى تأثير الجزاء والعقاب. وكلما استشعر الطفل أن هذه السلطة الشخصية عليه هي قوة سامية لا تقهر ولا تلين، ولا معدى له عن الخضوع لها، أحس هذا الإحساس السلبي، واعتاد الاستكانة لما تريده منه، والنزول على حكمها، فلا يلبث الناس أن يصبحوا عنده أحد رجلين: رجل يوحى إليه أنه أسمى وأشد قوة فيعروه منه

الإحساس السلبي بالذات ويحس له الاستكانة والخضوع، ويحاول تقليده ومحاكاته، ورجل يوقظ إحساسه الإيجابي فلا يني يحاول الاعتداد بذاته أمامه والتحكم فيه، وكلما نمت قواه وازدادت معرفته واتسع نطاق مداركه، انتقل فريق من الذين كانوا عنده من قبل في مصاف النوع الأول إلى عداد النوع الآخر، إذ يدرك أو يحسب أنه يدرك حدود قوتهم ولا يعود ينزوي تهيباً منهم، ويتناقص تأثيرهم السلبي في نفسه رويداً حتى يزول بجملته، وعندئذٍ ينقلب موقفه منهم، فإذا هو حيالهم المعتد بذاته، الواثق بها، المتكبر، لأن محضرهم يثير لديه الإحساس الإيجابي بذاته.

وعلى هذا، فإن الطفل الذي أوتي مقدرة ظاهرة ونمت فيه غريزة الاعتداد بالذات، لا يني يتقدم رويداً ويصعد السلم الاجتماعي درجة فأخرى، وتوحي إليه كل دائرة اجتماعية يدخلها، وكل بيئة جديدة ينتقل إليها بين أترابه في الملاعب والمراتع، وزملائه ورفاقه في المدرسة، وأقرانه في الكلية، وشركائه في الصناعة أو الوظيفة أو المهنة، الشعور بأنها أكبر منه وأعلى شأناً، لا لمجرد أن كل دائرة منها تحوي أشخاصاً أكبر سناً منه وشهرة ومركزاً، بل أيضاً لأنها إلى حد ما حفل منظم، أو جمع حاشد، مكتسب قوة اجتماعية تبدو طبيعتها وحدودها لأول وهلة مجهولة لهذا العضو الجديد عليها، الحديث العهد بالدخول في زمرتها، ولكنه لا يلبث في كل بيئة منها أن يستوي في مكانه، ويبلغ محله، ويعرف الذين تجب لهم عليه الطاعة والخضوع، والذين يصح أن ينظر إليهم نظرة الاعتداد بنفسه. فإذا انتقل مثلاً إلى مدرسة أعلى مما كان فيها، بدا له طلبة الفرقة الخامسة أشخاصاً كبار الأقدار أو (آلهة). أقل كلمة منهم قانون، وأتفه حركة منهم مدعاة عجب بالغ، بل إنه ليشعر إزاء الذين دخلوا المدرسة قبله، ولو بوقت قصير، بشيء من الضآلة أو الإحساس السلبي بذاته، لأنهم عرفوا أشياء كثيرة فيها لا تزال غريبة عليه، ولاشتراكهم في نصيب من هذه القوة الاجتماعية التي تتمثل في البيئة بجملتها، ولكنه حين يصل إلى الفرقة الخامسة أو يصبح مندوب المدرسة كلها، وقد لا تلبث عاطفة الخضوع والمحاكاة أن تنقلب في نفسه إلى نقيضها تماماً.

وحين يدخل الجامعة ملتحقاً بإحدى كلياتها تتكرر هذه العملية بالذات فيصبح طلبة السنة النهائية آلهة في عينيه، ولكنه ما إن يتم التعليم في الكلية وينجح في السنة النهائية، حتى يتغير شعوره تجاه هذه البيئة كلها، فإذا هو ينظر إلى طلبة السنة النهائية بتسامح وعطف، وتنازل كريم، وإلى الجدد باحتقار لا خفاء فيه، فلا يبقى أحد في هذه البيئة حقيقاً منه بشيء من التوقير والإكبار، غير بطل عالمي في لعبة من الألعاب أو أستاذ جامعي أصاب شهرة طائرة، أما الآخرون فقد فهمهم جميعاً، وأدرك حدودهم، وسخر منهم، ونقلهم في شعوره وتقديره إلى الطبقة الأخرى التي توحي إليه إحساسه الإيجابي بذاته. وهكذا يخرج إلى العالم الكبير ليكرر العملية عينها ويمد في نطاقها على قدر مواهبه وحدود قدراته.

آمل فيما ذكرته أعلاه أن يقرأه زوجك لعله يعي سياسة أفضل في تربية ابنكما.

54- الطفل والخروج من التبعية

سامي ابني الحبيب، الذي لا أعطيه بمال الدنيا يحاول أن يخرج عن أوامري.

إنه في العاشرة من عمره.

يتمرد كثيراً على أوامري ويجعلني أصرخ وأثور في وجهه.

أريده أن يتبعني فيما يخصه.

لكنه يتمرد عليّ وهذا ما يغضبني.

مي. ع

لعل أصعب ما يواجهه الطفل في الحياة هو الخروج من الطفولة ومغادرة التبعية التي تحول دون بلوغه النضج؟

ومن المؤسف، أننا لا نعلم أطفالنا كيف يستقلون عنا منذ الصغر. فالطفل، منذ بلوغه سن السابعة، لا يعود بحاجة إلى أهله. الشواهد على هذا كثيرة. لكن الأهل يتعمدون عاطفياً، استبقاء أولادهم في الطفولة، ربما ليتمكنوا، هم، من العيش عبر إبقائه تحت سلطتهم. ذلك بسبب الخوف الذي يتولاهم أمام الموت اليومي: موت الأبوة .. ولكنهم لا يدركون أنهم هكذا يعوقون تطور الجيل الذي سوف يكون قيّماً على المجتمع في المستقبل.

لقد درج الكثير من الآباء إلى الأخذ بمبدأ السلطة والسطوة في التربية منذ قديم العصور، وهم يستمتعون في ذلك على حساب أطفالهم، بحيث ينظرون إليهم كأنهم متاع شخصي يتصرفون فيه كما يشاءون ويشكلون الواحد منهم تبعاً لما يرغبون، لا يدركون من التبعة التي تلقيها الإنسانية على عواتقهم، إلا أن أولئك الصغار ليسوا سوى ميدان يشبعون فيه رغبتهم في الزهو والطموح وميلهم إلى التفوق والكمال، فكم من أم تعامل وليدها كأنه في الواقع (فلذة من كبدها) يعلوها الخجل من أخطائه كأنها هي التي اقترفتها ويشيع على محياها الرضى لما يحسن

القيام به كأنها هي التي أبدعت ذلك الحسن الطريف. حتى إنك لتجد الناس يتحدثون عن أولادهم، وكأن الواحد منهم يقول، دون مجاز: (ذلك عضدي أو قرة عيني) فهو عنده في الصميم بضعة من نفسه وما أشبه.

إن مثل هذا الموقف لا يصدر عن العاطفة الوالدية التي تبعث على الحب فحسب، بل هو في الجانب الأكبر منه، قائم على مبدأ التسلط الذي تسير عليه تربية الصغار والذي يقول إن الطفل ليس سوى مخلوق عاص تملؤه الأنانية والثورة على كافة الأوضاع منذ مولده، ينبغي استئناسه والإمساك بزمامه بين حدود المجتمع الذي قدر عليه أن يعيش فيه .. حذو ذلك المذهب في تربية الصغار حذو القوم في ترويض الكلب يمنحونه العظمة إذا اهتدى وأطاع ويلهبونه بالسوط إذا عصى أو اعوج أمره، فيقوم سلوكه على الانعكاس الشرطي الذي يربط بين الطاعة واللذة وبين العصيان والألم: إذا شاعت فيه رغبة الثورة أوقفتها خشية الألم بينما يدفعه إلى الطاعة ويحببه فيها شوقه إلى الثواب وتطلعه إلى اللذة.

بيد أن صغير الإنسان ليس كلباً، فإذا كان من اللازم أن تتخذ تلك الوسيلة لترويض الكلب على العيش بين جماعة الناس، وإذا كان من المألوف نجاحها مع الكلب لما توارثه جيل بعد جيل من أسلافه الصالحين للعيش بين بني آدم، فإن هناك بوناً شاسعاً بين الطفل والكلب – ذلك أن حب العيش مع الغير والرغبة في التوافق والاتساق مع المجتمع ميل فطري في نفس الصغير قد يتأخر عن الظهور في سني الحياة الأولى لما يشعر به الطفل من عجز عن التوافق مع غيره، لكنه مع ذلك ميل شديد كامن في نفسه بل هو من أقوى عمد حياته وأهم مقوماتها. فوظيفة التربية – كما يقول ويسبرغ – إذن (هي التعجيل بتخفف المرء من شعوره بالنشوز عن المجتمع حتى ينمو ميله الاجتماعي نمواً لا توقف فيه. فإذا وفقت التربية في ذلك، ارتقى الميل الاجتماعي، ونما نماء تلقائياً، لا نحو التوافق والصحبة والنظام فحسب، بل نحو التفكير الموضوعي والاستقلال والشعور بالتبعة والشجاعة والميل إلى العمل كذلك).

على هذا، فإن الطاعة ليست خير ما ينشأ عليه الإنسان، فإذا أفلحت طريقة الترويض والاستئناس مع الكلاب، فذلك لأن الطاعة هي خير ما يجدي على الكلب مع بني آدم غير أنها مؤذية في تربية الناس، لأنها تزيد شعور الصغير بنشوزه عن غيره وتضعف أمله في إقرار كرامته في وجه السيطرة والطغيان، وإذا آمن الطفل بعدالة أصولها فسرعان ما يطبقها حالما يولد له أخوة يسيطر هو عليهم بدوره فإذا بدا منهم عصيان أبلغ الأمر للكبار حتى يشبع نفسه بالعقاب الذي سوف ينزل بهم. ويتابعه ذلك الموقف في المدرسة حيث يتميز سلوكه بالدقة في تنفيذ الأوامر والمسارعة إلى تقبل التعليم الذي يلقى عليه حتى ينال من رضى المشرفين ما يصل به إلى مركز العريف يسيطر فيه على غيره من الصغار ويمتع بما يخلعه ذلك المنصب على صاحبه من قوة منح الثواب أو التبليغ عن المذنبين وإنزال العقاب ...إلخ.

ونتيجة ذلك نرى خير (الموظفين) – أولئك الذين يخنعون لعنت الرؤساء ويحزمون بالغ الحزم مع المرؤوسين – وهم الذين ينشأون على ذلك الضرب من التربية والتعليم. لكن الحق أن أولئك القوم منذ طفولتهم لم يكونوا يعملون حباً في العمل أو رغبة فيه، ولم يكن الواحد منهم يتكمل حباً في الكمال بل كان يجاهد للحصول على رضى الأهل والمعلمين. تعوز كل منهم القدرة على الإبداع وينقصه الباعث على التجديد والابتكار فإذا شبّ لم يكن سوى أداة أو آلة لا يعمل ويطيع سوى زلفى للكبير وتحقير للصغير. وليس في الدنيا من باعث أكثر خسة وأشد مهانة من ذلك.

ورغم هذا وذاك، فإن التربية التي تقوم على التسليط والسيطرة، كثيراً ما تلقى فشلاً ذريعاً، لأنه إذا كان كبار الأطفال في الأسرة أميل إلى المحافظة في أغلب الأحيان، فصغارها أميل إلى العصيان والثورة، شعارهم المعارضة مهما كلفتهم من ثمن: يكفي أن يرغب الوالد أو الأخ في أمر ما، حتى ينبعث في نفس الصغير عناد شديد اتخذه هادياً له وديدناً يبقي به على كرامته وعلى شعوره بعزة نفسه. هذا

إلى مختلف الشكول التي قد يؤدي إليها ذلك الموقف كالخيبة في التعليم أو الكذب أو الخيانة باعتبار ذلك كله وسيلة من وسائل العصيان أو الاحتجاج.

نستخلص مما قلناه، إن الولد بحاجة إلى شعوره باستقلاليته بعض الشيء عن أوامر والديه، ولا بأس لو أتحنا له ذلك أحياناً، دون أن نشعره أننا نمثل عليه في هذا الأمر.

55- أزمة ضمير

تزوجنا منذ إحدى عشرة سنة ورزقنا بطفلين جميلين.

قبلت بزوجي نظراً لتشابه الخلفية الاجتماعية والنفسية بيننا.

أريد لابنينا أن يتجاوزا مرحلتنا - على عكس ما تقول به الأمهات - لأن جيلنا غير جيلهم.

فيما أرى أن المجتمع يجتذبهم أكثر مما نقوله نحن أبويهم.

أخشى أن يعيشوا أزمة ضمير بين المجتمع الاستهلاكي الذي بدأ يطحن بنا وبين مثلنا التي عشنا لأجلها.

هلا. د

تؤدي الجماعة الإنسانية دوراً مهماً في تكوين شخصية الصغير التي تتكامل تبعاً للمواقف المختلفة التي يحاول فيها أن يطابق بين نفسه وبين أوضاع المجتمع الذي يعيش فيه. وهكذا يبدأ نشوء الضمير، إذ لا يتضمن الضمير أكثر أو أقل من القواعد والأصول التي يسكبها في نفس الطفل من يقومون على تنشئته، لكن الصغير في أكثر الأحيان لا يؤمن في قرارة نفسه، بالأوضاع التي تعارف عليها الكبار، وهو إلى اعتزازه بنفسه وعناد طبيعته لا يجرؤ على الكفر المكشوف بأوامرهم ونواهيهم وغالي نصائحهم، لهذا يتخذ من السلوك ما يستطيع به أن يخدعهم كسباً لرعايتهم، واجتذاباً للعطف منهم، فكثير من أشكال النشاط التي تصدر عنه ليست سوى حيل يستخدمها في جهاده ضد البيئة التي يعيش فيها. وهي حيل كثيراً ما تخفى على إدراك من يحيطون به من آباء ومربين، فلا ينسبونها إلى أصولها الحقيقية بل يظنون أنها تكشف عن أخطاء يعيبونها عليه دون أن يقدموا له من العون ما يؤدي إلى إصلاحها أو تسويتها.

فمثلاً الطفل الذي يولد لأبوين انجذبا لأسباب أهمها تشابه الخلفية الاجتماعية والنفسية يكون محكوماً عليه بخلفيات والديه. فإذا كان والداه قد حرما

من الرعاية في صغرهما فإنهما لن يستطيعا أن يقدما له هذه الرعاية. لذلك فإننا نرى في الحياة أشخاصاً يتصرفون اجتماعياً بطريقة مختلفة عما نتوقعه، لأن توقعاتنا هي خبرتنا وتصرفاتهم هي خبرتهم، وعندما يشب الأطفال فإنهم يحملون خبرات أسرهم معهم. هذه الخبرات محملة بما تحدده الأسرة منذ البداية حول ما هو الشعور الإيجابي وما هو الشعور السلبي. فقبول السلطة أو الخروج عليها، وقبول التعاون مع الآخرين أو الانغماس في الفردية، والسيطرة على الشعور السلبي كالغضب أو الحسد أو الغيرة أو عدم السيطرة على مثل هذا الشعور، كل ذلك يرضعه الطفل من أسرته في سنواته الأولى، وإذا كان ثمة انحراف سلوكي للطفل في المستقبل فإنه يتكون هناك تحت سمع الوالدين وبصرهما أو بسبب سلوكهما. وبدون الانضباط الشخصي الذي يلعب الأب دوراً مهماً في تلقينه للطفل، وتحديد خريطة ما هو مقبول وما هو ممنوع، لا يستطيع الطفل أن يكون علاقات جيدة مع السلطة في المجتمع عندما يكبر، فالأوامر والنواهي الاجتماعية إن لم يتعرف عليها الطفل لا يستطيع أن يقبلها بعد ذلك، حيث كانت كل طلباته مستجابة، وكل ما يفعله مقبولاً، فهو لا يقبل بعد ذلك أي تحديد لهذا السلوك، وعند ذلك فإنه يقاوم أي سلطة تريد أن تحد من شهواته. والخطورة لا تكمن هنا فقط، فعندما يوضع وهو رجل في موضع يحتاج فيه إلى ممارسة الانضباط سيجد ذلك صعباً، فالسلطة مطلوبة، بحب وبحزم من الوالدين تجاه الطفل، والطفل الذي يعامل بهذه (التركيبة) يشب قادراً على اتخاذ القرار بعد الحوار حوله، وعندما يتخذه يقوم بتطبيقه بجدية، ومثل ذلك هو الأساس.

إن الصغار يعرفون جميعاً، حق المعرفة، أصول القواعد المرعية، ويدركون في وضوح، ما يرقبه الكبار منهم. غير أن أكثرهم لا يقبل تلك القواعد إلا قبولاً شكلياً لأنهم يعرفون أن الثورة عليها مجلبة للأذى، شديدة العسر، كبيرة الخطر. فيستبدلون بالثورة المكشوفة عراكاً داخلياً، يشجعه أهلوهم ويزيدون حدته في نفوسهم، راجين من ذلك، أن يؤدي، ضبط النفس، إلى انتصار مبدأ الخير عندهم

– ومع ذلك قلما يفلح ذلك الضرب من التربية، لأن دوافع الحقد والثورة والجحود تبقى كامنة في النفس على مر الأيام، مهما اتخذت من مظاهر الرفق والنعومة.

علينا أن لا نفعل في الحالة التي نحلل لها أن الطفل يحتاج إلى إخوة وأخوات وأصدقاء يلعب معهم، ليس من أجل اللعب فقط، وإنما من أجل أن يتعلم المشاركة، وضبط شعور الأنانية. فالأطفال الذين لا يعرفون معنى ضبط هذا الشعور ومعنى المشاركة، لا يفهمونها عندما يواجَهون بها في المجتمع وهم كبار. كما أن خطوات الاستقلال عن الوالدة ثم عن الوالد، أي الأسرة، عملية خطيرة في حياة الأطفال والمراهقين، ودون اجتيازها بنجاح عن طريق فهم الوالدين لهذه الضرورة، ضرورة الاستقلال، وتسهيلها أمام أطفالهم، وقد تنتج عنها مضاعفات نفسية خطيرة للأطفال. وعندما يتزوجون يحولون أزواجهم أو زوجاتهم إلى آباء وأمهات. فالخلل في مرحلة النضج والاستقلال تلك يواكب الناشئ طول حياته، ويخلق له المشكلات مع من يحتك بهم في المجتمع. ولهذا فإن تشجيع هذا النضج يجب أن يتم عن طريق حث الأم لطفلها في البداية للعبور إلى خبرة الوالد، ثم حث الوالد للطفل للعبور إلى خبرة المجتمع، عن طريق تشجيعه بالالتحاق بمجاميع من سنه، وكذلك تشجيعه على إنشاء علاقات صداقة مع أفراد من نفس الجنس. لأن الفشل في العبور من مرحلة إلى مرحلة في سن الطفولة مع أب أو أم غير قادرين على هذه العملية الصغيرة، عملية التنشئة الاجتماعية السليمة، تورث الأطفال مصاعب نفسية، قد لا تظهر للعيان بل هي كامنة في أعماقهم.

56- العائلة السلطوية

تزوجنا منذ اثنتي عشرة سنة.

زوجي يعمل سائقاً لسيارة أجرة.

أنجبنا ثلاثة أطفال.

ابني الكبير في العاشرة من عمره.

كثيراً ما (يحرد) من والده حين يوجه له الشتائم والسباب لعدم قيامه ببعض الأعمال، بحيث أن الولد أصبح يخاف من والده حين يدخل إلى البيت، ويعمل جاهداً على مراضاته. ولكنه حين يرى والده قد خرج يستعمل نفس الأسلوب الذي اتبعه والده معه.

منى. ح

من الملاحظ في الوسط العربي أن الواقع الذي يجابه الطفل في العائلة هو واقع سلطوي. فنظام العائلة، كنظام المجتمع في كل مؤسساته، نظام هرمي يقوم على السلطة والعنف، ويحتل الأب فيه المركز الرئيس والأول، ويحتل الطفل المركز الأدنى. وتتميز تربية الطفل في العائلة السلطوية بالعنف والقهر المستمرين. ولا يقلل من ذلك كون الأب عادلاً أو متسامحاً نحو زوجته وأولاده. فالمؤتمر الرئيس هو العلاقات التي يقوم عليها نظام العائلة، والتي تقرر نوعية التفاعل بين الأفراد وتحدد دور كل منهم، لا طبيعة الأشخاص الذين تقوم بينهم هذه العلاقات والشؤون.

وفي مثل هذا الأمر، يكون التصرف نحو الطفل في العائلة التي يلعب ضمنها الأب الدور المسيطر تصرفاً في غالبه سلبياً، بحيث ينقل إلى الطفل وينمي فيه الشخصية السلطوية التي تتميز بخضوعها للسلطة. وفي الوقت نفسه بتعاليها على من هم دونها، وبنزعتها المحافظة. وفي حين تزرع بذور هذه الشخصية ضمن العائلة تنمى صفاتها في كل المراحل اللاحقة التي يمر فيها الفرد في المدرسة

والجامعة والوظيفة.

إن قيمة الفرد ومكانته متحددتان في المقام الأول بعوامل كالسن والجنس، لا بما يسهم به من نشاط، أو بما يتحمله من مسؤوليات، مما يؤيد بناء شخصيات جامدة متسلطة، ولا يساعد على تدعيم صفات مثل الانطلاق والتحرر والعمل الإيجابي المنتج. والسلطة في الأسرة تتركز في فرد هو الأب، أو بديله، مما يخلق جواً استبدادياً (أتوقراطياً) يعطل تنمية القدرات المختلفة للفرد ويدعم الانصياع والسلبية. وحتى ينصاع الصغير لتوقعات الكبار كان المتبع هو أسلوب العقاب بأشكاله المختلفة كالعقاب البدني عند آباء الطبقة الدنيا على وجه الأخص، وإثارة الألم النفسي عن طريق التهديد بالحرمان من الحب والعطف وغير ذلك من مثيرات القلق عند آباء الطبقة المتوسطة.

عندما تصبح مطالب الآباء من أطفالهم أعلى مما يستطيع هؤلاء الآخرون أداءه، وعندما يستخدم الآباء في سبيل ذلك العقاب القاسي والقيود المتشددة، وعندما يقيّم الآباء ما ينجزه أطفالهم تقييماً سلبياً باستمرار، ويقرعونهم على كل ما يصدر عنهم، أي عندما لا يعجبهم فيهم العجب، أو عندما تكون معاملتهم إياهم تتسم بالتذبذب وعدم الاستقرار، عندما يكون ذلك هو اتجاه الوالدين في تنشئة أبنائهم، فإن الاحتمال الأكبر أن يصاب الأبناء عندئذٍ بالقلق. وعندما يسيء الآباء استغلال أبنائهم على هذا النحو، فإن القلق الذي يترتب على مثل هذه المعاملة السيئة يمكن أن ينقلب إلى خوف دائم.

ويرى علماء النفس أن الآباء الذين يسرفون في استخدام العقاب البدني مع أطفالهم، هم في الغالب يتخذون من الطفل وسيلة للتنفيس عن رغباتهم العدوانية المكبوتة، وعن إحباطاتهم ومشاعرهم السلبية المختلفة نحو أنفسهم. وليست ممارساتهم هذه سوى رد الفعل المرضي على ظروف حياتهم التي لا يطيقونها، فلقد لوحظ باستمرار أن الآباء الذين يسيئون استغلال أبنائهم، كانوا ممن أسيء استغلالهم أنفسهم عندما كانوا أطفالاً، أو على الأقل كانوا من المنبوذين. وبدون أن

نبرئ الآباء الذين يسيئون إلى أطفالهم على هذا النحو، فإننا في نفس الوقت لا نعفي الظروف الاجتماعية والثقافية من المسؤولية عن هذا الوضع. فمما لا شك فيه أن الظروف الثقافية التي تتحكم في نظام الزواج بما قد يؤدي إلى تكرار حدوث الاضطراب في الحياة الزوجية، وفشل التوافق بين الزوجين وكذلك الظروف الاجتماعية الاقتصادية التي قد تؤدي إلى ظروف سكنية سيئة، وإلى زيادة البطالة وزيادة ساعات العمل عند الزوجين، والظروف التعليمية التي تؤدي إلى تفشي الجهل بشكل عام، والجهل بالأمور التربوية بشكل خاص، وإلى زيادة عدد الأبناء، وعدم التحكم في تنظيم الأسرة، والظروف المهنية التي قد تساعد على عدم الرضا في العمل، كل ذلك يخلق دون شك جواً من الإحباط سواء بالنسبة للأب، أو بالنسبة للأم، أو بالنسبة لكليهما معاً، مما قد يؤدي بدوره إلى أن يصب الآباء جام غضبهم، الناتج عن هذا الإحباط، على كبش الفداء وهو الطفل.

إن سوء استغلال الآباء لأطفالهم على هذا النحو، هو نتيجة لعملية تفاعل متبادلة بين طريقة معاملة الوالدين لطفلهما من ناحية وسلوك الطفل كرد على هذه الطريقة من ناحية أخرى. فالوالد أو الوالدان المسيئان غالباً ما يكونان غير ثابتين في تعاملهما مع الطفل بالنسبة لعملية الضبط. ويؤدي هذا التذبذب بدوره إلى فشل في تحديد توجهات ثابتة يسير عليها الطفل. وبالتالي فإن الطفل يفشل في تنمية مثل هذه التوجهات. ومعنى ذلك أن الطفل قد يخطئ ويسوء سلوكه. ويتصاعد الموقف: الطفل يسوء سلوكه، والوالد يعاقب، ويتكرر سوء السلوك من ناحية الطفل، ويشتد عقاب الوالد، الذي يبرر ذلك بأن الطفل هو الذي يدفعه، بسوء سلوكه إلى ذلك، ناسياً أو متناسياً أنه، أي الوالد، هو الذي تقع عليه المسؤولية، وليس الطفل، وهكذا تدور العلاقة بين الطفل ووالديه في حلقة مفرغة من سوء التوافق.

57– الظلام كخوف مرضي

مضى على زواجي اثنتي عشرة سنة.

رزقت بثلاثة أولاد.

يعمل زوجي حداداً في ورشة يملكها.

طباعه غريبة وعنيفة لا تستقر على مستقر.

والموضوع الذي أود طرحه عليكم هو أن ابني يخاف من الظلام وهو في العاشرة من عمره.

يخشى الخروج في الليل لقضاء حاجته خوف (العتمة).

ما إن يحل الظلام حتى يبقى في غرفته إلى اليوم الثاني.

العلاقة بينه وبيني جيدة، فيما كانت علاقة أبيه به سيئة في العام الماضي.

ما أخشاه أن تظل عادة الخوف مسيطرة على ابني حين يكبر؟

هدى. ز

ما يشكو منه ابنك خوف مرضي وليس عادة كما تقولين. وربما كانت رسالتك بما جاء بها في الأخير، الضوء الذي قادني إلى الاستنتاج أنه يحدث في المخاوف المرضية (إبدال) حينما تتكون لدى الحدث كراهية شديدة إزاء أحد والديه ولكنه يخاف من التعبير عنها نظراً لأن هذا غير مقبول من الناحية الاجتماعية، وحينئذٍ نجد أن مثير الخوف يستبدل بخوف أكثر تقبلاً ويتمثل في هذه الحالة في الظلام. ومن ثم يصبح الخوف من الظلام في هذه الحالة تعبيراً رمزياً عن الخوف من أحد الوالدين. ربما لأن الحدث يربط بين والده والظلام الذي يقترن بوصفه في الفراش.

إن (الإبدال) بالنسبة لهذه الحالة يمكن اعتباره إذا أمكن افتراض أن الظلام هو – أصلاً – مثير محايد قد ارتبط بمثير للقلق، مثل الصوت المفاجئ الشديد الذي لا يمكن تحديد مصدره، فإن هذا الارتباط يعتبر مزاوجة بين مثير شرطي

ومثير غير شرطي. وينتج عن هذه العملية الاستجابة الشرطية التي هي عبارة عن خوف من الظلام، أي مثير شرطي.

فيما ذكرناه كنا نشرح (الإبدال) الحاصل في مخاوف ابنك. وكما ذكرت فإن الملاحظات الأخيرة هي التي قادتني إلى ما ذهبت إليه. ولو كنت رأيت ابنك دون أن أخبر عما ذكرته قبل قليل فإن علاجي معه سيكون عن طريق (الكلام) بالطبع، ويتمثل في هذا الجانب نمو علاقة عاطفية بين العميل ومعالجه. ويعتقد فرويد أن هذه العلاقة تمثل إحياء لعلاقة كونها الشخص مع أحد والديه أثناء طفولته الأولى.

وحين تزداد علاقة ابنك بي يصبح في الإمكان استكشاف الصراعات التي سببت المشكلة بصورة أوضح. والمطلوب مني محاولة تشجيع ابنك على التعرف على هذه الصراعات ومن ثم تقويمها. ومع ذلك فإنه عندما يصل ابنك إلى مرحلة يوشك أن يفصح فيها عن الأسباب الحاسمة والأساسية للمشكلة فإنه غالباً ما يبدي المقاومة التي تتجلى في عدم رغبته في مناقشة الموضوع. فإذا ما تم التغلب على المقاومة فإن العلاج قد ينجح.

يقتضي الحال في مثل حالة ابنك اتباع أحد الأساليب المسمى بالعلاج التنفيري، ويحدث عن طريق إعطاء الفرد صدمة مفاجئة مزعجة كصوت مزعج أو صدمة كهربية في كل مرة يظهر فيها السلوك السيئ، وهو يتجنب الصدمة بأن يسلك السلوك الصحيح. وأحد النماذج النمطية هي حالة المدمن على الخمر الذي يعطى عقاراً يصيبه بالإنهاك الشديد عند تناول الخمر مما يخلق علاقة قوية بين رائحة وطعم الكحول وإحساسه بالغثيان، يؤدي به في النهاية إلى الإقلاع عن الشراب.

وبالنسبة لابنك يمكن اتباع العلاج التالي:

لنفرض أنه يحب الدراجة ولنضعها في مكان مظلم على بعد بعض الأمتار منه ولندع بعض الصبية يدورون بدراجاتهم حول دراجة ابنك، مع تسليط الضوء عليهم ومن ثم حجبه، أو أن يبدوا إعجاباً بها، ولنكرر هذا الأسلوب على مراحل،

وفي تشويقات مختلفة. وأنا واثق من شفاء ابنك من مخاوفه المرضية.

في ذلك نكون قد وضعنا التعزيز البديل في هذه المواقف حتى نعيد الأمور إلى طبيعتها.

58- المسايرة في نفسية الولد

لم يرزقنا الله إلا بولدين.

الكبير في الحادية عشرة من عمره،

والصغير في التاسعة.

الكبير له موقفه الثابت والعنيد فيما الصغير كالماء يموج كيفما يسير التيار.

كيف تحلل نفسية ابني الصغير؟

ندى. ث

يدرك ذوو الطفل – عاجلاً أم آجلاً – أنه قابل للتربية. وعندما يحدث هذا، تنشأ بين الطفل والوالدين قيود مبنية على تعاون عاطفي حنون. ويميل الوالدون إلى التكيف في إظهار حنوهم للولد، كي يكون التعبير عنه في الأوقات المناسبة. فالأم مثلاً تبدأ في تدريب الولد على عادات التغوط والتبويل الصحيحة، أي تلك العادات التي تعتبر صحيحة في المجتمع الذي نعيش فيه. وهي تعبر عن حنوها أو تمتنع عن إظهاره أو عن إظهار رضاها إلى الحد الذي يتعلم الولد فيه الامتثال أو عدم الامتثال لرغباتها وطرقها في هذه الناحية. وهكذا فإن التدريب يشمل التعبير عن الحنو والرضى فيما يختص ببعض الأعمال وعدم الرضى والامتناع عن إظهار الحنو فيما يختص بأعمال أخرى. وبعبارة أخرى، نجد أن بعض الأعمال تجلب الحنو والرضى وتؤدي إلى زيادة الشعور بالسعادة، بينما تجلب أعمال أخرى عدم الرضى ومن ثم القلق. وهذه الاختبارات المتعلقة بالمكافآت والعقوبات تصبح من الأمور التي ينظر إليها نظرة خاصة، ويدرك الولد تدريجياً حقيقة أن هذه المكافآت والعقوبات هي ذات علاقة بشعوره بالخير والقلق. ووقوع القلق فجأة تقريباً يعلمه أو يجبره على تركيز انتباهه على الأعمال التي من شأنها جلب الرضى أو عدم الرضى. فهو يتعلم مثلاً أن يستعيد إلى ذاكرته الحوادث التي جرت قبل إصابته بالقلق. وبعد مدة من الزمن تكفي إشارة ناهية أو مانعة لتغيير سلوكه. وبعبارة

أخرى، كلما تحسنت قوة ملاحظته تحسن إدراكه لنماذج السلوك التي تجلب الرضى وعدم الرضى. ويتعلم أنه إذا تم في حال وجود القلق عمل شيء من شأنه إيجاد الحنو والرضى، عندها لا بد وأن يخف الانزعاج المؤلم أو أن يزول تماماً.

إن الولد يتعلم تدريجياً أن يوجه انتباهه الشديد إلى السلوك المرضي عنه والسلوك غير المرضي عنه، وهو مضطر لاتباع هذا السبيل كي يحتفظ بشعوره بالطمأنينة وكي يتجنب الشعور بالقلق، وهكذا يصبح انتباهه مركز على هذه الأعمال. وهذه العملية هي شبيهة بما يجري مثلاً عندما يكون شخص مغرم بالموسيقا حاضراً في حفلة موسيقية مثيرة، فهو يصبح مأخوذاً بالموسيقا مستغرقاً فيها (متلهفاً بها)، ويكون انتباهه مركزاً بالكلية على الأنغام الموسيقية والتمتع بها، بينما يكون اهتمامه بأي شيء آخر ضعيفاً جداً، وفي أنه لا يكون شاعراً بأي شيء آخر، كالناس الذين حوله مثلاً وكمرور الزمن وغير ذلك من الأمور. أما الولد فشعوره بالطمأنينة هو بيت القصيد – وهذا بالطبع أمر خطير بالنسبة له – لذا تراه يوجه انتباهاً شديداً لما يدور حوله مما له علاقة بالرضى وعدم الرضى. أما بعض الاختبارات الأخرى المتعلقة إما بنفسه أو بالآخرين فلا يلاحظها بمثل هذا الوضوح، لأنها لا تؤدي إلى أي استحسان أو حنو أو عدم استحسان بنوع خاص. لذلك فإن انتباهه وعدم انتباهه يصبحان اختياريين أي إنه لا يعير انتباهاً إلى بعض اختباراته وسلوكه، فتكون هذه غير مميزة بعناية، وتبقى خارج نطاق الوعي المميز.

ومثل هذه العمليات يمكن أن تصبح بسهولة موضوع وعي دقيق أكثر من غيره. فقد يلفت صديق النظر إلى بعضها أو يدل عليها، وفي هذه الحالة تصبح هذه الأمور عندئذٍ موضوعاً لوعي الشخص. وعمليات كهذه تعتبر غير منتبه إليها بصورة اختيارية، ومع ذلك يمكن أن تقبل من قبل الذات.

بيد أن هناك عمليات أخرى لا تحظى بانتباه المرء الشديد وتدقيقه عندما يشار إليها. وبالرغم من مساعي الصديق في لفت النظر إليها، تبقى بعيدة عن ملاحظة المرء لها بجلاء ووضوح، وبالعكس من ذلك يكون المرء غير قادر على

أن يصبح مدركاً لها وشاعراً بها. لذلك فهو ينكر وجودها، وقد يصبح غاضباً متوتر الأعصاب لمحاولات صديقه أن يلفت نظره إليها، ولا يستطيع عادة أن يتذكر أنه يعرف عنها شيئاً. وتوصف هذه الاختبارات بأنها اختبارات منفصلة بمعنى أن الذات ترفض منح هذه الاختبارات وعياً أو إدراكاً.

59- العقاب والخوف منه

بين ابني وابن عمه خلاف في مفهومهما للعقاب والخوف.

ابني يحسب حساب العقاب في أعماله المخالفة للواقع ويخاف من ذلك.

فيما ابن عمه لا يهاب العقاب ولا يخاف مما سيناله من جراء ذلك الأمر.

تجاه هذا الفارق في مفهوم العقاب أرجو أن أقرأ تحليلك النفسي الاجتماعي لذلك.

مريم. ش

نحن بحاجة إلى العقاب والخوف منه لكي تقوم في نفوسنا الرقابة على دوافعنا الغريزية، وتتكون لدينا عادة التبصر والتفكير قبل العمل. ثم لا يلبث العقاب على مر الأيام أن ينقطع ليحل محله الوعيد به في مختلف الصور، كعبسة كبير لنا في وجهنا، أو توجيهه كلمات قاسية لنا، أو تعنيفنا أو الانحاء باللوم والعتاب علينا، ولكن هذه جميعاً ونحوها لا تحدث تأثيرها، إلا لأنها محتفظة بطبيعة العقوبات الماضية ومعانيها ومدلولاتها، أي إنها تثير شيئاً من الخوف في نفوسنا، لأن الشعور بالخوف من أثر تلك العقوبات قد اندمج في عاطفة الشعور بالذات. والخوف كما هو معروف من أكبر الدوافع، كما أنه باستحواذه على الشعور لا يلبث أن يحملنا على التهيب من السلطة في أي مظهر من مظاهرها، ويوحي إلينا الإجلال والتوقير للأشخاص الذين يتوسدونها. وهو أيضاً من المستلزمات الأولى للإيحاء بالاستهجان الذي ينظم السلوك ويوجهه.

بيد أن السلطة الأولى التي تملك الجزاء والعقاب، والتي كانت توحي إليه فيما مضى من طفولته ونشأته الإحساس السلبي بالذات، لا تزال على استعداد لإحداث هذا الأثر عينه لديه، وهي سلطة الجماعة، تلك السلطة الكامنة خلف الأشخاص كهيئة، ووراء الناس كمجموع، والتي هي بسبب اتساع مداها وترامي نطاقها أدعى من سائر السلطات الأخرى إلى بعث هذا الشعور فيه.

وهكذا يفهم الطفل رويداً مكانه كفرد في الجماعة، ويدرك شيئاً فشيئاً أن الجماعة أكبر وأقوى من أية دائرة تجمع معارفه وصحابه، لأنها بكلمتها الاجتماعية وسلطتها القاهرة العالية هي التي توزع الجزاء والعقاب، والمدح والذم، وتعلن استحسانها واستهجانها بمجموعة من الصيغ والأقيسة المقررة.

وهذه السلطة الاجتماعية هي التي تؤثر في عاطفة الشعور بالذات فتنزل منه أو ترفعه، وتجعلنا نستحي من أنفسنا أو نرضى عنها، ولا يزال تأثيرها من هذه النواحي أبلغ وأكبر من سلطان الأشخاص على الطفل في عهد طفولته، بل هي السلطة التي تبدأ تدريجاً تحل محل السلطة الشخصية في توجيه سلوكه، وعندما يصدر فرد علينا حكماً مستنداً إلى أساس صحيح، سواء أكان هذا الحكم استحساناً أم استهجاناً نشعر بأنه مستند إلى هذه السلطة ذاتها. وقد يكون في نفسه أقل منا شأناً، ولكن حكمه وتصرفاته تؤثر فينا أعمق التأثير، لأننا نحس أن حكمه الأدبي يمثل الحكم الإجماعي لسلطة الجماعة، ومن شأن تنفيذ هذه السلطة في الطفل أن يحول بين شعوره بالذات وبين اتخاذ صورة الاعتزاز والكبرياء بكل معانيهما، أي كعاطفة لا تقر لأحد بتفوق، ولا تأبه باستحياء، ولا تكترث لاستحسان أو استهجان، وإنما يجعل عاطفته أقرب إلى الاحترام الذاتي القابل للخضوع والتقليد والمحاكاة، وهي مظاهر الإحساس السلبي بالذات.

إن إثارة الغريزة الاجتماعية الذي لا يقترن بانفعال معين يمتاز بأعراض وصفات خاصة لأنها في أبسط صورها لا تحدث سوى حالة من القلق في أي فرد من أفراد الجماعة أو القطيع إذا ما انفصل عن أبناء جنسه، وتحمله على الشرود والتجوال والضرب في الأرض للبحث عن جماعته أو فصيلته والانضمام إلى قبيلته. كما قد يقترن الخوف بالغريزة الاجتماعية عند يقظتها، فترى الحيوان الذي يألف العيش مع الجماعة واقفاً يرعى في هدوء على مسافة من الحيوانات الأخرى التي يتألف منها قطيعه، ولكنه عند أقل نذير يجري ليوافيها قبل أن يلتمس مهرباً، أو يفزع إلى الفرار.

يمكننا أن نقول بعد أن عددنا وجهات النظر النفسية في العقاب والخوف منه إنه كلما هاج انفعال من الانفعالات هياجاً عنيفاً أو متكرراً من جهة شيء ما، تكونت منه عاطفة، فلو فرضنا أن طفلاً اختلط بشخص اعتاد الغضب والثورة والهياج، أو كان أبوه حاد المزاج لا يأبه به ولا يلقي بالاً إليه، أو لا يفتأ يتوعده ويؤنبه أو يضربه، فإن الطفل يستشعر الخوف أولاً في كل مرة يرى أباه هائجاً غاضباً، ولكن تكرار غضباته وثوراته لا تلبث أن تجعل هذا الخوف عادة مكينة منه، فلا يني يتهيب ويتخوف في حضرة أبيه حتى وهو في أهدأ حالاته.

ولكن هذا الأمر فيما إذا كان رادعه العقاب أولاً وآخراً، والخوف من العقاب في كل الأمور، فإن هذا الأمر قد يجعل من الطفل حين يكبر سلبياً في أموره، معطياً الحق الأول والأخير لمن أكبر منه، دون مناقشة أو إبداء رأي، أو أن ينعكس ذلك فيما تجاهل الوالد والتنافر مع كبار السن. ولهذا وذاك فإن الأمر الأوسط في هذا الأمر يكون ناجعاً، لا أن ننزع شخصية أبناءنا من خلال العقاب أو نجعل الأمر سائباً لهم دون جمعهم بين الالتزام والحرية.

60- صراع الأدوار المتعددة

أنا محتارة بشأن ابني.

لو جردت عواطفي – على طرف – فإن ابني غير ما كنت أتوقع له من نتائج.

إنه في الحادية عشرة من عمره.

أتاني بدفتر علاماته وقرأت النتائج الهزيلة المدونة عليها مع الملاحظات التالية:

لا يهتم للدرس.

يمكنه أن يعطي نتائج أفضل.

يفكر في أشياء خارجة عن درسه.

اجتهاده في إضحاك رفاقه.

ذكي لكنه كسول.

يوحي بنتائج غير التي أخذها.

وبما أن ما دوّن على دفتر العلامات حيّرني وجعلني أبدو وكأنني أقرأ طلاسم، أرجو منك التحليل النفسي لهذا الأمر.

فاطمة. ر

ليس ثمة فرد يقوم بدور واحد فقط. وقد تتطلب الأدوار المتعددة دائماً أساليب سلوك متسقة. وحينما ينشأ صراع بين دورين أو أكثر، بحيث يؤدي تحقق التوقعات المتصلة بأحد الأدوار إلى عدم القدرة على تحقيق التوقعات المرتبطة بالدور الآخر حينئذٍ ينشأ ما يسمى صراع الأدوار المتعددة.

يقال على الوصف المدون بدفتر علامات ابنك أنه كسول، وواقع الأمر أن الكسول ليس لعنة من عند الله وإنما حالة عائلية لها أسبابها وعلاجها أيضاً. كما أن الكسل لا يمت بصلة إلى التخلف العقلي الذي يظهر في السنوات المدرسية

الأولى، بينما الكسول لا يبرز إلا ابتداء من الصف السادس بعد أن ينتقل من صف إلى آخر ما أمكن من معلومات أساسية لا تتطلب تفكيراً شاقاً مع معلم واحد. ولكن متى توقفت الرتابة المطمئنة التي في الصفوف الابتدائية تبدأ مرحلة التوجيه التي تحدد مستقبله، أدبياً أو تقنياً أو علمياً.

إذا عدنا إلى الوراء قليلاً نرى أن الأهل يبدأون بالأحلام الوردية حين يرى ولدهم النور فيرون له مستقبلاً زاهراً امتداداً لحاضر والده، أو يحلمون بما لم يحصلوا هم عليه. ففي الولد تزرع الرغبات والطموحات اليائسة، فتقرر أمه أن تجعل منه طبيباً أو مهندساً. والأهل الأكثر حرماناً هم الأكثر استعداداً للنزف في سبيل أولادهم. ولكن كم وكم من الأولاد لا تتفق ميولهم وطموحات أهلهم. وهناك من جهة أخرى تراجع المهن اليدوية والحرفية التي تشجع الأهل على دفع أولادهم في دروب فكرية تقنية غالباً ما يكونون غرباء عنها، غير متقبلة نفسيتهم لها.

في مثل هذا الوضع، وحين يكون التلميذ مكره على درب لا يجد فيها راحته، يعطي نتائج سيئة ويضمحل تكيفه المدرسي شيئاً فشيئاً، ويكشف ابتداء من الصف الثالث هويته الجديدة: كسول ومخرب وثائر.

ويمكن تبين وضعه النفسي بشكل واضح: انفرادي وفوضوي، له إيقاعه الذاتي والاستعدادات الطيبة لضم عدد كبير إلى عصبته.

ثمة نماذج لهؤلاء الأحداث الذين يكونون في صراع الأدوار المتعددة ويحملون اسم الكسل. فهناك الكسول الذي يتمنى لو يهمل أمره. هذا النوع لا يضج بل يحلم في مؤخر الصف، وغالباً إلى جانب نافذة أيام الصف، أو إلى جانب المدفأة شتاء. ويحاسب المدرسة كما لو كانت تجربة صعبة يود الهرب منها، فزعه الأكبر أن يسأل فيفلت منه قناعه. وهناك أيضاً الكسول المتحرك الذي لا يهدأ لإعطاء ذاته الأهمية وتعويض كسله بالوقاحة والتهريج. هذا النوع اجتماعي وفكاهي ومسل. وأخيراً هنالك الكسول جزئياً هاوي البرنامج الذي يتلاءم واستعداداته، غير مكترث للمواد الأخرى، متنقلاً من النشاط إلى الكسل ومن اللامع

إلى الباهت في سرعة مدهشة. وما من صف إلا ويحوي من هذه النماذج واحداً تمثل جميعها سواء هذا أو ذاك طباعاً متناقضة في مجتمع ضيق اسمه المدرسة.

والذي يغيظ الأهل أن يكون ابنهم الكسول ذكياً بحيث لا تتوضح لهم صورة مستقبله. فالكسول غالباً ما يكون في المدرسة موهوباً خارجها في شتى الميادين التي تهدر فيها حيويته. فهناك الكسولون المولعون بالمطالعة أو الحرتقة أو التصوير أو الرياضة، ومع هؤلاء يصعب إقناع الأهل الطامحين إلى (مستقبل كبير) لأولادهم بأن ولدهم أو ابنتهم يضيع وقته في المدرسة. فالأهل في مجتمع يؤمن بأن خارج الشهادات لا حياة للإنسان وبأن دخول الجامعة ماركة مسجلة جودة وبرهان نجاح، لأن المجتمع يصعب عليه أن يقبل عاملاً يدوياً سعيداً بديلاً من محام معدم أو مفكر تافه معقد يخشى الخروج من جلده أو فنان ينشد الطبيعة ويرى ما ورائها.

تذكرني الحالة التي نحن بصددها هنا بنفس الوضع الذي كنت عليه في نفس هذا السن، بيد أنه بعد ذلك حدثت تبدلات كثيرة في حياتي. وأذكر أني قرأت (ساشا نميتري) الذي عد عبقرياً في عمله وهو الذي أعاد الصف السادس ست مرات وطرد من معاهد عدة. وقد كان معلم بلزاك، الكاتب الروائي الفرنسي الشهير، يقول عنه: (هذا المخلوق السمين في حالة من النزاع الفكري الدائم) كما قيل عن بيتهوفن إنه لم يتعلم شيئاً .. إنه حالة يائسة. وعن الكسول الكبير أينشتاين قال معلمه: (ذكاء بطيء ضائع في أحلامه الغيبية)، لكن ذلك لم يمنعه من أن يكون أبا الانشطار النووي. أما الروائي باسكال جوردان الذي لم يكن يتحمل المناهج المدرسية تعلم القراءة فقط في السادسة عشرة وعوض عن الوقت المهدور بالكد والعناء والشقاء.

من الملاحظ في مثل هذه الحالات أن المربين متفقون على أن كسولاً ناجحاً لا يمكن أن يكون خارقاً في موهبته. لذا يعتبر الكسول مدرسياً حالة عابرة. ذلك أن ثمة كسلاً يصادف الحظ في طريقه فينجح في امتحاناته، وكسلاً آخر يتوقف يوماً

ليحل محله اجتهاد سببه إما الانتقال إلى معلم آخر أكثر فهماً وأذكى أو فك عقدة قديمة تولده قراءة كتاب، أو نضج فجائي، أو صديق جدد التعارف به وغير ذلك الكثير.

والسبيل إلى معالجة صراع الأدوار المتعددة المتمثلة في الكسل تكون في جعل مجتهداً منكباً على واجباته لا عن طريق التهديدات أو الإذلال، لأن هذه الطرق غير مضمونة. وإذا ما أظهر أهل الكسول يأسهم علناً فإن ابنهم في المقابل يحاول بشتى الطرق أن يخرج عن هامشيته ليعيش مرتاحاً مطمئناً. ومن عرف الكسول ويأسه عشية الامتحانات ساعة تتكوم الدروس المؤجلة فهم الحيل والأكاذيب والتذرعات الكثيرة التي يلجأ إليها الكسول هرباً من التوبيخ أو من العقاب.

لقد قال مونتان مرة: (أفضل ما في الحياة إغراء الشهية والعاطفة وإلا صنعنا حميراً محملين كتباً) ونحن نقول: إن لقب الكسول مطاط، وكل واحد منا قد يقوله عن نفسه في موقف معين، بيد أن الكسول مخلوق حساس، لذا ينبغي ألا تغتصب هامشيته، وإذا لم يصبح طبيباً أو مهندساً أو قاضياً فليس ذلك نهاية المطاف!!

61- الحدث المدلل

ابن أخي حدث مدلل بكل معنى الكلمة.

إنه في الحادية عشرة من عمره.

يضرب رفاقه فيلقى تأييداً من أهله.

يكسر الأغراض فيغض الطرف عن ذلك.

يطلب من أهله فيعطى كما يريد.

كيف تحلل نفسية هذا الحدث؟

فاطمة. ق

إذا نظرنا إلى التربية التي تقوم على المحبة والإسراف في العطف لرأينا فيها ما يؤدي إلى إنتاج الطفل أو الحدث المدلل الذي قد يصل طغيانه من العنف حداً يتضاءل أمامه طغيان المعوج الثائر. فالمدلل الصغير يفرض إرادته على أبويه فرضاً ويلجأ في نشر سلطانه إلى كافة الوسائل التي تنفعه في تحقيق ذلك من الصراخ والعويل الدائم وشدة الغضب والإضراب عن الطعام، إلى التحطيم والعصيان والخيبة في المدرسة. وهو يصطنع ذلك كله للحصول على ما يريد ولاستثارة العطف والرعاية من والديه كي يشعر بقدرته عليهما. ولا ينتج التدليل إلا قوماً لا يعولون على أنفسهم في شيء يتميزون بالأنانية والسطوة. وهم يصطنعون الاستكانة والضعف سلاحاً لإلزام الآخرين بالقيام بخدمتهم. ولا ينظرون إلى الجد واتقان العمل والقيام بالواجب إلا كما ينظر الثعلب إلى الكرم العالي، فإذا خاب في الوصول إليه ولى عنه مدعياً أنه لا يشتهي العنب لحموضته. هم متشائمون متواكلون تواجههم العقبات وتكثر أمامهم الصعاب إذا انفصلوا عن أسرهم فكثيراً ما يخيب الرجل منهم في عمله وكثيراً ما تخيب المرأة في حياتها الزوجية، لأن كلاً منهما يود التخلف من تبعاته ولا يستطيع أن يؤدي ما يطلب منه في حياته الجديدة لأن دنياه كانت من قبل عالماً يخدمه فيه الجميع بينما هو الآن مسؤول عن آداب

جانب من النشاط فيه إنتاج وإيجاب وبذل وجهد لم يأخذه أحد به سابقاً.

مثل هذه التربية الخاطئة لا تنتج سوى شخصيات مضطربة تبعد بالمرء عن الحياة السوية المستقيمة، ولا يمكن أن يصلح شكل منها أخطاء الشكل الآخر بل يزيدها سوءاً ويضاعف آثارها السيئة تعقيداً. فهم لهذا ينقدون الرأي الشائع المعروف الذي يقول بأن لين أحد الوالدين يمكن أن يلطف قسوة الآخر: فما أكثر مفسدة للصغير من أب حازم وأم حانية عطوف، يهرب الطفل من عنف أبيه إلى صدر أمه تخفف عنه ما يلقاه من عنت وتعينه على حل كل معضلة أو مشكل فلا يخرج منه سوى رجل ضعيف الحيلة قليل الحول، بل كثيراً ما يلجأ الصغير إلى استغلال ذلك الموقف لما يعرفه من تباين المبادئ التي يسير عليها الوالدان فيلجأ إلى أمه ضد أبيه حتى يخفي جبنه عن مواجهته ويرضي ميله للسيطرة والظهور.

إن وجهة نظر عالم النفس معروفة، إذ إنه يحلل نفسية الفرد بغية اكتشاف النزعات والملامح التي تسيطر على عقلية الإنسان وتصرفاته. وما درسه للأوضاع الجماعية إلا عملاً لاحقاً للتحليل الفردي. صحيح أن هناك شروطاً نفسية للعيش ضمن المجتمع، لا يمكن بدونها إيجاد أي اتصال: كتردي القوى العقلية والعاطفية التي تحول دون اتصال الفرد بمحيطه كما أن القدرة على التقليد والتعاطف، ضرورية لإقامة الأواصر الاجتماعية. غير أن هذه الأمور لا تشكل سوى شروطاً عامة، يكتفي عالم النفس الاجتماعي بالاطلاع عليها دون أن يتخذها موضوعاً خاصاً لأبحاثه.

تتعلق المودة بالعلاقات الثنائية، بحيث أن تحقيقها يتطلب المقابلة بالمثل، كما أنها تتناول في مطلع الحياة والدينا ثم أترابنا، فتتخذ عند ذلك شكل علاقات صداقة أو تحكم. يجدر بنا تمييز، في كل مساحة للحاجات: (أ) (ب) (ت) نماذج مختلفة أو مستويات تصرف اجتماعية. هذه النماذج هي: إفراطات، نواقص، نماذج مثالية وحالات مرضية.

نجد الإفراطات خاصة عند الأشخاص الذين يتحملون العزلة بصعوبة (أ).

(ب) الأشخاص يتوقون إلى السيطرة، وأخيراً الذين يشعرون بظمأ شديد للعاطفة والاخلاص (ت). أما فيما يتعلق بحالات النواقص، فنجدها عند من يصعب عليهم الاندماج ونرمز إليهم بـ (أ)، هناك افراد فئة (ب) ويحتاجون دائماً الأوامر، وأخيراً فئة (ت) وهم الأشخاص المعزولين عن كل حنان.

62- الطفل والتحليل النفسي الذاتي

ابني في الثانية عشرة من عمره، يعاني من (حول) في عينيه .. مجتهد.

من الملاحظ عليه كثرة تحليله لنفسه بشكل يزعجنا: بسبب صغر سنه لهذه المواضيع ولتضييعه الوقت في ذلك.

سألت جارتي التي تكبرني بسنوات، ولها نصف دزينة من الأولاد عن أزمة ابني في تحليله لنفسه، فنفت معرفتها بمشاكل - الروح - مما اضطرني إلى طرح المسألة عليكم، علكم تحللون لي أزمته هذه.

شذى. ح. ع

كانت جارتك (عاقلة) حين أبدت أسفها في عدم معرفتها لأزمة ابنك. واستعملت تعبير (عاقلة) لأنها لم تتدخل في معالجة هذه المسألة مما أبقى دورها محموداً في ظرف يحتاج به ابنك إلى المحلل النفساني أو الطبيب.

من الملاحظ أن الطفل منذ الساعات الأولى التي يخرج فيها من رحم أمه، يجد نفسه في موقف يبعث فيه العداء، ويثيره إلى العراك ضد الوسط الذي يعيش فيه. وينتج من ذلك حالات التوتر، ويبدأ جهاده لتعظيم كفاياته العضوية حتى لكأنه في ميدان الوغى ولكأنه يقول: (تلك هي ساحة الحرب) وهكذا ينبغي أن نبحث في ألوان الحرمان وأحاسيس الضيق التي يستشعرها المرء في سني طفولته الأولى، عن نقطة الرحيل في سلوكه وعن الينبوع الذي تصدر منه كثير من أشكال الخلق العامة، التي تدفع الطفل وتبعثه نحو التعدي والكفاح.

إن أدلر بعد أن كان أول الأمر يلتزم حدود القصور البدني وما يستلزمه من تغير في الحياة النفسية، وبعد أن كان يتحدث عن الحالات المرضية التي تثبت منها الأطباء والبيولوجيون، فإن حديثه قد بدأ يعم حتى شمل القصور المعنوي أو الاجتماعي بل حتى شمل الحالات السوية أيضاً، بعد أن كان يعرض موضوعياً لحالات واقعية محدودة. وفي ذلك قال أدلر:

لو نظرنا عن كثب إلى الأطفال لاتضح لنا أنهم جميعاً، وخاصة من لم تعن بهم الطبيعة، يميلون ميلاً شديداً إلى تحليل أنفسهم. إذ إن الطفل الذي لحقه أي قصور في تكوينه، وكذلك من تأخر نموه العقلي أو ظهر عنده الاستعداد للأمراض العصبية، تبعاً لما قسم عليه من قبح الخلقة، أو ما فرض عليه من تربية شديدة القسوة، أو ما تمتع به من ألوان الملاطفة والتدليل، كل طفل من هؤلاء يسعى أكثر من غيره للهرب من صنوف البؤس التي تفرضها عليه الحياة ملتمساً اللجوء والاستكانة إلى مستقبل يبعد أكثر ما يمكن عن القدر المحزن الذي يشعر أنه يتهدده فيبدأ بتحليل نفسه أولاً، حتى يقدّر ما أصيب به من كوارث، وحتى يتعرف مقدار ما هو منكوب به من ضعف، وقصور، وذلة، وحرمان من الدعة والأمن. فيكون ذلك أول نقطة يستوثق منها ثم يجهد بعد ذلك في البحث عن سبيل يتوجه فيه فيقرر لنفسه نقطة ثابتة أخرى: هي الأب والأم، وينسب لهما كل الكفايات التي يسعها العالم بأجمعه. والصغير إذا ما اتخذ هذا المعيار لتفكيره ونشاطه، كي يفلت من شعوره بعدم الأمن، ويرتفع بنفسه إلى مرتبة الأب القادر على كل شيء، بل إلى التفوق عليه إن استطاع ذلك، كان في ذلك بدء ارتحاله في خطى جريئة سريعة من عالم الحقيقة الملموسة إلى أحضان الخيال وسحب الأوهام.

وبالمقارنة مع الأطفال الأصحاء، نلمس شكلاً مخففاً من هذا التفكير والسلوك، إذ هم أيضاً مولعون بالعظمة والقوة تواقون إلى السيطرة (كالولد) وهم يشخصون بأبصارهم دواماً نحو تلك الغاية النهائية التي توحي لهم على الدوام أيضاً بطريقة السلوك، وبأشكال النشاط البدني والعقلي فيسعون دون شعور منهم إلى تقليد الأب في حركات البدن أو مظاهر النفس. وهكذا يظهر لنا أن الإرادة ليست سوى البحث عن التعويض والجهد الذي يبذل لخنق الشعور بالقصور.

ومن الملاحظ، أن الصغير إذا اتخذ موقف السلبية والعناد، وفشلت معه الجهود التي تبذل لتربيته وتهذيبه، لم يكن ذلك منه في كثير من الأحيان سوى إرضاء لحاجته إلى الشعور بالقوة، ووسيلة يتخلص بها من شعوره المرير بالقصور.

وقد يلجأ الطفل أيضاً إلى نقيض ذلك، فلا نرى منه سوى ألوان الضعف وأشكال الاستكانة والخضوع حتى يستدر منا العطف، ويضمن لنفسه رعاية من يحيطون به وحدبهم عليه، فيكون له من تلك العناية التي تبذل نحوه، ما يبعث فيه الشعور بالسيطرة والقوة. وبذلك تكون الوقاحة أو رقة الحاشية التي تبدو من الطفل وسيلتين تضمنان له، إلى حد ما، شعور السمو بشخصيته، وتعينانه على أن يشق لنفسه طريقاً يؤدي به إلى الغاية النهائية وهي الرجولة.

يبقى أن نشير إلى أن الشعور بالشخصية عند الأطفال المصابين بقصور في تكوينهم يخضع عند ظهوره لنوع من الكبت، لأن الفكرة التي يكونونها عن قيمتهم تكون فكرة متواضعة محدودة، تبعاً لضآلة حاجاتهم وصغرها: فما أكثر ألوان الحرمان والألم والأوجاع التي يقاسيها من يصاب من الأطفال في أمعائه، وما أقرب إلى الأنوثة من يصاب منهم في الجهاز التنفسي، وما يتبع ذلك من صفرة في الوجه ورقة في البدن. وما أكثر ما يصاب به الأطفال من بثور والتهابات في الجلد تبعث الذلة في نفوسهم لخوف أهليهم من العدوى منهم، وما يتبع ذلك كله من تأخر هؤلاء المساكين في حياتهم المدرسية وتخلفهم عن التعليم، لهذا لا ينبغي أن نعجب إن اتخذ هؤلاء الأطفال، فيما بعد، حياة الوحدة والانفراد، أو تحليلهم لنفسهم – شأن ابنك – وبدون أن يكون لهم رفيق أو صديق يخفف عليهم وحدتهم. وغالباً ما يواسي الواحد منهم نفسه، بإلقائه تبعة ما يكابده على عاتق أهله الذين كانوا يكرهون كما يظن أن يقبل هو إلى هذا العالم لأنه دخيل عليهم في حياتهم أقحم عليهم فيها اقحاماً.

وبما أن كل طفل ينشأ بالضرورة بين ظهراني الكبار، فقد كان من المحتم – كما يقول أدلر – أن ينظر إلى نفسه، كمخلوق قليل الحول، ضئيل الحجم، عاجز عن الحياة بمفرده لا يجد من الثقة بنفسه ما يهيئه للقيام بأبسط الأمور دون خطأ أو عجز. ومما يوقر في نفسه الشعور بالعجز وصغر الشأن أساليب التربية المختلفة التي تتفاوت بين التدليل وبين القسوة، وبين اعتبار الصغير دمية حية، ودرة غالية

ينبغي رعايتها بالعين الساهرة، وبين اعتباره دخيلاً على الحياة غير مرغوب فيه.. بعض ذلك أو كله كفيل بأن يبعث في نفس الطفل شعوراً رهيفاً بالقصور، تزيده بعض أوضاع الحضارة المعاصرة وما يفرض عليه من اصطناع أشكال اللياقة والتهذيب التي تبث في نفس الصغير أنه كائن إذا تفضل الناس برؤية وجهه، وجب ألا يسمعوا له نأمة أو صوتاً، إلا أن يكون رقيق الحاشية ساكن الطبع موفور الخلق واللياقة.

وفي تحليلنا لهذه الحالة اعتمدنا كثيراً على رأي أدلر حيث يقرر في حالة كحالتنا هذه أن الشعور بالقصور موجود، إلى حد ما، في كل إنسان، لأننا جميعاً نجد أنفسنا في ظروف وأحوال نرغب في تحسينها. ولا ينشأ هذا الشعور من الظروف التي تحيط بكل فرد على حدة فحسب، بل يضاعفه أن الإنسان بالنسبة لغيره من الحيوان من أظهر الكائنات الحية ضعفاً وأشدها استكانة.

لهذا يقول أدلر إنه ينبغي أن نذكر أن الشعور بالقصور ليس ظاهرة فردية فحسب بل هو إلى ذلك ظاهرة تعم النوع الإنساني كله، نذكرها حين تعود بنا الذاكرة إلى أسلافنا، وقد تكأكئوا حول النار الموقدة، تزأر حولهم الوحوش الكواسر وتزمجر، فيتردد صدى زئيرها في نفوسهم رعدة ووجلاً. وانسرب هذا الشعور إلينا من أسلافنا لأنه مهما اختلفت البيئة أو ارتفعت قدرة الإنسان وأشكال الحضارة، فلا شك أن الإنسان من وجهة نظر الطبيعة كائن محدود القدر وضيع القيمة، لهذا كان الشعور بالقصور وفقدان الأمن شعوراً مقيماً في نفسه، يحفزه دائماً للكشف عن خير الوسائل وأفضل الأفانين التي يستطيع أن يوافق بها بين نفسه وبين بيئته الطبيعية.

63 – مرحلة الرشد

أنهت ابنتي الثانية عشرة من عمرها وبدأ التحول يظهر في حياتها.

إن ملاحظة الأم لابنتها تبدو في هذه الفترة كبيرة.

فهي شخصية في شخصيات.

أخشى أن تكون قد أصيبت بالفصام؟

نوال . ع

هذه الفترة في حياة الطفلة هي بداية لمرحلة المراهقة. فالمراهقة يمكنها التعامل بنجاح مع عالم المجردات والقضايا المنطقية، ولا يقتصر تعاملها مع عالم المحسوسات كما كان في المرحلة السابقة. ومستوى العمليات المحسوسة، ليس هو نهاية المطاف، في النمو العقلي من وجهة نظر (بياجيه)، بل على العكس يوجد تحول مهم في تفكير الأطفال عند عمر 11 أو 12 سنة، أو عند بداية البلوغ الجنسي تقريباً. ويسمي بياجيه هذه المرحلة الجديدة بمرحلة العمليات الصورية، ليميزها عن مرحلة العمليات المحسوسة للقيام بعمليات عقلية معقدة، لكنها فقط مرتبطة بخبرات قد عاشتها أو موضوعات قد رأتها من قبل. إن هذه الطفلة غير قادرة على الحركة العقلية خلف ما هو ملحوظ، أي إنها لا تستطيع أن تتحرك من الواقع إلى الممكن. وتعتبر مرحلة العمليات الصورية هي نهاية المطاف في النمو العقلي عند الأطفال وفقاً لنظرية بياجيه – وهي بمثابة تتويج لهذا النمو الذي يصله الأطفال في سن 12 سنة تقريباً.

إن التفكير الصوري هنا هو في أساسه تفكير افتراضي قياسي. والقياس لا يقوم هنا مباشرة على حقائق الواقعية، بل على قضايا تقوم على فروض، فهو يضع المعطيات من حيث هي معطيات بسيطة مستقلة عن حقائقها الموجودة في الواقع. فالتفكير الصوري أو الشكلي هو تفكير يستند إلى قضايا. فإذا كان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يعتمد على المعرفة المنتظمة بالأشياء والأحداث من حيث هي

كذلك، فإن طفل هذه المرحلة يقوم أيضاً بهذه العمليات ويضيف إليها بعداً آخر يجعل تفكيره شكلياً أو صورياً أكثر منه محسوساً، فهو يأخذ نتائج هذه العمليات المحسوسة، ويضعها في صورة قضايا، ثم يقوم بعمليات من الروابط المنطقية كالإضافة والاشتمال والفصل والجمع إلى غير ذلك.

في المرحلة التي نحن بصددها تؤدي إلى توسيع عالم ابنتك وتحويلها، بحيث تمتعت ابنتك في سن الثانية عشرة بتوازن مبني على الاندماج الكامل في فئتي الأسرة والمدرسة، اللتين قلما تتجاوز حدودهما. كما شرعت في إظهار انفعالاتها، وأخذت تبدي تفضيلها لبعض الأمور، واختيارها لبعض النماذج. ولكن عندما تبدأ تهتم بنفسها، فإن ذلك يكون بدافع الأنانية أو الشعور بالنقص. وإذا تخيّلت صورة غيرها فلكي تعرب عن حبها لها أو بغضها التام. ذلك لأنها لم تلج بعد عالم الأشخاص، هذا العالم الذي لا يتبين لها إلا أثناء مرحلة الرشد، حين تبدأ باكتشاف داخلية الأفراد وجوهرهم.

لهذا فإن إدراكها للأمور، يتم أولاً بنفسها ولنفسها: إنها أزمة (أصالة الطفولة) التي وصفها (دوبيس). ذلك لأن الشابة تشعر بوحدتها، وبأنها لا تشبه أحداً. لذلك فهي تنمي مميزاتها على حد تعبير (أندريه جيد) وتتبلور هذه الأزمة – فضلاً عن تقديس الأنا – بالاحتجاج العنيف على القوانين المرعية في الأسرة، مع رغبة بالغزو والاستيلاء والمزاحمة.

إن هذا الحرص على مظاهر الغرابة الذي يراود فكر الراشدة، لا يمكن اعتباره عاملاً خلاقاً كما يحلو لنا التفكير بذلك أحياناً. ذلك أن الغرابة تستقي مثلها العليا، في الغالب، من النماذج المنمقة الذي اقترحها المسرح والقصة في جميع العصور، وقدمتها الرياضة والسينما منذ الربع الأول من القرن الماضي. وفضلاً عن ذلك، فإن البيئة كما يقول (دوبيس)، تفرض على الراشد صورة عن نفسه، تؤثر عليه بوساطة عقله الباطني بحيث يصبح سن الرشد مرحلة حساسة، يتجابه فيه العنصر الشخصي والعنصر الاجتماعي، بغية تكوين الشخصية. ذلك أن رفض

التضحية بأي شيء، يسبب غالباً، التصرف القلق والمتقلب. إن التوفيق الخطر بين الصور الاجتماعية والأماني الخاصة، يتطلب تبني شخصية واحدة أو عدة شخصيات متباينة التركيب. وإن الانتقال إلى مرحلة النضج يتفق مع تركيز الشخصية الذي يعتبر من العلامات الفاصلة، لأن الفتاة التي لا تريد تجاوز سن الرشد، هي تلك الفتاة التي لم تعرف أو لم تشأ اختيار نمط معين لحياتها المتبددة، فتفقد بالتالي اعتبارها في المجمع.

في الواقع، إذا كان هذا الاختيار ينطوي على التأكيد، فإنه أيضاً نوع من الاستسلام والتخلي عن إمكانات عهد الشباب اللامتناهية. إن المتطلبات الغامضة تتحول إلى رغبات واضحة وإنما متناثرة، مما يقتضي الحد من غلوائها. سيصبح الإطار الاجتماعي بعد الآن، بمثابة العلامة المميزة لبلورة الشخصية، واختيار المركز أو المهنة في هذا المجال يعتبر خطورة حاسمة. ويقوم الزواج وتكوين الأسرة، ضمن النطاق العاطفي، بنفس الدور الذي تلعبه المهنة ضمن نطاق النشاط والذكاء، فالمرأة ليست مُلك نفسها فحسب، إنها أيضاً الزوجة والوالدة ، وهي تحس وتفكر وتعمل من خلال هذه الشخصيات، سواء شاءت ذلك أم أبت. فإذا حاولت أن تتناسى هذا الواقع، فإن الرأي العام من جهة، والقانون من جهة أخرى، إذا اقتضى ذلك، يبادران إلى تذكيرها به. ومن حقها أن تقرر بنفسها، ما لم تكن مصابة بعوارض مرضية، الانطواء على نفسها بكل طيبة خاطر أو إبقاء هامش بينها وبين نفسها.

64 – التدليل المفرط والقسوة المفرطة

أختي متزوجة منذ فترة طويلة.

لها ابنتان كبيرتان وصبي.

الصبي في الثانية عشر.

المشكلة بين أختي وزوجها أن الأب يبالغ في قسوته على ولده، وأختي تبالغ في حنانها لدرجة أنها تعارض زوجها وتسفه مطالبه وأوامره.

ومن خلال هذا الواقع فهي الملاذ لابنها كلما اشتد عليه أبوه كي تحميه من غضبه وتعفيه من الطاعة له.

بين الاثنين أرى ابن أختي في ضياع وأخشى أن يكون مستقبله قاتماً.

أرجو أن تحلل لي وضعه النفسي؟

سميرة . ع

في هذا الجو الذي يعيش به ابن أختك يتجنب باستمرار مواجهة الواقع، وبذلك يبقى دائماً تحت سيطرة مبدأ اللذة، وهذه هي بداية الطريق إلى الانحراف.

وإذا كنا نعرف أن أكثر الحالات الواردة على المؤسسات الإصلاحية ومحاكم الأحداث هي نتيجة للانحراف الناتج عن الإسراف في القسوة، فإن هناك هجينا من المنحرفين، يرجع اعوجاجه إلى الجمع بين النقيضين: التدليل المفرط والقسوة المفرطة، جمعاً من شأنه أن يطيش الصواب، وهو بالمحصلة نتيجة التربية الخاطئة.

لعل منشأ هذه المعاملة الفاسدة هو أن الأسرة يتولاها شخصان عادة هما الأب والأم. وليس في النادر أن يكون الأب متطرفاً في صرامته وشدته، وأن تكون الأم مفرطة في حنانها ورقتها.

إن تجارب الطفولة ذات أثر عميق في مستقبل نمو الطفل وتكوينه النفساني والعقلي، وإننا لنقدر أن حزم الوالد ضروري.. وأن حنان الأم ضروري كذلك، ولكن

الخطأ في الحزم والحنان، بل في تجاوز كل من الحزم والحنان لحدودهما المعقولة. وإذا كان الأب يمثل الواقع القاسي، كما سيبدو للحدث في المستقبل، فإن حنان الأم من شأنه أن يخفف من وقع شدة الأب – مع الإصرار على طاعته – مما يهيئ للطفل نشأة متوازنة من مواجهة الواقع في المستقبل بأقل خسارة متوقعة.

البعض يعد القسوة قسوة بدنية فيما البعض الآخر يعد القسوة بالنسبة للحدث معاملته بجفاء، معاملة تشعره بأنه محروم من المحبة والحنان. وهذا الأثر يساوي عند ذوي الحساسية من الأطفال أثر الضرب والقسوة البدنية عند غيرهم.

ومثل هذه الفروق الفردية أمر مشاهد معترف به عملياً وعلمياً، ولها أثر كبير في نشأة الانحرافات، لهذا يجب ألا نتجاهلها أو نغفل عنها ونحن نفسر سلوك الأطفال والشبان الذين يبدو عليهم الانحراف. فلا ننخدع بالمظاهر، ونعتبر عدم ضرب الطفل دليلاً كافياً على عدم شعوره بالقسوة في تربيته.

لم تذكري في رسالتك ما هو وضع ابن أختك حينما يوضع في المواقف المتنازع عليها بين والديه من أجله. أحياناً يحدث أن ينكب الحدث ويضطر لمواجهة قسوة الواقع، وهو في سن غضة، فلا يستطيع في تلك المرحلة المبكرة في نموه أن يحقق التكيف المطلوب مع الواقع. وبدلاً من أن يتيسر للحدث التكيف قبل الأوان يصاب غالباً بنكوص يؤدي إلى عرض من أعراض الانحراف بعد فترة تبدو وكأنها لا غبار عليها. ومعنى هذا النكوص، أن يعود مبدأ اللذة إلى توجيه سلوك الحدث كما كان الحال في مرحلة سابقة من مراحل نموه. وشر ما في النكوص، أن الحدث حين يرتد إلى مستوى من مستويات نموه القديمة كي يحصل على إشباع نوع معين من رغباته، فإن تقدمه نحو النمو من تلك النقطة التي ارتد إليها يكون أصعب بكثير من النمو الطبيعي. ولذا نجد الحدث الذي أصيب بالنكوص أقل استعداداً للاستجابة للحزم والاستسلام للشدة. وبعد أن كان يتحمل الشدة يتمرد عليها تمرداً صريحاً ليس من النادر أن يقترن بأعمال العنف عند المراهقين كما علمتنا الوقائع.

أما إذا انحرف هذا الحدث، فمن واجب المربي أن يبث في نفسه ملكة الحكم والتمييز، ويدربه على أن يوازن بين اللذة المباشرة التي تعقب ألماً أو أذى، وبين تأجيل هذه اللذة المباشرة أو التنازل عنها في سبيل لذة من نوع آخر. ومن الأهمية بمكان أيضاً أن يتعلم المنحرف أن القدر من اللذة الذي يظفر به من التوافق مع المجتمع أكثر وأهم من تلك اللذات المتناثرة الجزئية المباشرة التي يجنيها عن طريق يحرمه الواقع الاجتماعي.

وهناك الحدث الذي يثق ثقة تامة بحب والديه له مهما فعل، أو يستطيع الاستفادة من التضارب بين الأبوين أو تنافسهما على حبه، يتوجب أن يبدأ علاجه بتحميله المسؤوليات، وبأن يشعر بأن عليه واجباً نحو نفسه، وأنه إذا لم يقم بهذا الواجب ولم يتعهد برعاية مصالحه وحماية نفسه فلن يقوم أحد عنه بهذه المسؤوليات.

تجدر الملاحظة أخيراً أن بيئة العلاج والعلاقة بالمربي يجب أن تكون عكس علاقته بوالديه. فإن كان انحرافه ناشئاً عن التدليل، فعلاجه يكون عن طريق الإشعار بالمسؤولية وأداء الواجب وتحمل الآلام والحرمان. وإن كان انحرافه ناشئاً عن القسوة والحرمان، فيجب أن يكون علاجه عن طريق المحبة والصداقة والتقرب ...إلخ.

إن مشكلة ابن أختك نجدها في الكثير من العائلات ولتدارك سيئاتها يجب الإحاطة بنتائجها.

65 – الوعي الجنسي

ابني في الثانية عشر من عمره.

بدين الجسم، درجة ذكائه في الوسط.

أحياناً أراقبه فأرى أنه يريد أن يقول شيئاً عن الجنس.

أو أن اصطلاحاته فيما يخص هذا الأمر بدأت تأخذ مأخذ العارف لماهيتها.

إنني لمترددة حيال ذلك في أن يقوم والده باطلاعه على هذا الأمر أو أنا، أو أن مرحلة ذلك لا زالت مبكرة؟

هند . و

ليس في الاطلاع الجنسي ناحية مهما قل شأنها لا تخلو من الصعوبات، وأهم هذه الصعوبات هو اختيار الوقت المناسب لبدء هذا التعليم أو الاطلاع. ففي أي سن يجب تعليم الحدث أو المراهق المسائل الجنسية؟

إذا بدأنا هذا الاطلاع في وقت مبكر ذهبت جهودنا سدى. وإذا بدأناه في وقت متأخر ظهرنا بمظهر السخفاء في نظر أولادنا، لأن العلاقة بين سنهم ونموهم الجنسي وثيقة كما هي بين سنهم ونمو مواهبهم الأخرى. ولهذا كان النمو الجنسي المبكر أو المتأخر ظاهرة أكثر انتشاراً أو حدوثاً من سائر الاضطرابات التي تلم بوظائف الجسم.

ويعتمد فهم أولادنا للمعلومات الجنسية التي نمدهم بها فهماً صحيحاً على قدرتهم على ما يمكن تسميته بـ(الوعي الجنسي). أعني بذلك هذه الموهبة للشعور بأن ما يستعمل من كلمات أو يُذكر من حوادث أو يتم من أفعال إنما يتعلق بالحياة الجنسية وإنها جميعاً تتصل بهذا الإحساس الغريب الذي يحس به الطفل إحساساً غامضاً. ولا تذهب جهودنا التربوية سدى فقط قبل هذه المرحلة من النمو بل إن الطفل نفسه لا يشعر بالمثيرات الجنسية الخارجية.

إن (الوعي الجنسي) في المرء يمكن أن يستيقظ في وقت مبكر جداً. ولهذا

كان بعض المرضى يقولون لأطبائهم، من وقت لآخر، إنهم شعروا بالانتصاب في السادسة من عمرهم أو حوالي تلك السن، وإن الاحتكاك يزيد من لذة هذا الشعور. إن مثل هذه الوقائع، وهي نادرة طبعاً، تدل بصورة غير منتظرة، على مبدأ مهم وهو أن معظم الرجال يتذكرون بوضوح أنهم شعروا شعور من يرتكب فعلاً دنيئاً، وكانوا يجهلون موضع هذا الشر، ولكنهم لم يجرؤوا على الاستفهام عن ذلك. ولذلك هم واثقون بأن شعورهم بالخطيئة قد تأصل في طبيعتهم لأنهم لم يسمعوا قط، من قبل، بالحياة الجنسية، وأن فريقاً منهم لم يكونوا واعين للطابع (الجنسي) في أفعالهم.

ومثل هذا الأمر، يبرهن مبدئياً، بصورة غامضة، على أننا نملك فكرة (قبلية) عن طبيعة الحياة الجنسية الحقيقية، وأن الاطلاع الجنسي، سواء كان لفظياً أم عملياً، لا يثمر إلا في الوقت الذي يصبح فيه الابن قادراً على هضم هذه المعرفة وتمثلها.

إن البعض يرى أن خير طريقة مثلى لمعرفة ما إذا كان الوعي الجنسي لا يلحق أي ضرر بالابن هي في معرفة ما إذا كان هذا الوعي يؤثر في شعور الإنسان الطبيعي بالحياء أم لا يؤثر. هناك نزعة للتخلي عن الحياء، لأنه ثمرة غير محببة من ثمرات المدنية، أو لأنه نتيجة أخلاقية بالية. ويدل التحليل النفسي كما تدل الملاحظة الإثنولوجية على أن هذا الشعور من أعظم ثمرات الإنسانية الأصلية وأهمها، فليس هناك من قبيلة بدائية لا تشعر بالحياء مهما كان ضئيلاً. ولا يختلف شأن الأولاد عن ذلك، وكل ما يحدث من تغيير هو أن تطور الإنسانية ونمو الفرد يؤديان إلى ازدياد عدد الأشياء التي يقوم الحياء بحمايتها. فمهمة الحياء الحقيقية إذن هي في القيام بهذه الحماية.

أما أدلر فيرى أنه لا ينبغي التبكير بإيضاح العلاقات الجنسية للصغار، أو إيضاحها إيضاحاً أكثر من اللازم. هذا إلى أن يقول بعدم الكذب فيما نجيب به على أسئلتهم وبعدم التهرب منها لأن ذلك قد يؤدي إلى كثير من الأذى لهم كما أن

أدلر ينصح بعدم الكرم في شرح المسائل الجنسية على الصغار فلا تجيبهم على أكثر مما يسألون ولا تفيض عليهم بشرح ما استعصى عليهم إلا إذا تطلبوا هم هذا الشرح، لأنه يخالف الرأي المعروف بأن الصغار يفسدون معارف الصغار فيما يتعلق بهذه المسائل، ويرى أن للصغير قدرة على نقد ما يلقى عليه به غيره صغيراً كان أو كبيراً. ويقول إن من الخير أن ينشأ المرء في هذه الناحية، ككل نواحي الحياة الأخرى، معتمداً على نفسه مستقلاً يلتمس من أهله أو من غير أهله ما يود معرفته عنها.

66 – صبيان مع صبيان

نما ابني وأصبح في الثالثة عشر من عمره.
أصبح يعاشر الصبيان الذين بسنه.
يتجنب في لعبه ما يمت إلى البنات بصلة.
كيف تحلل وضعه الراهن؟

يسار . خ

بالنسبة لابنك، تحدث عادة حالة الوئام العاطفي – الحب بوجه شامل – في ظروف محددة. ففي بادئ الأمر لا بد من وجود عوامل كثيرة. ويمكن تسمية أو وصف بعض هذه العوامل بالعبارات التالية: تشابه واضح، دافع متواز، نمو جسدي متعادل. وإذا ما توفرت هذه الأمور فإنها توجد حالات يشعر فيها الصبيان بارتياح من الصبيان أكثر من شعورهم بارتياح مع البنات، وهذا الشعور بماهية الأنواع أو الاندماج بها يؤثر في الشعور الذي يتضمنه التغير الذي يحصل في العهد السابق للمراهقة. وإن ظهور المقدرة على الحب يتضمن في البدء عادة شخصاً من الجنس المماثل لجنس المحب. فالصبي يجد صبياً يجعله صديقاً له، والبنت تجد بنتاً تجعلها صديقة لها. وعندما يكون قد حدث ذلك يتبع أثره ازدياد كبير في الاتفاق على صحة الرموز، وعملياتها، وعلى الأخبار والمعلومات المتعلقة بالحياة والعالم.

وابنك في هذا الدور يرى نفسه من خلال عيني الشخص الأخر، ومن ثم يتوفر الاتفاق على صحة قيمته الشخصية. وينجلي للولد في هذه الفترة مجتمع عالمي حقيقي. وحالما يجد أن كل هذا التفكير بالذات، وهذا الكيان، الثابت إلى حد ما، الذي يسميه المرء عقله وأفكاره وشخصيته هو في الواقع قابل لتبادل المعلومات إلى حد ما، وإلى بعض المراجعة وضبطها وإعادتها، يبدأ يشعر بإنسانيته بطريقة لم يشعر بها قط في السابق، ويصبح أكثر إنسانية من حيث إنه يبدأ في تقرير شعور البشر الإنساني العام – وينشأ عنده عطف جديد على الشخص الآخر، سواء أكان

ذلك الشخص معروفاً لديه بصورة مباشرة أو تكون قد وصلته أخبار عنه عن طريق إشاعات في المحيط أو ما شابه ذلك. وبعبارة أخرى إن الشعور بالإنسانية هو ناحية من نواحي تمدد الشخصية الذي يحصل في الدور السابق للمراهقة. ويبدأ التعلم في هذا الدور باتخاذ الوجهة الصحيحة في استخدام الشخص لضمان الحصول على الإرضاءات والمحافظة على الأمن في العلاقات الشخصية المشتركة طيلة أيام الحياة.

ومن خلال عمر ابنك، وهو السن السابق للمراهقة، يصبح لا مفر في النهاية من انطباع الشخصية البشرية بقوة المدنية والمجتمع المسيطرة.

نرى هنا أن هناك صلات بين العلاقات الشخصية المشتركة بمعنى أن ابنك ب مثلاً هو صديق الشخص ج إلا أن ج هو ذو علاقة بالشخص د ، والشخص د هو ذو علاقة بالشخص ص وهكذا.

ويعتقد عالم النفس (سوليفان) أن الحب المثلي لا يعني العلاقة الجنسية المثلية، لأن القوة الحركية (أي القوة الشديدة جداً) للشهوة الجنسية لا تكون قد نضجت بعد، إلا أنه يأتي وقت لا بد لها فيه من أن تنضج، وهذا الوقت هو سن المراهقة، ومن ثم يصبح ما يعرف عادة بالعلاقة الجنسية المثلية في الغالب بمثابة محاولات يائسة ضد الفشل في التحول نحو الجنسية الغيرية.

إذا كنا من البسطاء جداً من حيث معرفتنا لعلم النفس، فإننا نكاد نميل إلى التفكير أن البواعث والشعور هي أشياء عائمة في داخلنا كالبراميل الخشبية العائمة في البحر. وإنه لمن السخف، طبعاً أن نتهم فرويد بسذاجة كهذه، ومع ذلك فهو يتحدث عن (الهي) كأنها قِدر من الهيجان الذي يغلي. وهو وصف جذاب وتعبير أدبي متين، إلا أنه أسلوب ضعيف جداً في فهم علم النفس. وعلى كل حال، قد نتصور البواعث أحياناً تضغط عليها من الداخل وترغمنا على أن نعمل. ومع أننا قد نلجأ إلى هذا النوع من الخيال في الغالب، إلا أننا ننسى أحياناً أننا نفكر دائماً ونشعر ونعمل كوحدة، وكجهاز، بالرغم من أن فكرة النزاع تعقد الأمور. وإذا نحن

لم نعمل كوحدة وككائن تام – فإنا لا نعمل مطلقاً. وإن عادات تفكيرنا وكلامنا التي هي ذات تاريخ طويل تكون في وضع يصعب معه إدراك السلوك بدون اللجوء إلى الأفكار الخاصة بالحوافز الغريزية والبواعث، والمكافحات وما إلى ذلك.

لكن ماذا نلاحظ فعلاً إن كنا ممن يعنون بالتجربة والاختبار في تقييم وضع كوضع ابنك؟

إننا نلاحظ وضعاً يعمل فيه اثنان أو أكثر من الأحداث بطريقة معينة. وهم يعملون معاً بطريقة متقاربة، وهذا يظهر لأول وهلة ما هو الوضع الشخصي المشترك، وهو الأمر الذي نواجهه مبدئياً. وهذا حسب الظاهر هو (المادة الخام) أو المعلومات غير الناضجة لعلم النفس التجريبي. وبسبب عادات تفكيرنا وكلامنا وتركيب لغتنا نقول إن (أ) يكافح نحو الوصول إلى كذا وكذا من (ب). إلا أن كل ما نلاحظه في الأصل هو أساليب عمل معينة يقوم بها حدثان. كالكلام والضحك ...إلخ.

ويعبر سوليفان عن ذلك بقوله: (عندما نتحدث عن الدافع لهذا العمل أو ذاك، وعن الاتجاه نحو هذا الهدف أو ذاك أو نستعمل أياً من هذه الكلمات التي يبدو من وقعها أنك – كوحدة – تملك هذه الأشياء في نفسك وكأنه بالإمكان دراستها بذاتها ولذاتها فإننا نكون نتكلم حسب تركيب لغتنا وعادات حديثنا المشترك عن شيء يبدو لنا بطريقة ملحوظة كعمل قائم في وضع ما، والوضع ليس شيئاً قديماً، فهو عبارة عنك وعن شخص آخر متحدين بطريقة ما، وبشكل يمكن تحويله في ابنيق (جهاز أو وعاء كان يستعمل للتقطير في الأزمان الغابرة) الكلام إلى العبارة الآتية: إن (أ) يكافح نحو الحصول على كذا وكذا من (ب).

حين أتفوه بهذه العبارة نتحقق أن (ب) هو عامل شديد الأهمية جداً في الوضع. وهناك حالات كثيرة موحدة يريد (أ) فيها انقياداً من (ب) ومن غرابة القول إن (ب) يريد انقياداً من (أ). ويبدو كأن هناك شيئاً في (أ) وشيئاً في (ب) قد تصادما بالمصادفة. إلا أنه عندما يدرس المرء الوضع الذي يتبع فيه (أ) و(ب)

على التوالي الهدف للحصول من الشخص الآخر على ما يحتاجه هو نفسه أو ما يحتاجه الشخص الآخر منه، يجد أن الأمر ليس بسيطاً إلى الحد الذي يبدو فيه. ولا يزال الوضع هو الهدف الصحيح للدراسة، أو بالأحرى الشيء الذي نستطيع ملاحظته، أي العمل الذي يدل على الوضع وسمة توحيده.

في حين تتحسن المهارات في ملاحظة النفس وملاحظة الآخرين، نتعلم الانتباه إلى أشياء أخرى. إلا أن كل ما يستطيع أي شخص ملاحظته في النهاية هو التوترات والتغيرات في النشاط. وكثير من هذه التغيرات تظهر كأعمال. ويمكن اعتبار التوترات نفسها – ما عدا توتر القلق – كحاجات لتغيرات خاصة في النشاط يكون من شأنها تبديد التوتر، ويكون ذلك في الغالب مصحوباً بتغير في الإدراك الذي يمكن أن نطلق عليه التغيير العام، أي الإرضاء، أو الإشباع. وإن توتر القلق يستدعي تغيرات في النشاط يسميها سوليفان عمليات الطمأنينة كي تضع حداً للقلق أو تقلل منه وتحمي تقدير الذات وتقدم له العون.

المراهقة

67 – طور في أطوار

بدأت تغيرات كثيرة ألاحظها على أبني في الأشهر الأخيرة.

فشعر ذقنه بدأ ينمو.

وصوته الطفولي أخذ ينمو إلى صوت الكبار.

وطوله بدأ يتصاعد.

يدخل إلى غرفته ويقفل الباب عليه.

لم يعد يعطي من طبيعته التلقائية الطفولية، بل أخذ يستقل بشخصيته.

كذلك زادت انفعاليته المفرطة حين الاستثارة مع قضمه لأظافره.

لقد صعقت من هذه التحولات ولم أدر نتائجها؟

ناديه . و

وأنا أبادر لأقول لك إن ما تلاحظينه على أبنك هو بداية مرحلة الشباب في الطور الأول منه، أي مرحلة المراهقة. فبالإضافة إلى ما لاحظتيه على ابنك من (نمو) و(تحول) فسيلي ذلك تحولات واضحة ومهمة في اهتماماته الاجتماعية وسلوكه الاجتماعي. فبعد أن تستيقظ في الشاب (رجولته) وفي الفتاة (أنوثتها)، ينصرف كل منهما عن الاهتمام بالعلاقات مع أفراد من جنسه، ويتجه نحو العلاقات مع أفراد من الجنس الآخر، ويميل إلى تضييق نطاق علاقاته وتعميقها. وتصبح هذه العلاقات مركز اهتمام خاص في حياتهم، تشغلهم أكثر وتعيش أطول. وبالنظر إلى خطورة هذه التحولات، والسرعة – وربما الفجائية – التي تتحقق بها، فإنها تترك آثاراً بعيدة المدى في نفسية الشاب، الذي يصبح شخصاً جديداً لا يستطيع تفسير ما يطرأ عليه من نمو ولا التحكم فيه، ويتحول من كيان يفهمه ويألفه ويستطيع السيطرة عليه إلى كيان غريب يثير حيرته وشكوكه ولا يخضع لسيطرته.

ومثل هذه الأزمة هي أكثر حدة بالنسبة لأولئك الذين يتم نضجهم مبكراً.

أولاً، لأن النمو الجسمي والجنسي قد لا يوازيه نمو عقلي واجتماعي. وثانياً، لأنه يدفعهم إلى الابتعاد عن أترابهم والانسحاب، ومحاولة الانتماء إلى جماعات الكبار، الذين لا يبدون – عادة – ترحيباً كافياً بالقادمين الجدد، هذا إن لم يصدوهم بالفعل. وإن كان للنضج المبكر، من ناحية أخرى، نتائج إيجابية، إذ إنه يساعد الشاب على تأكيد ذاته ويمنحه مرموقة بين أترابه الأبطأ نضوجاً، ولو لفترة من الزمن.

هذه التحولات الخطيرة، غير المفهومة أحياناً، تدفع في نفوس بعض الشباب انفعالات الخوف من الذات بعد أن أصبحت غير مألوفة لهم، والآخرين – وبخاصة الآباء – نتيجة للخلاف معهم، والمستقبل الذي يبدو غامضاً مليئاً بالاحتمالات. وقد تبلغ هذه المخاوف – نتيجة لبعض الخبرات غير الصحية، ولفرط الحساسية – حد الهموم أو القلق المعوق.

أما الانفعالية المفرطة أو المتطرفة التي تبدو في سهولة الاستثارة، وقضم الأظافر وبعض اللوازم العصبية أو العصابية الأخرى وتطرأ على الشاب وتعيش معه فترة طويلة – هي عرض من أعراض حالة عدم التكيف، وهي في الوقت نفسه سبب في عدد من مشكلات التفاعل الاجتماعي والعلاقات الشخصية بصفة خاصة. وفي حين يرجع بعض من الانفعالية الزائدة إلى التحولات العضوية التي تطرأ على كيان الشاب، فإنها ترجع في المحل الأول إلى بعض ظروف الارتقاء النفسي والاجتماعي، ومن أهمها عدم سواء العلاقات الأسرية، أو تسلط الوالدين أو أحدهما أو الإحباط المتكرر لرغبات الشاب وحاجاته، أو التوقعات التي لا يقوى الشاب على تحقيقها وبخاصة في مجال الدراسة، أو الإخفاق في التجارب العاطفية الأولى.

إن مثل هذه التحولات يترتب عليها حدة في الطبع تؤدي إلى سرعة الغضب، وربما الثورة على ما يسبب إحباطاً، حتى حين يكون بسيطاً. وفي بعض الحالات قد لا يتجه الغضب إلى الآخرين أو الأشياء، وإنما يتجه نحو الذات. ويزيد من تعقيد الموقف عجز بعض الشباب عن السيطرة على انفعالاتهم وترويض – أو

احتواء – بعض مشاعر العدوان.

ملخص القول:

ابنـك يمـر فـي طـور طبيعـي، مـع الأخـذ بعـين الاعتبـار قضـية انفعاليتـه المفرطة، فإذا كانت علاقتك بزوجك طبيعية، فإن ما يمر به ليس لـه خلفيـة، أما إذا كان العكس فقد شرحت ذلك في سياق التحليل.

68- نمط تقليدي شكلي

لي ثلاثة أولاد أكبرهم في الرابعة عشرة من عمره.

هادئ متزن ينصاع لمعايير المجتمع والسلطة والأسرة والدين.

وهو على خلاف ابن جيراننا المتمرد المشاكس.

قرأت من خلال مطالعاتي أن من يكون في عمر ابني تبدأ مرحلة المراهقة لديه.

وبما إنني ألمس بعداً بين سلوك ابني وقرينه ابن الجيران.

فإنني أتوجه إليك لأقرأ تحليلك لهذا الاختلاف في سلوك الاثنين وأين تضع ابني في ذلك؟

كوكب . ج

إن مثل من يكون في سلوك ابنك يقال له إنه من النمط التقليدي الشكلي الذي يكون هدفه مسايرة الركب والانصياع لمعايير المجتمع والسلطة والأسرة والدين. وأشخاص هذا النمط ليسوا بالضرورة مبدعين أو مبتكرين أو بلهاء!!

وسلوك ابنك إذا ما اتفقنا على أنه نمط شكلي قد يكون مثالياً في طاعته وانصياعه والعكس بالعكس. فضلاً عن هذا، فإن سلوك المراهق وفق أي نمط من الأنماط لا يتلاشى بتجاوز مرحلة المراهقة. فكثير من الخصائص والآثار التي تميز المراهقين تستمر معهم بقية العمر ولو أنها تفقد بعضاً من الحماس والانفعال الغالب على معتقدات المراهقين.

من رأي عالم النفس (أريكسون) أن الأزمة الرئيسة التي تميز المراهقة هي أزمة البحث عن الهوية، ففي تلك المرحلة تختلط الأدوار التي يتطلع المراهق لاختيارها، فهو يريد أن يحقق دور الراشد المستقل عن الأسرة، والزميل المخلص لقيم الأصدقاء، وفي نفس الوقت الابن الطيب في أسرته. ولا شك أنها أزمة حقيقية تواجه المراهق للتوفيق بين المتطلبات المتعارضة لهذه الأدوار. ولا شك أيضاً أنه

في بحثه هذا عن التوفيق بين التوقعات المختلفة لكل دور قد ينجح متجاوزاً أزمته وبالتالي مشكلاً هويته ومبادئه الشخصية الخاصة.

ومع هذا النمو في الهوية يتسق نمو آخر في الأحكام الأخلاقية. ففي تلك المرحلة يتطور الحكم الأخلاقي إلى المرحلة التي يسميها (كوهلبرغ) مرحلة الالتزام بالقانون العام، والإحساس بضرورة الخضوع لنظام اجتماعي ينظم الفوضى السائدة، ويفرض بعض الضوابط. ومن الطريف أنه بالرغم من تميز هذه المرحلة بالالتزام بالقانون والسلطة فإن التمرد ضد السلطة يصل إلى أقصى درجاته في تلك المرحلة. ربما لأن إيمان المراهق بضرورة وجود سلطة تنظم الفوضى السائدة هي التي تجعل منه مناوئاً قوياً للسلطة الراهنة التي لم تستطع أن تحقق بعد الطموحات الأخلاقية المتطرفة التي يتبناها المراهقين.

يعتبر البعض مرحلة المراهقة فترة (ميلاد جديد) مصحوب – بالضرورة – بعديد من التوترات وصعوبات التكيف. فهي (تشهد) بزوغ أرقى السمات الإنسانية وأكملها، وفيها تظهر وظائف مهمة لم تكن موجودة من قبل. وتتم كل خطوة ارتقائية بنوع من الانهيار للجسم والعقل والأخلاق. ويؤكد (الجنس) تحكمه وتسلطه في مجال بعد مجال، ويباشر تأثيره وفاعليته (المدمرة)من خلال صور عديدة من الرذيلة السرية، والمرض، وإضعاف الوراثة، ويسوق الروح إلى سوائها أو عدم سوائها، وينتهي بآلاف الشباب كل سنة إلى الانهيار .. وتظهر مشاعر عديدة بالرفض تجاه البيت والمدرسة، وتنتشر حالات الهروب. وتنبثق الغريزة الاجتماعية فجأة، وتستيقظ مشاعر الحب. فهي سن تيقظ المشاعر والدين، وتقلب المزاج، يبدو العالم فيها جديد وغريباً. ويبزغ اهتمام تجاه الراشدين والعمل. ويزيد الطموح، ويظهر ميل إلى تضخيم كل خصلة وملكة، والتطرف فيها. إنه ميلاد جديد عجيب مثير. وإلى حياة الاستقرار والدعة، وإلى الجو الفيزيقي والنفسي الذي خلقته الحضارة الصناعية، يرد جورج ستانلي هول كثيراً من مظاهر الضعف في البنية وتقلب المزاج التي بدأت – في عهده – تظهر على الشباب، وإلى نظام تقسيم العمل الجديد الذي ترتب على

التقدم التكنولوجي، يرجع مشكلات التدريب والتخصص وسوء التكيف في العمل التي يعانون منها.

ويختلف سيغموند فرويد مع جورج ستانلي هول في نظرته إلى الرغبات الجنسية على أنها تبزغ في مرحلة المراهقة، فهو يميل إلى أن يراها تأخذ شكلاً جديداً فقط – وهو يتفق معه في التركيز على التحول العضوي والجنسي بصفة خاصة، وفي تصور المرحلة على أنها مرحلة (شدة ومعاناة)، وفي إغفال أثر الواقع الاجتماعي والحضاري إلى حد يكاد يكون تاماً. ويتم الانتقال من مرحلة إلى أخرى في دورة حياة الفرد في رأي فرويد تبعاً العوامل بيولوجية، وفي استقلال واضح عن التأثيرات البيئية – الاجتماعية والحضارية. ففي مرحلة المراهقة وبداية الشباب، وهي المرحلة التي يسميها التناسلية، ومع بزوغ الأنا الأعلى، تظهر لدى الفرد الصراعات العقلية بصدد الإشباع الجنسي، والغريزي بصفة عامة، وهي مرحلة إرهاق للأنا بسبب عجزه عن التوفيق بين المطالب الغريزية – مطالب الهو المتمثلة في الإشباع الجنسي الغيري – وبين مطالب الضمير – الأنا الأعلى، وهو متزمت عادة. ويضيف فرويد إلى ذلك تصوره للمحنة والشدة في أزمة المراهقة من خلال علاقة الشاب – أو الفتاة – بالوالدين: أحدهما كموضوع للإشباع الجنسي – والعاطفي بعامة – والآخر كمنافس، وهي علاقة تنشأ في بداية مرحلة الطفولة، وتصل إلى حدود جديدة في سن المراهقة.

ويرى فرويد أن مرحلة المراهقة أو بداية الشباب تتميز بشدة الأعراض العصابية التي ترجع إلى طبيعة النمو الجنسي من الطفولة إلى المراهقة. فالرغبات الجنسية التي كانت قد هدأت أثناء فترة الطفولة تظهر مرة أخرى بقوة عظيمة، وتستيقظ الدوافع العدوانية السابقة، وتضطر نسبة من الدوافع الجنسية الجديدة إلى أن تكبت وتظهر في صورة ميول عدوانية هدامة. ويزيد من تعقيد الأزمة ما يطرأ على الشخصية من تنظيمات جديدة عديدة. وبحسب رأي فرويد، فإن كثيراً من صور السلوك الطفلية في مرحلة المراهقة وبداية الشباب ربما كانت بقايا أو آثار لعمليات الكبت والقمع التي تحدث لبعض التصرفات والرغبات في مرحلة الطفولة. وعلى حل أزمة علاقة الشاب (المشكلة) بكل من الأبوين، أو بعبارة أخرى على فك ارتباطه المرضي بكل منهما،

يتوقف اجتيازه لمرحلة الطفولة وبلوغه مرحلة النضج الاجتماعي.

وأخيراً فإن فرويد يعتبر المراهقة وبداية الشباب المرحلة الأخيرة في عملية النمو النفسي الجنسي، وهذه المرحلة تتميز بملامح ارتقائية هامة، منها التحول من عشق الذات، واحترام الواقع، ونمو الميول الجنسية الغيرية، وهي، فضلاً عن هذا، فترة قلق، وبخاصة فيما يتعلق بالدوافع الجنسية التي تحملها ظروف حضارية كثيرة. غير أن هذا الإحباط أو الكبت ليس سلبياً تماماً، وذلك لأنه من خلال الإعلاء تتجه بعض الدوافع المكبوتة إلى مسارات مقبولة اجتماعياً، ومن هنا تتسع اهتمامات الفرد ومعارفه.

69 – الولد الجانح

توفي زوجي قبل ثلاث سنوات مخلفاً لي تركة ثقيلة.

ابنة في الثانية من العمر والأخرى في السادسة والولد الكبير صبي في الرابعة عشرة من عمره.

وهذا الوضع اضطرني إلى أن أعمل بمهنة بسيطة لأطعم نفسي وأولادي الثلاثة.

ومن هنا أخذ ابني يتغيب عن المدرسة دون أن أدري.

إلى أن قبض عليه متلبساً بسرقة أحد المتاجر.

ووضع في إصلاحية للأحداث وأفرج عنه بعد حين بكفالتي.

هذه الأمور جعلتني أنوء بالتبعات المترتبة عليّ تجاه ابني وبقية أخوته.

ولا أعلم الطريقة الناجعة في استكمال تربيته وتقويم نفسيته.

من هنا أضع رسالتي هذه أمامكم آملة أن أقرأ الحل والتحليل.

إجلال . ك

إن الوقوع في الخطأ لمرة أو أكثر من مرة ليس معناه أن الأمور ضاعت منا. فلعل مثل هذه الحوادث تعطي حافزاً أحياناً لتغيير نمطية شخصية الولد أو الحدث وإجباره على سلوك قويم آخر نتيجة لعقدة الذنب التي مر بها. أو أن الأمور تسير باتجاه خاطئ حين لا يتيسر الجو النفسي الصحي في المنزل مما يزيد الأمور تعقيداً أو يؤدي إلى حوادث الجنوح.

ينبغي أن يتعلم الولد كيف يعيش في مناخ جماعي يحيي في نفسه ألوان الوعي الاجتماعي ويقوده إلى اعتبار وجود علاقات جماعية تهدف إلى إدراك مثال مشترك واحد، إلى جانب العلاقات الفردية بين الإنسان والإنسان. ولا يمكن المجادلة في أن الفتى كلما ازداد وعيه لنفسه ولوضعه بين الجماعة، صارت مشاركته أشد رسوخاً وايجابية. ومما يدهش دوماً ملاحظة أن العديد من الفتيان الجانحين الذين

عاشوا حالة من التشويش والغموض، نسبة إلى محيطهم يتحوّلون ويتغيّرون منذ اللحظة التي يتوصلون فيها إلى هذا المستوى من الوعي. فمن يعي يفرّق بين نزعاته الخاصة وبين إغراءات العالم الخارجي التي يجب أن يواجهها بالرفض. ويتعلم كذلك أن يختار ويجتهد في التكهنّ بالنتائج المضرة للأعمال التي تلحق الأذى بالآخرين: المضرة بالغير وبالجماعة ككل وبالنفس أيضاً، لأن العمل الظالم ليس فقط (لا يجدي نفعاً)، وإنما يقود فاعله إلى دوامة الشعور بالذنب كذلك، ذلك الشعور الذي يجتهد في خنقه والقضاء عليه باللامبالاة والكراهية وردود الفعل العدائية الجديدة. وهو يكتشف أن كل حياة تتطلب العمل. ويكتشف أن البشر متعاضدون، وأنهم بأعمالهم إنما يلزمون القريب أيضاً، ويسمو إلى إدراك معنى المسؤولية. ويأخذ بالاعتبار أن الوجود الفردي يغتني عن طريق تقبل النظم والتضحيات من أجل الجماعة، وكذلك بالتنكر لكل أنانية، وبالسعي إلى المثال المشترك. ويخالجه في الوقت نفسه شعور بكرامته الشخصية، كرامته كعامل، وكرامته كرجل يجب ألا يعيش مهاناً ولا مخدوعاً، كما يجب ألا يخضع لأي لون من ألوان العبودية الخلقية والاجتماعية.

إن المشاركة المزدوجة بالوعي وبالفعل، تغتني دوماً بمشاركة انفعالية عاطفية، وإن هذه المشاركة الأخيرة تكتسب، عكسياً، كل قوتها حين يؤازرها الوعي. ولذا فإن القدرة على الحب وعلى الشعور بحالة من الوداد مع الوسط، وكذلك النزعة إلى التضحية، والاستجابة العاطفية للثقة، تغني كلها بشكل فريد. حتى إن المعرفة لا يمكن أن تكون من غير استلطاف ووداد، لكن الوعي، يضيء بدوره نبالة القلب ويوسع حدوده. ويمكّن من جهة أخرى، أن نستفيد من توظيف النزعات العدائية، والميل إلى الشرود وعدم الاتزان، والانتفاخ الذاتي والنزوع السيئ إلى المخاطر، والوقاحة التي يحركها عدم المعرفة الأكيدة بالنتائج، أن نستفيد، من توظيفها في قطاع النشاطات ذات الفائدة الاجتماعية، إذا عرفنا كيف نسبر أغوار منابع التضحية الغيرية عند الفرد. وهذه الملاحظة مهمة بشكل خاص في نظرنا، في

إعادة تربية ابنك في حالة إصابته باضطراب في طباعه.

ويلاحظ أن العدائية تتحول إلى حماس، وعدم الاتزان يتفكك باتخاذ مهنة تترك مجالاً مناسباً بالنسبة لطباع تميل إلى التغيير، وتفتح آفاقاً جديدة، والسلبية في الاستماع تزول أمام البحث الناشط عن الهوايات الرياضية والثقافية، والانتفاخ الذاتي ينصب في قابلية تحمل المسؤوليات، والنزوع إلى اللعب والمغامرة يجد في بعض النشاطات التي تمارس في الهواء الطلق وفي مهنة ما الفرصة المناسبة للتعبير عن مكنوناته، من غير إلحاق الضرر بالآخرين. وهذه كلها ليست إلا بعض الأمثلة وهي تثبت لنا أن بعض النزعات المقلقة يمكن أن تتحول إلى نزعات اجتماعية وأن تسمو بتأثير إعادة تربية قد استسيغت جيداً.

ومن خلال هذا التحليل أردنا أن نبين إلى أي حد تعتبر مشاركة. الولد مهمة في إعادة تربيته الذاتية، وفي الوقت نفسه كم يتوجب على المحيط أن يعرف كيف يحضّره لهذه المشاركة بإفساح المجال له لكي يكون (شخصاً) حقيقياً. ولذا نقول، ودون أن يكون ثمة مبالغة، إنه إذا كانت الظروف تعرّف الفرد بنفسه وتكشفها له، فهي بذلك لا تخلقه. إنه يكتشف فقط، ما يحمل في تلك النفس. وقد يتوجب أحياناً أن نخلق حول الولد (المزاجي) وسطاً جديداً بظروف جديدة، وأن نوفر له (فرصاً) جديدة، ونجعله يعيش في مناخات إنسانية وطبيعية متنوعة، قبل أن نتوصل من خلال هذه التغييرات إلى أن نثير في نفسه عوامل ملائمة لتفتحه واستقراره. ويبدو لنا أن هذه، هي المبادئ نفسها التي أوحت باختبارات تربية جديدة. إذن تتطلب إعادة تربية ابنك القاصر الجانح، تطبيق تدبير ذي ثلاثة تشعبات: التدبير الشفائي – علم النفس الشفائي الفردي والجماعي – ذات الطبيعة المطورة لسلوكه. والتدبير المهني: لأنه يجب أن نهيئه ليكسب عيشه عن طريق توجيهه، بعد الدراسة المدرسية، إلى تعلم مهنة، وغالباً أيضاً بقيادة تكوينه المهني والمدرسي في سياق واحد، باعتبار أن العدد الأكبر من المراهقين الجانحين متخلفون في دراستهم. وأخيراً، التدبير التربوي الهادف إلى جعل الشخص منسجماً مع البنيان الاجتماعي.

70 – البعد عن الأهل

إنني امرأة كسائر النساء الشرقيات.

بالأمس وأنا أشجع ابني على الدراسة – مثل عادتي دائماً – وهو يستعد لامتحان الشهادة الثانوية

انفجرت ابنتي في الصراخ – وهي في الصف الأول الثانوي– تلومني على تشجيعي الدائم لأخيها على حسابها.

أفهمتها أن الشاب هو الذي يحمل اسم والده وإنها ستتزوج يوماً ما برجل غريب.

لكن الأمر أغضبها بزيادة وهي تقول إن الأهل هم الذين يزرعون الشقاق بين الإخوة.

نعيمة . و

رسالتك صورة طبق الأصل لـ 98% من نساء الوطن العربي الذين يميزون بين الذكورة والأنوثة، رغم أن 80% في ذلك عائد إلى الأم من خلال تربيتها لأولادها بإشعارهم أن البنت أقل شأناً من الصبي. لأن الأم تستقي معظم معلوماتها في تربية أطفالها إما من قريباتها (وخاصة والدتها) أو جاراتها، أو ذاكرتها. وقلما تستشير في ذلك طبيباً أو مربياً أو كتاباً (حتى ولو كان ذلك متوفراً وكانت تجيد القراءة). وبالتالي فإن أسلوب تنشئة أولادها يعتمد على الممارسة المستقرة، والخبرة الوجودية لها أو لغيرها من النساء اللاتي يكبرنها سناً وخبرة.

وتشكل الحالة البيولوجية للمرأة بالنسبة إليها حاجزاً يحول دون شعورها بشخصيتها المستقلة. إن الضعف العصبي وعدم التوازن الدموي لا يحول بينها وبين ممارسة أية مهنة. فبين الذكور أنفسهم يوجد عدد مختلف من الطبائع والإمكانيات، والاضطراب الذي يصيب الفتاة خلال يومين من كل شهر حتى ولو كان مؤلماً لا يمكن أن يعد عائقاً لها، والواقع هو أن عدداً كبيراً من النساء توفقن

بين حالتهن كنساء وبين عملهن في الحياة. فنرى المرأة تمارس مختلف المهن الصعبة وتسافر وترهق نفسها كالرجال، ومع ذلك فإن ضعفها الجسماني لا يسمح لها بمزاولة أصناف العنف. فلو كان بإمكانها أن تثبت شخصيتها وتتصرف كما تريد في المجتمع الذي تعيش فيه فتمارس السباحة وتتسلق الجبال وتقود الطائرات وتناضل ضد العناصر الطبيعية وتتعرض للأخطار والمغامرات، إذا استطاعت أن تفعل ذلك فإنها لن تشعر بهذا الخجل أو بهذا الضعف الذي تناولناه.

إن الحالة الاجتماعية العامة للفتاة هي التي لا تترك لها أي مجال لإبراز شخصيتها وإثبات وجودها بل تؤكد على العكس مركب النقص الذي بدأت تشعر به منذ طفولتها الأولى.

ويجثم مثل هذا المركب على حياتها من ناحية أخرى فيعيق تطورها الروحي والفكري. وقد لوحظ أن الفتاة تبدأ، اعتباراً من بلوغها، في التأخر عن الرجال في الميادين الفكرية والفنية. هنالك عدة أسباب لذلك وأهمها أن المراهِقة لا تصادف من حولها التشجيع الذي يحظى به إخوتها بل على العكس من ذلك يشجعها الأهل والأصدقاء على أن تظهر بمظهر المرأة ، ويتحتم عليها نتيجة لذلك أن تقوم بالإضافة لعملها المهني بالواجبات التي تفرضها عليها أنوثتها فتؤدي الأعمال المنزلية والواجبات الاجتماعية التي لا تتردد الأم في فرضها على الطالبة والعاملة، الأمر الذي يؤدي إلى إجهادها جسمانياً ومعنوياً.

إننا نطلب من الفتاة أن تبقى في البيت وأن تتصرف بشكل لائق فلا نشجعها على أن تختار بنفسها طرق لهوها ولعبها، ومن النادر أن نرى نساء ينظمن لوحدهن نزهة طويلة أو سفرة على الأقدام أو على الدراجة. وإذا سارت المرأة في الطريق فالجميع ينظرون إليها ويراقبونها، وإذا ما خطر للطالبات التنزه مجتمعات في الشوارع كما يفعل الطلاب فإن هذا يثير دهشة المارة إذا رأوا هذه الجماعات تتبختر في الطريق وتضحك أو تأكل تفاحة أو تتكلم بصوت عال، كل هذا يعد إثارة. وقد يتعرضن للسباب أو إلى شتى أنواع الإهانات البذيئة إذا ما سولت لهن

أنفسهن الاستمرار في هذا اللهو البريء. ويروى أن بعض الفتيات اللواتي لم تكن أعمارهن تتجاوز الرابعة عشرة كن يؤكدن أن الصبيان أسعد حظاً منهن، وهذا الاعتقاد يشجع على الكسل والخمول.

أنت حين أفهمتي ابنتك أن الشاب هو الذي يحمل اسم والده وأنها ستتزوج يوماً ما برجل غريب عمقتي في نفس ابنتك انهزاميتها وأن المراهقة لا تقدر أن تكون مسؤولة عن مستقبلها وهي لا تحمل نفسها أكثر من طاقتها ما دام مصيرها معلقاً بمصير شخص آخر، لهذا لا تربط مصيرها بمصير الرجل لأنها تشعر بضعف تجاهه، بل تقبل على العكس بفكرة ضعفها تجاهه لأن مصيرها مرتبط بمصيره. كما يختلف رد فعل الفتاة المراهقة على وضعها الجديد، من فتاة لأخرى، فالمرأة الصغيرة – إذا صح هذا التعبير – التي تعد نفسها لكي تكون أمّاً، تستسلم بسهولة تامة إلى نتائج التحول الفجائي الذي طرأ عليها. ومع ذلك فقد تكتسب هذه، من ظروف حياتها، ميلاً إلى السلطة يدفعها إلى الثورة ضد سيطرة الذكور فنراها مستعدة لتأسيس أسرة تخضع للسيطرة الأموية لا لكي تصبح وسيلة للمتعة الجسدية، والقيام بأعباء المنزل. وهذه الحالة نصادفها لدى الفتيات البكر اللواتي تحملن أعباء ومسؤوليات مهمة وهن صغيرات.

إن أخطر جوانب أزمة المراهقة هي ما يعرف باسم أزمة الهوية التي تنشأ من عدم قدرة الفتاة على فهم ذاتها (الجديدة)، وتقبلها، والتعامل معها، وهي أزمة يتوقف على حلها استمرار نضوج الفتاة بشكل سوي. وهذا، في نظر البعض، هو مصدر كثير من المشكلات لهذه المرحلة. فمعظم مشكلاتها، كما يقول كارل يونغ، رهينة بتيقظ الشعور (والذي يتم) حين يستطيع الفرد الربط الشعوري بين المحتويات النفسية، أي تكوين الأنا، ثم التمييز بين السلسلة المتصلة بين المحتويات النفسية، أي الأنا، وبين الأبوين (والآخرين بصفة عامة). وهي العملية التي يسميها يونغ (الميلاد النفسي) ... و(يتم) في سن البلوغ، مع انبثاق الحياة الجنسية. فالطفل، على حد تعبير يونغ، لا يشعر بآنيته – بوضوح كاف على الأقل. فلا شيء في

حياته يعتمد عليه هو، لأنه هو نفسه يعتمد على الآخرين: ويكون محبوساً في الجو النفسي لأبويه، أو يكون بمثابة (من لم يولد بعد). وإذا صادف مشكلات في حياته، فإنها لا تحدث من التأثير في نفسه ما تحدثه في نفس الشاب. فالحالة التي تسببها مشكلة ما تنشأ عندما تظهر – جنباً إلى جنب مع مجموعة من محتويات الأنا – مجموعة أخرى لها القوة (نفسها) التي للأنا، وهذا يؤدي إلى انقسام الفرد على نفسه، وهي الحالة التي تدل على وجود مشكلة. وبهذا المعنى – في رأي كارل يونغ وكثيرين من علماء النفس – تكون المراهقة أو بداية الشباب، وهي المرحلة التي تظهر فيها الأنا، هي السن التي تظهر عندها لأول مرة المشكلات في حياة المرء.

وأخيراً، فإن ابنتك تتسم مشاعرها واتجاهاتها نحوك ونحو الآخرين بشيء من التوزيع. فهي موزعة بين ضرورة طاعة الوالدين – وربما مسايرتهم إلى درجة الانصياع من جهة، وبين تحفظاتها الكثيرة على عالم الكبار التي لم تشارك في صياغته، وليس لها دور في إدارته، وميلها إلى التمرد وربما الثورة عليه، من جهة أخرى. أي إن مشاعرها نحو الكبار تتوزع بين التبعية والاعتماد، المترتبين على خبرات مرحلة الطفولة، وبين الرغبة في الاستقلال وتحقيق الذات، وهي أحد مطالب النمو في سنها. ومن هنا فإن جوهر موقفها من الأبوين هو التناقض الوجداني.

71 – فتاة الأربعة عشرة

ابنتي في الرابعة عشرة.

مراهقتها تبدو جلية في تصرفاتها.

فرغم الواجبات المدرسية الملتزمة بها

تمضي الساعات وهي تصفف شعرها وتضع الزينة الصناعية ناظرة لنفسها بالمرآة.

ليلى . ر

غالباً ما تتعرض الفتاة خلال طفولتها إلى مختلف أنواع الضغط والحرمان، ومع ذلك، فإنها تتحسس في قراره نفسها وجود شخصية مستقلة لها. ففي علاقاتها مع أهلها وأصدقائها، في دراستها وفي ألعابها، في كل ذلك، كانت تكتشف في نفسها تجاوزاً: فلم تكن تفعل سوى الحلم بسلبيتها المستقبلة. غير أنها تكتشف حين يدركها البلوغ أن المستقبل لا يقترب منها فحسب، وإنما يستقر في جسمها ويصبح واقعاً ملموساً. منعتقة من ماضيها الطفولي يتراءى لها الحاضر الآن كمرحلة انتقالية لأنها لا تلمح فيه أي هدف يمكن أن يستثير شعورها ومخيلتها.

إن المراهقة تكتشف مدى سلطان وضعها السلبي الذي تعيش فيه، حين تمزج بالخجل الذي يوحيه إليها جسدها، عاطفة الزهو والإعجاب بنفسها. هذه اليد التي أثارت انفعالها، وهذه النظرات التي اضطربت لها نفسها إنما هي نداء ورجاء، فيتراءى لها جسدها وكأنه يتمتع بفضائل سحرية، إنه كنز، إنه سلاح، وهي فخورة به. وإذا بها تبدأ بالتبرج والتزين فتصفف شعرها، وتدرس ابتسامتها من خلال المرآة، ثم تولع بجسمها وكأنه جسم إنسان آخر فتداعبه وتقبل أجزاءه وتمعن النظر في صدرها وساقيها، ونحن نراها تنشد العزلة كي تنعم في التلذذ بمفاتن جسمها، وتعبر عن ولعها بنفسها. وهي تحاول بواسطة بعض الحركات المعقدة تمجيد جسمها من خلال الأطناب والمديح اللذين تلقاهما من الذكور، ولقد أصبح من نافلة

القول الإشارة إلى أن الفتاة تريد أن تكون جميلة كي تحظى بإعجاب الرجال وإنها تحاول أن تحظى بالإعجاب لتتأكد من جمالها. وفي عزلة غرفتها أو في المنتديات حيث تسعى للفت الأنظار إليها لا تفصل الفتاة رغبتها في الرجل عن حبها لذاتها.

وتروي سيمون دي بوفوار إنه كانت هناك فتاة مولعة بنفسها منذ الخامسة من عمرها، فكانت تعجب بيديها ووجهها ورشاقتها، وكانت تقول: (إنني بطلة نفسي..) وكانت تطمح في أن تصبح مغنية لكي ينظر إليها الجمهور بإعجاب. وقد وقعت في الحب منذ الثانية عشرة من عمرها، فحلمت مثلاً بأن الدوق (ق) الذي تحبه، دون أن يكون قد تكلم معها مرة واحدة، يركع تحت قدميها (سيبهرك جمالي وستجني ... ولا تليق إلا بالمرأة التي آمل أن أكونها).

ونرى في هذه الفترة من عمر الفتاة، غير تزينها وإطالة النظر إلى المرآة، أو عبادتها لجسمها، تمنيها أن تمتلك وتشعر بنفسها من كافة الوجوه. وهذا هو هدف اليوميات الخاصة التي تفرغ فيها أحاسيس روحها العميقة السرية. وتتكلم الفتاة مع دفتر مذكراتها كما كانت تتكلم في الماضي مع دميتها، فهو الصديق وكاتم السر، تخاطبه كما لو كانت توجه الكلام إلى شخص حقيقي. وإننا لنلمح من بين السطور بعض الحقائق الخفية المجهولة عن حياة الفتاة الخاصة، وكثيراً ما تكتب الفتاة على غلاف دفتر يومياتها العبارات التالية: (يقرأ بعد موتي) أو (يحرق بعد موتي). ويبدأ ميل الفتاة إلى إخفاء وكتمان أمور حياتها الخاصة منذ السنوات القليلة التي تسبق سن البلوغ. ويتعاظم هذا الميل شيئاً فشيئاً حتى تصل الفتاة إلى درجة الانعزال التام عن كل ما حولها. فترفض أن تبوح لأحد بأسرارها، وتعتزل العالم لتتخيل نفسها ممثلة شهيرة أو شهيدة وطنية أو تكتفي باعتبار نفسها روعة من روائع الدهر.

وهنالك على الدوام اختلاف كبير بين هذه البطلة والصورة الحقيقية التي يعرفها بها أهلها وأصدقاؤها، وهذا ما يدفعها إلى الاعتقاد بأنها غير مفهومة فتزيد من عزلتها، وتتخيل نفسها مختلفة عن الآخرين، وأعلى منزلة منهم وأن المستقبل

كفيل بأن يعوضها عن ضعفها الوقتي.

إن ما يزحم مرحلة المراهقة أو بداية الشباب بالمشكلات، أنها فترة تغير فجائي في الجماعات التي ينتمي إليها الفرد، كما يذهب كورت ليفين (فبعد أن كانت المراهقة تعد نفسها ويعدها الآخرون، طفلة، أي تنتمي إلى جماعة الأطفال، أصبحت لا تريد أن تعامل على أنها طفلة، وأصبحت تحاول جدياً أن تنتزع نفسها من الأمور الطفلية، وتدخل حياة الراشدين.. والتغير في الانتماء من جماعة الأطفال إلى جماعة الراشدين، هو انتقال إلى وضع يكون من الناحية السيكولوجية مساوياً لدخول منطقة مجهولة) وهذا يعني – من وجهة نظر ليفين (دخول منطقة لم يتم تكوينها بعد من الناحية المعرفية)، فدخول جماعة جديدة بمثابة دخول مجال غير مكتمل البناء من الوجهة المعرفية.

ومما يزيد الأمور تعقيداً أن ما تتعلمه المراهقة – الشابة – من الكتب ومن الراشدين عما يجب أن تفعله يتناقض مع واقع الحياة اليومية. ولما كانت لا تستطيع أن تحمل في شبابها القيم التي حملتها في طفولتها، فإن إدراكها لمستقبلها يكون غير ثابت، مما يعرضها لصراع وتوتر يشتدان كلما كانت هذه القيم وما يترتب على الصراع بينها من مشكلات في مركز رئيس من حياتها.

وفي معظم المجتمعات المعاصرة، حيث يكون التحول من الطفولة إلى الشباب في شكل (أزمة) وبدون اتصال عضوي، فإن الفتاة تكون في موقف الشخص الهامشي، فتصبح بمعنى ما (لا منتمية)، وهو وضع يتسم بعدم الاستقرار الوجداني، والحساسية الزائدة، والميل إلى السلوك المتأرجح بين طرفين بعيدين، فهي إما تميل إلى الثورة أو إلى الخجل والانسحاب، في صراع دائم بين الاتجاهات والقيم.

72- ابني لا يريد الدراسة

أنهى ابننا دراسته المتوسطة ونجح إلى صف الأول ثانوي.

وبعد عام سيقرر فيما إذا كان سيتابع دراسته الأدبية أو العلمية.

أنا أريد أن يدرس الآداب لشعوري أن دراستها أهون من الدراسة العلمية.

فيما والدته تريده أن يدرس العلوم حتى يصبح دكتوراً أو مهندساً.

أما هو فلا يريد الدراسة ويريد احتراف أي مهنة، وعلى الأخص سائق سيارة.

إننا أمام طريق مسدود فيما ننشده من ابننا؟

صياح . ع

سأفترض أولاً أن ابنك في الرابعة عشرة من عمره. وإلى أن وصل لهذا الحد تعتبر الأم هي العامل الأول في توجيه ميول ابنها المهنية، ذلك لأن السنوات الأربع أو الخمس الأولى فترة حاسمة في تحديد السبيل الذي يسلكه المرء في حياته بعد ذلك. ويقول أدلر إنه أينما أستشير في مسائل التوجيه المهني، كان يسأل عن طلائع النشاط في الحياة، وعن ميول المرء في سنيه الأولى. كما أن ذكريات المرء عن تلك المرحلة تبين ما أعد نفسه للقيام به، وتعين السبيل الذي اختطه من قبل لنفسه من الحياة.

ويلي هذه المهمة خطوة تالية تقوم بها المدرسة، ذلك أن المدارس اليوم تعنى، أكثر من ذي قبل، بإعداد الطفل للحياة، بما تبذله من جهد في تدريب كغاياته البدنية والعقلية. هذا إلى عنايتها بالمواد الدراسية الأخرى. وليس في هذا بأساً، لأنه مهما قيل من أن المرء ينسى ما تعلم من لغات أو من علوم نظرية فإن في ذلك صقلاً وتهيئة لكفاياته العقلية. كما أن العناية بمهارته اليدوية والبدنية تزيد ثقته بنفسه وإيمانه بها.

إن الطفل يتيسر نموه لو عرف منذ طفولته، ما أعد له من مهنة في مقبل حياته، فلو أنَّا سألنا الطفل عما يود أن يكون، لأجابنا في الغالب عن رغبته، ومع

أن إجابته قد لا تكون واضحة، إلا أنه إن رغب إلينا أن يكون طياراً، أو سائقاً لقطار دون أن يعرف لذلك من علة، وجب علينا أن نتعرف على الدوافع الخفية التي تبعثه على انتقاء ذلك السبيل، وأن نتلمس غايته من السيطرة، وكيف يحاول أن يحققها. وقد لا تزودنا إجابته إلا بنوع واحد من المهن، يبدو له أنه يمثل القوة والسطوة. ومع ذلك نستطيع أن نعينه على تلمس السبل الأخرى، التي تؤدي به إلى الوصول إلى الغاية التي يبتغيها.

وفي رأي علماء النفس أن الطفل ينبغي أن يعرف، في سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة المهنة التي يعد نفسه لها. فإذا أعوزه الطموح لم يعن ذلك، أن ميوله لم تتجه بعد نحو ناحية خاصة. وإذا كانت تنقصه الشجاعة للتحدث عنها، كان علينا أن نجهد في تلمس ما يرغب فيه، وعونه على إعداد نفسه له. فمن الخير إذن أن نبكر في سؤال الأطفال عن مهنهم المقبلة وكثيراً ما يثبت أن تخير المرء لمهنته، وسيلة لتعرّف أسلوب المرء كله في الحياة، وأن هذا التخيّر يبين لنا الطريق المهم لجهاد المرء وكفاحه ولمعايير القيم التي اتخذها في الحياة. فينبغي أن نترك المرء يقوم الأمور كما يهوى، ما دمنا نحن لا نستطيع أن نقرر خير المهن أو أدناها. فإذا أدى المرء عمله في كفاية، وقام بما يجب عليه إزاء الآخرين، كان له من المكانة ما لأي واحد منهم، وليس عليه من واجب إلا تدريب نفسه للقيام بعمله والقدرة على سد حاجاته، والتوافق مع غيره في حدود تقسيم العمل. إن من الناس من يستطيعون أن يتخيروا العمل الذي يرغبون فيه، إلا أنهم لا يرضون عن أي عمل يوكل إليهم. إذ إنهم في الواقع لا يودون أداء عمل ما، بل هم يتوقون إلى وسيلة ميسورة للسيطرة والسطوة، أولئك هم من دللوا في طفولتهم فتعودوا الأخذ لا العطاء. وهناك من الناس من قد يكون لهم اتجاه خاص نحو العمل الذي أخذوا أنفسهم بالدربة عليه في الأربع أو الخمس السنوات الأولى من عمرهم، واستقر في نفوسهم الولع به، غير أن ظروفهم الاقتصادية أو رغبات أهليهم، ألزمتهم البعد عنه، وهم لهذا دائمو الشوق إليه، وإن قصر بهم الجهد عن الوصول إليه.

لهذا يدعو أدلر، ويلح في الدعوة إلى دراسة ذكريات الطفولة، حتى نستطيع على ضوئها أن نحسن توجيه الصبيان إلى ما يصلحون له في الحياة: فلو أن أقدم ما يستطيع أن يذكره الصبي حديثاً تتردد في أذنيه أصداؤه، أو ريحاً يذكر عنه حقيقة أو ناقوساً يتردد في ذهنه رنينه، لما بعدنا عن جادة الصواب، إذا هيأنا له السبيل نحو العمل في الموسيقا فلعله يبدع في النغم ويلهم في الأصوات.

كما أن من الدوافع المهمة التي تؤثر على كثير من الناس، ولع المرء بالتفوق على أعضاء الأسرة التي يعيش فيها، وخاصة بالتفوق على الأب أو الأم. ومن الخير أن نشجع ذلك الميل، الذي يؤدي إلى تقدم الناس جيلاً بعد جيل، فيدفع ابن الشرطي إلى الجلوس مجلس القضاة، وابن الممرض إلى أن يكون طبيباً، وابن المعلم أن يصبح أستاذاً.

ومن الأمور المهمة العناية بالنظر إلى أسلوب الصغار في لعبهم. فقد تبين منه رغباتهم في الحياة. فلو أن الطفل جمع الصغار، وجلس إليهم مجلس المعلم من تلاميذه، فلعله يود الاشتغال بالتعليم. وإذا توفر على تحطيم العُدد وفك الآلات، فلعل في ذلك دربة على الهندسة والصناعة.

وأخيراً، كي نجنب المرء الأخطاء التي قد يرتكبها في حياته كلها، ينبغي أن نرى إلى المشاكل أو الميول التي تتصل بميله إلى العمل خلال طفولته حتى نعينه على إصلاحها أو نرشده إلى السبيل الذي يستطيع أن يفيد فيه منها. فإن تبين من الصغير رغبة عن القيادة، وميل إلى المراتب الدنيا بين أترابه، فمن الخير أن نعمل على بث روح التفوق في نفسه وإلا فشل في مقبل حياته عن القيام بما يتطلب الرئاسة أو التنظيم، ورضي أن يكون طول عمره مرؤوساً ينفذ ما يطلب منه فحسب، دون تطلع إلى تقدم، أو رغبة في الابتكار والتجديد. وإذا تبين منه ميل إلى التكاسل أو تجنب للجد، كان علينا أن نتلمس العلة لذلك وأن نسارع إلى علاجها، قبل أن تلازمه طوال أيامه، وتؤدي به إلى فشل ذريع.

73 – الاعتداء بالضرب

لي أربعة أولاد، ثانيهم من ناحية الكبر وهو في الرابعة عشر قد أذاقني الأمرين من شكوى رفاقه له من أنه يعتدي عليهم بالضرب ويسبب لهم الأذى.

وإدارة المدرسة أرسلت لي أكثر من مرة تلفت انتباهي إلى هذا الأمر.

علماً أن ابني في البيت هادئ ويسمع أوامري بدقة ولا يرد لي طلب؟

ابراهيم . ح

لفت انتباهي برسالتك أن ابنك يسمع (أوامرك) بدقة، ومن هنا سيكون بداية تحليلي لنفسيه ابنك. لا شك أنك مارست مع ابنك سلاح العقاب بكثرة حتى أصبح يسمع أوامرك، وهذا سلاح ذو حدين، فهو من ناحية يجعله يكف عن العدوان، ومن ناحية أخرى يعطيه نموذجاً للسلوك العدواني الذي يحتمل أن يقلده في مواقف أخرى. وهذا جعل ابنك الذي يعاقب في البيت أكثر عدوانية في المدرسة، فالعقاب الذي يقمع العدوان في البيت يزيده خارج البيت لأنه يعلم الولد ألا يعتدي في البيت تجنباً للعقاب، ولكنه في الوقت نفسه يتعلم من خلال ملاحظته لمن يعاقبه كيف يعتدي خارج المنزل؟

وقد أتضح لبعض العلماء أن الإنسان يتعلم الكثير من أنماطه السلوكية عن طريق مشاهدتها عند غيره، وتسجيلها في عقله على شكل أحداث حسية أو استجابات رمزية، يستخدمها إما في تقليد السلوك أو في الحصول على المعلومات التي تمكنه من إتيانه في مواقف أخرى. وفي ضوء نظرية التعلم بالملاحظة افترض (باندورا) و(روس) عام 1963 أن الأطفال يتعلمون سلوك العدوان عن طريق ملاحظة نماذج العدوان عند والديهم ومدرسيهم وأصدقائهم، وفي أفلام التلفاز والسينما، وفي القصص التي يقرأونها، والحكايات التي يسمعونها، حيث يحصلون إما على نماذج السلوك العدواني، التي يقلدونها، أو يحصلون على المعلومات التي تمكنهم من الاعتداء على أنفسهم أو على الغير.

كما تبين أن سمة العداوة في الطفولة والمراهقة تنمو من التفاعل بين عوامل فطرية وعوامل بيئية: فقد تبين من دراسات كثيرة أن بعض المجرمين من أسر ينتشر فيها العدوان، وأن العنف عند بعض الأشخاص مرتبط بتكوينهم الجسمي أو اضطراب غُددهم الصماء أو خلل في كروموسوماتهم الجنسية أو تلفيات في خلايا المخ عندهم، وتدل هذه النتائج على وجود عوامل فطرية للعدوان، وتبين من دراسات أخرى أن الأشخاص أصحاب سمة العداوة العالية، تعرضوا في طفولتهم لخبرات الحرمان والإحباط والقسوة والنبذ وعدم التقبل، وأن كثيراً من المجرمين من بيئات متخلفة ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً ينتشر بينهم العدوان والإجرام، وتدل هذه النتائج على وجود عوامل بيئية للعدوان.

وعلى الرغم من تداخل دور كل من العوامل الفطرية والعوامل البيئية في تنمية سمة العداوة، فإن معظم الباحثين متفقون على أن دور العوامل البيئية أكبر من دور العوامل الفطرية في تنميتها. فالظروف البيئية مسؤولة – إلى حد كبير – عن تنمية سمة العداوة أو عدم تنميتها عند الإنسان. ولا تعني سمة العداوة العدوان، ولكنها تدل على احتمالات ظهور العدوان في المواقف المختلفة. فالأشخاص أصحاب سمة العداوة المنخفضة لا يغضبون بسرعة ولا يثورون بسهولة، ولا يعتدون إلا إذا وجدت مثيرات حقيقية للعدوان دفاعاً عن النفس والعرض والمال والدين، كما أنهم يميلون إلى الصفح والتسامح مع من أساء إليهم ولا يحبون الانتقام. أما الأشخاص أصحاب سمة العداوة العالية فعلى العكس من ذلك يثورون بسهولة ويغضبون بسرعة، ويعتدون على أنفسهم أو على الآخرين ظلماً وعدواناً، ويدركون مثيرات العدوان في مواقف كثيرة ويحرضون غيرهم على العدوان ويشاركونهم فيه باستمتاع، وكأنهم يمارسون هوايتهم المفضلة ولا يتحملون الإحباط، ويعتدون على مصدر إحباطهم، وإذا لم يتمكنوا وجهوا عدوانيتهم للانتقام من أي شخص آخر، وقد ينتقمون من المجتمع كله كما يحدث من السفاحين وذوي الإجرام.

يبقى أن نشير أن البعض يذهب إلى أن الإنسان يتعلم سلوكه بالثواب

والعقاب، فالسلوك الذي يثاب عليه يميل إلى تكراره، والسلوك الذي يعاقب عليه يقلع عنه. وينطبق هذا التفسير على سلوك العدوان، فالإنسان عندما يتورط في العدوان لأول مرة بالمصادفة، إذا عوقب عليه كف عنه، وإذا كوفئ عليه كان أميل إلى تكراره في المواقف المماثلة. وتأيد هذا التفسير في الدراسات التي أجريت في مختبرات علم النفس، ووجد أن مكافأة الطفل على عدوانه ينمي العدوانية عنده، حتى ولو كانت مكافأته غير منتظمة: فيكفي تدعيم العدوان مرة واحدة حتى يرسخ، ويصعب تعديله بعد ذلك.

كما أن بعض الباحثين استنتج في ضوء تفسير (سكنر) أن معاملة الآباء لأبنائهم في مواقف العدوان هي المسؤولة عن تعليمهم العدوان، فالآباء الذين يشجعون أبناءهم في مواقف العدوان – صراحة أو ضمنياً – يقدمون لهم المكافأة التي تدعم سلوكهم العدواني وتنميه، وتجعلهم يكررونه في مواقف كثيرة. وقد تأيد هذا الاستنتاج في دراسات كثيرة، حيث وجد أن آباء المراهقين الجانحين كانوا يشجعون أبناءهم على المشاجرات والانتقام، ويدفعونهم للحصول على حقوقهم بالقوة والعنف، بينما كان آباء المراهقين غير العدوانيين لا يشجعون أبناءهم على العدوان إطلاقاً.

مما طرحناه يمكنك الاستنتاج كيف كانت معاملتك مع ابنك وبأي اتجاه سارت حتى كانت الصورة التي تراها الآن.

74 – الخوف من الناس

ابني في الرابعة عشر من عمره.

ألاحظ عليه الخوف كلما كان بين الناس.

اسأله عن سبب ذلك فيرد عليّ بأنه لا يشكو من شيء.

وأراني حيرة من أمري.

لهذا كتبت إليك علني أقرأ تحليلك.

وفاء . ك

على ابنك إن يتمكن بمجهوده الإرادي، لوجود شهود ونظارة وأشخاص من حوله، من التغلب على دافع الخوف الذي يحول بينه وبين شيء يرغب فيه، وبذلك يتغلب بهذا المجهود على دافع الخوف، لأنه يعرف أن هناك أناساً ينظرون إليه، أعني أن دافع الإعلان عن ذاته ينبعث لتأييد الدافع الضعيف، وهذا ينطبق بالذات على الجهود الأخرى التي تبديها الإرادة حين تحتجب عملية هذا الدافع وتختفي عن الأنظار والناس.

ومن ذلك يتبين لنا أن التقدم الخلقي ونمو الإرادة لا يرجعان إلى عوامل من نوع جديد لا عهد لنا به، سواء سميناه الإرادة أو الضمير، ولكنه يأتي من نمو عاطفة الإحساس بالذات وتهذيب المتحف الذي نعرض فيه أنفسنا، أو الدائرة الاجتماعية القديرة على إيقاظ هذا الشعور فينا، وقد يظل هذا التهذيب مستمراً حتى يصبح هذا المتحف شاهداً خيالياً أو جماعة من الشهود والنظارة، أو في النهاية نفسنا ذاتها النقّادة اللوّامة النائية عن أولئك الشهود من الناس.

إن البعض يقول إن هذا التعليل من شأنه أن يجعل كل إنسان يؤدي هذا المجهود الأدبي متعجرفاً مغروراً أخا زهو وكبرياء، وجوابنا أن الإنسان الطيب يفعل عادة ما يراه حقاً وصواباً ويحكم عليه هذا الحكم من نتائجه الاجتماعية، غير حافل بأثره في نفسه أو في نفوس الآخرين، وهذا هو جوهر الأخلاق الصحيحة ولبابها،

وأما الاهتمام والتأثر بما قد يوحى به إلى النفس أو إلى الناس فهما مظهرا الكبرياء والزهو.

وشعور الإنسان بالذات هو بطبيعته ومردّه وأصله شعور ذاتي في صلاته وعلاقته الاجتماعية، ولأن الأمر لا يخلو مطلقاً من صلة ولو غامضة خفية بالجماعة. ولكن هذا النوع من الإرادة هو على كل حال أثر من نمو عاطفة الإحساس بالذات تحت مؤثرات اجتماعية، وإن جعل صاحبه مستقلاً في تصرفه عن وسطه وبيئته.

وأكثرنا يبلغ في شعوره هذا المبلغ رويداً، فتبدأ عاطفة إحساسنا بالذات تتأثر وشيكاً بشعور كل إنسان في وسطنا، وتحس بإحساس الوسط في جملته، ثم لا تلبث أن تتبين أن الأشخاص والأوساط تتباين في نظرها، وتختلف في تقديرها للسلوك الواحد، والأخلاق المتماثلة، فنتعود السخرية من آراء الناس واحتقار تقدير الجمهرة، ونعتد بذاتنا، ولا نرتضي غير أحكامنا الشخصية على أفعالنا وتصرفاتنا، وإذا بتقديرنا لأنفسنا، الذي كان في بداية حياتنا، عرضة للتقلب والتراوح مع كل احترام عابر من ناحية الناس لنا، يصبح ثابتاً مستقلاً هوناً ما.

ولعل أكثرنا قد بلغ بهذا مرحلة تكون فيها عاطفة إحساسنا بالذات وانفعالاتنا هي النفس في صلتها بجماعة مختارة من الناس تفكر مثل تفكيرنا وتشاركنا في مشاعرنا الأدبية وأحاسيسنا، ونستمد منها أغلب آرائنا وخواطرنا، فلا عجب إذا نحن في إقدامنا على عمل ما نتأثر بهذه الجماعة الخاصة.

وينطبق هذا كله على النفس، لا من نواحيها الأدبية فقط، بل من سائر نواحيها الأخرى. ومن أكبر المزايا التي تتوافر للناس حين يبلغون تمام النمو أنهم لا يعانون الفرح والإذلال اللذين كانوا يعانونهما كثيراً في بداية الحياة وأدوار الشباب حين نواجه اعتبارات الاستحسان والاستهجان سواء الصريح منها والمتضمن، والظاهر منها والخفي.

إن تأثير الإرادة في نفوسنا إنما يقع من الإعجاب الذي يتملكنا من ناحيتها،

وإن هذا الإعجاب الذي يجعلنا نستجيب لآراء الناس، ونتأثر بقدوتهم ومثالهم ومشاعرهم وأحاسيسهم، قد يكون في الغالب ممتزجاً بالخوف أو الانفعال المركب الذي نسميه (الرهبة)، وإن هذا الانفعال قد يختلط أيضاً بانفعال الحنو فيجعله أقرب إلى الإجلال، فلا يلبث سلطان أولئك الأشخاص أنفسهم أن يصبح أقوى وأبلغ أثراً من قوة الدوافع ذاتها التي يثيرونها لدينا.

وبالنسبة لابنك تبدو المرحلة التي لم تتم فيها نمو شخصيته قد كانت من الفعل الذي يأتيه أو الأسباب التي تحمله على تأدية غاياته كثيراً مما تتباين أو يتعارض بعضها مع البعض الآخر، ولكن هذا الاختلاف لا يلبث أن يتلاشى إذا استكملت الشخصية نموها وتولت الرقابة على سائر النزعات والدوافع قوة واحدة، ودافع قوى غلاب لا قاهر له، ونفى به (استكمال الشخصية) الذي يرسمه المرء في سائر أفعاله واتجاهاته.

75- بين الابن والأب

عندي خمسة أولاد.

لي ابن بين الرابعة عشر والخامسة عشر من عمره.

أحياناً وأنا أسدي إليه بالنصائح أرى في عينيه ما يوحي إليّ أنه يريد الانقضاض عليّ والفتك بي. فعينيه لا تحيدان عن عيني وهو مأخوذ بي.

اسأله ما به فيرد عليّ أنه لا يشكو من شيء.

ترى ما سبب هذه الحيرة؟

تيسير. ظ

غالباً، حين يكون هناك عدة أطفال في العائلة تتسع عقدة أوديب وتصبح عقدة عائلية. وعندما يكبر الأولاد قد يتخذ الولد أخته كوسيلة لحبه، مستبدلاً بها أمه التي لم (تخلص) له. أما البنت الصغيرة فقد تأخذ أخاها الأكبر منها سناً بديلاً عن والدها، الذي قد تتضاءل عاطفته نحوها بمرور السنين، أو ربما تتخذ أختاً صغيرة لها كبديلة للطفل التي رغبت عبثاً في أن تحصل عليه بواسطة والدها. وعلى وجه العموم، وإلى جانب الخصائص التي تم ذكرها، يكون الوالد في هذا الوقت، وبأي حال من الأحوال، حرماً ولعنة على الابن. فالأب يشمل جميع القيود الاجتماعية والمتطلبات التي يخضع الابن بتمنع شديد. وهو يغل أيضاً إرادة الابن لذاته الجنسية الباكرة، والتمتع بأي شيء تملكه العائلة مهما كان نوعه، وإذا ما اشتملت الغنيمة على عرش، فالابن يتوق إلى موت الأب بفارغ الصبر.

أما الابنة فلا تكون غارقة في حب أمها، لأن الأم في بعض الحالات تكون منافسة للابنة ولا تريد أن يحل محلها أحد. وهي تمثل في نفس الوقت السلطة التي تقيد حرية الابنة الجنسية وتفرض عليها القيود والموانع الاجتماعية وغيرها من الحدود.

يعلل فرويد أسباب زوال عقدة أوديب في العاديين من الناس أو العاديين

نسبياً منهم، بعرض وجهتي نظر في الموضوع: الأولى هي أن الاختبارات المؤلمة هي التي تقضي عليها. فالصبي يكتشف أن أمه تحول حبها وعنايتها له إلى مولود جديد. أما البنت الصغيرة فعليها أن تتحمل الفتور التدريجي لعاطفة والدها نحوها ولاهتمامه بها. وحتى عندما لا يكون هناك احتمالات كهذه، فإن الوضع ذاته (أي علاقة الطفل الجنسية بوالديه) يلازمه شعور بالخيبة والإخفاق، إن لم يكن لسبب آخر سوى أن الأطفال الذين عليهم أن يمروا بأطوار نمو مرسومة ومقررة وراثياً محتماً عليهم أن ينبذوا ويحلوا العلاقة الأوديبية عندما يصلون إلى درجة معينة في تقدمهم نحو البلوغ والنضوج، تماماً كما يفقدون أسنانهم الأولى.

ويجد فرويد أن كلاً من الرأيين يتقبل وجود الآخر، فكل واحد منهما يحتوي على شيء من الحقيقة، فالواحد يعبر عن الناحية المتعلقة بنشوء وتطور الأفراد، والآخر يعبر عن تاريخ الجنس ونشوئه. وحين يرى الصبي أعضاء الأنثى التناسلية يصبح مقتنعاً بأن التهديد بالإخصاء هو حقيقة واقعة، وبأن امتلاكه للأم من شأنه أن ينطوي على فقدانه العضو التناسلي. وتثير هذه الفكرة صراعاً ينتهي عادة بارتداد الطفل بعيداً عن عقدة أوديب، أي بعيداً عن تعلقه الشهواني بأمه، ويتخلى عن هذا التعلق بمساعدة الكبت أو التسامي أو التعرف على ماهيته (التقمص) وهي عملية بأكملها من شأنها أن تبقي على العضو التناسلي وأن ترد عنه خطر فقدانه من جهة ومن الجهة الأخرى تجرده من وظيفته وتشل عمله.

يدخل الصبي – بانقضاء عقدة أوديب – في فترة الكمون التي تنتهي بالبلوغ. وأكثر الاختبارات العقلية والتهيجات التي تحدث قبل ذلك الوقت يطويها النسيان. ومنذ نهاية السنة الرابعة تنشأ تشكيلات مضادة – تحصينات نفسية – كالخجل، والقرف، والأخلاق التي من شأنها أن تعمل كحواجز ضد النشاط الجنسي فيما بعد. ويحدث تباطؤ، إن لم يكن تراجعاً أو نكوصاً في التطور الجنسي. ومع أن التربية تساهم كثيراً في ظهور هذه القوى النفسية إلا هذا التطور إنما يقرره التركيب العضوي، وقد ينشأ أحياناً بدون مساعدة التربية.

يبقى أن نشير إلى أن أهمية عقدة أوديب لا تزول بأي حال من الأحوال في سن البلوغ. وفي هذا الوقت عندما تكون الغريزة الجنسية تحاول تأكيد مطاليبها بالقوة والعنف اللذين تتصف بهما شهوة المراهق، عندها تصبح الوسائل الأصلية لرغبته الجنسية – أي الوالدان – وسائل لطاقته الجنسية (اللبيبدو) مرة أخرى. ولا بد للفرد الآن من تحرير نفسه من الوالدين واكتشاف (وسيلة غريبة عنه) يكون في استطاعته حبها. فعندها، وعندها فقط – على حد قول بولين – يمكن التخلي عن الشؤون الصبيانية، واتخاذ مكانه كعضو بالغ في المجتمع. ولا بد للابن الآن من أن يتصالح مع والده، وإذا ما كان قد أصبح عن طريق مقاومته الطفولية خاضعاً لسيطرة الأب، فلا بد له من تحرير نفسه من السيطرة. وبالطبع، على الابن أيضاً أن يحرر رغباته الجنسية من الأم، والابنة من والدها. وفي حالة فشله في أي منهما فإن ذلك ينطوي على إصابة شخصيته بالشلل والعجز. وإن الأشخاص العصابيين هم أولئك الذين لم يتمكنوا قط من تحرير نفوسهم من والديهم أو ممن ينوب عنهم، بل ظلوا مرتبطين بهم إلى حد قليل أو كثير. وهكذا فإن الصبي الصغير يظهر في بعض الأحيان حنواً شديداً لوالده. ولهذا السبب، إلى حد ما، تعتبر وجهة نظره معبرة عن (تناقض وجداني متكافئ) هو مزيج من ميول الحب والخصومة والعداء التي سوف تبقى في اللاوعي فيما بعد بصورة دائمة. ومهما يكن من أمر فإن تكافؤ الضدين هذا يظهر في الصبي مبكراً، أي في الدور الفمي – السادي، ويبدو واضحاً للعيان في الدور الذي يليه، أي في الدور الاستي – السادي.

76- ابـنـي والعادة السرية

يبلغ عمر ابني الخامسة عشر وأربعة أشهر.

بدأت ألاحظ عليه طول مدة مكوثه في الحمام.

وحين يخرج ينام نوماً عميقاً.

تكررت ملاحظاتي له في ذلك.

لا بل إنه يغلق باب غرفته بالمفتاح على نفسه ويبقى الساعات الطوال قابعاً فيها، ويمكث بعض الأحيان في الظلمة.

كيف تحلل هذه الظاهرة؟

نجلاء. ك

ابنك في سن (اليفاع) وهي أهم مرحلة وأخطرها في نمو شخصيته فيما التحول الجنسي ليس إلا جانباً من جوانب التحول الكثيرة التي يعانيها جسد الطفل وروحه في هذه المرحلة. ويستمر سن اليفاع الجسدي في بلادنا من سن الرابعة عشرة إلى سن السادسة عشرة عند الغلمان ومن سن الثالثة عشرة إلى سن الخامسة عشرة عند الفتيات بينما النمو النفسي يبدأ في سن العاشرة أو الثانية عشرة ويستمر حتى سن الثانية عشرة أو الثانية والعشرين. ولقد جرت العادة بتقسيم سن اليفاع إلى فترتين: فهناك فترة اليفاع الحقيقية التي تستمر تقريباً حتى السابعة عشرة وهناك فترة المراهقة. وهذا التقسيم صحيح من الناحية النفسية بسبب الانقلاب الذي يحدث في موقف الأطفال من أنفسهم ومن العالم الخارجي. ويمثل هذا الانقلاب الانتقال من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية لأن موقف الطفل في مرحلة اليفاع سلبي بينما يتفتح المراهق على الحياة بفيض من الفرح والغبطة.

ويقسم (أوسفلد شفارتس) الحياة الإنسانية إلى ثلاثة أقسام: الطفولة والنضج والكهولة. ويتخلل هذه المراحل فترتا انتقال هي اليفاع وسنوات اليأس - أي التحول الذي يحدث في سن اليأس خاص بالنساء وله مقابل عند الرجال ولكنه يختلف عنه

في طبيعته ومغزاه. وفترتا الانتقال هما فترتا وداع، إذ يودع الطفل في فترة اليفاع طفولته كما يودع الحياة الهادئة تحت حماية الآباء. أما فترة اليأس فهي انتقال النساء من الحياة النشيطة واستقبال حياة الشيخوخة. وإذا كانت المرأة تودع بهدوء وبكرامة حياتها المنسجمة المليئة بأسباب الرضى وتستعد لاستقبال جمال الخريف المشمس فترة اليفاع صاخبة أليمة. ويمكن القول بأن مرحلة اليأس إذا كانت شاقة تتخللها مظاهر الضعف الجسدي والعقلي فهي بهذا حالة فرضية بينما إذا كانت مرحلة اليفاع عند الطفل صاخبة فإنها تبدو فاتحة خير بالنسبة لشخصية الطفل.

وابنك في خلواته بدأ يمارس العادة السرية، وبالنسبة له يمكن تهدئة مختلف انفعالاته، كالاعتزاز بالنفس والهم والفرح والتعاسة تهدئة جسدية عن طريق العادة السرية. كما أن هناك فتيان يكافئون أنفسهم على اتمامهم لعملهم أو يعزون أنفسهم عن حادث محزن بالتمتع بلذة العادة السرية.

وتهدف هذه العادة في صورة أخرى، إلى تهدئة كل ضرب من التوتر الجنسي. تلك هي حال الفتيان الذين يتعزون بواسطة هذه الممارسة عن شعورهم بالوحشة. وهناك بعض الأشخاص يمارسون العادة السرية في حالة الأرق أملاً في النوم. فيحاولون بذلك التخلص من التوتر العقلي الذي يحول بينهم وبين النوم بواسطة هذا الاسترخاء التناسلي.

ويستعمل شفارتس تعبير الاسترخاء (التناسلي) لا (الجنسي) وذلك لأن العملية تتم خارج ميدان الحياة الجنسية ولأن المتعة الجنسية ضئيلة لا يصحبها أي شعور باللذة، بل يبدو الفعل مملاً ولكنه ضروري. وليس هذا المسلك بالمسلك المرغوب فيه لأن على الفتيان أن يدركوا بأسرع ما يمكن أنه يجب عليهم أن يحملوا أنفسهم على العمل وأن لا يبحثوا عن تهدئة أعصابهم إلا بالطرق السوية. وليست العادة السرية في ذاتها مناقضة للطبيعة أو مضرة، فإذا ما بالغ الفتى في ممارسة هذه الوسيلة للفرار من الواقع دل ذلك على أن خلقه مريض.

لا شك أن وصف العادة السرية بأنها لذة أنانية يبتعد بنا عن صميم المشكلة.

ويمكن تطبيق هذا التعريف على حالات نادرة نسبياً تكتفي فيها العادة السرية بأن تكون عملية تهدئة تناسلية. أما في سائر الحالات فيجب القول بأن الوجود الإنساني يتصل بواسطتها عن طريق الخيال بوجود إنساني آخر. وهذا ما يفسر كون العادة السرية شكلاً حقيقياً – وإن كان غير تام ولا كاملاً من أشكال الحياة الجنسية. كما أن العلاقة بين الشريكين تظل خيالية صرفة ولهذا كانت العادة السرية في منتصف الطريق بين (الحياة الجنسية الذاتية) عند الطفل وبين (الحياة الجنسية مع الآخر) عند البالغ.

تثير الرغبة الجسدية صوراً عقلية جنسية فتؤدي هذه الصور بدورها إلى ممارسة العادة السرية. ومنذ هذه اللحظة فقط تصبح هذه الممارسة فعلاً جنسياً حقيقياً وإن كان لا يزال بدائياً. وتمثل هذه الصور العقلية، تارة، نساء، وتارة أخرى مشاهد يقوم الرجل فيها بدور فعال أو أنه ينظر إليها نظرة المشاهد فقط. ويمكن أن تكتفي هذه المشاهد بتصوير تجارب الرجل في الماضي أو مغامرات شاهدها في دور الخيالة أو قرأها في القصص، وأما البطلات الرئيسة فهن نساء عرفهن الغلام أو نساء بعيدات لا يستطيع الوصول إليهن. وتحتوي هذه المغامرات الخيالية على الممكن والمستحيل. وأكبر نفع للعادة السرية هنا هو زوال الحدود الذي يتيح للخيال أن ينغمس في أغرب مظاهر الإباحية. ويجب أن نشير هنا إلى أن الغلمان لا يشركون في هذه المشاهد التي يحتلها الخيال الفتيات اللواتي يحبونهن في الحياة الواقعية. إذ يشعرون بأنهم يلطخون بذلك طهارة عواطفهم الوليدة. والسبب الحقيقي هو أنهم لم يتموا بعد صهر الحياة الجنسية في الحياة الانفعالية ولم يصبح بعد موضوع حبهم باعثاً جنسياً حقيقياً.

ويروى عن غلام من عمر ابنك اعتاد أن يرى نفسه في الخيال مرتدياً لباس السهرة المتلالي، وهو يمسك بكل يد سوطاً وسط حلبة السيرك بينما تدور عدة نساء حوله تحت ضربات السوط الذي يدفعهن إلى الجري السريع. ثم يأخذ بممارسة العادة السرية تحت وقع هذه الأخيلة ويستسلم للنوم بعد ذلك وهو راض. ويمكن أن

نتساءل عن الحاجة التي أشبعها وما هو سبب هذا التوتر الذي هدأ بعد ممارسة العادة السرية؟

هذا التوتر هو شعور برجولته الناشئة في معناها الجنسي وفي معناها العام. ذلك أن هذا الشعور يظهر في هذه السن بصورة الرغبة في السيطرة. ونحن نستطيع القول بأن كثيرين من الرجال يحتفظون بهذه العقلية حتى نهاية حياتهم.

77- بين الضرب والشتم

من ضمن أولادي الخمسة هناك فتاة في الخامسة عشرة وفتى في السادسة عشر.

خناقاتهم لا تتوقف.

إذا أخطأت ضربها، وباعتبارها أضعف منه تشتمه.

نحاول أن نقيم هدنة بينهما ولكنها لا تصمد تجاه مشاكساتها.

يسر. ق

يلجأ الذكر إلى المشاجرة وتبادل اللكمات حين يتعرض للإساءة أو إلى أية محاولة لإذلاله وإخضاعه، فهو لا يسمح بالتجاوز عليه من قبل الآخرين، والعنف هو الدليل الحي الذي يبرز فيه شخصيته وإرادته. ولا شك أن رفض العنف بشكل جذري يعني رفض كل حقيقة موضوعية والانحباس في الشخصية الخيالية، وإن الغضب والثورة اللذين لا يتجسدان في العضلات يظلان ضرباً من ضروب الخيال. إنه لحرمان مخيف أن لا يستطيع الإنسان تسجيل خفقات وضربات قلبه على سطح الأرض.

وفي ذلك يتخذ العالم بالنسبة للمراهق وجهاً يختلف عن العالم الذي تعيش فيه المراهقة حيث تحرم عواطفها من كل فعالية آنية. ويولد هذا الضعف الجسماني لدى الفتاة شعوراً بالنقص يجعلها بصورة عامة خجولة منكمشة على نفسها، فهي لا تؤمن بقوة جسمها التي لم يتسن لها ممارستها ولا تجرأ على القيام بأي عمل من أعمال المبادرة فلا تثور ولا تبتكر بل تترك نفسها في عالم يسوده الاستسلام والخضوع. إنها تقبل نظام الحياة المفروض عليها كما هو دون أي تغيير أو تبديل.

تقول سيمون دي بوفوار أنه قد أتيحت لها فرصة التعرف إلى فتاة شابة تلقت تربية الرجال وكانت تتمتع بقوة جسمانية استثنائية وكانت تعتقد أنها تماثل الرجال قوة واقتداراً. وعلى الرغم من أنها كانت جميلة وأن العادة الشهرية كانت تعرضها

شهرياً لشتى الآلام العنيفة، فإنها لم تكن تعي أو تسلم بأنوثتها، فكانت تتصرف بنفس العنف والاندفاع وتقوم بنفس الأعمال التي يقوم بها الشباب ولم تكن تتردد في الدخول في مشاجرات على طريقة الصبيان. لكن تجربتين مؤلمتين تعرضت لهما في تلك الفترة كانتا بالنسبة إليها دافعاً لكي تسلم وتؤمن بأن القوة هي بجانب الذكور فانهارت ثقتها بنفسها حين اضطرت إلى الاعتراف بقوة الذكور، وكان هذا بداية عهد جديد تطورت خلاله نحو حالة الأنوثة والسلبية وقبول صلة التبعية.

في المرحلة التي يجتازها ولديك يكون من الطبيعي أن تكون الغيرة والمشاكسة من نصيب الأولاد الأقرب إلى أعمار بعضهما البعض نظراً لتقارب سنهما ولأنهما يجتازا أزمة واحدة ألا وهي العبور إلى مرحلة الشباب، وانعكاسات ذلك على نفسيتهما. وباعتبارهما يريدان أن (ينفسا) عن هذه الأزمة يكون الولد (الأكثر عنفاً) في ذلك نتيجة لطبيعة تربية الذكر في مجتمعنا. ولهذا تستثير التغيرات التي يأتي بها النمو انفعالات الغيرة والحسد نتيجة للفروق بين الشباب في ملامحهم الجسمية وقدراتهم الجنسية، مثلا. وقد يعمد بعضهم إلى سلوك (تعويضي) سوي أو غير سوي يخففون فيه من شعورهم بالنقص بالنسبة إلى غيرهم.

تبدو المرحلة التي يجتازها ابنك وابنتك في الوقت الحاضر في نظرك فترة نقص في الشعور، بالمسؤولية وممارستها، وتمرد، بل وثورة تتجه إلى الهدم لا البناء. ولهذا فإن الناحية الاجتماعية عندهم، تتسم بنوع من (الهامشية) فيما يخص أسرهم وأقربائهم. ذلك أنهم تخطوا مرحلة الطفولة ويحرصون على نفي انتمائهم إليها، ولكنهم لم يقبلوا بعد كأعضاء كاملي العضوية في جماعات الكبار.

ثمة ملاحظات على مرحلة الشباب، أولها، مرحلة تغير جذري – كمي ونوعي – في ملامح الشخصية، تتسم بالأهمية القصوى. وثانيها، مرحلة تغير سريع متلاحق لا يترك لبعض الأفراد فرصاً كافية لإعادة التنظيم والتكيف. ومن ثم فهي فترة يضطرب فيها اتزان الشخصية، ويرتفع مستوى توترها بحيث تصبح معرضة للانفجارات الانفعالية المتتالية وتختل علاقاتها الاجتماعية بأعضاء الأسرة

وأصدقاء المدرسة. ومن ناحية ثالثة، عملية غير بسيطة، وإنما تتميز بدرجة عالية من التعقيد والتشابك، تتداخل فيها عوامل جسمية ونفسية واجتماعية وحضارية عديدة، تلعب – بشكل أو آخر – دوراً حاسماً في تحديد مسارها وما يترتب عليها.

إن ذلك يدعونا إلى أن نعتبر مرحلة عمر ولديك مرحلة أزمة، والأزمة هنا على الأقل، لا تعني الكارثة بالضرورة، بل هي لا تعني ذلك على الاطلاق – ومثل هذا الفهم هو الذي يدفع البعض إلى رفض فكرة الأزمة، الأزمة – بعكس ذلك – تعني مشكلاً، أي تنطوي على مشكلات إلى درجة تدعو إلى الاهتمام، وربما بعض القلق.

لا نستطيع أن نقدر حدة هذه الأزمة بدقة وسهولة، بيد أنها بالقطع ليست هينة. فبالرغم من الهدوء النسبي الذي تكون به العلاقات بين ابنك وابنتك في مواقع عامة، فإن ثمة شيئاً يجري تحت السطح. وما الضرب والشتائم والسلوك غير الاجتماعي بينهما سوى مؤشرات على ذلك. فمعظم الشباب في مجتمعاتنا يعانون: بعضهم يعانون في هدوء أو صمت لا يكشف عن أزمتهم غير الأطباء النفسيين، أو أجهزة الشرطة والقضاء، أو بعض المربين ذوي البصيرة، والبعض الآخر تدفعه المعاناة إلى (الخناق) أو التمرد، وقد تدفعه إلى الثورة...

78- الحنو الأبوي

أنا فتاة في الخامسة عشرة، طالبة في الصف العاشر.

لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى ما أرى من والدي من حب وتفاني.

في أدبياتنا يقال الأم المثالية وأنا أقول الأب المثالي والأم المثالية.

كيف تحلل الحنو الأبوي؟

لمى. خ

يمكننا تعريف الحنو الأبوي بأنه باعث جميع العواطف والدوافع الخيرة الكريمة في الإنسان، وهي التي تتغلغل في كل عاطفة يمكن أن تسمى الحب. ولو تتبعنا مراحل تطوّر هذه الغريزة في الحيوانات العليا لوجدنا عند بعض أنواع القردة أعجب مظاهرها وأغرب صورها، فإن الأم قد تحمل صغيرها على ذراعها بغير انقطاع عدة شهور غير تاركته ينفلت منها، أو ينزل عن ذراعها، في مختلف حركاتها وسكناتها، وسيرها وتنقلها، وليست هذه الغريزة عند فريق من الأمهات البشريات بأقل قوة منها عند الحيوانات، ولكنها بلا ريب تهذب وتنظم وتستحيل إلى عنصر جوهري كبير الأثر في تكوين الحب الأبوي، ولا يختلف الإنسان عن الحيوان في اعتماده على هذه الغريزة في حفظ النوع واستدامة العيش وتهذيب الحياة وضمان الرفاهية، فهي تبعث على التضحية، ويدفع إلى إنكار الذات وارتضاء المشاق والمتاعب في سبيل تنشئة الصغار وتربية البنين.

يذهب فريق من العلماء إلى نسب الحنو الأبوي إلى اللذة المتكررة التي يشعر بها الفرد من اختلاطه بالأولاد ولكنهم لم يشرحوا لنا سر اللذة المقترنة بهذا الاختلاط، فيما يقول آخرون إن مرجعها هو إلى توقع الآباء العناية والحنو من الأبناء في شيخوختهم. بيد أن هذا التعليل وأشباهه هو محاولة تجريد الغريزة الأبوية من الغيرية وإنكار الذات، والقول بأنها ناشئة من اهتمام خفي في أعماق الإنسان بلذاته الذاتية وراحته الشخصية.

لكن.. لو صح أن انفعال الحنو وعاطفة الحب ناشئان حقاً من أنانية خفية كهذه لكان حب الأولاد لآبائهم أقوى كثيراً من حب الآباء لبنيهم، لأن الطفل يظل سنين طوالاً بحاجة إلى أبويه في إشباع كل رغبة لديه، وإرضاء كل أمنية وسد كل حاجة يتوق إليها.

وغالب الظن أن الحب الأبوي سيظل لغزاً لا يحل إذا لم نسلم بأن هذا الانفعال متأصل كغريزة قديمة ذات أثر حيوي بالغ في نشأة البشر وارتقائهم. وقديماً حار الأخلاقيون في روما حين رأوا الأبناء في عهود الاضطهاد يرتضون التبليغ عن آبائهم، ولم يروا أباً سولت له النفس يوماً التبليغ عن فلذة كبده.

الحنو الأبوي لا يوصف ولكن يحس، ولا يستطيع شخص لم يجربه أن يدرك مبلغه أو يفهم كنهه وصفته، إلا إذا استطاع الأعمى أن يفهم اختلاف الألوان. وهذا هو مصداق ما يقوله الآباء للشباب، والعزاب حين يعجبون لمبلغ تفاني الوالدين في أبنائهم على فرط العناء الذي يجدونه من هذا التفاني.

علينا ألا ننسى ما يتصل بالحب من الغيرة الجنسية والحياء والانزواء عند الإناث، فقد كان ذلك كله موضوعاً خصيباً تناوله القصصيون في قصصهم التي صوروا فيها أروع صور البطولة ولمسوا بها أدق الأحاسيس.

ويجب الإقرار هنا أن غريزة الأبوة من أفعل العوامل في نظام الجماعات. وعلى الأخص ما كان منها يدين بالديانات السماوية والبوذية. وإن كان فريق من الكتّاب يميلون إلى رد نزاعات الإحسان وإيتاء الخير المتمكنة من هذه الجماعات إلى تعليم هذه العقائد وروح الرفق التي شاعت فيها، ولكن الواقع أنه ليس ثمة ضمانات اجتماعية ولا تعاليم دينية يمكن أن تثير نزعات البر والإحسان في نفوس قوم من الأقوام إذا كانت عقولهم مفتقرة إلى هذه الغريزة، لأن أمثال هذه العوامل والمؤثرات لا تتسلط كثيراً على النزعات المستمكنة من النفوس، وإنما تظل ضعيفة السلطان على مظاهرها المختلفة وأفاعليها المألوفة. وليس انتشار هذه الأديان وأشباهها وقبول الناس لتعاليمها إلا دليلاً على أنها تستجيب لعنصر عام يشمل

البشرية جمعاء، وهو عنصر الأبوة، أو غريزة الأمومة على التحديد، فإن هذه الغريزة لا تشبه غريزة النسل في قوتها الغامرة إلا في بدايتها حين تتجلى حماية الأم لطفلها الصغير، أما بعد ذلك فهي تنمو أو تضعف تبعاً لقوة العادات وفضل التعاليم والتدريب. ولهذا رأينا فروقاً عظيمة بين مختلف الجماعات في مختلف الأزمنة والأوقات، من حيث أثر هذه الغريزة خارج نطاق الأسرة، فإن الرجل البدائي أب رحيم حدب على أسرته، ولكنه وحش ضار إذا هو التقى بأناس من غير قبيلته. وهذا السلوك البدائي مقبول في القبيلة، متواضع عليه عند الرأي العام فيها، مقرر بحكم العادات والتقاليد والأمثلة.

واخيراً، فإن الشعوب تختلف من حيث غريزة الأبوة وقوتها، ولكن من الصعب الاعتقاد بأن بين هذه الشعوب ما هو منها خلاء، لأن شعباً كهذا لا يمكن أن يعيش ما دام عاجزاً عن رعاية سلالته والعناية بأمر ذراريه.

79- التضايق من الأم

لم يرزقني الله إلا ببنت واحدة.

عمرها خمس عشرة سنة ونصف.

أحبها وأرعاها من كل قلبي.

استفزني منها بالأمس ما صدر عنها.

كنت واقفة قريبة منها وهي تحضر حقيبتها المدرسية، فرأيتها تضع ما هب ودب من أغراض لا تمت إلى دراستها بشيء، من أدوات زينة وبعض الألعاب، فإذا بها حين تلفتت ورأتني نفرت فجأة وعلا صوتها بنبرة حادة بحيث أدهشني هذا التصرف ولم أستطع أن أجد له مبرراً، وقالت: إنني أدرى بأموري منك.

وساعتئذٍ رأيت الدنيا تدور بي وابنتي فلذة كبدي تصرخ بي وتقول ما تقوله!

فاطمة. ط

ابنتك في طور لا تملك زمام نفسها به تماماً، ذلك أن في حياة كل فتاة تبرز ملامح نشاط وتزدهر قوى خارجة عن إرادتها وذلك إبان انتقالها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة وهي من أدق مراحل كل إنسان.

في هذه المرحلة يجب أن لا يستهان بآراء الفتاة وأفكارها المثالية، كما يجب أن نعدها إعداداً حسناً لمستقبلها، ونفتح عينيها بكثير من الدقة والحذر على ما هو سام، وعلى ما هو وضيع بحيث تختار طريقها بوعي منها، مع إيحاء منا لحمايتها ودفعها في ذلك الطريق دون فرض مباشر عليها. ولما كان للفتاة القدرة التامة والتأهب الكامل على التحول الذي سيطرأ على حياتها بحس إنساني غريزي فإنها بطبيعة الحال ستكثر من انفرادها بنفسها موحية لها، لأنها قد تجاوزت مرحلة الطفولة، وإن لها كل الحرية في أن تتخذ ما تراه صواباً، وبالأحرى هو الصواب بعينه.

وعلى ذلك فليس غريباً أن تري في هذه السن كثيراً ما تقوم بحركة تمرد

وعصيان في مجال محيطها البيتي والمدرسي، وقد تتجاوز ذلك إلى أن تقف من أهلها أو أساتذتها موقف الحاسب فتفرض عليهم كيف يجب أن يسلكوا في الحياة.

ولو سألنا ابنتك بعد هذا الحادث لماذا كان عملك هكذا؟ فمما لا شك به أنها لن تجد الجواب الملائم للرد علينا، وسوف تتلعثم كطفلة عند اختيار ألفاظها لأنها هي نفسها لم تدرك ما تريد إلا أنها وبحس غريزي هو حس هذه المرحلة، اعتبرت كل رأي أو إرشاد أو تلميح من أمها أو من أي آخر، حداً لحريتها وهدراً لكرامتها وشخصيتها.

ليس من المعقول أن ندع الفتاة في هذه السن تتصرف كما تشاء، لأننا بذلك نكون قد دفعناها لاختيار طريق هلاكها وتحطيمها. كما أننا قد نقع في نفس الخطأ عندما لا ندرك الأسلوب الصحيح لتوجيهها. إن معالجة هذه النفسية المستفزة تحتم علينا دراسة الفتاة دراسة علمية، وإدراك أبعاد مشاكلها، وقيمة التحول الفسيولوجي الذي تمر به في نفس هذه السن لكي يتسنى لنا اختيار الأسلوب الملائم لتوجيهها، فإذا بنا، بكلمة لطيفة نستطيع أن نروض خلقها وأن ندفع بها إلى الطريق الصحيح، على أن لا تكون الكلمة قد خليت من الإيحاء بالحزم. ولا نعني بذلك الحزم الخشونة، كما يجب أن تخلو تلك الكلمة من طابع النصح والإرشاد الذي يومئ للفتاة بأنها لا تزال طفلة، فتثير شكها بنفسها وقابلياتها مما يدفعها إلى السلوك الذي مر معك بالنسبة لابنتك، أو إلى تحطيم نفسيتها، فتصبح عالة على غيرها، فلا تستطيع أن تبت بأي شأن من شؤونها. وما أكثر هؤلاء المترددات في مجتمع اليوم واللواتي قتلت شخصيتهن قتلاً بالأسلوب الخاطئ الذي اتخذ معهن. وقد يعني ذلك أن على الأهل القيام بفرض تضحية على أنفسهم جديدة تستوجب دراسة نفسية ابنتهم دراسة واعية صحيحة، وأن عليهم أن يسهروا بجانب سهرهم على صحتها المعنوية، وهذا الأمر يلزم الآباء أيضاً المشاركة فيه لتكون الحياة العائلية متصلة الحلقات.

عليك أن تخلقي من ذهن ابنتك دائماً القدوة الحسنة، فتمدحي كل عمل جيد

تقوم به وتثمينه وتغمزي خطاها بكثير من اللين، فتكونين بذلك قد هيئتي المفاهيم الصحيحة لها. كما على الأهل أن يدركوا أن معارضة الفتاة ومناقشتهم في أمورها وأمورهم إنما لا تأتي من رغبتها في مس كرامتهم وجرح شعورهم، بل تقوم برغبتها لأن تجد لنفسها مركزاً في البيت لأننا إن فسرناها بالشكل الأول قد نندفع إلى فرض عقوبة عليها تعقد العلاقة بين الفتاة وبيئتها، وإن فسرناها بالشكل الثاني نكون قد توصلنا إلى فهم هذه المعارضة ووضعها في المكان الملائم. فهي لا تتمسك بآرائها إلا كما يتمسك المخترع باكتشافه الأول، وإنها ليس من السهل عليها التنازل عن ذلك، فجدلها مهما كان سطحياً، ووجهة نظرها مهما كانت ضيقة، فإن ذلك لا يتطلب منا أن نستهين بهما، بل أن نطريهما مع بيان نقاط الضعف في وجهة نظرها جدلاً. وأخطر الأخطار هو سلوك السخرية من موقفها المعارض أو من آرائها، فقد يدفعها ذلك إلى أن تكتم ما تفكر به عن أهلها، ثم تفقد ثقتها بهم، فتقف العائلة أمام طريق مسدود.

ما أكثر ما نسمع هذا الوالد وتلك الوالدة يصرخان معاً (إنهما لا يستطيعان فهم ابنتهما وإن النصح لا يفيد معها). ولو دخلنا إلى ذهن الفتاة لوجدنا ذات الصرخة موجودة في نفسها: لماذا لا يفهمني والدي، لماذا لا تفهمني أمي، لماذا لا يحترمون فكري. ولكي نفتح هذا الطريق لا بد من اتخاذ مبدأ الحوار المنطقي ضمن نطاق الأهل.

من بواعث سرور ابنتك اعتقادها أن حكمها يفوق حكم الكبار على الأشياء، وأنهم قد هرموا وتخلفوا عن العصر الذي تعيش فيه، وأنها تجد في بيئة صديقاتها اللواتي يعشن في ذات السن مصداقاً على ذلك، فيعزز هذا الرأي ويعطي طابع تصرفها شكلاً غير لائق بالنسبة لعائلتها.

ومن أبرز مظاهر هذه السن سرعة التقلب من موقف إلى آخر، فقد تعجب بزي اليوم وقد لا تعجب به في اليوم الثاني، وقد تأخذ نفسها بهذا الرأي ولا تلتزم به في اليوم الثاني. ويشمل ذلك من بسائط الأمور إلى كبارها حتى الدين والمجتمع

وكل شيء.

وللعلماء والنفسانيين دراسات واسعة بهذا الخصوص يرى بعضهم أن هذا التصرف يتعلق بالصراع المحتدم بين الأفراد. وما تهدف إليه الفتاة في هذه السن هو أن تلفت انتباه الآخرين بزيها وزينتها، ويهمها جداً أن تسمع كلمات الإعجاب تنهال عليها من الأشخاص المحيطين بها.

80- مناقرة الابنة والأم

أحياناً حين تعود ابنتي البالغة من العمر الخمس عشرة ربيعاً من مدرستها تكون متجهمة الوجه مكفهرة التعابير، فتطرق باب المنزل بعصبية ظاهرة، وما إن يفتح لها الباب، حتى تهرول مسرعة إلى غرفتها، وربما قبل أن تلقي التحية، وتصفق الباب خلفها لتغرق في عزلتها ساعات، ولا تخرج منها إلا لحاجة ضرورية. وتأتي محاولاتي لاختراق عزلة ابنتي ومعرفة أسباب هذا الغضب العاصف ضعيفة غير ذات جدوى.

وفي أيام أخرى، حين تعود ابنتي إلى البيت، تكون في غاية الحيوية والانشراح، وتكاد ترقص من الفرح. فما إن أفتح لها الباب حتى تنهال عليّ بسيل من القبل، دونما سبب ظاهر، على الأقل بالنسبة لي حيث تمزقني الحيرة وتربكني هذه المواقف غير المتجانسة.

ازدهار. ج

ليكن مفهوماً أن الفتاة أو الفتى في هذه السن يمرا بأطوار أو عوارض غير طبيعية لمن في سن الآباء، ذلك إنهم يمرون بجملة من التغيرات الفيزيولوجية والنفسية التي تجتاح كيانهم في فترة المراهقة. والمشكلة إن الآباء يبقى اعتقادهم قائماً على أن أولادهم لا زالوا صغاراً.

ولا يمكننا القول إن ابنتك كانت بعملها هذا كمن تقوم بدور تمثيلي يتطلب منها إجادة أدوار الكآبة تارة والمرح تارة أخرى. وهذه العوارض المفاجئة التي تواجهها ما هي إلا تعبير صادق عن الانقلاب المفاجئ الذي تواجهه في مراهقتها، والذي يعد الولادة الثانية في حياة الفتاة أو الفتى في مثل سنها. ولكن الأم غالباً لا تحسن التعامل مع هذا الانقلاب المفاجئ، وتعتبر أنها بدأت تفقد السيطرة على ابنتها، أو (ابنها)، المراهقة، التي ما إن شعرت باكتمال أنوثتها حتى أخذت تتمرد على أوامرك وتوجيهاتك وإرشاداتك، وربما قد يصل الأمر بينكما إلى حد نشوب

حرب قد لا تأتي نتائجها في صالحك أو صالحها، وقد تكون أحياناً مدمرة لك ولابنتك.

ويمكن علاج الأمر بينك وبين ابنتك فيما إذا أصغيت إلى وجهة نظرها، وكان لك الاهتمام الكافي بمشاكلها، حتى الأمور التافهة منها، فليس من المعقول أن نقيس أمور أولادنا بمدى مفهومنا نحن، وما نراه تافهاً من أمورهم قد يكون في نظرهم ذا أهمية كبرى.

يبقى بين الأهل والأبناء والذي غالباً ما يتمثل في طرفين أساسيين: الأم والابنة أو الأب والابن، أي بين جيلين ينتمي كل منهما إلى ذهنية مختلفة عن ذهنية الآخر، يبقى هذا الصراع صراعاً غير متكافئ. فالأم والأب، انطلاقاً من صفتهما السلطوية، يبيحان لنفسيهما مواجهة الأبناء بكل ما لهما عليهم من مآخذ وملاحظات، سواء اتخذت هذه الملاحظات طابع اللوم أو التأنيب أو التعنيف أو الإهانة في بعض الأحيان، في حين أن الأبناء لا يجرؤون على مواجهة الأهل بالمآخذ التي يسجلونها عليهم، خصوصاً الإناث منهم، بل يعمدون إلى العزلة ويجدون من الأفضل قطع الحوار ومحاولة حل مشكلاتهم بأنفسهم أو بمساعدة الأصدقاء، معتبرين أن هؤلاء أقدر على تفهم مشكلاتهم من الأهل نظراً إلى تماثل السن والخبرة والتجارب، ولتوفر عنصر المصارحة بينهم وغياب حاجز الخوف.

ومما ذكرناه يتبين لنا أن جميع المساوئ والعيوب التي تلتصق بالمراهقة ليست سوى تعبير صادق عن وضعها الاجتماعي وإنه لوضع مؤلم أن تشعر الفتاة بسلبيتها وتبعيتها في سن الأمل والطموح، في السن التي تتفتح خلالها إرادة الحياة لدى الإنسان ليبني لنفسه مكاناً على سطح الأرض. ففي هذه الفترة الحافلة من العمر تتعلم بأن الانتصار محرم عليها وإنه يجب عليها أن تتخلى عن شخصيتها المستقلة، وإن مستقبلها يتوقف على إرادة ومشيئة الجنس الآخر.

في مثل عمر ابنتك يحدث في بعض الأحيان أن تهرب الفتاة من خلال الطرق الملتوية من واقعها المؤلم لتنسجم مع واقعها في النهاية وتظهر صفات

خاصة تجعلها تبرز إلى المجتمع بوجه وشخصية جديدين. فحياتها المتكتمة القلقة المليئة بالمتناقضات والتعقيدات تغذي تفكيرها وتتوسع وتتطور حياتها الداخلية تطوراً أكثر عمقاً من حياة إخوتها وتصبح أكثر تحسساً لحركات قلبها وتتفهم الأمور النفسية أكثر من الذكور الملتفتين نحو تحقيق الأهداف الخارجية. وقد تستطيع أن تعطي لهذه الثورات التي تصارع بها العالم شكلاً عميقاً مهيمناً، فهي تتحاشى فخاخ الحب والتقيد بالتقاليد، وحين تشعر يوماً بعد يوم بغموض شروط حياتها، تدفعها شجاعتها إلى إعادة النظر في التفاؤل السائد حولها والقيم الجامدة والأخلاق المليئة بالرياء والنفاق.

ومما ذكرناه، يتضح لنا من هذه اللمحة التي أتينا على ذكرها حول أزمة الفتاة في سن البلوغ أنها تمر في مراحل عصيبة من حياتها. لكن هذه الحالات العصيبة المختلفة وردود الفعل الغريبة لا تنطبق على جميع الفتيات بوجه عام. فهنالك نساء يبقين أطفالاً طيلة حياتهن، كما قد يستغرق السلوك الذي شرحناه مدة طويلة يصاحب الفتاة مع تقدمها في العمر. ومع ذلك فهنالك فرق كبير بين الفتاة المراهقة العاطفية التي يبلغ عمرها الخامسة عشرة وبين (الفتاة الشابة الكبيرة). فهذه الأخيرة تنسجم أكثر من الأولى مع الواقع ولا تتصرف بشكل خيالي غير واقعي ولا تشعر بالانقسام في داخل نفسها.

غداً حين تتقدم ابنتك في العمر، ستزداد وطأة سلطتك عليها. فإذا كانت تقوم في البيت بالأعباء المنزلية، فإنها سوف تتضايق بسبب قيامها بدور المعاونة لك، وتود لو كان لها بيت خاص وأولاد تشرف على تربيتهم. أما إذا عملت خارج البيت فإنها ستستاء من معاملة أهلها كعضو من أعضاء العائلة العاديين، وتود لو عوملت كفرد له شخصيته المستقلة.

81- التفريج عن أحاسيسنا

ابنتي في الخامسة عشرة من عمرها.

ما إن تعود من المدرسة حتى تهتف لصديقتها (ربى) وتبقى تحادثها إلى أن نفطن أن الهاتف منذ بعض الوقت لم يرن، وتكون ابنتي هي التي شاغلته.

وإذا أتت إحدى صديقاتها إليها فهي ستقعدها الساعات الطوال وتروي لها كل قصصها وحكاياتها وما جرى لها في الأيام الماضية.

إنني أرى ابنتي غريبة.

وفاء. ص

إن مثل هذا الأمر هو ما نسميه التفريج عن أحاسيسنا، أو النزوع إلى اشتراك غيرنا في أحاسيسنا وانفعالاتنا، وهو نزوع متصل بغريزة الاجتماع، فإن الذين يشتد بهم هذا النزوع لا يطيقون الانفراد بما يقع لهم من المؤثرات والانفعالات، فاللذات عندهم تفقد معانيها، والآلام يتضاعف وقعها إذا لم يتقاسموها مع الآخرين، بل إن غضبهم واستياءهم وثورة انتقامهم وشفقتهم وابتهاجهم وإعجابهم لا تبقى طويلاً في صدورهم إذا اقتصرت على مشاعرهم، وتروح تلتمس الشركاء فيها والمشاطرين، وكل امرئ ينزع إلى هذه المشاركة لا ينى يتلمس السبيل إلى حمل الناس على الشعور بما يشعر به والإحساس بما يحس، وكثيراً ما يتعذر ذلك عليه، فلا يسعه إلا أن يجعل مشاعره منسقة منسجمة مع مشاعرهم، ومن هنا لا يجد ارتياحاً إلى سلوك من شأنه أن يسوء الذين من حوله أو لا يروقهم، بل يستريح إلى السلوك الذي يرتضونه حتى وإن كان أليماً له غير متفق ميوله ورغباته، ويرى في مديح الناس له دليلاً على أن أحاسيسهم مشتركة مع أحاسيسه، كما يجد في ذمهم واستهجانهم له ألم العزلة والقطيعة.

وليس من شك في أن الشعور بالعزلة والانفراد بالشعور دون الجماعة، هما عند كثر من اليافعين مصدر ألم بالغ، ومظهر عقوبة شديدة، بينما يثير الاستحسان

في نفوسهم الرضى بمشاركة الناس لهم في وجدانهم والانسجام في الشعور مع أقرانهم وإخوانهم، وكلما اتسعت دائرتهم الاجتماعية، وترامى نطاقها كان سرورهم بالاستحسان أكبر وأبلغ، وكان الألم من الاستهجان أشد وأوقع. وهذا الشعور بالذات وصلته بالمدح والذم والاستحسان والاستهجان، هو الذي يجعل فريقاً من الناس ينتقلون إلى مرحلة عليا من السلوك الذي يترسم فكرة سامية، أو مثلاً أعلى، ويجعلهم في مختلف تصرفاتهم وأفعالهم يصدرون عن إيمانهم بأن ما يفعلونه حق، واعتقادهم الراسخ بأن ما يأتونه واجب لا يحفلون فيه بمدح، ولا يخشون لومة لائم، ولا يكترثون باستحسان الوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه ولا باستهجانه.

وهناك بلا شك وجوه اختلاف ظاهر بين الناس من حيث خشيتهم آراء الغير فيهم، وتخوفهم الشديد من مواقفهم إزاءهم، ومرجع هذا الاختلاف أحياناً إلى تباينهم في مبلغ القوى العقلية، وإن كان مرده في الغالب إلى درجة نمو عاطفة الشعور بالذات عندهم، فكل إنسان نمت لديه وتناهت مراعاته الدائمة لشعور الآخرين نحوه ارتفعت مداركه من حيث التأثر به وتعليل مظاهره الخفية التي قد لا تجد التعبير الملائم عن حقيقته، أما البليد الشعور الذي فترت لديه عاطفة الشعور بالذات فلا يهزه إلا المديح الصريح والذم البالغ ومظاهر الاستحسان والاستهجان الخشنة الجافية، وقد اصطلحنا في الجماعة على أن نسمي الأول في معارض كلامنا (حساساً) وذا ضمير حي، وندعو الآخر الإحساس نائم الضمير.

وفي مثل هذه الحالات ينتقل التعاون بين دافع الغيرية ودوافع الأثرة نحو الظفر بالمديح وتجنب الذم إلى درجة أخرى من التعقد بعامل أناني ثالث يتصل بالغيرية، وذلك عندما يبدي اليافع سلوكاً ترضى عنه أمه وتسر به، فيزداد ارتياحه لرضاها وسرورها من إدراكه مبلغ هذا الأثر في نفسها بغض النظر عن الارتياح الذي يشعر به من دافع الحنو عليها، وقد يكون لازدياد رضاه وارتياحه باعثان:

الأول هو أن يبعث من رد الفعل الذي يجعل ظهور الشعور عند الغير يولد الشعور ذاته عند رائيه، حيث إن هناك أناساً يشتد بهم هذا النزوع حتى ليتأثر به

سلوكهم من ناحية الذين حولهم، فلا يطيقون أن يروا وجوهاً عابسة، ولا نفوساً متألمة، ولا صفحات مكتئبة قاتمة، ويكتئبون وتتكدر رجاحة نفوسهم في الحال إذا أحاطت بهم، لأنهم يودون أن يشهدوا الذين من حولهم مشرقي الوجوه، طلقي الصفحات، فإن ذلك يفرحهم، ويسعدهم ويرضيهم، فإذا كان أحد منهم في مركز يتصل بعيش الذين يحيطون به كأن يكون عميد الأسرة، كان سلوكهم نحوهم رقيقاً، وحنوه وحدبه عليهم متأثرين إلى حد ما برغبته في مشاركتهم السرور إذا سروا، وتحاشيه الألم إذا هو باعد بينهم وبينه.

أما الباعث الثاني فهو أدق من الأول وأعقد، وهو شعور الإنسان بأنه مصدر هذا السرور البادي على وجوه الذين من حوله، فإن الإحساس الإيجابي بالذات يستريح لهذا الاعتراف الظاهر بالصنيع الصادر من الذين أسداه إليهم، ولإقرارهم الواضح على وجوههم بأنهم أفادوا منه وانتفعوا به، وبخاصة إذا هم أظهروا شعورهم صريحاً وتحدثوا عن عرفانهم، واستروحوا للعواطف القادمة، وتوقعوا صنائع أخرى تالية.

ومثل هذا السلوك أناني في ذاته وإن انطوى على إحساس يلتقي لديه النزوع إلى المشاركة الوجدانية بدافع الغيرة إلى حد ما، حتى ليلوح هذا السلوك من وجوه كثيرة قريب الشبه بالسلوك المنبعث من الغيرية البحتة، وإن اختلف عنه من ناحية كبيرة الخطر، وهي أن الصنائع والعوارف والمكارم المنبعثة من الغيرية البحتة، أو بدافع غريزة الحنو، لا تقف عند حد، بل قد تذهب إلى حد التضحية المطلقة بالنفس والنفيس، والروح وما ملكت، بينما لا يتعدى هذا الدافع إلى ما هو أشبه بالغيرية، من صنائع ومكارم محدودة، ولا يدفع الإنسان يوماً على بذل شيء يتعادل ألم فقده مع اللذة التي تستمد من رؤية أثر صنائعه ومكارمه، وقد يحمل هذا الدافع الشبيه بالغيرية إنساناً إلى العطف والحدب على الذين يتصل بهم اتصالاً شخصياً فقط، ويرى عليهم أثر السرور من عطاياه والشكر والامتنان له على رعايته وحنانه، أما سعادة الأشخاص الخارجي عن دائرته والبعيدين من محيطه وغير المتهافتين على

كرمه وجوده، أو شقاؤهم، فلا يحفل بهما أو يهتم، بل قد يظلم في دائرته ومحيطه بعض الأشخاص.

ما يجري لابنتك قد يكون في نظر البعض شيئاً عادياً، مثله مثل الكثيرات من الفتيات اللواتي في سنها مما يجري معهن، ولكن نظرة التحليل النفسي تأخذ شمولية للموضوع قد تكون أكثر إلماماً للبواطن، وهذا ما يفسر استطرادنا المطول – بعض الشيء – في تحليل هذه الحالة.

82- التحويل

دخلت ابنة جيراننا، وهي فتاة في السادسة عشرة من عمرها، الإصلاحية، لأنها كانت تصر على الظهور بكل مظاهر الاستهتار والمجون الفاضح. وإذا بها تنقلب فجأة من الوقاحة والتبذل إلى التزمت في كل شيء، مما أدهش المشرفين.

وخرجت بعد فترة وجيزة من الإصلاحية وزرتها في بيت أهلها، واسترعى انتباهي هذا الانقلاب في حياتها. فجلست أتحدث معها، وفجأة قالت لي إنها رأت بالأمس حلماً غريباً وقصت عليّ أحداثه، وتتلخص في قصة بهلوان كان يعمل في سيرك وكان عليه أن يقفز من ارتفاع كبير ويمر داخل حلقة من النيران. وإن هذا البهلوان كان يحب امرأتين فأقدمت إحداهما على قطع السلك بدافع الغيرة فسقط وسط النار، ولكن المرأة الأخرى أنقذته مضحية بنفسها.

ندى. ي

لو سئلت هذه الفتاة أن تصف هذا البهلوان لقالت إنه شاب رشيق أسود الشعر حليق اللحية لامع العينيين. وهذا الوصف لا يمثل واقع البهلوان بل يصور فتى أحلامها. وربما كان لها بالواقع قصة حب في هذا العمر المبكر، مع شاب خجول لطيف، فعرفت أمها ذلك ومنعتها، فكان هذا السبب في انقلابها من التبذل إلى الدماثة والاحتشام المتزمت.

ما يطلق على حالة هذه الفتاة هو التحول. وفي نطاق الإجراءات العيادية تظهر (حقيقتان) يعتبرهما فرويد بمثابة دعائم للتحليل النفسي وهما التحويل والمقاومة. والواقع أننا نجد (حقيقة) خلف المدركين، كما نجد قدراً طيباً من الناحية النظرية. والمقاومة تشير إلى الميل الطبيعي إلى إخفاء الذات الخاصة، وحجبها خلف ستار. ومن الجائز أن لا نكون مغمورين في الآثام، ولا مثقلين بكثير من أوزار الماضي، ولكننا نحرص على أن لا نظهر ذاتنا الدفينة في مظهر غير مقبول، حتى لأصدقائنا الذين نثق بهم. ولعله من الأفضل أن نتجاهل مسألة

تشكيل الذات بالشكل الذي تريده القيود الاجتماعية، أو نسلم به كما هو، وفقاً لرغباتنا.

والعلاج بالتحليل النفسي يتيح للمعالج المحلل، أن يقوم بدور مهم في حياة مريضه الوجدانية. ولهذا الدور أهمية أساسية في عملية التحليل نفسها، لأن المريض يشعر أثناء العلاج إما بحب شديد أو نفور شديد نحو المحلل. وقد استرعت هذه الحقيقة اهتمام رواد التحليل النفسي الأوائل، حتى إن (فرويد) نفسه درسها دراسة عميقة وأطلق عليها لفظ التحويل.

كما أن هناك من التحويل – مضاد للنوع السابق – هو التحويل العكسي.. ونعني به أن يشعر المدرس أو المعالج أو المرشد نحو من تحت إشرافه، أو ولايته، أو نحو مريضه، بعلاقة وجدانية غير عادية إما بالارتباط أو النفور.

ومن ناحية الحلم في هذه المشكلة، ينبغي لنا أن نميز في جلاء بين مرحلتين متميزتين تحدثان في أغلب الأحلام قبل أن يظهر مفعول الأثر المشوش في حلم منته: نسج هذا المنبه في لحمة رغبة مكبوتة وترجمة (إشباع – الرغبة) المتخيل في صورة خيالية ملائمة للشعور.

ويمكننا أن نذكر شيئاً عن هذه العملية الثانية، أعني التشويه الذي يجعل معظم الأحلام باطلة لا تعقل. ومعنى التشويه مسألة أشد صعوبة، ولكن يسهل التحقق من واقعة التشويه ذاتها. فمثلاً مما تمتاز به الأحلام في الغالب أن يتألف مكان أو شخص في الحلم من اندماج مكانين أو شخصين معاً، فيخرج منهما صورة واحدة. وكثيراً ما يحدث أن تنتزع عناصر من كل منهما وتدمج في الآخر، أو أن تستبعد عناصر مشتركة. ويسمى هذا الإدماج بالتركيز، وهو صحيح في الاتجاهين معاً: فالعنصر الواحد في المضمون الظاهر للحلم يمكن أن يرتبط بعناصر عدة في المضمون المستتر، والعكس بالعكس، حتى إن التحليل أشبه بحل شبكة. وآخر هو الانتقال وفيه ينقل معنى المضمون مما ينسب إليه في الأصل إلى نقطة أهميتها في الحقيقة أقل. وعادة ما نخلع على أفكار المضمون المستتر إهابا

درماتيكياً – أي أن نعبر عنها بعبارات فعالة. وحتى في لحظة ولوج الأفكار إلى الشعور، يحدث تغير جديد ندعوه مرحلة النضج الثانية، ويزداد هذا النضج بعد اليقظة، ومن هنا يختلف الحلم الذي يتذكر ويكتب في الحال عن ذلك الذي نسترجعه بعد حين، وهذه الحقيقة نطالع عنها شرحاً ملياً في تحليل الأحلام، وإلى هذا الميكانيزم الأخير تعزى أية سمة من سمات نظام جديد أو معنى جديد قد يكتسبه الحلم ولم يكن فيه في الواقع.

يمكننا القول هنا إن الأفكار الراسبة (تتراجع) بالمرء إلى لاشعور الطفولة، وهي تتراجع أيضاً بمعنى آخر للكلمة وهي أنها تنكص على عقبيها من شكل الأفكار إلى المادة الخام لكل فكر، أعني التصور الحسي. والغالب أن هذه المادة الخام في الأحلام بصرية، بيد أنه كثيراً ما تحدث انطباعات حسية أخرى كالصوت والشم. وكما هو يتوقع في عمليات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باللاشعور، كثيراً ما نجد الرمزية في الأحلام، والحق أن هذا أحد المجالات الرئيسة التي يدرس فيه الرمزية.

83- دون جوان مراهق

لي ابن أخت يبلغ من العمر السادسة عشر.

شقي لدرجة أن أختي رأت الليل من خلال النهار والنهار من خلال الليل من مشاكله.

همه لبس (أشيك) الثياب وملاحقة البنات.

ومن يراه والبسمة على ثغره يقول إن هذا الولد منصرف لأمور الحياة كما تجب، وهو الذي لا يعبأ بأي شيء.

كيف تقيّم تصرف ابن أختي؟

هزار. ج

يقال عن مثل هذه النماذج بالنمط الباحث عن اللذة، وهو الذي يجعل هدفه الحصول على اللذة أينما كانت، والإشباع دون حساب للعواقب، وأشخاص هذا النمط نجد منهم (دون جوان) في هذا الشارع أو ذاك، أو في أماكن اللهو.

وبالرغم من أن أشخاص هذا النمط يظهرون على المسرح بمظهر السعيد الراضي والمستمتع بالحياة، فإنهم من أكثر أنماط المراهقين عرضة للاغتراب والانفصال النفسي عن الذات أو المجتمع. ذلك لأن من أهم دوافع السلوك الميول والنزعات، ولا يشعر الإنسان دائماً بما يدفعه إلى العمل شعوراً جلياً واضحاً ولا يتخذ من دوافعه موضوعاً لتأمله وتفكيره إلا بعد تجارب عدة وبعد أن يكون قد خطا خطوات واسعة في طريق معرفة نفسه. فهناك دوافع تظل كامنة غامضة بدون أن يعوق كمونها وغموضها ظهور آثارها في السلوك، بل يمكن القول بأن آثارها تكون أشد عنفاً كلما ظلت بعيدة عن بؤرة الشعور. وغني عن البيان أن الشخص لا يملك زمام نفسه إلا إذا تمكن من إدراك بوادر الدوافع التي ستحمله على القيام بعمل ما، قبل تسلط الدوافع على نفسه وقبل فوات الفرصة لتدبير أمر إرضائها أو قمعها أو تكييفها حتى يظل السلوك منسجماً متوافقاً. والتربية المثلى هي التي تمكن الشخص

من أن يتعرف دائماً دوافع عمله وبواعث سلوكه وأن يحسن تقدير قيمة البواعث التي يتخذ منها أغراضاً يسعى لتحقيقها. ويؤدي هذا القانون التوجيهي دوراً مهماً في تفسير السلوك الشاذ والأمراض النفسية كما أن عليه تقوم عمليتا التطهير والاستبصار في أثناء العلاج النفساني.

ويتبع الترقي في مجال الشخصية من الأفعال المنعكسة إلى الأفعال الإرادية، ذلك أنه ليس هناك فرق جوهري بالنسبة إلى قيمة السلوك الاندفاعي الأعمى وبين الفعل المنعكس الذي على الرغم من كونه مصحوباً بشعور يكون دائماً قهرياً جبرياً، أو على الأقل يكون غير قابل للتعديل والتكييف إلا في حدود ضيقة جداً. ولكن فائدة هذا القانون ودلالته أن يبين لنا أن الفعل الإرادي هو الفعل الذي تتمثل فيه بجلاء قدرة الشخص على الكف وتنظيم دوافعه الوجدانية وعواطفه وأفكاره وتوجيهها نحو غرض معين يقوم الشخص بتحقيقه وهو شاعر بحريته الذاتية وبقدرته على الاختيار. فلا يتم تكامل الشخصية إلا بتنظيم قوى النفس كلها من وجدانية ونزوعية وعقلية وإرادية. وعلى هذا القانون تقوم عملية إعادة تكامل الشخصية في أثناء العلاج النفسي.

وعلى هذا، إذا سلمنا بأن المراهقة وبداية الشباب هي المرحلة التي تتحلل أو تنطفئ خلالها العادات التوافقية الطفلية، وتكتسب فيها عادات توافقية جديدة تلائم المعطيات الفسيولوجية والعقلية والاجتماعية التي يعيش فيها المراهق بعد أن تتاح له فرص إدراكها، وهي عملية يتحول فيها الطفل تدريجياً إلى الرشد عبر حلقات متصلة من الأعداد الاجتماعي المقصود وغير المقصود، فإننا نكون بصدد وضع (مشكل) أو حافل بالمشكلات.

يرى بعض علماء النفس أن مطالب النمو أو الارتقاء هي مهام تظهر في فترات معينة من حياة الفرد، يؤدي نجاحه في إنجازها إلى رضاه وإلى التوفيق في الأعمال الأخرى، بينما يؤدي إخفاقه في أدائها إلى تعاسته، واستهجان المجتمع، والتعثر في إتمام المهام الأخرى بنجاح. وبالرغم من الفوارق المهمة بين الحضارات

والمجتمعات الأخرى، فإن مطالب النمو حقيقة شائعة تشترك كلها فيها.

ليس ثمة اتفاق بين الدارسين المختلفين حول قائمة الحاجات التي تستتبعها عملية التحول من الطفولة إلى الرشد عبر الشباب. غير أننا يمكن من المناقشة السابقة، وفي ضوء الحديث عن جيل الشباب، أن نميز بين ثلاثة مجالات للتوافق: أولها – التوافق مع الذات (الهوية، والإرضاء العضوي والجسمي والجنسي وضبط الانفعالات والمخاوف)، والثاني – التوافق مع الآخرين في الأسرة، والكبار بعامة، والأخير – التوافق مع مقتضيات واقع الراشدين (الدراسة، والعمل، والزواج، وغيرها).

يرى الدكتور عزت حجازي أنه ثمة فئات من الحاجات تظهر لدى الشاب في المجتمع الحديث هي:

أولاً: حاجات فزيولوجية، وهي الحاجات الخاصة بالمحافظة على التوازن الفزيولوجي الضروري للإنسان، ومنها:

1– حاجات الجسم للطعام والشراب وغيرها.

2– حاجات خاصة بالنشاط الجنسي وهي تقتضي تكوين ميول نحو الجنس الآخر، والارتباط بعلاقات به، وحل مشكلة الإشباع الجنسي الذي يتطلبه تيقظ الحاجة الجنسية.

ثانياً: حاجات نفسية، ومنها:

1– الحاجة لفهم الذات وتقبلها، أو حل (أزمة الهوية). وهو يتطلب فهم التغيرات التي تطرأ على كيان الفرد، وقبولها، والحصول على قبول الآخرين لها، وإعادة تنظيم الاتجاهات والسلوك نحوها.

2– الحاجة إلى تأكيد تميز الذات واستقلالها، ويتضمن الحصول على الاعتراف بالاستقلال عن الوالدين والآخرين والسلطة.

ثالثاً: حاجات اجتماعية، ومنها:

1– الحاجة إلى الحصول على اعتراف بتخطي مرحلة الطفولة، والانتماء إلى

جماعات الراشدين.

2- الحاجة إلى الحب.

3- الحاجة إلى شغل دور ذي معنى في الحياة.

وإذا كنا قد استندنا في تحليل هذه الحالة إلى هذا النوع التوزيع للحاجات في فئات، فإننا يجب أن نسارع فنؤكد أن الواحدة منها لا تكون منفصلة عن غيرها. وإن كانت كل منها، في نظر البعض، تميل إلى أن تربط نفسها بموضوعات معينة وبصرف النظر عما عداها، وبذلك يتكون ما يسمى (مركب الحاجة) الذي قد يتحقق ويظهر في سلوك صريح، وقد لا يفعل ذلك ويظل كامناً يؤثر ولكن لا يظهر.

84- المراتب الثلاثاء

أنا (موسوس) في تربية أبنائي، أحاول دائماً أن أوفر لهم أفضل ما يمكن من صحة نفسية وجسمية.

ثلاثة أبناء يبعثون الفرحة في بيتي.

أصغرهم في الثانية من عمره والثاني في التاسعة وثالثهم في الخامسة عشر.

تجمعهم الطفولة والحداثة والمراهقة.

أريد منك أن تشرح لي كيف تتكامل الطبيعة الإنسانية في مراتبها الثلاث؟

كامل. ج

قبل أن أشرح لك المراتب الثلاث في تكامل الطبيعة الإنسانية علينا أن نعي أن معظم الانحرافات في السلوك وعدداً غير قليل من الأمراض النفسية يرجع منشؤها إلى سني الطفولة والمراهقة، وأنه من الممكن لكل خبير في التربية والعلاج النفسي أن يكشف بوادر الانحرافات والأمراض قبل استفحال أمرها. فإذا أراد المجتمع أن يقوم بكامل واجبه نحو النشء الذي هو ذخر المستقبل ورأس مال الأمة الذي يجب استثماره بكل عناية وإخلاص وجب عليه أن ينشئ في كل مدرسة كبرى أو في كل منطقة تعليمية تضم عدة مدارس عيادة سيكولوجية مؤلفة من طبيب وسيكولوجي ومرشدين اجتماعيين وخاصة من مدرسين زائرين أو مدرسات زائرات يقومون بتحقيق صلة التعاون والتفاهم التي لا بد من تحقيقها بين المدرسة والمنزل. ويجب أيضاً أن ينشأ في كل جامعة وكل مؤسسة صناعية أو تجارية أو إدارية كبرى عيادات سيكولوجية للتوجيه والإرشاد ومساعدة كل من يشكو من معضلة سلوكية أو من حالة نفسية شاذة على حل مشاكله والبرء من أعراضه المرضية وتحقيق توازنه وتكامله على أكمل وجه.

ومن خلال علم الأحياء تعلمنا أن الحيوان نظام من طاقة، مركب بكيفية خاصة تسمح له باستهلاك هذه الطاقة بطريقة منظمة موجهة، وتبعاً لإيقاع معين،

وذلك تحت تأثير منبهات مناسبة ملائمة لتركيبه، ثم بأن يعوض الطاقة التي استهلكت وأن يحتفظ بقدر من الطاقة الكامنة بحيث يظل محافظاً على صورته البيولوجية النوعية مدة من الزمن، قد تطول أو تقصر تبعاً للأنواع، وذلك بعد اكتمال نموه وبلوغه.

كما تعلمنا من علم الأحياء أيضاً أن جسم الحيوان بمثابة نظام من الأنسجة ومجموعة من الوظائف المتآزرة المتناسقة التي تربط بين مختلف الأجهزة محققة تكامل هذه الأجهزة في صورة الكائن الحي السوي. وتعلمنا كذلك أن دراسة تركيب الأنسجة والأجهزة وحده لا تكفي لفهم وظائفها، كما أنه لا يمكن الاستدلال دائماً بالوظيفة على تركيب العضو الذي يقوم بها، وأخيراً أن العضو والوظيفة لا يمكن فهمها إلا بالنسبة إلى البيئة التي يعيش فيها الكائن الحي. ومعنى هذا كله أن العضو الواحد قد يساهم في عدة وظائف وأن عدة وظائف قد تشترك في تأدية وظيفة واحدة، وهذا ما يعبر عنه بتضامن الأعضاء والوظائف. وهذا التضامن هو الشرط الأساسي لتحقيق تكامل الكائن الحي في بيئته وبين خلانه. وعلى هذا، لا بد إذن من دراسة البناء ومن دراسة الوظيفة ومن دراستهما في مختلف أطوارهما من تكوين ونمو وبلوغ ووقوف وانحلال. وكل ذلك بالنسبة إلى البيئة الخارجية التي تصدر عنها التنبيهات التي لا بد منها لإطلاق مقادير من الطاقة الكامنة في الأنسجة العضوية والتي ستتحول إلى حركة وعمل، بحيث يعود الكائن الحي بدوره يؤثر في بيئته بعد أن يكون قد تأثر بها. وهكذا يستمر دولاب الحياة في سلسلة من العمليات ومن التفاعلات المتبادلة بين الكائن الحي وبيئته.

وتصبح البيئة الجغرافية بيئة سلوكية عندما تنشر عليها البيئة الاجتماعية شبكة المعاني والعلاقات الفكرية. فالطفل الحديث الولادة يتميز من سائر الحيوانات بفرديته البيولوجية، ثم بفضل خصائصه السيكولوجية التي تتلخص كلها في معنى العقل الإنساني، وبمعاونة النظم الاجتماعية التي هي في آن واحد من إنتاج العقل ومن وسائل العقل لإنماء هذا الإنتاج، يتحول الطفل الحديث الولادة من حيوان بشري إلى

شخص بشري، أي إلى شخصية شاعرة بذاتها وبعضويتها في المجتمع.

إذا كان موضوع الحياة هو أن يصف لنا تركيب الكائن الحي ووظائفه وأن يبين لنا المراحل التي يقطعها في أثناء تكوينه ونموه واكتماله، وأخيراً أن يفسر لنا التركيب والوظائف وأطوار النمو بإرجاعها إلى قوانين عامة يقينية، كذلك موضوع علم النفس التكاملي أن يفسر لنا كيف ينتقل الإنسان من طور الفردية البيولوجية إلى طور الشخصية السيكولوجية والاجتماعية وذلك في ضوء الحقائق التي تكشفها لنا دراسة تركيب العقل وعمل وظائفه. وعلى هذا، فإن علم النفس – لكي يفي بغرضه ويصبح تكاملياً حقاً – لا بد له أن يستند من جهة إلى علم الأحياء، ومن جهة أخرى إلى علم الاجتماع. غير أنه مضطر إلى أن ينتخب من بين الظواهر البيولوجية والاجتماعية ما هو أقرب صلة بموضوعه الخاص. ولكي نعين هذه الظواهر نتأمل قليلاً في أخص خصائص الإنسان. فالخاصة الأساسية التي تسترعي النظر هي نزوعه إلى تحقيق التكامل في مراتبه الثلاث البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية. ومعنى التكامل هو تضامن مختلف الوظائف وتنظيمها بحيث نضمن اتزان السلوك وانسجام مظاهره بعضها مع بعض.

إذاً تتكامل الطبيعة الإنسانية في مراتب ثلاث: عامل التكامل البيولوجي في الجهاز العصبي، والتكامل السيكولوجي في الذاكرة، والتكامل الاجتماعي في اللغة. والجهاز العصبي والذاكرة واللغة عوامل تكامل قبل كل شيء عوامل انسجام وثبات.

لكن جميع خلايا الجسم تتجدد ما عدا الخلايا العصبية. فالإنسان يحتفظ بتركيبه العصبي مدى حياته، ولكن يجب أن نذكر هنا – لكي نفهم إمكان إعادة تنظيم الطاقات العصبية بعد اختلالها – أن الوظيفة تكون دائماً أكثر تعقداً ومرونة من التركيب التشريحي. فكل اختلال يعتري الجهاز العصبي يؤدي إلى اختلال سائر الوظائف العضوية وإلى إبطاء السلوك أو اضطرابه أو شله تبعاً لموضع الإصابة وخطرها. ولكن الجهاز العصبي ليس جهازاً مستقلاً، فعمله السوي مرهون بعمل الأجهزة الأخرى وخاصة جهاز الغدد الصماء التي تفرز مختلف الهرمونات، غير أن وظيفة الجهاز العصبي الأساسية هي تنظيم التفاعلات العضوية التي تحدث داخل

الجسم وتنظيم علاقة الجسم ببيئته الخارجية.

علينا أن لا نغفل أن سلامة الجهاز العصبي ونضجه شرط أساسي لسلامة الذاكرة وهي عامل التكامل السيكولوجي. ولا يمكن تحقيق التكامل السيكولوجي بدون سلامة الذاكرة لأن الحياة السيكولوجية تستند في تنشيطها ونموها ومواصلة نشاطها إلى التحصيل والاكتساب، والذاكرة بوظائفها المختلفة هي الشرط الأساسي لتحقيق الاكتساب وتنظيمه. ويلاحظ أن أشد الاضطرابات النفسية التي تعتري الشخص هي في الواقع اضطرابات تلحق بالذاكرة وبقدرة الشخص على الربط بين الماضي والحاضر وعلى أن يشعر بأنه ذات ثابتة، هي هي، خلال التغيرات التي تكون نسيج الحياة.

وسلامة الذاكرة هي بدورها الشرط الأساسي لتحقيق عامل التكامل الاجتماعي أي لاكتساب اللغة وأحكام استخدامها. فكما أن الجهاز العصبي هو حلقة الاتصال وعامل التنظيم بين مختلف الأجهزة والوظائف العضوية، وكما أن الذاكرة هي حلقة الاتصال بين الماضي والحاضر وبين مختلف الوظائف العقلية، فكذلك اللغة هي حلقة الاتصال بين الفرد والمجتمع ومن أهم عوامل تنظيم سلوك الفرد وشؤونه الاجتماعية. ولا بد من أن تظل معاني الألفاظ ثابتة لكي يتم التفاهم والتعاون.

هذه العوامل الثلاثة لا تعمل منفردة، بل هي بدورها متعاونة متضامنة. وفي ضوء هذه الحقيقة المهمة يمكننا أن نقرر سعادة الإنسان، إذا نظرنا إليه في أكمل صوره له، تقوم على تضامن الوظائف البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية. ويترتب على ذلك نتيجة مهمة لا يمكن إنكارها وهي أن كل إصلاح أو علاج يرجى نجاحه يجب أن يكون كلياً وأن تراعى فيه هذه النواحي الثلاث. فالطبيب البدني أو الطبيب النفساني أو المصلح الاجتماعي الذي يقتصر على تخصصه الضيق ولا يوسع أفقه بحيث يشمل دائماً تلك النواحي الثلاث، لا يقوم بواجبه كاملاً، بل كثيراً ما يكون من عوامل إعاقة الإصلاح والتقدم. فالمبدأ الذي يجب أن ينقش بحروف من ذهب على كافة الأبواب هو (العقل السليم في الجسم السليم في المجتمع السليم) كما يقول د. يوسف مراد أحد أشهر علماء النفس العرب.

85- الضحك على من

بجانب بيتي توجد مدرسة ثانوية للبنات.

حين أجلس إلى نافذة بيتي بانتظار قدوم أولادي أرى البنات الذين بين الصف العاشر الثانوي والثاني عشر وهم في أعمار سن المراهقة، في ذهابهم وإيابهم، من وإلى المدرسة، كيف يتصرفون.

يتحدثون عن مغازلات الشبان لهن.

أو إذا مرت امرأة مترهلة البطن انتابتهن موجة من الضحك.

كما أنهن يقلدن البائعين الجوالين.

أعيب عليهن سلوكهن وألعن هذه الأيام التي باتت بها الفتاة مستهترة؟

كنانه. ح

ما رأيته هو تكرار لما سبق وإن حدث في أيامك دون أن تتذكريه، أو أنك لم تمري في مرحلة المراهقة كما هو متعارف عليه. ففي بداية سن المراهقة أو ما يسمى فترة الشباب الأولى، تأتي مشكلات النضج الانفعالي في قمة قائمة المشكلات النفسية. ويترتب جزء كبير منها على شدة القابلية للانفعال، التي ترجع في جانب منها إلى التحولات العضوية والمشكلات الجسمية المختلفة، ولكنها ترجع في الجزء الأكبر منها إلى عوامل بيئية مختلفة: نقص تجربة الفتاة، ونوع الاستجابة الاجتماعية غير المرضية التي تلقاها أو يرد تصرفاتها بها، وخاصة في العلاقات بين الذكر والمؤنث.

تحمل التغيرات الفسيولوجية التي تأتي بها مرحلة المراهقة الفتاة بعيداً عن جماعات الأطفال التي ألفوها وحققوا نوعاً من التكيف معها، إلى جماعات البالغين ثم الراشدين التي تؤهل الفتيات ملامحهم الجسمية والجنسية هو العقلية للانتماء إليها، لكن يقف دون ذلك عدم اكتمال نضوجهم الاجتماعي من جهة، وتردد الراشدات في السماح لهم بالانتماء إليها من جهة أخرى.

وما رأيتيه من فتيات المدرسة من هزء وسخرية يشكل مظهراً من مظاهر معارضة الفتاة المراهقة لحالتها، ولا شك أن هذا الميل إلى التشهير بأجسام النساء والتهكم على الرجال والضحك والهزء من الحب، ما هي إلا وسيلة من وسائل إنكار الحياة الجنسية والطعن بها كما تهدف من وراء هذا الضحك والمرح إلى التغلب على ضيق المرأة واندفاع عواطفها، فهي تلعب بالصورة وبالكلمات لتبدد عن ذهنها الإغواء وسحره الطاغي.

مواقف السخرية والهزء في هذه الحالة يمكننا أن نعكسها، فمواقف الآخرين من مثل هذه الأمور ووعيهم بما تنطوي عليه من إشكالات واهتمامهم بها تختلف باختلاف المستوى الاقتصادي والاجتماعي، والتعليم، وما إليهما، عادة. كما أنها تتأثر باختلاف المعايير الشائعة في الحضارة، فالنحافة المعقولة في الفتاة قيمة جمالية في المستويات الاقتصادية الاجتماعية العليا وبين المتعلمين، وسواء كان موقف الآخرين من بعض ملامح الفتاة هو السخرية والتفكه، كما يحدث غالباً، أو كان الشفقة والعطف، كما يكون أحياناً، فإنه لا يساعد الفتاة على فهم ما يجري في كيانها، ويجعلها تتردد في قبول بعض ملامحها، وقد تميل في الحالات المتطرفة إلى رفضها – وهو إحساس غير صحي في هذه المرحلة بالذات تترتب عليه تعقيدات كثيرة في موقف الشخص من نفسه والآخرين وتعامله معهم.

ولا يقتصر الأشكال في التغيرات العضوية على فهمها وقبولها، وإنما يتعداه إلى بعض ما يترتب عليه من آثار ونتائج. فنمو الهيكل العظمي بسرعة تفوق سرعة نمو العضلات المتصلة ببعض أجزائه يتسبب في حالات كثيرة في خلق إحساس بالتوتر العصبي. كما أن ازدياد سعة القلب بشكل يفوق نمو سعة بعض الشرايين المتصلة به وقوتها يؤدي إلى زيادة ضغط الدم على نحو تظهر آثاره في صورة نوبات من الإغماء والصداع، فضلاً عن الإحساس بالإعياء. وتعاني عدد من الفتيات من اضطرابات في الجهاز الهضمي، وتبدو بعضهم أكولة وربما شرهة لإقبالها الشديد على الطعام، نتيجة لنمو المعدة وزيادة سعتها بدرجة كبيرة (وإن

كانت مشاغل بعض الفتيات وهمومهم قد تذهب ببعض شهيتهم إلى الطعام حتى لا يتناولن منه ما تتطلبه أجسامهن النامية، فيتعرض للهزال وتشحب ألوانهن – لفترات على الأقل). وفضلاً عن هذا كله، تواجه الفتاة مشكلات الحيض أو الطمث، وما قد يأتي به من ارتباك وإجهاد، وما يسببه لها من قلق، وبخاصة في حالة عدم الانتظام والاضطراب (وهي حالة شائعة الحدوث في السنوات الأولى بعد البلوغ مباشرة) وليس من النادر أن تبلغ بعض هذه المشكلات من الشدة حداً تصبح فيه معوقة للشاب – الفتى والفتاة – عن ممارسة حياة هادئة منتجة، هذا بالإضافة إلى ما يترتب عليها من الاستعداد للإصابة بعدد من الأمراض وضعف المقاومة لبعض منها.

ومثل هذه المشكلات تنعكس حين لا تكون في حقيقتها بالخطورة التي ترى بها على حالة الفتاة المزاجية وقدرتها على الإنتاج. فتتعطل سير حياتها العادية بسبب ملازمة الفراش، أو تبدو منسجمة وانطوائية غير قادرة على التركيز الكافي سواء في قاعة الدرس، أو الاستذكار، أو العمل، قلقة على نفسها سواء في تحمل مسؤوليات الحاضر أو بالنسبة للمستقبل، مهمومة تبدو لها المشاكل البسيطة معوقات خطيرة. فالفتاة، على سبيل المثال، لا تعرف أن اضطراب الحيض أمر شائع بين رفيقات سنها، فترى نفسها غير طبيعية وتقفز إلى استنتاجات مقلقة بشأن مستقبلها كامرأة، وهذا يفسر عدداً من حالات التخلف في التحصيل الدراسي بين الفتيات في المرحلة الثانوية.

نعود إلى بداية تحليلنا. هذا السلوك الذي نراه من بعض الفتيات كالنماذج التي ذكرتيها في رسالتك هي بالمحصلة نتيجة التغيرات التي تحصل على الفتاة في هذه المرحلة، وتبدو انعكاساتها.

86- ناركيسا

سكنت قبالتنا عائلة موظف يعمل في إحدى دوائر الدولة مؤلفة من الأب والأم وابنة في الخامسة عشرة وابن في العاشرة على ما أتصور.

لا أعلم ما بهذه الفتاة (الطفلة) من نار مشتعلة تنضج بالجاذبية الجنسية.

إنها (مارلين مونرو) الممثلة الأمريكية التي فتنت شباب الأمس.

أما جارتي فإن مشيتها غنج وكلامها دلال، تبدو ماكرة غزلة لعوباً، تعرف كيف تأسر في ثقة، وتجذب في سكينة، وتفتن في صمت، وتستميل في إغراء هادئ مطمئن عميق لا يكشف سرها ولا يميط اللثام أبداً عن حقيقة شخصيتها. إنها لغزاً أنثوياً حياً ممثلاً في قامة ممشوقة، وشعر أسود ثائر، وعينين واسعتين متقدمتين، ونظرات ناعسة وحادة تقترن فيها العذوبة والرقة بالإباء والغطرسة والشموخ.

لفتت انتباهي هذه الفتاة في أكثر من مرة، ومبعث ذلك أن ابنة أختي في نفس عمرها، ولكنها تختلف عنها كثيراً وليس من رابطة تربط بينهما، مع أنهما كما ذكرت من جيل واحد.

ما هو تحليلك النفسي لفتاة في مثل هذا العمر تتصرف هكذا؟

أحمد. ع

غالباً لا يكون مثل تصرف هذه الفتاة نابعاً من تلقاء ذاته، بل مبعثه أمها في الغالب، أو أنها تقلد إحدى الممثلات أو إحدى الجارات أو الأقرباء إلى غير ذلك. جارتك سيدة صغيرة وكأنها لا تزال طفلة، وهي في عز مراهقتها، تنبعث منها تلك الجاذبية الجنسية الفتاكة التي لا تقاوم. فالفتنة تتكلم في كل جزء من جسمها، ويحيط بها الشبان من كل جانب كما تحيط الفراشات بالمصباح. وقد يصادف أن يكون من بين هؤلاء الفتيان شاب أكبر منهم جميعاً، في العشرين مثلاً. تطلق عليه الفتاة اسم دادي.. أي أبي.

جارتك مخلوقة استوفت كل نواحي الجاذبية الجنسية، ومن الطبيعي أنها خاملة النشاط في المدرسة لأن رأسها مليء بـ (سامر) و(عصام) بدلاً من معركة ميسلون أو مشكلة الأمن الغذائي العربي.

وإذا كان وصفك للفتاة سليماً فيمكنني أن أضيف إلى ذلك أنها قد تكون شقراء أو سمراء، ولكن المهم هو أنها مرغوب فيها ومطاردة على الدوام، وإنها لا تحرك ساكناً إزاء هذه الملاحقة. لقد كان ذلك مصيرها، وكان أحمر الشفاه وأقلام الحواجب والأهداب والعطور في خدمتها بعدئذ.. ثم إذ بها قد تركزت على هذه الجاذبية الجنسية، تلك الهبة الغامضة من الطبيعة. وهي لا تخاف الرجال، وليس لديها فكرة عميقة عنهم، كما أن ليس لديها الوقت الكافي لأن ترغب أو تميل إلى زميل جنسي لها. وحتى ذلك الدور من اللهو البريء الذي كان المفروض أن تتمتع به في تلك الفترة قد اختفى من حياتها في وسط تلك العاصفة من دنيا الرجال الذين يحيطون بها، وإنها تدرك بأنها محبوبة أكثر من أي شيء آخر. أما نتيجة كل ذلك، فإنها ستقع حتماً في حب مع نفسها، وربما سوف لا تحب أي أحد سوى نفسها.

قصة جارتك توضح لنا كيف يبرز إلى الوجود مثل هذا النوع من النساء في المجتمع، وهو النوع الذي يزهو بنفسه ويعشق ذاته، وهو النوع الذي نطلق عليه اسم الشاب اليوناني (ناركيسوس) أو (نرجس) الذي لم يستطع أن يحب إلا نفسه وهي صورته المنعكسة على صفحة الماء في إحدى الينابيع. ولم يتصور اليونانيون بأن الفتاة كذلك يمكنها أن تعشق نفسها إلى ذلك الحد، وإلا لأسموها كذلك باسم (ناركيسا)، وهذا ما فعلناه فأطلقنا هذا الاسم على حالة جارتك.

وقد كان نركيسوس يوصف بأنه فتى حزين، لعدم تمكنه أن يلهي نفسه بأي شيء آخر خارج ذاته، وقد كان وحيداً على الدوام وفتاتنا (ناركيسا) هذه ستصبح حزينة كذلك.. بعد فترة ما. أما في وقت شبابها وثورتها فإنها أبعد ما تكون عن الحزن، وأبعد ما تكون من الوحدة لأنها على الدوام محاطة بالشباب المتنافسين

الصاخبين. ولا يمكننا أيضاً أن نقول بأن جمالها باهر وجلي للعيان، فالتقاطيع الكلاسيكية توجد في ذلك النوع الهادئ العميق من النساء، وما تستطيع أن تقدمه (دلوعتنا) هذه لا يتجاوز عمق البشرة.. ويا لها من بشرة! ويطلق الفرنسيون على هذه الأنثى الصغيرة الخلابة ذات الجاذبية المسيطرة على ميدان الجمال اسم الجمال الشيطاني، وهو جمال حاد صارخ ولكنه يذوب بسرعة.

إن ناركيسا هذه في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة أو السابعة عشرة لا يمكن أن تقاوم. أما في سن العشرين فتبدأ دولتها بالزوال. وقد يشعر المرء بالأسى إذا لم تستطع أن تجد لها سبيلاً يقودها إلى غير مصيرها. وفي خلال سني نضوجها الجنسي لن تتعلم أن تحب رفيقتها. أما العاطفة والحنان والرغبة في إرضاء رفيقها بدل المتعة الوقتية القصيرة، فإنها لن تشعر بها قط، ولن تتعلم حلاوة الحياة، لذا فإن غيرها من الفتيات (الهادئات) واللواتي لا يضاهينها في ميدان الجنس يشعرن بالسعادة الحقة عندما يجيء يومهن الموعود الطبيعي بواجبهن الطبيعي بالحب والتفاني من أجل شخص آخر وإشعاره بالحنان والعطف. إذا كان لـ (ناركيسا) الصغيرة هذه من أم، فإنها قد نسيت كل شيء يتعلق بالأمومة منذ سنوات.

ليس من الضروري أن تكون هذه (الناركيسية) التي وصفناها جميلة جمالاً حقيقياً لتصبح في حب مع نفسها، فالجمال أو عدمه غير مهم، بل المهم هو الفكرة أو الوهم بأن نفسها هي أهم من أي نفس أخرى – لذا فهي لا يمكن أن تكون تابعة لأحد.. وهذا الوهم ربما يكون وليد ظروف متعددة قاستها خلال بواكير حياتها، من احتمال كونها الطفل الأوحد لوالديها: والمدللة الوحيدة لأبيها، أو ربما أصغر بناته أو أكبرهن. وما يهمنا هو نتيجة هذا الوضع، ألا وهو الفتاة التي تحب نفسها، والتي لا يمكنها أن تؤسس علاقة بنائية حيوية مع أي شخص آخر حتى ولا مع أطفالها أنفسهم.

87- فصام المراهقة

لي ابنة مراهقة في السادسة عشرة من عمرها.

جمالها ملائكي.. عنفوانها ونظراتها الصافية تنم عن ارستقراطية ومنبت أصيل.

رغم ذلك، لم تكن تشعر هي بتلك الانطباعات التي كانت تثيرها في عقول وقلوب الناس، ولم تكن لها رغبة ما بالشباب أبداً، بل في شيء آخر.

عملت ابنتي في مخزن لبيع الألبسة النسائية، وهي بهذا العمر، لأن شكلها يوحي بأكبر من عمرها أما تصرفاتها فكانت مثيرة ومخوفة.

تسرق مع رفيقاتها لتهدي مديرة المحل باقة من الزهر.

تُلبس إحدى الفقيرات فستاناً من المخزن ولا تأخذ ثمنه.

أخانقها على أفعالها فتنكر البتة أن تكون قد قامت بمثل هذه الأعمال.

إن أحوالنا المادية ممتازة، ولم أضع ابنتي في المخزن للعمل إلا لقتل الوقت.

ما يحيرني هو قضية سرقاتها التي لا تستفيد هي شخصياً منها ولماذا تقدم عليها؟

بشيرة. ك

مبدئياً وفي عمر كسن ابنتك أو في أدوار البلوغ، يلاحظ كثرة السرقة ومن كلا الجنسين. ولا يوجد أحد بيننا ممن لم يسرق مرة أو مرتين في أيام صباه على الأقل، كسرقة بعض الحلويات أو الأدوات الصغيرة من درج والدته. ونحن نحب أن ننسى هذه الذكريات وأن نعفو عن أنفسنا من أجل ذلك.

ومع هذا، قد يكون الدافع إلى سرقات ابنتك من القوة بحيث لا تشك فعلاً في أنه ناشئ عن مرض نفسي، ربما كان الشيزوفرينيا أو الفصام. ويشك أن ابنتك في أو أدوار الفصام أو الجنون.

يعد الفصام من أشهر أنواع الذهان التي تم تشخيصها، ويتميز بالافتقار إلى

الاتصال بالواقع والهذاء والهلوسة والميل إلى جمود السلوك الانفعالي. وقد تم تمييز أنواع عديدة من الفصام نوجزها فيما يلي:

– الفصام البسيط: يتسم الفصام البسيط بانسحاب مطرد لافت للنظر من الواقع، الأمر الذي يؤدي إلى حالة واضحة من الفتور واللامبالاة. ونادراً ما يتضمن الفصام البسيط هذاء أو هلوسة.

– الفصام المبكر أو فصام المراهقة: يغلب على الشخص المصاب بهذا النوع من الفصام أساليب السلوك التي تتسم بالشراسة والبلاهة دون مراعاة للتقاليد الاجتماعية على الإطلاق، كالأفعال التي تقوم بها ابنتك.

حينما يبدر عن أحد الأفراد سلوك يختلف عن المعتاد بصورة ملحوظة حينئذ يطلق عليه سلوك شاذ، أي يبعد عن العادية. ومثل هذا السلوك قد يشغل اهتمامنا حين يثير المتاعب للفرد أو يخلق المشكلات للأفراد الآخرين الذين يعيشون معه في المجتمع. وفي أغلب الأحوال يجب علينا تقويم مدى تكرار السلوك وكيفيته قبل أن نتخذ القرار المتعلق بتعديله أو تصحيحه. وثمة أساليب سلوكية يمكن أن تكون شاذة، ولكنها لا تسبب مشكلات سواء للفرد أو للمجتمع. مثلاً لنفرض أن أحد الرجال كان يمارس العدو كل يوم دائماً يتوقف في منتصف تمارين العدو التي يمارسها ويقوم بالقفز إلى أعلى والهبوط إلى أسفل والجلوس ومد جسمه على قارعة الطريق. إن مثل هذا السلوك قد يعتبر غير مألوف إلا أنه لا يعني بالضرورة أن صاحبه يحتاج إلى العلاج، ومع ذلك إذا ما أصر الرجل على القيام بهذه الأعمال في تقاطع الطرق، معوقاً حركة المرور ومعرضاً نفسه للخطر فإن سلوكه الشاذ يحتاج حينئذ إلى شيء من التعديل.

وحادثة مثل ما هو جار لابنتك، رغم كل شواهده، فإن قرار الأخصائي النفسي يعتمد على سلوكها من حيث عدد من العوامل المختلفة تشمل: قدرتها على الحكم السليم، أنواع الأنشطة التي تنخرط منها، قدرتها على التخطيط لسلوكها وضبطه، فضلاً عن مدى انتباهها. فإذا كان أحد هذه العوامل أو مجموعة منها يسبب متاعب للفرد أو مشكلات للمجتمع، فإن الشخص يمكن أن يوصف سلوكه بالشذوذ ومن ثم

يحتاج إلى العلاج. وفي أثناء فحص الشخص الذي يحتمل وجود السلوك الشاذ لديه قد يبحث الأخصائي النفسي عن العوامل المهيئة والعوامل المرسبة التي تنشأ عن هذا السلوك، ومن المحتمل جداً أن ثمة شيء في خلفية المفحوص مقترناً بحدث معين في الحاضر قد نشأ عنهما السلوك الشاذ لديه. وفي ذلك تشير العوامل المهيئة – بصفة عامة – إلى الاتجاهات الوراثية والخبرات الماضية التي تلعب دوراً مهماً في النمو اللاحق لشخصية الفرد، وثمة عاملان يرتبطان بذلك قام الباحثون بدراستهما هما: مواقف الإلزام المزدوج والنبوءات التي تحقق ذاتها. وتنشأ مواقف الإلزام المزدوج حين يتلقى الفرد رسالتين متعارضتين مثل عاطفة عبر عنها لفظياً مقترنة برفض جسدي. ومثل هذه الظروف الغامضة قد تهيئ للفرد اتخاذ نماذج سلوك غير متوافق أو شاذ، أما النبوءة التي تحقق ذاتها فهي ناتجة عن توقعات سلوكية تكرر التعبير عنها. فالشخص الذي يتوقع باستمرار أن يسلك بصورة شاذة قد يقبل الشذوذ كنمط عادي من أنماط سلوكه وتوجهاته. وفيما ذكرناه تبقى معاينة ابنتك هي الأساس في الحكم على شفائها.

88- التحكم في العائلة

تزوجت منذ عشرين سنة.

ابني الكبير في السادسة عشرة من سنيه.

لي غيره ثلاثة أولاد.

عائلتنا صورة عن العائلات التقليدية في مدينتنا.

فزوجي يوصي ابني بأن يحرص على البيت وأن يقوم مقامه إذا ما سافر، حتى إنه يطلب منه أن يقدم له تقريراً عن سلوك كل أفراد العائلة بما فيهم أنا.

وضمن هذا الدور الذي أعطاه زوجي لابني أصبح لا يسمع كلمتي ويأمر وينهي بشكل قسري على أخواته البنات.

بقدر ما يسعدني أن أرى (رجالاً – من رجل) فإن اخذانه هذا الدور يشعرني أن هناك سلطتين أصبحتا في البيت: سلطة زوجي وسلطة ابني.

سمعت أن مثل هذا الأمر يضر بنفسية ابني المراهق، فهل من تحليل لك في هذا الأمر؟

ماريا. ع. ر

يقرب الطفل العربي سن المراهقة، وقد تدرب ظاهرياً وسلوكياً على الأقل، على دور الكبار، مع عدم اكتمال مقومات هذا الدور بعد نفسياً وعقلياً واجتماعياً. وتتصاعد التوقعات نحوه لكي يقوم بواجبات الدور، وخاصة دراسياً أو مهنياً (إذا كان لا يدرس)، وأن ينجز ويجيد في هذا الدور. ويتضخم دور الأب بالنسبة للذكور أثناء مرحلة المراهقة ليس فقط كسلطة تهذيب وتأديب وعقاب، ولكن أيضاً كسلطة إشراف عام، بينما ينحسر دور الأم عملياً ويقتصر على الاستمرار في منح الحنان والعطف والخدمة المنزلية العامة. وينحسر دور الأب بالنسبة للإناث في سن المراهقة أكثر مما كان عليه، بينما يظل دور الأم رئيساً.

نرى في العائلة العربية أن الصبي يشعر بأن أباه يضطهده، وأن أمه تسحق

شخصيته. وإن البنت يمكنها أن تكون محبوبة، إلا أنها تنتمي إلى فئة مختلفة غير تلك التي ينتمي إليها الذكور، وهي تلقى في العائلة معاملة مختلفة والواقع أن الأنثى يجري تمييزها عن الذكر بصورة أساسية. فهو، أي الذكر، كسب للعائلة، وهي عبء عليها. والبنت منذ نعومة أظفارها تدفعها العائلة إلى الشعور بأنها غير ضرورية، وغير مرغوب فيها، وتعلمها على قبول وضعها كأنثى، وهذا صحيح خاصة في العائلات المحافظة أكثر من غيرها. ولهذا تلقى البنت في أثناء الطفولة اهتماماً أقل من الذي يلقاه الصبي، ومن النادر أن تكون مركز الاهتمام الأول في العائلة إذا كان لها أشقاء. ولكن هذا يتيح لها أن تنمو بحرية أكثر، وأن تتعلم كيف تواجه المصاعب بنجاح لأنها لا تخضع للضغط نفسه الذي يخضع له الصبي. ولذلك فهي تميل إلى النضوج نضوجاً أسرع وتتعلم كيف تواجه مشكلات الحياة بصورة أكثر فعالية من الصبي. ولعل هذا أحد الأسباب الذي يجعلها تنجح في مجابهة نظام اجتماعي يحاول سحقها باستمرار. إن المرأة في المجتمع العربي قد لا تمثل في الحياة العامة سوى دور محدود، ولكن أثرها الخفي في العائلة وفي علاقتها مع الرجل كزوجة أو أم أو شقيقة أو جدة هو أثر عميق. فهناك في المجتمع العربي كما في سائر المجتمعات القائمة على سيطرة الرجل ميل عفوي إلى الإفراط في تضخيم دور الرجل والتقليل من أثر المرأة.

أذكر ذلك وابنك في مرحلة المراهقة، وهي من أشد المراحل ضغطاً وحرماناً بالنسبة إلى الفرد العربي، ذكراً كان أم أنثى. فالصبي يعتمد على أبيه ويرغب في التحرر من الاتكالية، وهو بسبب القيود الاجتماعية القاسية يتشدد في مجتمع ميوله الجنسية والعاطفية، وهو لا مكانة له في هذا العمر لأنه ما زال يعتمد اقتصادياً على أبيه ويعيش تحت جناحه مجبوراً على الذل والخنوع. وبما أن شعوره بعدم التلاؤم يبلغ القمة في هذه المرحلة فهو مسحوق، بما يشعر به من عجز وتفاهة، ولذلك فما إن يبلغ الرشد حتى يكون متعطشاً إلى إبراز ذاته وإلى اعتراف الآخرين به وإلى الحصول على المكانة الاجتماعية والسلطة والاستبداد.

وأما وأن توفر ذلك لابنك من خلال والده فمن الطبيعي أن يمارس عليكم (عُقد) طفولته بالشكل الذي ذكرتيه. ذلك أن النزعة الفردية في مجتمعنا تتميز بطابع سلبي محض بحيث أنها تهدف إلى خير الفرد وحده ولا تقيم للكيان الاجتماعي أي اعتبار. فالفرد لا يكاد يخرج من إطار العائلة ويحوز على كل شيء من الاستقلال حتى ينصرف بكل قواه إلى رفع شأن ذاته والتعويض عن الكبت والاضطهاد اللذين عاناهما ضمن العائلة. فهو يتحرق لإبراز ذاته على حساب الآخرين ولتحقيق أهدافه حتى على حساب مصلحة المجتمع. وبالنسبة إليه فإن مصالح الآخرين ومشاعرهم أمر ثانوي لا يعيره اهتماماً إلا إذا ارتبط بمصالحه وبمشاعره.

ليس الخطأ في ابنك بل الخطأ من زوجك في وضعه الثقة بابنه ليكون حارساً على أمه وإخوته.

89- نمط من السلوك

ابني فتى في السادسة عشر من عمره.

له صديقان رافقاه في دراسته منذ ثلاث سنوات.

تجمع هؤلاء الثلاثة ميول متشابهة، ويمثل ابني لهم العنفوان والمدافع عن الحق.

يجلسون ساعات في أوقات فراغهم يتناقشون ويضحكون على نكات بعضهم البعض.

ينرفز واحدهم من الآخر ولا يلبث هذا الأمر أن ينجلي في دقائق وكأن سحابة صيف قد مرت.

من أطراف أحاديثهم التي سمعتها بالأمس حديثهم عن (عُصبة) زميل لهم وعدد الطلاب الذين يتزعمهم وكيف يسيرهم ومدى القوة التي تتمتع بها هذه (العُصبة) وكيف لهم أن يكونوا نداً لها.

إننا نحن الكبار لا نعير هذه المواضيع الاهتمام الكافي بيد أن ما أراه وأسمعه من أحاديث ابني و(شلته) جعلني أكتب لك لأقرأ تحليلك النفسي.

يسر. ق. ك

ما يعمله ابنك يقال له (التطبيع الاجتماعي وعلاقته بالصراع) وهو نموذج للعديد من السلوك الاجتماعي. ويحدث تبني للاتجاهات والأنماط السلوكية عن طريق النماذج، ويتم تعزيزها في الثقافات العامة أو في الثقافات الفرعية في عمر مبكر من حياة الطفل، وعادة ما تستمر طوال حياة الفرد. فالشخص الذي ينمو في ثقافة معينة أو ثقافة فرعية معينة، قد يشاهد السلوك بطبيعة الحال من الآخرين، وقد يتخذ هذا السلوك الآخر كنماذج. وقد ينشأ نتيجة ذلك صراع لدى هذا الشخص. وحل مثل هذا الصراع سيتحدد بصورة جزئية على قوة النمطين السلوكين: فالنمط السلوكي الأقوى، أو الأكثر قيمة من النمطين السلوكين يكون

أكثر احتمالاً لأن يتبناه الإنسان.

إذا كان ابنك قادراً على تزعم هذه (العُصبة) من الرفاق فإنه من الصعب جداً تقدير مدى تأثير أحد النماذج من هذه (العُصبات) على سلوك شخص ما. ومع هذا، فحتى إن لم يمكن تقرير النسبة المئوية للتأثير، إلا أن هناك ثمة حقيقة مؤداها وجود تأثيرات متعددة تلعب دوراً في أي سلوك للشخص.

وهؤلاء الرفاق الذين تضمهم (عُصبة) ابنك بالإمكان استخدام ما يقومون به، أو التعلم بالنموذج، بالمصطلح العلمي لتعديل احتمالية حدوث استجابات، وذلك باستخدام أنشطة النموذج كموجه للملاحظ. فإذا قام الملاحظ باستجابات غير ملائمة، فقد يستفيد من ملاحظة النموذج، وهو يخبر نتائج سلبية جداً أو نتائج منفرة لمثل هذا السلوك أو نتائج إيجابية للسلوك المناقض لسابقه. وإذا لم يكن لدى الملاحظ رغبة في العمل في موقف معين، فقد يستخدم نتائج النموذج الذي يعمل ويخبر نتائج إيجابية. والقصد من هذا هو محاولة كف الاستجابات التي يحكم عليها بأنها غير ملائمة أو (تحرر) الملاحظ من الكف بينما يتعلق بالأنماط السلوكية الملائمة.

وقد أطلق على التعلم بالنموذج، التعلم عن طريق الملاحظة والتعلم بالتقليد. وأطلق عليه بالإضافة إلى ذلك التعلم التبادلي بسبب الطبيعة غير المباشرة لخبرة التعلم في بعض المواقف. وقد اقترح أيضاً نظرية التعلم الاجتماعي لتوضيح التعلم بالنموذج بسبب تأكيدها على دور النموذج وعلاقة الملاحظ بالنموذج. وقد استخدم أيضاً مصطلحان آخران وهم التعلم التقمصي والتعلم دون المحاولة والخطأ. ويشير المصطلح الأول إلى أن الأفراد يتقمصون أو يتوحدون مع النموذج، ويشير المصطلح الأخير إلى أن السلوك المتعلم لا يعتمد بالضرورة على التعلم عن طريق المحاولة والخطأ. إن الشكل الذي يبدو به ابنك بالنسبة لـ (عُصبته) قد تعطي دلالة أخرى على ما قد يكون عليه في المستقبل من استلام لوظائف أو أعمال تحمل طابع المسؤولية، كانت نفسه تطمح لها وهو في سن مبكرة من شبابه. لعل وعسى؟

90- الإحساس بالذاتية

كثيراً ما أعاتب زوجتي على ممانعتها لابننا في قضاء حاجة ما للبيت.

إنه في سن السادسة عشرة ويتهيأ بعد عام لنيل الشهادة الثانوية.

إذا طلبت منه أن يرمي القمامة فإن أمه سوف تثور وتقول إنني أجهده.

أما إذا طلبت منه معاونتي في غرض ما ونحن في البيت فستصرخ زوجتي إنني أجهده.

ومع ذلك سارت الأمور بيننا كما وصفتها.. تارة أتنازل عن طلبي وتارة أعنف زوجتي.

وليس هنا لب الموضوع.

منذ بضعة أشهر أصبحت ألمس من ابني رغبته الحارة في تلبية ما أطلبه منه لشؤون البيت، وهذا التغير جعلني أكتب لكم عن سر هذا التحول؟

سمير. ع. خ

وصفك لطور ابنك صحيح، ذلك أنه في بحثه عن الهوية أو الذاتية يكون ذلك في مقابل الأدوار له. إنه في سن المراهقة وفي هذه المرحلة ينمو في علاقاته الاجتماعية فيحتاج للقيام بعدد كبير من أدواره الاجتماعية التي يتطلبها وضعه المنزلي، أو مع الأصدقاء أو زملاء الدراسة أو مع جماعات اللهو. ولا شك أن قدرة المراهق على تمييز ذاتيته في الأدوار المختلفة ستساعده على الانتقال من هذه المرحلة بدرجة كبيرة من النضوج في الذاتية. أما إن كانت الأسرة قاهرة ومسيطرة ولا تسمح له بالتفاعل مع الجماعات الأخرى فإن الإحساس بالذاتية يضطرب، ويعجز عن وجود الدور الملائم له. ومن المرجح - فيما يعتقد إيركسون - أن الشخص الذي تجاوز المراحل السابقة بإيجابياتها أي بثقة ويقين ومبادأة وقدرة على الدأب، فإنه من المرجح أيضاً أن يتجاوز أزمة المراهقة بجانبها الإيجابي، أي يتبلور في الإحساس بالذاتية.

وقديماً فهم قدماء العرب وغيرهم، كما فهمت الشعوب البدائية التي بقيت حتى يومنا هذا، معنى اليفاع الصحيح. فهم يعتقدون أن اليفاع ليس مسألة شخصية تتعلق بالطفل وحده ولا هو مرحلة من مراحل النمو مهمة متعبة بل اليفاع كما قال فريزر (سر المجتمع البدائي الأساسي) لأن الطفل يودع فيه مجتمع النساء ليصبح عضواً في أمة الرجال. فكأنما الغريزة الأصلية القوية ترتفع باليفاع إلى مستوى الولادة والموت. أو ليس هو في الحقيقة موتاً وولادة من جديد؟ وكان يعتبر الدخول في فترة النضوج حادثاً رئيساً في الحياة. وكانت الطقوس القاسية الشديدة التي تصحب ذلك تسعى إلى الخروج بالغلام اليافع من نفسه والدخول به إلى الحياة الجديدة من خلال النشوة والإغماء.

كثيرة هي الحوادث التي تتخلل هذه السنوات المهمة من عمر اليافع، لعل بداياتها حين يبدأ الطفل فيها باكتشاف ذاته كما يكتشف عالماً موضوعياً يوجد خارج هذه الذات فيحاول التوفيق بين هذين العالمين بواسطة فلسفة نظرية عملية عن الحياة. ويتطلب هذا اكتشاف الزمن. فإذا كانت الطفولة شكلاً جامداً من أشكال الحياة فإن اليفاع نقطة انطلاق للسير إلى الأمام في الزمن. وإذا كان اليافع يقوم بوضع المشاريع فإن ذلك ينمي فيه فكرة المستقبل. وهذا المستقبل أول ما يكتشفه الطفل من أبعاد الزمن. وهو لا يستطيع القول عن بعض الحوادث الأخرى إنها حدثت في الماضي إلا لمعارضتها مع المستقبل. ومما يدل على صحة هذه النظرية أن الأطفال في هذه السن يأخذون بكتابة (يومياتهم) فهم يفصلون بين أنفسهم وبين حياتهم الماضية فيمكنهم بذلك أن ينظروا إلى هذه الحياة نظرة موضوعية تاريخية.

أما اكتشاف الحاضر الذي لا يكون نقطة التقاء بين المستقبل والماضي ولا يكون صرفياً كما لا يكون شيئاً مملاً يفصل بين الشاب وبين مستقبل رائع بل يكون عبارة عن اللحظة التي نعيش فيها، فإن ذلك ميزة خاصة بسن النضج.

أما الاكتشاف الثالث فلعله الأهم إذ يكوّن فيه اليافع فكرة عن وجود عالم

يتعالى على المادة. وهو اكتشاف عالم الأفكار والقيم الروحية. وهذا الاكتشاف يتعلق بميدان الأخلاق فلا تعني كلمة (صحيح) في هذه الفترة ما هو واقعي كما كان الحال في سن العاشرة، وإن كلمة (عادل) لا تعني الوسيلة لبلوغ غاية من الغايات.

وهنا لا ينظر إلى (الشرف) على أنه ثمرة القوة والشدة، بل ينظر إلى كل من (الحقيقة) و(الحق) و(الشرف) وما يشبهها من القيم على أنها أفكار موضوعية ليس لها أي معنى مادي أو أي تطبيق عملي. فلقد تردد فجأة في نفس الفتى، منذ عشر سنوات، صوت كان صدى لمتطلبات عمله، فلبى نداء هذا الصوت بتنمية شعوره (بالواجب) وكذلك يسمع المراهق في هذه المرحلة نداء القيم التي ذكرناها فيجيب على ذلك بتنمية ما يوازي معنى الواجب أي بتنمية شعوره بمسؤوليته الأخلاقية.

نخلص مما ذكرناه إلى أن وضع ابنك في عمره الحالي طبيعي جداً، وهو يمر بأطواره الصحيحة في هذه السن، وإن هذه المرحلة له تعد انبعاث جديد في الحياة يحاول بها أن يختط مسيرة الكبار بعد أن كان صغيراً، ومن الطبيعي أن تكون أعماله مقلدة للكبار لأنه في الطريق إلى ذلك.

91- رهاب التشوه

ابني البكر في السادسة عشر من عمره.

في غضون سنة ازداد طوله أكثر من ربع متر.

يخشى كثيراً من الطول المفرط.

حين يمشي يحني رقبته كثيراً.

أنبهه إلى أن ذلك سيسبب له اعوجاج الظهر.

ولكنه يتجاهلني وكأنه يخشى أن يرى الناس طوله المتنامي.

حسن. خ

هذا الوضع يتكون من الجسد المكتئب من شكله الخاص وهو ما ينشئ آلية الدفاع: أي الخوف من نظرة الناس إليه، ومن نفسه، ومن خوفه الشخصي. أو قد يتخذ مثل هذا الخوف الناجم عن نظر الغير مظاهر أخرى، نعني الاحمرار وحده وما يصحبه من عرق، أي تبدل منظر الوجه، بل تبدل شكل الجسد إياه بأكمله. وهذا ما يطلق عليه أطباء التحليل النفسي اسماً علمياً خالياً من الجمال: هو رهاب التشوه.

إن راهب التشوه شخص بنيته سوية يعتقد أنه مصاب بتبدلات في شكل جسده تبعده عن الحالة الطبيعية، وأن جسده غير منتظم الشكل. وقد يتناول تسلط قباحة شكل الجسد بدانته أو نحوله أو طوله - كالحالة التي نعرض لها - أو بشاعة منظر الوجه، أو المميزات الجنسية - الشعر وغيره - ويعثر عليه لدى المراهقين بنوع خاص.

كما يبدو راهب التشوه في الظاهر (أنه أمام حالة تسلط بصر الغير)، والبصر على الجسد باختصار. وتكمن الفروق الواضحة الوحيدة في كونه من جهة يتعلق بالمورفولوجية الجسدية لا بالوجه وحده وباحمراره المتكرر، ومن جهة ثانية إن التسلط يتناول جسد مراهق، لا جسد راشد. لكن نرى أن هذه الفروق تخفي

تباينات أخرى أهم، ما دامت تكشف لنا بُعد جسد جديداً، أي بُعد موضوع حكم اجتماعي، وقيمة اجتماعية.

ويعود انتشار رهاب التشوه بين المراهقين خاصة إلى التغيرات العميقة التي تطرأ على نظام جسدهم أثناء البلوغ، وتخل به، كالتغيرات التشريعية (طول، أشكال ...إلخ)، والفيزيولوجية (اختلال التوازن الهرموني بتطوير هرمونات جنسية) والنفسية (تطور سريع في النزوات الجنسية)، التي يمكن أن تبدو فوضوية ومقلقة إلى مراهق يجهل قوانينها، ويتعذر عليه بالتالي إدماجها وفهمها وقبولها. باختصار، يعتبر نفسه (غير سوي). وأكثر من ذلك، يمكن أن تتسرع هذه التغييرات أو أن تتبطأ، أي أن تبدي بلوغاً مبكراً أو متأخراً: فيشتد الأثر النفسي مثيراً الكرب في هذه الحالة، مثلما يحصل عندما يصاب المراهق الشاب بعاهة أو بزوال خطوة حقيقية. مع ذلك يحسن أن نبين بدقة أن التغيرات الجسدية التي تتسبب في أشد الكرب هي التي تنتاب مظهر الرجولة لدى الذكور أو الأنوثة لدى الإناث. وهكذا يؤدي تأخر نمو الشعر عند الفتيان، وتغير الصوت، والحوض العريض جداً، والطول القصير جداً ...إلخ إلى تخوفهم من ألا يكونوا (رجالاً).

إضافة إلى ما ذكرناه، يضاف إلى ذلك صفة نوعية رهاب التشوه، حيث تنشأ مباشرة جداً عن وضع المراهقة الخاص، باعتبارها مرحلة من تغييرات عميقة، أي وضع قبول تلك التغييرات. وبالتالي جميع تصرف المراهق، من قبل الآخرين وفي البدء من قبل أسرته. فإذا قبل أهل المراهق ولدهم على مضض، ينتهي به الأمر إلى رفض قبوله نفسه، وإلى عدم قبوله الآخرين، ومن هنا الجنوحية.

وليس رهاب التشوه سوى شكل خاص من رفض قبول الذات: أي رفض قبول الجسد. إلا أن رفض القبول، ورفض بلوغ الابن في الوسط العائلي ناجم بنوع خاص عن أن الأم تخشى لا واعية دائماً تقريباً أن ترى ابنها أصبح راشداً وانفصل نهائياً عنها. ويشتد هذا الخوف من انفصام جديد لحبل السرة، لاسيما أنه يتضخم في الغالب من جراء خيبة أمل في العلاقات الزوجية (الجنسية والعاطفية)، ومن هنا

يصدر أحياناً عن الأم تصرف عصابي ينعكس على كرب الابن في الغالب.

ويمكن التعبير عن خوف الأم ورفضها بلوغ ابنها جهاراً إلى أحكام قاسية في المقارنات الفظة التي تتعلق بجسده أحياناً من قبيل (ما كان أجمله من قبل، كم أصبح قبيحاً بهذه السيقان الطويلة وحب الشباب على وجهه)، وأحياناً أخرى إلى الحط منهجياً من شأن بذل المراهق بعض الجهود ليطمئن: لا تنظر إلى نفسك في المرأة، لا شيء يرى فيها.. لا تظن أنك أفضل مما أنت عليه، لست بالغ الجمال). ثم طبعاً ما لا بد منه من انتقاد أناقته أو تفننه بثيابه المعتبرة (أكبر من عمره). ويتجلى الرفض في بعض الأحيان بمزيد من المكر في قلق الأم من تأخر ظهور رجولة الابن المزعوم، الذي يجر من عيادة إلى عيادة (مسكين هذا الصغير، يبدو وكأنه بنية، ماذا سوف يصبح؟). وفي وسط هذه المراثي، ينفجر أحياناً هذا الإقرار الرهيب (المهم ألا يصبح مثل أبيه)، الذي يعبر عن كامل عدم رضى المرأة وإسقاط الزنى المحرم على الابن. فنفهم والحالة هذه ألا يقبل الابن نفسه، ويرفض جسده الذي تصبح صورته مثقلة عائلية إلى حد ليس بالقليل.

وبما أن تأثير الدم على ولدها كبير فيما يتعلق برهاب التشوه، فإن الابن يبقى حذراً معمماً حيال الآخرين الذين يخشى نظرهم كثيراً. ويكره الولد جسده لأنه يخاف أن يعتبره الآخرون غير منتظم الشكل. على أن الظروف تحبذ في الغالب هذا الخوف، وتغذيه، لاسيما أن الرفاق والأقرباء والجيران ...إلخ لا ينقطعون عن السخريات والملاحظات غير الموفقة، والصمت المبهم. ويسهم المجتمع إضافة إلى ذلك وبنوع خاص بتقوية الخوف بمحظوراته عن الجسد، ونقص المعلومات، وبالمقابل، بانتشار نماذج ثقافية عن الجسد المثالي من خلال الأزياء والعادات ووسائل الاتصال الجماهيري من صحافة وإذاعة وتلفاز وسينما.

92- التظاهر بكبر السن

أعمار أولادي: هشام في العشرين، سوسن في السابعة عشرة، وبقية الأولاد الثلاثة تحت سن العاشرة.

هشام ابني الكبير لم نشعر بتربيته.

بينما ابنتي سوسن تمر بأطوار غريبة وأكبر منها

تلبس ملابسي خفية وتضع أحمر الشفاه وتنتعل حذاء طويلاً وتمشي أمام المرآة وهي تتمختر.

تريد بأي شكل أن تبدو أكبر من عمرها.

أنصحها بالتريث فتقول لي إن رفيقاتها يعملن هكذا.

علماً أن كل ذلك يحدث دون أن يدري والدها بشيء.

غادة . م

عدم معرفة والدها بما تصنعه ابنته خطأ كبير.. بل عليكما أنتم الاثنين أن تتعرفا على نفسية ابنتكما والمرحلة التي تجتازها. فليس عجيباً بشيء أن ترى فتياتنا يتعجلن في سن المراهقة قدوم شبابهن وكهولتهن بصبر نافذ، فيغرقن منذ نعومة أظفارهن فكرهن بأحلام أكبر من السن التي هن فيها. إنهن يقفزن دائماً كلما خلون بأنفسهن إلى رؤية المستقبل: الزواج والأولاد، وقد يرين الأحفاد أيضاً.

أما العاملات وفتيات الريف فإنهن يتخيلن السنين القادمة من حياتهن بشكل أحسن من حاضرهن. وهذا الإحساس يدفعهن إلى تبني نزوات عاطفية كثيراً لا يستطيع الوالدان تفسيرها فيتساءلان بدهشة عن التغير الذي طرأ على ابنتهن في المدة الأخيرة، إذ إنها في السنين الأولى كانت تعيش ليومها ولا تحسب للمستقبل حساباً، وإنها كانت تتقبل الآراء برضى تام. أما الآن فهي متمردة ومغرورة يصعب عليها أن تواجه حقيقتها الاجتماعية فتهرب دوماً إلى أحلام اليقظة تغور بعيداً في أعماقها. بل إنك الآن تشعرين فجأة أنك أمام فتاة متغطرسة تشهد مولد حساسيتها الجنسية كما لو

أنها تشهد مسرحية تؤكد هذا المعنى.

إن أبنائنا يجتازون هذه الأزمة التي تشكل نقطة تحول في نموهم الروحي والجسدي دون أن نمد لهم يد المساعدة، وكأن مهمتنا انتهت بعد تلك الأشهر القليلة التي كنا نحن فيها ندللهم ونحميهم من الوقوع على الأرض. وفي هذا الموقف خطر كبير. إذ إن بناتنا وهن في هذا السن أحوج ما يكن إلى رعايتنا، وقد يبدو منهن موقف المحتقر لإرشاداتنا. ولكن ذلك يجب أن لا ينسينا مطلقاً بأننا لا نزال كالسحرة في قوتنا عليهن، وإن الفتاة بحاجة إلى كل ما يغذي حساسيتها.

ولعل من المهم جداً أن نوجهها خلال هذه الفترة إلى الفنون والأشغال اليدوية، إذ إننا بذلك سنفتح لها كوى في ذهنها تنطلق من رغباتها المكبوتة بشكل مهذب مصقول. ويجب أن لا يغيب عنا أن النشاط والحركة يساعدان الفتاة على تكوين شخصيتها الاجتماعية وتعزز ثقتها بنفسها، لإدراكها بأن الآخرين محتاجون لمعونتها، وإنها عنصر فعال في المجتمع. ولكي ينجح الوالدان في ذلك لا بد من الاحتفاظ بروح شبابهما ليدركا بتفهم صادق مشاكل هذه المرحلة الخطرة التي تمر فيها ابنتهما وليكونا في ذات الوقت قريبين منها يزودانها بالهمة والحماسة والدراسة المشبعة بالقوة والثقة.

إن أزمة المراهقة وبداية الشباب لابنتك، هي أزمة نمو أو ارتقاء، كما يقول مصطفى سويف، فيها تحقق الفتاة أو الشاب وثبة، أو نوعاً من الوثبة – في نضوجها بمعنى الارتقاء فيها في اتجاهين في الآن نفسه – اتجاه الفردية واتجاه الاجتماعية. فمن ناحية أولى، تؤدي التغيرات العضوية المفاجئة إلى قلق الفتاة واختلال الاتزان الذي كان متحققاً بينها وبين نفسها، وبينها وبين الواقع بكل عناصره، هذا من جهة أولى. وتؤدي، من جهة ثانية إلى تغير تصور الفتاة لذاتها، فبعد أن كان يكشف عن ذلك إهمال الهندام والتنسيق والنظافة إلى حد ما، ترتفع قيمته ليصبح أحياناً بؤرة الشخصية، وهو أمر يساعد في تدعيمه نظرات الآخرين والقيم الاجتماعية. وبخاصة التأكيد على جاذبية الشكل، مما يدفع الفتاة إلى الاهتمام بشكل جسمها بالنسبة لأجسام الآخرين. على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى شعور الفتاة بالقيمة الاجتماعية للتغيرات الجسمية، أي بأنها أصبحت كبيرة راشدة. ولما كانت معاملة

الآخرين لها تتغير بعض الشيء، فإنها تبدأ في الشعور بعدم الرضا عن معاملتها كطفلة، وتحس بوحدة، وتندفع إلى تصرفات تؤكد بها ذاتها. وقد يصل صراعها مع المجتمع إلى حد ظهور اتجاهات تكون بمثابة بذور لعدد من الانحرافات.

وفي الجانب الآخر، تنعكس التغيرات العضوية والنفسية في معظم جوانب النشاط التي تمارسها الفتاة، وفي إدراكها للآخرين، وفي أحكامها الأخلاقية، وفي أسلوب تعاملها مع الآخرين، وفي أحكامها عليهم، والأسس التي تدخلها في اعتبارها إذ تفضل البعض على البعض، وفي نمط ارتباطها بصديقاتها.

إن أزمة ابنتك ليست معارضة وتشكك وتكبير عمرها، بقدر ما هي نقطة تختلف عندها الخصائص العضوية والنفسية للفتاة، وكذلك وضعها في الجماعة، على نحو تصبح معها أساليب التنظيم والتكيف بين الفتاة والذات وبينها وبين الواقع غير ملائمة ولا مفيدة، وتظهر حاجة إلى طرق تكيف جديدة على واقعها.

93- الذنب على من؟

تركني زوجي وابنتي عمرها سنة.

بقيت أعمل وأجهد حتى أصبحت في السابعة عشرة.

مررت بظروف صعبة، حيث عملت بعد طلاقي من زوجي من محل لمحل ومن مهنة لمهنة حتى أوصلت ابنتي لهذه السن.

كثيراً ما تنفجر ابنتي عليّ بأدوار تمثل بها الخطايا والظلم والأنانية والخيانة.

أعنف ابنتي على ما تتمثله في ذهنها.

ولكنها تعاود الأمر في كل فرصة تحين لها؟

خلود. ط

خلال انتقال الفتاة من سن الطفولة البريئة الزاهية إلى سن المراهقة، تندفع الفتاة إلى تجسيد الخطايا والظلم والأنانية والخيانة والبخل في ذهنها تجسيداً غير واقعي. وأشد ما يؤلمها عندما تكتشف أن جزءاً غير قليل من هذه العيوب موجودة في أبويها.

وقد تتضخم هذه الصور السوداء في نظرها فتسد عليها الأفق وتطمر الشمس، حتى لكأن أبواب الوجود كلها قد أغلقت في وجهها ولا أمل لها بغير الموت. فالفتاة التي ترى بأم عينيها والدها يغوص في نزواته ويغرق كل حياته في جسده لا تستطيع أن ترى فيه أباً صالحاً. وإن ثمة حواجز اجتماعية وعائلية تحول دون تمكنها من اصلاحه، فتتقدم وتبتلع نفسها ابتلاعاً سيكولوجياً تغيب معه تأملاتها، وفي شعور بالذنب يضطهدها وكأنها زرعت وزر أبيها بينه وبينها. فهي آثمة لأنها تعيش حقيقته.

وكذلك الفتاة التي تشعر فجأة بأنها لم تكن ابنة هذا الأب وتلك الأم. ففي حين عطفا عليها فتبنياها، تقف من هذه الحقيقة موقف الرمز من الأهل، فتشعر بأعماقها بحقد هائل على الذين تركوها بكثير من القسوة وبدون ذنب لأيدي غريبة

عنها. ويبدو لها المثل القائل (الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون) حقيقة ثابتة وموردا للأفكار السوداء يدفع بها لتبني فكرة الانتحار، إن معنوياً بإهمال نفسها وإن مادياً، كأن يقدم بالفعل عليه دون أن تستطيع صد هذه التيارات التي بفكرها البسيط.

وضعك أنت وابنتك بشكله الحالي يمثل مادة خصبة لمخيلة الناس من الخيانة وسبب الطلاق، هذا مع وجود بنت صبية في هذا البيت دون أن يكون هناك الأب. مثل هذه الخواطر لا شك تعشعش في ذهن ابنتك. لقد مرت على ابنتك أوقات تساءلت بها كيف تكون العلاقة بين الرجل والمرأة. وتورد سيمون دي بوفوار نموذجاً لاعترافات فتاة اكتشفت هذه الحقيقة وهي في مثل ظروف ابنتك: (حين حدثوني لأول مرة عن العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، صرحت بأن هذا مستحيل لأنه لو كان الأمر كذلك لوجب على والديّ أن يقوما بها وأنا أقدرهما لدرجة لا أتصور معها إقدامها على مثل هذه الأمور. لكني أردد بأنه لا يمكن أن يقوما على ذلك أبداً فهي عملية مقرفة للغاية. ولكني أدركت بعد مدة كم كنت مخدوعة عندما اكتشفت ما يقوم به والديّ.. كانت لحظة فظيعة مؤلمة وكنت أخفي وجهي تحت الغطاء وأسد أذني متمنية أن أكون على بعد آلاف الكيلومترات من مكاني).

إن خيالات ابنتك – لا شك – انتقلت بها أكثر من مرة من صورة والدين لها وقورين يرتدون الثياب، أناس يرددون كل يوم على مسامعها تعاليم الحشمة والتحفظ والوقار، إلى صورة وحشين عاريين يتعانقان ويتصارعان؟ إن في هذا تشكيك في هيبة الراشدين يزعزع مكانتهم ومنزلتهم الكبيرتين. وكثيراً ما تكتشف الابنة بعناد هذا الاكتشاف المقيت فتقول: (إن أهلي لا يفعلون ذلك). وتحاول في بعض الأحيان أن تضفي على العملية صورة محتشمة كما صرحت بذلك إحدى الفتيات مثلاً (حين يريد المتزوجون أن يرزقوا أطفالاً فإنهم يذهبون إلى الطبيب فيخلعون ثيابهم ويسترون أعينهم بشريط من القماش كي لا يروا شيئاً، ثم يربط الطبيب الزوجين

إلى بعضهما ويمد لهما يد العون لكي تسير الأمور على ما يرام). أي إن الفتاة حولت في مخيلتها العمل الجنسي إلى عملية جراحية، لا شك أنها لا تجلب شيئاً من المتعة ولكنها تشكل عملاً مشرفاً في حد ذاته يعادل الزيارة التي يقوم بها كل إنسان إلى طبيب الأسنان. لكن الشك يتسلل إلى قلب الفتاة على الرغم من الرفض والهرب وتحدث فيه ظاهرة مؤلمة تعادل الآلام التي خلقتها فترة الفطام في نفسها، لأنها في هذه الحالة لم تفقد عطف أمها عليها فحسب كما كانت هي الحال بعد الفطام، وإنما تشعر وكأن عالمها الخيالي الذي كان يحميها قد انهار من حولها، فتجد نفسها بدون سقف فوق رأسها منعزلة وحيدة أمام مستقبل حالك الظلام.

وما تمثيل ابنتك لأدوار الخطايا والظلم والأنانية والخيانة سوى إعادة لأدوار حياتك مع زوجك وفق النظرة التي وضعتها هي لعلاقاتكما السابقة والقديمة. وبما أنها أصبحت في سن المراهقة والبلوغ فإن خيالها قد يكون ذهب بعيداً، والأدوار التي تمثلها هي تجسيد لما في عقلها الباطن.

94- المراهقة ومدرسة الحياة

أكتب لك عن حال ابني لأنه في سن المراهقة.

قبل أسبوع تقدم لامتحان الشهادة الثانوية.

يلقاني فيجادلني عما سيستفيده من دراسته العلمية والأحوال تتغير في الشرق من بطالة وكثرة الدارسين وقلة الصناع.

أقول له إن من ملك علماً فتحت له أبواب الدنيا فيرد عليّ بحال ابن خالته الذي درس فحصل على شهادة الهندسة وها قد مضى عاماً دون أن يحصل على عمل يعينه في بناء حياته الجديدة.

فيما رفيقه ترك المدرسة من الصفوف الابتدائية وهو يبيع سلعاً مهربة، وقد أصبحت أحواله المادية متقدمة.

ضمن هذا الحوار رأيت أن أقرأ تحليلك.

يعقوب. ع

لو لم تذكر أن ابنك في سن المراهقة لكانت هذه (الحالة) مكانها في كتاب آخر. وقد رأيت أن أضعها في نهاية هذا الكتاب لأنها تحمل عدة خصائص هي بمجملها المفتاح لدخول كفاح الحياة للمراهق فيما إذا أنهى مراهقته في سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة.

ليست الحركات الفكرية والأخلاقية هي التي تشغل فريق الشباب، بل إن فريقاً من المتعلمين ينظر إليها عن كثب، ولا يعنى بها كل العناية الحقيقية الملاصقة بها، وفريقاً آخر تشغله أمور الحياة وتجاربها، فيقف بين العلوم النظرية والأحوال الحادثة وقوف المرتبك الحائر، ينظر إلى دروس المدرسة كالدمية إلى جانب صور الحياة الحقيقية، فتتضاءل في نظره كل المعارف والمعلومات، إذا هي قورنت بما يراه في العالم، من التجارب المتوالية، والأحوال المتغيّرة، فلا يعود يرى النسبة بين الجامعة التي يتعلم فيها وبين مدرسة الحياة إلا كما هي بين الذرة وكل الوجود.

إن الكثيرين من الباحثين والمفكرين، والفلاسفة، تبهرهم الحياة بما فيها من الأحوال والحوادث وتزيغ أنظارهم، فتلوح لهم نظريات الفلسفة وعلوم الأخلاق والمبادئ الدينية شيئاً، والحياة الصحيحة وأحوالها الحادثة شيئاً آخر، لا صلة بينه وبين الأول. وتتراءى لهم دروس الحياة أكثر مطابقة للواقع، وأقوى تأثيراً في النفس والعقل، وأدنى إلى الحقيقة الصادقة من غيرها إليها، سواء أفي الخير أم في الشر. وما يحدث في عالم السياسة، أو المال، أو الصناعة، وفي كل الشؤون العامة، وفي العلاقات بين الناس وبعضهم، وبين الزملاء والأصدقاء، وجميع ما يراه الإنسان رأي العين حادثاً أمامه، كله يؤثر تأثيراً صادقاً في الروح والفكر، عند نشأة الإنسان وبدء تكونه.

وكما أن الأرض الخصبة تنبت كل ما يلقى فيها من البذور، إن حسكاً وإن ورداً، فكذلك المراهقة سن يألف فيها الناشئ كل ما يراه حادثاً أمامه ويعتاد عمله، حتى إن نفسه لتكون خبيثة أو طيبة، وفكره فاسداً أو على العكس من ذلك، على مثال ما اعتاد في البيئة التي عاش فيها، وألف من أحوال المجتمع التي تحدث أمامه وتؤثر في فكره وفي نفسه.

وما دامت حال الحياة تقتضي المخالطة، فالإنسان على الرغم منه دارج بين أمثاله، فله أن يحذو حذوهم، وله أن يميز بين المستنكر والمليح، وأن يعتبر بنتائج الأحوال في غيره من الناس، فيهذب نفسه قبل أن يقصد إلى الضار من تلك النتائج، وقبل أن تصيبه الأحوال المنتجة إياها. فما المراهق بين الجماعات وفي ميدان الحياة، إلا مثال لمحارب في ساحة القتال وبين المعارك والأخطار، يبغي اتقاء هذه ما استطاع، ويحتال للفوز مع السلامة. كذلك الشاب في مضمار الحياة ومعتركها، ينظر إلى المستقبل ويطمح بالوصول إلى غايته، ويستعين بما تقوى به من التجارب والمعلومات الصحيحة لإزالة ما يعترضه من العقبات وما يقوم في وجهه من الموانع. فإذا كانت ذخيرته فاسدة وهمته باردة، لا ينال ذلك الغرض، ولا يبلغ الغاية، فيُحدِثُ ذلك تأثيراً سيئاً في نفسه يصدعُها، وربما كانت نتيجته إتلاف

الفكر والخلق، وتلك النفس أيضاً.

الغارة على الحياة تظهر واضحة في فكر الشباب، وقوية عند عنايتهم بأمر المستقبل. فيها عدد من يقصد إلى ممارسة التمارين العملية يزداد تباعاً، والرغبة في الوصول إلى الغاية من الحياة تقوى من آونة إلى الأخرى، مع ازدياد المزاحمة على موارد العمل. وهذه الأحوال ما هي إلا نوع من المناوشات الجدية التي تسبق المعارك الشديدة، والتي تقوم بين الناس في كل مكان، بسبب ما تقتضيه أحوال الحياة من التنازع على موارد الكسب، وعلى المرافئ الاقتصادية. ومن المتعذر على الإنسان الحيادة عن هذه الحروب الضروس، ما دامت الضرورة تلجئه إلى الاحتكاك بالجماعة، وإلى مصادمة منافعه المادية منافعَهم ومطامعَهم.

وليست هذه الحال قاصرة على من يعنى بالمسائل الاقتصادية، ويقضي حياته بين الأعداد والأرقام، وإنما هي أيضاً نصيب من ينجع إلى الحِرَف الحرة والأعمال المستقلة. فكل احتياجات الإنسان من مقتضيات العيش والحياة تحدوه إلى الاشتغال بأمرها وإلى الاهتمام بشؤون الاجتماع على الرغم منه.

إن بقاء الحياة يستدعي نيل كل مقتضياتها، والرغبة في تحقيق هذه الغاية هي غرض كل حي على وجه الأرض. فلا مكان للاعتراض على رغبة الشاب في وجوه الكسب وانصرافه إليها، ما دامت مصاعب الحياة وما يتخلل طريقها من العقبات، لا يتذللان بدون المال.

ولكن هنالك فرقاً عظيماً بين الوقوف عند نيل هذه الحاجات لمجرد حفظ الحياة، وبين استخدامها واسطة للوصول إلى ما يقتضيه العلم من الغايات السامية، وإلى ما يعزى به الضمير من الفضل والمجد وكل ما نلحظه من حركة العالم في المسائل الاقتصادية، ومن اتجاه الأفكار مع رغبات النفوس ومطالعها، وما يدل عليه سلوك المراهقين وميولهم، كله يشير إلى حصر العالم كل أمانيه وقواه ضمن دائرة المطامع المادية، وإغفاله ما عداها إغفالاً تاماً.

هذا الفريق العظيم من الشباب همهم المفرد الوصول إلى ما يظنونه الغاية.

فالبعض تحمله القناعة على الاكتفاء باليسير من المطالب، والبعض الآخر لا يقنع بالكثير، ولا يرى نيل المطموع به غاية تقف عندها مطامع النفس، بل يدفعه الجشع إلى مداومة المنازعة والمسابقة، وإلى حب الاستئثار بالمنفعة.

ولو اقتصر العراك على المزاحمة، وعلى استعمال القوى والمواهب في الوجوه التي حددتها الأنظمة، لهان الأمر. أما والجشع وحب الإثرة يغريان الإنسان بالاحتيال لنيل الأماني، ويسوقان العالم إلى ارتكاب ما حرّم ومنع، فإن هذا السلوك الضار بالأخلاق الفاضلة المخالف والأنظمة الوضعية، يقوّض دعائم النفس ويهدم عماد المدينة الصحيحة. فنسبته إلى المرء تجرده من كل مزايا الإنسانية، وتصوّره في أقبح صور الحيوان المفترس، مهما كان لهذا السلوك من أنصار وشيعات يبرّرونه، ومهما أخفي قبحة وما اشتمل عليه من العيوب وراء ما يكنى به من الأسماء الصورية. وأني للأسماء مهما ضخمت أن تخفى ما يدل عليه من سفالة المبدأ أو عقم الفكر وخبث النية والمكر السيئ؟ فلو كانت التسمية وحدها كافية لإبدال حقائق المسميات وصلتها بالفضل أو بالرذيلة، لاكتفى اللص أو القاتل بإبدال اسم الجريمة بآخر يغل عنه يدَ العدل، ويوقفه في صفوف الكرام الفضلاء.

إن هذا النفر الدهاة لهم شراهة الذئب، ولكنهم يؤثرون على جرأة وطيش هذا الحيوان حكمة وحيل الثعلب، فاتخذوا من الحكمة والعقل وسائل لخدعة الغير، ولسلبه ما لا ينالون منه بالرضا والقبول، أولئك شيمتهم التحول مع المبادئ عند الضرورة تحوّل ألوان الحرباء والبحث عن مواضع الضعف في الغير لنيل ما يطمعون به بواسطتها فما الحياة في عرفهم إلا كرقعة الشطرنج، وما العواطف والأفكار والمبادئ والمنافع، التي لهم وللغير، إلا كقطع اللعبة يحركونها على وفق ما تقتضيه الحال، أو يضحوّنها طمعاً في نيل ربح أعظم. وما اللطف والكياسة، على زعمهم، إلا ما يلقى في الشراك من الحبوب لاجتذاب الطير واقتناصه. وما يسميه علم الأخلاق رذيلة أو نقيصة ما هو في اعتبارهم، إلا مهارة ونبوغاً، لأن قلوبهم جرّدت من كل عواطف البشرية، وما احتوت نفوسهم حبّ الذات والخبث.

ليس من الصعب نجاح أمثال هؤلاء الدهاة، ولا نيلهم ما يطمعون به، فإن من أهون الأمور ظهورهم، وسبقهم أهلَ الفضل الصحيح وذوي المبادئ الثابتة والأخلاق الفاضلة. ولكن من يرقى ذروة المجد، من هذا الفريق، ويطأ بنعليه الساكنين، غير حقيق بحسد الناس إياه.

يقال لغير ذلك الفريق من الراغبين في الحياة: اعملوا فإنما الحياة العمل، ولا تضيعوا الوقت سدى فإنما الوقت ثمين، واحذروا أن تهاونوا أو تساهلوا فإن التفريط صغار وإن الفوز ليتبع المنافع لا العواطف. وبهذه النصائح وأمثالها يجردون الناشئ من كثير من مبادئ الإنسانية، التي كانت في كثير من الأزمان فخر الإنسان ودليلَ المدنية والرقي.

كل حي ولا مراء يرغب في الحياة وفي السعادة، ويقصد إلى الطريق المؤدية إليهما. ولكن الحياة الراقية ليست هي التي تلاشي أسباب المكرمات، وتحصر نتائج العلم في سبيل كسب العيش. لقد وهب الخالق الإنسان المخلوق القلب والعقل والضمير، فانطلق يحصّل برغبته العلوم كالتاريخ والطب مثلاً. فهل يتعلم لمجرد استعمالها وسيلة لنيل القوت والكساء؟ وهل إذا كانت هذه غايته المفردة، تكون حياته في نظر العقلاء حياة بالمعنى الصحيح؟ وهل هذا السبب وحده هو الذي يعزى بإنهاك القوى العقلية في فهم الكيمياء والفيزياء، وفي عمل العمليات الجراحية الدقيقة في أجسام الحيوانات الحية والميتة لإفادة علم الطب؟ ألا إن البلاهة بل الموت خير من هذه الحياة، إذا كانت تلك الغاية هي الغرض من الحياة! الإنسان لا يجيء بالقوت وحده، ولا يمكن أن يعمل ويعيش إلا إذا كان إنساناً حياً قبل كل شيء.

العمل وفقاً لسياسة المنافع وحدها، يهدم كل صروح الإنسانية ومميزاتها الحسنة، لأن المنافع تنكر العواطف، والحق، والشرف، ولا تحفل بالجمال والقداسة، ولا بكل ما هو جليل. فمن مبادئها أن ما لا يساوي شيئاً، ولا يؤدي إلى الربح، لا تكون له قيمة على الإطلاق. وهذا المبدأ منشأ الخطأ والغرور، فإن أثمن شيء في

الحياة هو لا يباع ولا يشرى.

فتعليم الناشئ أو المراهق اتباع سياسة المنافع نكبة من أقوى ما يصيبه في الحياة، لأنه يحدوه إلى الابتداء بما قد ينتهي إلى غيره، ومن يجيء إلى الحياة في ضعف الشيخوخة لا يعرف لذة العيش، ولا تسره الحياة. يقولون إن من يولد فاقد البصر تهون عليه مصيبته، أكثر ممن يكون مبصراً ثم يفقد الإبصار. والحال أن الأول لم يعرف أبداً هذه النعمة، ولم يذق من الحياة لذة التمتع بمرأى ما فيها من نِعم وبدائع أعماله. فلمن رآها وتعرّفها سلوى بإدراكها عن الوصف، فيكون له من عقله ومن سمعهِ واسطة للتلذذ بما منعه العمى من رؤيته. هكذا من جرى من نشأته على مقتضى سياسة المنافع يكون أكثر شناعة ممن تعودها في آخر أيام حياته. فإن الثاني وإن فسدت مبادئه، يبقى بينها ما يشعر بتعرفه الإنسانية، وبتمييزه بين صنوف القبائح، بخلاف الأول، فإنه لا يحترم غير المنافع، ولا يعرف سواها، ولا يقصد إلا إليها.

95- المثل الأعلى

إذا كانت المراهقة تعني للرأي العام الخروج عن خط التقاليد المتعارف عليها بين أفراد المجتمع، وعدم المبالاة والعبث، فإن وضع ابني يختلف عن بقية زملائه المراهقين.

إن ابني يضع مثله الأعلى في أن يكون ضابطاً في القوات المسلحة ليذود عن حياض الوطن، لهذا يجد في دراسته.. يزين غرفته بصور أبطال الأمة العربية.

أرجو أن أقرأ تحليلك لهذا الأمر؟

أروى. ت

يعتبر المثل الأعلى أقوى عامل في تعيين مسلك الإنسان، لأنه هو وحده الذي يستطيع أن ينبه الإرادة وينظم العواطف في كل واحد متوافق متناغم. وبدونه يصبح الإنسان تحت التأثيرات المشوشة نتيجة اصطراع الغرائز. وبالمثل الأعلى تتماسك الشخصية متجهة إلى غرض واضح. ومن هنا نرى أن السعادة هي حالة وجدانية حاصلة من الشعور بالاكتمال وتحقيق الذات، وهي أرقى بكثير من اللذة الشهوية الحاصلة من تحقيق غريزة من الغرائز تحقيقاً مادياً بحتاً.

ترجع المرحلة الأولى من مراحل الشعور بالذات إلى سن مبكرة جداً، أي في مرحلة الطفولة الأولى. وفي هذا السن تبدأ الحاسة الخلقية في النمو والتطور إلى أن تصل إلى نموها الكامل وهو إرادة الخير بأجلى معانيه.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة المراهقة، وهي فترة يختصب فيها الخيال وتملأ النفس الأحلام والمثل، ومنها تبلغ الذات حداً من الانتظام يمكنها من البحث والتمثيل الراقي. وفي هذا السن يعبد الأبطال وتكثر الثورات والتمرد على المجتمع ويظهر الشعور بالكآبة والميل نحو الانتحار وذلك نتيجة الاصطدام المراهق بالحقائق الجامدة فيتعثر في خطاه.

وهناك مرحلة تتلو مرحلة المراهقة هي عهد المثالية، وهي طور اكتمال

الخلق وتماسك الذات، وفي هذا الطور تكتمل الشخصية وتتماسك العواطف.

رغم ما ذكرناه، ربما حدث توقف في مرحلة التكوين والتطور التي تم ذكرها آنفاً، فنجد أناساً رغم سنهم وذكائهم لا يزالون أطفالاً في حياتهم الانفعالية يسببون الشقاء لمن حولهم، وقد نجد أناساً أيضاً في سن الكهولة يحملون عقلية المراهقين. والانهيارات العصبية تحدث أكثر ما تحدث عندما تنتقل حياة الفرد من طور إلى طور فيعجز عن مسايرة مطالب الحياة الأخرى والتخلص من الأخرى.

إن للجو العام الذي يعيش فيه الطفل في سنواته الأولى وما يشيع فيه من الحوادث التي نظنها تافهة تأثيراً جذرياً في تكوين اتجاهات الطفل، ومعنى هذا أن الشذوذ العقلي أو الخلقي يسببه جو الطفولة أكثر مما تسببه أي صدمة واحدة معينة. وفي تلك المرحلة يكوّن الطفل صوراً ذهنية عن الحياة كأن يشعرانها جميلة ناعمة يشيع فيها الحب والطمأنينة والثقة، أو جافة قاسية تحمل الشقاء والبغضاء، وهذه الصور هي التي تكون الحياة المقبلة، فالطفل الذي تشبع بالبغضاء والكراهية يسلك في كبره سلوكاً شاذاً مهما كان الجو الذي سيعيش فيه مشبعاً بالحب والتسامح فهو إذاً موضع نكد وبلوى للمجتمع. على تلك الاتجاهات العامة، أي تلك الركائز اللاشعورية الأولى تنبت العواطف والعقد التي ترسم الإطار الخلقي الواضح وهي أكثر نضوجاً ووضوحاً من الاتجاهات العامة وأقرب إلى طبقات العقل العليا.

والعواطف، كما يعرفها العلماء، هي متجمعات وجدانية شعورية أو شبه شعورية تدور حول نواة، أي فكرة وهي جزء من الذات المتكاملة. فالوطنية مثلاً، كما هو الأمر لمن نحلل له، هي متجمعات سيكولوجية وجدانية تدور حول فكرة الوطن من حب له وعمل في سبيل إسعاده والدفاع عن كرامته واحترام هيأته وأبنائه. والأمومة متجمعات وجدانية أيضاً تدور حول الطفولة من حنو ورأفة وحماية وتربية. والإنسانية عاطفة نحو الجنس البشري وتقدير للإنسان وكرامته، ومهما كان لونه ونوعه.

إن مرحلة المراهقة تعصف بالعواطف فتعليها وتوترها. ومع أن السبب في

ذلك قد يرجع جزئياً إلى التغيرات الغددية والجسمية، إلا أن العوامل الاجتماعية قد تكون أكثر أهمية. إذ تجلب المراهقة في مجتمعنا مركزاً اجتماعياً متغيراً وغير واضح المعالم. وقد أطلق أحد الأطباء عبارة العمر المتأرجح على السنوات ما بين اثنتي عشرة وثماني عشرة، لأن الأفراد بهذا العمر لم يعودوا أطفالاً ولا صاروا رجالاً وليسوا واثقين من أنفسهم.

في حالة عدم وثوق المراهق بمركزه الاجتماعي وبأحاسيسه يؤدي ذلك إلى ظهور المشاكل المألوفة في هذه السن، مثل خلافات الطفل مع والديه وحب التدليل والقلوب المتكسرة والصداقات المتينة أو السعي للانخراط في الجيش أو في العصابات. إن العامل المهم في كل من هذه النماذج لسلوك المراهق هو التطلع إلى الطرق التي يثبت فيها ذاته دون أن يضحي بطمأنينته. وبما أن عائلته تتباطأ في قبوله من بين أفرادها الراشدين، لذا فإنه يتجه نحو الآخرين ليحوز على عونهم وموافقتهم، خصوصاً من كانوا بعمره. وفي هذه السن لا شيء أقوى احتمالاً في إنتاج القلق والكآبة من الشعور بالاختلاف عن الآخرين أو أن يصبح، مخالفاً، أو أن يهمل ولا يعطى نصيباً في الألعاب التي يمارسونها. إن الفتيات والصبيان الذين ينقصهم الشعور بالاطمئنان على مركزهم في البيت يميلون إلى التأثر بمعتقدات العصابات ونشاطاتهم أكثر من الذين يتمتعون بعلاقات عائلية طبيعية.

ويلاحظ أن الصراع الاجتماعي والتأرجح في المراهقة يحتويان على عوامل الاجهاد العاطفي. وقد وصف عالم النفس ج. هادفيلد العاطفة القوية في مرحلة المراهقة – وخصوصاً أثناء ابتدائها وفي وسطها – بأنها تتخذ خمسة أشكال أساسية:

1- الشدة.

2- فقدان التحكم.

3- التأرجح، أي الميل إلى التنقل ما بين أقصى الأسى وامتداد العاطفة السارة.

4- ظهور المزاج، أو العواطف الممطوطة.

5- نمو الحماس، أو العواطف المشتركة بالتفكير، مثل الوطنية والإخلاص للعائلة والجماعة.

بيد أن عواطف المراهق تختلف شدة عن عواطف الرضيع أو الطفل الصغير. ومع أن الاستجابة في كلتا الحالتين تكون أقوى مما يظهر أن باستطاعة المثير أن يهيجها، إلا أنه تتباين استجابة كل من الفريقين تبايناً شاسعاً. وربما تكون مقدرة المراهق على التحدث عن عواطفه، وليس التعبير عنها باستجابة جسمية، أهم هذه الفروق. كما وأنه يكون قد اتخذ نماذج استجابة جاهزة – مثل القهقهة، والتبالد، والتنفيس عن الغضب، والظهور بمظهر المجنون – بنفس طريقة أقرانه. وأخيراً ومع أن المراهق يتعرض لارتفاع وانخفاض في العواطف غير معروف، فإن انفعالاته العاطفية تميل لأن تدوم مدة أطول من عواطف الصغار ما لم يعترضها مثير جديد من النوع الذي يهيج عاطفة معاكسة.

ولعل أحد الأسباب التي تحدو بالفتيات والصبيان بهذا العمر لأن يختبروا العديد من الأمزجة المختلفة هو أنهم يميلون إلى الاهتمام بأنفسهم وبالمشاكل الجديدة التي تعترضهم إلى حد إهمال الحياة العامة. وبهذا العمل ينعشون عواطفهم. ثم إن المراهق الذي يواجه مشكلة السلوك الناضج لأول مرة، يشعر بالحياة من الإفصاح عن عواطفه. لأن نماذج استجاباته القديمة لم تعد مناسبة ولم يمر الوقت المناسب بعد لكي يتخذ لنفسه أساليب جديدة للإفصاح عنها.

حين يصل معظم الناس إلى نهاية هذه المرحلة تبدأ العواطف المرتفعة التي ظهرت في أوائل المراهقة بالخمود. ويختبر المراهقون الكبار توترات جديدة نتيجة لتفكيرهم الجاد في اتخاذ القرارات الحاسمة التي تتعلق بالعمل أو بالزواج، مع أن معظم الناس يكونون قد توصلوا إلى قراراتهم قبل هذا الوقت وساروا نحو إنجاز النضوج العاطفي بدرجات.

96- بين أحلام الطفولة وسن المراهقة

كنت في الرابعة عشرة حين عملت في دار للحضانة وذلك بعد أن أنهيت المرحلة الإعدادية.

بذلت جهدي في رعاية الأطفال الموكلين لعنايتي، معتبرة ذلك امتداداً لأحلام الطفولة.

إلا أنني شرعت فجأة بعد سنة بإهمال خدمتي وأخذت لا أبالي بالأطفال وأخرج من البيت وأغازل الشبان.

فصلت من دار الحضانة وقبعت في البيت منتظرة الفرج.

لا أعلم ما حل بي فيما بين رغبتي الأولية في رعاية الأطفال وعدم اخذاني الأمر بجدية بعد سنة مما أوقعني في ورطة الفصل من عملي؟

لؤلؤة. ع

لقد انتهى بالنسبة إليك وقت اللعب وبدأ الاهتمام بحياتك الحقيقية التي لا تحتل فيها الرغبة في الأمومة إلا مكاناً محدوداً. وبعض النساء يرغبن طيلة حياتهن في السيطرة على الأطفال ولكنهن يرفضن إنجاب الأطفال بأنفسهن فيصبحن معلمات أو ممرضات أو قابلات، وبعضهن أيضاً لا يدفعن عنهن الأمومة بقرف إلا أنهن منهمكات بحياتهن الغرامية أو بمهنتهن انهماكاً لا يدع مجالاً للأمومة في حياتهن.

الفتاة وفي مثل سنك تتطور مع الزمن فتصبح أقل رومانتيكية من قبل، وتتصرف إلى التفكير بالخروج أكثر من التفكير بالحب، ويصبح أقصى ما تتمناه أن تحصل في هذا العالم على وضعية ثابتة فتتزوج وتعيش حياة النساء. والحصول على زوج يصبح بالنسبة لجميع الفتيات من مختلف النزعات حلماً، بعد أن تفقد (صديقة القلب) مكانتها الممتازة. ويقصد بذلك أن الفتيات في سن مبكرة من المراهقة يتخذن من بعضهن أصدقاء للبوح فيما يعتمل في قلوبهن. ويأتي هذا

التحول لأن الفتاة ترى في رفيقاتها منافسات لها في نضالها للحصول على الزوج، الأمر الذي يجعلها ضيقة الأفق، تلجأ إلى المناورات وتظهر بمظهر الخشونة والأنانية. وإذا ما تأخر أمير أحلامها عن الظهور، تصبح الفتاة غريبة الطباع، منعزلة عن العالم متعجرفة مليئة بالحسد لمنافستها.

إن طباع وسلوك الفتاة الشابة تعبر عن وضعيتها الاجتماعية: فإذا تغير هذا الوضع يتغير وجه الفتاة المراهقة وأصبح يبدو لنا مختلفاً تمام الاختلاف. كما في وسع الفتاة في يومنا هذا أن تمسك مستقبلها بين يديها، عوضاً عن تركه للرجل يتصرف به كما يشاء. فإذا أتيح لها ممارسة الرياضة، أو الانصراف إلى الدراسة، أو التدرب على مهنة من المهن، أو مزاولة بعض النشاط السياسي والاجتماعي، فإنها تتحرر من التفكير في الرجل ولا تشغل نفسها إلا قليلاً جداً بالمشاكل العاطفية. ومع ذلك فإنها تصادف صعوبات تفوق ما يلاقيه الرجل الشاب، وذلك في محاولتها التي تقوم بها لفرض نفسها وإرادتها على المجتمع كفرد مستقل.

تقول سيمون دي بوفوار إن الأسرة والعادات الاجتماعية لا تشجع الفتاة على بذل جهودها في سبيل الوصول إلى حريتها، وتضيف إلى ذلك بأنه حتى ولو اختارت الاستقلال في حياتها فلا بد أن تترك فيها مكاناً للرجل وللحب، وسينتابها الخوف في الغالب إذا كرست نفسها لعمل من الأعمال، من أن تفشل في حياتها كامرأة، وهذا الشعور موجود في قرارة نفسها على الدوام، يضع الحدود أمام تماديها في الحصول على الاستقلال.

إن المرأة العاملة تحرص على التوفيق بين عملها وبين حياتها كامرأة، وهذا لا يتطلب منها أن تكرس وقتاً كبيراً لزينتها وتبرجها وإنما يؤدي إلى تجربة مصالحها الحيوية إلى شطرين. فالطالب يشغل وقته على هامش برامجه الدراسية بشتى التسليات الفكرية التي يمكن أن تؤدي إلى نتائج مدهشة، لكن أحلام الفتاة تتجه اتجاهاً آخر فتفكر بزينتها وجمالها وبالرجل وبالحب ولا تكرس سوى الحد الأدنى من وقتها لدراستها ومستقبلها. وإن السبب في ذلك لا يعود إلى ضعف في تكوينها العقلي أو إلى عدم

إمكانيتها في تركيز ذهنها، لكنه ينحصر فقط في كونها مضطرة على الدوام إلى تجزئة مصالحها وأهدافها، التي تتوافق بصعوبة بالغة فيما بينها.

يلاحظ أنه كثيراً ما تعتري الناس الدهشة أمام السهولة التي تتخلى فيها الفتاة عن الموسيقا والدراسة والمهنة، إذا وجدت زوجاً مناسباً لها، الأمر الذي يدل على أنها لا تعلق أية أهمية على هذه المجالات الفكرية فلا تشعر بأية خسارة في حالة تخليها عنها.

وإلى أن تتحقق المساواة الاقتصادية التامة بين الرجل والمرأة، وإلى أن يكف المجتمع عن النظر إليها كمتعة أو غرض في خدمة الرجال أسياد المجتمع، إلى أن تتحقق هذه الأمور فإن حلم النجاح السلبي في كنف الرجل سيظل هدفها الأول في الحياة، وسيحد على الدوام من نجاحها الشخصي في الحياة العملية.

ومهما كان تحليلنا، ولعدم معرفتنا لظروفك الاجتماعية، التي أبعدتك عن المدرسة وجعلتك تعملين في روضة أطفال وأنت بهذه السن، فإن سنك يجعل من توعيتك ضرورة مهمة في مسيرتك الحياتية.

97- جنسية الطفولة

يبلغ عمر ابني سبع عشرة سنة.

مشاكس، متفلسف، لا يلتفت لدروسه جيداً.

كثير الكلام بمناسبة أو بدون مناسبة.

منذ الأسبوع الأول لولادته، وحين فطامه، وهو كثير الحركة، غير مستقر.

كيف تقيّم وضعه النفسي؟

ماريا. ع

حين ننظر إلى مشاكل تكوين الخلق من وجهة نظر واسعة موحدة، أي من ناحية جنسية الطفولة، عندها نستطيع أن نرى الأشياء ككل في دائرة الخلق. وإن جنسية الطفولة تشمل ليس فقط حياة الإنسان البالغ الغريزية اللاشعورية، بل تشمل أيضاً اختباراته العقلية المهمة جداً في سنواته الأولى، كما أنها تشمل تأثيرات ما قبل الميلاد. فتطور الخلق تتيح من اختبارات الطفولة الأولى ومن كفاح الأنا للتراضي مع الهي ومع الأنا العليا ومع الحقيقة. وإن اندماج ما يقوم به الوالدان وما يمثلون لتكوين الأنا العليا هو بدون شك أهم العوامل وأشدها تأثيراً. ويليها فيما بعد الاندماج بالوالدين وبأشخاص آخرين من ذوي السلطة، ومن ثم الاندماجات ذاتها كرواسب للعلاقات بالهدف المتخلى عنه.

تُقرر، في كل طور من أطوار نمو الليبيدو، ردود فعل الشخص أو على الأقل تحدد مبدئياً بالطريقة التي ينتظم فيها الليبيدو ويكون في ذلك الطور، وهذا على الأقل عندما يكون هناك تقدم طبيعي نحو النضج. فمثلاً تكون دوافع الرضاعة في الطور الفمي المبكر هي المسيطرة، والرضاعة عدا أنها وسيلة للحصول على الغذاء تمنح الرضيع لذة تهيج الفم والشفتين، وكما يقال، فإن اللذة الناشئة عن الرضاعة في هذه المدة هي في الأكثر الشعور بلذة الأخذ أي في أن يعطي المرء شيئاً، وقد تستبدل اللذة في الرضاعة فيما بعد، أو بالأحرى تصبح

خاضعة وتابعة، باللذة في العض. وكلما كبر الطفل، وكانت ظروفه طبيعية، يتخلى إلى حد بعيد عن لذة الرضاعة ولذة العض أو تصبح هاتان اللذتان ثانويتين لأنواع اللذات التالية.

بيد أن الاقلاع عن لذة إنما يحدث فقط على أساس إبدالها بلذات أخرى. وقد يصبح الليبيدو أو جزء منه تحت ظروف خاصة مثبتاً على الطور الفمي مثلاً. وعندما يحدث هذا يظهر الشخص خلال حياته بأكملها صفات ذات علاقة بهذا الطور إذ تبقى دوافع الرضاعة العض مسيطرة، أو تنشأ صفات ضدها ناتجة عن تركيبات ردود فعل وتصبح مصعّدة.

يلاحظ في بعض الحالات أن خلق الشخص بأكمله يكون تحت (التأثير الفمي). وأناس كهؤلاء لم يعكر صفو رضاعتهم شيء وتمتعوا بهذه اللذة إلى أقصى حد، وقد احتفظوا منذ تلك المدة السعيدة بعقيدة راسخة أن كل شيء سيسير معهم على ما يرام، وهو تفاؤل هادئ من شأنه مساعدتهم في الغالب على أن يتوصلوا إلى أهدافهم في الحياة. ويلتقي المرء في حالات أخرى بأشخاص من النوع الذي يعتقد أنه سيكون هناك دائماً شخص شفوق حليم، كبديل للأم يرعاهم ويمنحهم كل ما هم في حاجة إليه. واتجاههم في الحياة بأكمله يدل على أنهم ينتظرون أن يجدوا ثدي الأم على استعداد أبدي للتدفق لهم. وأشخاص كهؤلاء لا يبذلون أي جهد في الحياة ويكونون في الغالب أيضاً شريدي القابلية للطعام.

أما نتائج زمن رضاعة غير ممتع فهي تماماً غير ذلك، إذ إن أصحابها يبدون اجتماعياً وكأنهم يتطلبون شيئاً، سواء أفعلوا ذلك بتواضع أو بطريقة عدائية. فهم يحتجون ويلحون ولا يحبون أن يتركوا وحدهم ولو لمدة قصيرة. وفي بعض الحالات يظهر عامل القسوة عندما يكون قد حصل ارتداد من الطور الشرجي. ورغبتهم في الحصول على اللذة عن طريق الفم تتبدل إلى حاجتهم لإعطاء شيء شفهياً. فعلاوة على شوقهم الملح للحصول على كل شيء تراهم يعبرون عن حاجتهم الدائمة للتحدث إلى الناس، ويندفعون كالسيل في الكلام.

أما عند بعض العصابيين فتظهر بوضوح عبارة العداء عن طريق الكلام. ونجد أن بعض العصابيين الذين لم تشبع طاقتهم الجنسية (الليبيدو) خلال الطور السادي – الفمي، يستعملون الكلام للتعبير عن اتجاهاتهم الغريزية.

ولعل الرغبات الناشئة عن الطور الفمي لا تميل بوجه عام إلى هدم الهدف، فيما هدم الهدف هو إحدى المزايا في الطور الشرجي. إلا أنه لا يزال هناك فرق مهم من ناحية تكوين الخلق الفمي بين القسم المبكر والقسم التالي من الطور الفمي، أي بين القسم الذي يتميز بالرضاعة والقسم الذي يتميز بالعض. فدور العض مميز بوجود التناقض الوجداني بين الميول العدائية والميول الودية، بينما يظهر هذا التناقض مفقوداً بين الصفات الخلقية المستمدة من دور الرضاعة.

يمكننا أن نذكر بهذا الصدد المزايا التي يمكن إعادتها بوجه عام إلى الطور الأول مثل مظاهر التوق الشديد والجهد، كما وأن السخاء والمؤانسة، واتساع الصدر والتململ، وحب الاستطلاع، والميل للاستقصاء العلمي، والطموح، فهي مميزة جميعها في الخلق الفمي.

مما ذكرناه يتضح مدى تأثير الطفولة الأولى في نفسية ابنك.

98- مشكلة وحل

لكل محلل نفسي وجهة نظر في المشكلة التي تعرض أمامه.

فهذا يتبع المدرسة السلوكية التي ترى أن ملاحظة ردود الأفعال لجسم ما من الخارج، ومراقبة (سلوكه)، يكفيان لإقرار قوانين تسمح بالتنبؤ عما ستؤول إليه هذه الردود عندما تتغير البيئة .. وهكذا.

فيما يرى البعض الآخر أن عالم النفس ينبغي عليه أن يهتم بالعمليات المعرفية وهي جوانب من السلوك لا تخضع للملاحظة المباشرة ...إلخ.

وهكذا فالأمثلة على ذلك كثيرة.

وأدع لك تحليل المشكلة التي سأعرضها عليك بعد أن قرأتها في كتاب للدكتور أوجست أيكورن.

يتحدث هذا المحلل النفساني عن فتى في السابعة عشر من عمره، صبي نجّار أخذ هذه الحرفة عن أبيه الذي يمتلك ورشة للنجارة. وفي البداية كان انحرافه يتمثل في اختلاس مقدار من السبرتو الأحمر من الورشة وكمية من الخشب. وانزعج أبوه لهذا الانحراف، وحاول إصلاحه بالوعيد. ولما لم يجد معه الوعيد لجأ إلى العقوبة البدنية فصار يضربه. ولما لم يقلع عن انحرافه جيء به إليه على أمل أن تصلح الإقامة في المؤسسة الإصلاحية من حاله.

واسترعى انتباهه قول أبيه أن الولد عندما كان يسرق السبرتو الأحمر، كان يبول في الزجاجات كي يخفي النقص. ولم يقنعه السبب السطحي، وهو القول بأن التبول كان وسيلة لإخفاء معالم السرقة لتشابه لون البول ولون الكحول غير النقي. وفكر في أسباب أخرى لذلك السلوك بالذات، على ضوء التحليل النفسي، وما لديه من تفسير لاستخدام الجهاز التناسلي في أعمال عدوانية تبدو لأول وهلة بعيدة عن الجنس!

ويتابع الدكتور ايكورن القصة فيقول: عندما جيء بالفتى قابلته على انفراد

كعادتي ووجدته فارغ القامة، جش الصوت. وتركته بعد ذلك فترة غير قصيرة من غير أن أدعوه لمقابلة ثانية، كي أترك له فرصة التكيف بجو المؤسسة والاندماج فيها.

وبعد نصف شهر، جاءت سيدة جميلة صغيرة الجسم لا يمكن أن يزيد سنها على خمسة وعشرين عاماً للسؤال عن صاحبنا ذي السبعة عشر ربيعاً.. فسبق إلى ظني أنها أخته الكبرى. وكم كانت دهشتي عندما عرفت أنها زوجة أبيه، وعرفت من المشرف أن الفتى كان كثير الحديث عنها إلى رفاقه، وأنه أرسل إليها في هذه المدة لا أقل من خطابين:

ولا ندري ماذا كتب إليها، لأننا لا نتجسس على مراسلات نزلاء المؤسسة الإصلاحية. وانتهزت الفرصة فدعوت الشابة الجميلة للتحدث معي عن ابن زوجها الشاب، فرحبت بذلك وتحدثت عنه بفهم ومودة رغم الوضع الذي يوحي بالتنافر بينهما كأي ابن وزوجة أب.

وكان أول ما قالته لي إن الجيران يعتبرونها – بصفتها زوجة الأب – المسؤولة عما نشب بين الابن وأبيه من عداء وسوء تفاهم، مما أدى إلى انحراف الفتى. وما إن صارحتني السيدة الصغيرة بهذا، حتى تأثرت وبكت وهي تقسم لي أنها ليست كبقية زوجات الآباء، وأنها تعامله أرق معاملة، بدليل أن الفتى نفسه متعلق بها جداً في الوقت الذي ساءت فيه علاقته بأبيه.

وعندئذ سألتها:

– ومن أين لك أنه يحبك هكذا؟

فارتبكت وقالت:

– أوه .. أخشى أن تسيء الظن بما سأقول ...

– أطلاقاً .. بل سأصغي لك بكل انتباه بذهن خال من أي فكرة سابقة.

– عندما نخرج معاً، كان يقول لي: (انظري يا أماه كيف يتطلع الناس إلينا) فأشعر أنه مزهو بنموه المبكر وبلوغه مبلغ الرجال بحيث يظنه الغرباء صاحباً لي

.. ووصلتني منه وهو نزيل لديكم رسالتان، وفي كل منهما كان يلح عليّ أن آتي لزيارته وأنا مرتدية الثوب البني اللون الذي يحبه كثيراً، كي يراني زملاؤه في أحسن صورة!

– أهو هذا الثوب الذي أراه الآن عليك؟

– طبعاً .. فما كنت لأرفض له طلباً يسيراً كهذا يدخل عليه السرور في وحشته.

– وكيف علاقتك بأبيه؟

– حسنة.. وكذلك بالولد، حتى إنه كثيراً ما كان يقول لي: (لا تترددي إن كنت في حاجة إلى أي مبلغ صغير لنفقاتك الشخصية أن تخبريني .. ففي استطاعتي أن أبيع جانباً مما في الورشة من الأخشاب وأعطيك ما تشائين!) وكنت أظنه يمزح. وبالطبع لم أطلب منه نقوداً، ولم آخذ منه أي مبلغ. وظللت مدة طويلة لا أعلم أنه كان جاداً في كلامه، وأنه كان يختلس الخشب والسبرتو فعلاً إلى أن عرفت ذلك منه .. وحاولت أن أصلحه بالنصح فلم يرتدع .. فوجدت من واجبي أن أطلع والده على الحقيقة ليتدارك الأمر بنفسه.

– وماذا فعل أبوه؟

– نصحه.. ثم لجأ إلى التهديد عندما تبين له أن النصح لم يثمر. ولما أعيته الحيلة صار يضربه، ولكن الفتى ازداد اعوجاجاً. تأصلت العداوة بينه وبين أبيه، وقد أحزنني هذا بصفة خاصة.

– لماذا؟

– كنت أشعر دائماً أن الولد يحبني .. حباً أكثر من الحب المعتاد بين أي فتى وزوجة أبيه. وأردت أن أستغل هذه المكانة في التأثير عليه لمصلحته ولكنه لم ينتصح.. حتى صرت غير واثقة من أنه يحبني فعلاً.

– ومنذ متى وأنت متزوجة من أبيه؟

– منذ ثلاث سنوات، وكنت صديقة لأمه رحمها الله، وكنت أكثر من زيارتها

في مرضها الأخير.

– ومنذ متى وأنت صديقة لأمه؟

– منذ أكثر من خمس سنوات، أي عندما كان الفتى في الثانية عشرة من عمره. وكان منذ البداية يحبني كثيراً، مما سهل عليّ قبول الزواج من والده.

هذه أهم معالم المشكلة التي قرأتها للدكتور أوجست ايكورن راجياً منك أن تضع لها تحليلك النفسي.

نضال . ح

نحن نعالج مشكلة تخص مراهق في عز مراهقته وفي مرحلة نمو تتميز بعدة خصائص جسدية ونفسية كالعودة إلى النمو السريع، ويظهر ذلك واضحاً في ازدياد طول الجسم زيادة كبيرة متصاعدة حتى يبلغ هذا النمو حده الأقصى، كما تتضج بعض الأعضاء والغدد فتؤثر كثيراً في تعديل السلوك واتجاهات المراهق. وهذا النمو السريع يجعل المراهق سريع التعب قليل التوازن الحركي في مستهل مراهقته ثم تضعف هذه الأعراض بالتتابع.

أما من الناحية الانفعالية فإن المراهقة تمثل مرحلة عنيفة حيث تعصف بنفسية المراهق ثورات تمتاز بالعنف والاندفاع كما تساوره من حين إلى آخر أحاسيس بالضيق والتبرم والزهد والتقلب وعدم الثبات حيث نجده ينتقل من انفعال إلى انفعال آخر في مدى قصير. فقد يحدث مثلاً أن يكون المراهق في حالة بين الزهو والكبرياء والفرح ثم تتحول هذه الانفعالات فجأة إلى حالة أخرى تدل على اليأس والقنوط، ويتعرض المراهق في بعض الظروف لحالات من اليأس تحول بينه وبين تحقيق أمانيه وينشأ عن هذا الإحباط انفعالات متضاربة وعواطف جامحة تدفعه في بعض الأحيان إلى أمور غير منطقية وخطيرة.

لنتصور وضع هذا الفتى وهو في الثانية عشرة يرى والدته مريضة طريحة الفراش وصديقتها (زوجة والده حالياً) تتردد على البيت وما تلبث أن تموت الأم

وتحل هي محلها، وهو في الرابعة عشرة، فيما هي في العشرين.

لنعيد تصورنا ونرى كيف يكون تصرف هذا الفتى وهو يرى امرأة (كانت ماثلة في أحلامه) تصبح زوجة أبيه وعضواً في أسرته، ملازمة له بلا تكلف ولا احتشام. والفرق بينهما في السن لا يخرجها من دائرة رغباته الخفية. إن المراهق في مثل هذا العمر يتعلق بالناس الذين يكبرونه في العمر، وهو يتمنى أن تكون له علاقة أو صداقة مع هؤلاء، كما أنه يتعلق بأساتذته ووالديه ممن يكبرونه في السن والمكانة الاجتماعية ويحرص بشدة للحصول على حبهم، وإذا ما نجح المراهق في الحصول على حب أقرانه وأبطاله يكون ذلك سبيلاً لأن يحب الآخرين ويحب نفسه وهذا شيء أساسي للغاية بالنسبة لصحته النفسية وتحقيق اتزانه.

وبما أن الأسرة كائن حي يولد ويحيا ويموت وأن حياته وغذاءه قوامها العناية والتضحيات اليومية بين الزوجين، وأن المشاكل اليومية التي تحدث بينهما لأسباب عديدة كثيراً ما تؤدي إلى شل الوظيفة الحقيقية للأسرة، كما أن المهاترات بين الزوجين وبخاصة على مسمع أو مرأى من الأبناء تؤدي إلى التسيب والإهمال واللامبالاة، وكل ذلك يكون على حساب الأولاد. ولذلك فأننا عندما نرى المراهق في واد وأسرته في واد آخر فإن ذلك لا ينجم عن فراغ وإنما نتيجة لأسباب عديدة اجتماعية أو أخلاقية أو كموت الأب أو الأم. ولو لم تمت أمه لظلت صاحبتها الغريبة عن البيت موضوعاً لهواه سراً بعض الوقت إلى أن يتعلق بفتاة أقرب إلى سنه. ولكن وفاة الأم أعقبها زواج الأب من هذه الفتاة، وهي لم تزل هدفاً لهواه المراهق.. في سن لا يستطيع الفتى المراهق فيها أن يتحكم في رغباته اللاشعورية تمام التحكم.

في ظل هذه الظروف حوصر وأدرك أن حبه لها صار محرماً عليه، فبدأ الصراع بين المانع الاجتماعي الشعوري والرغبة اللاشعورية. وعندما يوجد تناقض داخل الشخص.. بين ذاته العادية وذاته العليا، أي بين أفعاله وضميره، يكون عرضة للصراع النفسي بين الشعور واللاشعور مما يؤدي به إلى الانحراف.

في العادة، يتعلق المراهق بأمه ويكره أبيه. وفي الحالة التي تعرض لها نرى أن الأب قد اختطف من ابنه حبيبته وأودعها بقرب ابنه باسم زوجة الأب، مما ضاعف الرغبة مع التسبب في قطع الأمل منها وزاد من عذاب ابنه.

كل هذه الأمور ضاعفت من كره الابن على أبيه مما جعل اللاشعور يلجأ إلى الانتقام من ذلك الأب، مستخدماً الأداة التي استخدمها الوالد في إيذاء الابن وهو لا يدري، فصار يجد لذة خاصة في التبول بالذات في زجاجات الكحول التي يملكها أبوه وكأنها حرمة من حرماته، أو نكاية به.

يبقى أن نقول إن كل سلوك هو نتيجة لقوى نفسية، يمكن أن تكون موضوعاً للتحليل النفسي، فلا بد في هذه الحالة أن نعتبر السلوك غير الاجتماعي نتيجة أيضاً لنفس هذه القوى، شأنه في ذلك شأن السلوك الاجتماعي. وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن السلوك غير الاجتماعي دليل على أن العمليات النفسية من شعورية ولاشعورية ليست في حالة وفاق.

في العادة، يسمى السلوك السيئ السافر (انحرافاً سافراً)، أما السلوك السيئ الذي لم يظهر أثره بعد نسميه (انحرافاً كامناً).

99- الخروج من الحصار

أشعر بحيرة تجاه ابني الذي هو في سن المراهقة.

لا يتقيد بما أقوله له أبداً بل يعاكسني فيما أمره به.

ينتهرني بشكل فظ فيما إذا ذكرت اسماً بالخطأ.

وغير ذلك الكثير مما يندرج تحت بند الخروج من الحصار.

أرجو أن أقرأ تحليلك النفسي في ذلك؟

ماري . ع

ما يتوق إليه المراهق بشكل خاص هو أن يصل إلى هدف التحرر من سلطات الراشدين وإلى مستواهم من حيث المركز الأسري والاستقلالية والاعتراف بشخصيته المتميزة فردياً واجتماعياً. وإن صراع المراهق من سلطة الراشدين الذين يضيقون عليه الخناق بدوافع بيئية متوازنة لا تستند إلى حقائق علم النفس ومتطلبات مراحل النمو المختلفة هو صراع مع منزل يحس فيه أنه مضطهد ومعذب.

حين يوغل المراهق في فترة المراهقة يرى أن طريقة معاملة الآخرين له لا تتناسب مع ما وصل إليه من نضج وما طرأ عليه من تغيير، ويرى أن البيئة الخارجية ممثلة بالأسرة والمدرسة والمجتمع لا تعترف بما طرأ عليه من نضج ولا تأبه له ولا تقر برجولته وحقوقه كفرد له ذاتية متميزة خاصة. ويفسر المراهق كل مساعدة من قبل ذويه على أنها تدخل في أموره وإن المقصود من هذا التدخل هو التقليل من شأنه والنيل من مكانته.

ويتمثل اعتراض المراهق على هذا التدخل بسلوكيات شخصية أهمها: العناد والسلبية وعدم الاستقرار أو الالتجاء إلى بيئات أخرى قد يجد فيها متنفساً للتعبير عن حريته المكبوتة وتوكيداً لذاته غير المقبولة بعد.

كما يساهم في قلق المراهق الانفعالي ما يتصل بالأسرة والمدرسة. وينشأ عن

هذا القلق والاضطراب نوع من التمرد الضمني أو الظاهري.. تمرد موجه نحو الوالدين وتمرد آخر موجه نحو المسؤولين في المدرسة.

إن تمرد المراهق على السلطة العائلية والسلطة المدرسية هو بسبب القيود التي يفرضها كل من المدرسة والأسرة عليه والتي تحول حسب رأيه بينه وبين تطلعه إلى الاستقلال والتحرر.

وأما التسارع في نمو القدرات والفعاليات الفكرية لدى المراهق فإنها توجد له إمكانات جديدة في المناقشة والنقد وتمييز الحقيقة من الخطأ وتحليل الأفكار والمعتقدات وإدراك المعلومات والمفاهيم رغم صعوبتها أو غموضها.

ويشعر المراهق من خلال تطور اتجاهاته الاجتماعية بأن له مركزاً في المجموعة يدافع عنه ويصطدم بالآخرين من أجله وخصوصاً بالراشدين الذين يراهم لا يتمشون مع معتقداته واتجاهاته من خلال تكون بعض العواطف القيمية لديه تدور حول موضوعات معنوية كالإيثار والتضحية والدفاع عن الضعيف والمحروم والمظلوم أو حول أفكار معنوية متنوعة، كما تتكون في هذه المرحلة بعض العواطف الشخصية كالاعتداد بالنفس والعناية بالهندام وبطريقة الجلوس والكلام حيث يشعر المراهق أنه لم يعد طفلاً.

أما وسائل الزجر العنيف والقسوة في إصدار الأوامر من الآباء إلى الأبناء بوهم إصلاح أبنائهم المراهقين، فلا يمكن أن تؤدي إلى النتائج المرجوة. ذلك أن على الآباء الأخذ بعين الاعتبار مشاعر أبنائهم وأن يحاولوا أن يشعروهم بتفهمهم لأوضاعهم ولآرائهم وبصداقتهم لهم. وإذا ما نجحوا في كسب ثقتهم بأن يقدموا أنفسهم لهم كمصدر عون ومساعدة بعيدة عن مظهر الوصاية والتدخل الفج في شؤونهم الشخصية والذاتية، فإن في ذلك وقاية لهم من الإحساس بالإحباط وحماية لهم من غائلة الكذب وإخفاء المشاعر التي تؤدي إلى إصابة أبنائهم بالكبت حيث قمة المأساة ومصدر كل خلل نفسي على المستويين الفردي والاجتماعي.

إن المنزل، دون شك، هو المكان الأول الذي يعمل على تكوين شخصية

الطفل والمراهق وتوجهها الوجهة السليمة، وكذلك فإن المدرسة بوظيفتها التقدمية المعاصرة لم تعد تقتصر على تلقين الناشئة المواد الدراسية وحشو أذهانهم بالمعلومات، وإنما أصبحت لها رسالة أخرى لا تقل أهمية عن الرسالة التعليمية وهي العمل على تربية الطفل والمراهق وتكوين شخصيته وتنميتها في كل الجوانب.

لهذا أو ذاك علينا الاهتمام بمشاعر الأبناء والتعامل معها ليس بأسلوب المجابهة الحادة وإنما بتمثلها واستيعابها وتحويل مسارها عن طريق إطلاق هذه المشاعر الحبيسة من سجنها وتفهم ما يجيش في هذه النفسية من رغبات وانفعالات.

100– مراهق ينشد الزعامة

من بين أولادي الثلاثة هناك أوسطهم (عماد) الذي يسيمنا العذاب من كثرة تمرده علينا.

إنه في السابعة عشر من عمره، ذكي، طموح، ولكنه معاند، يريد أن يغير العالم ويزيل مفاهيمه (الزائفة) على حد زعمه.

وستستغرب أن له أتباع من أصدقاء في سنه، يطيعون أوامره، وينفذون تعليماته، ويأتمرون بتوجيهاته.

لقد بات ابني يحيرنا بتصرفاته وبنفوذه.

هل من تحليل لمشكلته؟

لارا . ج

يعتبر ابنك من النمط المثالي ويأتي في أشكال متعددة منها الثوري، والمتمرد، والإصلاحي، والمؤمن بضرورة التغيير الجذري. والخاصية الرئيسة التي تجمع أشخاص هذا النمط بالرغم من اختلاف الأشكال هي السخط العام على المعايير السائدة. والإيمان بضرورة تغييرها وتغير العالم. وأشخاص هذا النمط يجنحون لتبني معتقدات قوية تجعلهم يميلون للتنفيذ العملي لأفكارهم بكل ما يمثله ذلك من اشتراك في المظاهرات أو التخريب، أو تنظيم الجماعات السياسية ذات الإيديولوجيات القوية ...إلخ. كذلك يشيع هذا النمط لدى التقدميين والمؤمنين بالإصلاح الاجتماعي طالما أنهم لم يفقدوا لمسة الإحساس بالواقع الاجتماعي، ذلك الواقع الذي يعودون إليه فيما بعد في شكل الأدوار القيادية المهنية كالتدريس أو الطب جنباً إلى جنب مع انغماسهم في أمور المجتمع وتطوره.

وفي البحث عن تطور الوعي لدى الشباب في مثل هذا العمر نرى الوقائع التالية:

فيما يتعلق بارتباط العوامل بعضاً مع بعض، التي تحدد شروط التطور نرى أننا

لا نستطيع تحليل تطور الوعي إلا تحليلاً علمياً، ولا نستطيع وصف هذا التحليل وتنسيقه، إلا إذا استوعبنا شروط التطور الواقعية وأعرناها الاهتمام الكافي.

أما في ما يتعلق بالتطور الدائم المستمر، حيث ينشأ الجديد، ويعبر القديم علينا أن نلاحظ أن الشباب في الوقت الراهن، لا يمكننا أن نقارنه بعهد شبابنا، مع أننا نرغب في ذلك.

وفيما يتعلق بالطابع القفزي لحركة التطور، حيث نشاهد أن تراكم التغيرات الكمية ينقلب إلى كيفية جديدة، علينا أن نلاحظ، أن كل عملية استيعاب وفهم تتبع هذه الطريقة ذاتها في التحول.

وأخيراً فيما يتعلق بالأسباب الحقيقية للتطور، ألا وهي التناقضات الداخلية فأود أن أحدد هذا الموضوع كما تذهب إحدى الفلسفات إلى أن الأمور تبقى على حالها ولا يطرأ عليها التغيير، إذا لم يكن هناك تناقضات بين المواضيع والظاهرات، إذا لم يكن هناك صراع بين الجوانب المتعارضة والميول.

إن جانب التناقض والميول كامن في جميع الأشياء والظاهرات والعمليات، التي هي في حالة صراع مع بعضها البعض. فصراع الأضداد يدفع بعملية التطور إلى الأمام، وهذا يؤدي إلى ازدياد التناقضات، التي لا شك ستجد حلاً لها في مرحلة معينة، من خلال عبور الأمور القديمة وتكون الأمور الجديدة.

من الثابت أنه كلما اتسعت العلاقات الاجتماعية أمام الطفل وامتد أفق صلاته بالبيئة، تبين له أن ضمن الأسرة قواعد ومبادئ مقررة إذا خالفها استهدف لاستهجان عام، وهذا هو الشأن في الجماعات البدائية، فإن الخروج على تقاليد القبيلة بجلبة سخطها وباعث استهجانها.

وإذا نمت عاطفة الشعور بالذات في ظل سلطة الكبار على نفس الطفل أو الشاب من البداية داخل نطاق الأسرة، فلن تجد يافعاً يقوى على الاستخفاف بالاستهجان العام، ما لم يكن قد اهتدى إلى مصدر أسمى من هذا المصدر يسترشد به في مسائل السلوك والأخلاق، ولهذا فإن قواعد السلوك السلبية منها والايجابية في البيئات البدائية مرعية أشد المراعاة من جانب الأفراد لا يتشكك أحد فيها ولا يحاول

تمرداً عليها.

أما في الجماعات الحديثة فإن الطفل يخضع في الطفولة لقواعد كثيرة لا يخضع لمثلها في كثرتها وشدتها وصرامتها اليافع في الجماعة البدائية، ولكنه حين يخرج من بيئة الأسرة إلى أفق الجماعة الفسيح الأرجاء يعرف أن بعض هذه القواعد، كالنهي عن السرقة والقتل مثلاً لا تزال مرعية بقوة الرأي العام، بل يجدها مندمجة في القانون، فيظل حريصاً على مراعاتها وارتضاء الأحكام المنصوص عليها بسبيلها، ويتبين له أن بعضها الآخر مما عرفه في عهد الطفولة ليس نافذاً بقوة الرأي العام وسلطة الجماعة التي يعيش فيها، وأن هناك أيضاً قواعد يقرها فريق من الناس ويتجاهلها آخرون، كما أن بعضها مقبول مقرر في دائرة ما وبعضها الآخر معترف به في دائرة أخرى، فإذا لم ينتقل الشاب إلى المرحلة العليا في السلوك، ظل مرتضياً غرائب هذه القواعد العامة ومختلف صنوفها ما دام عضواً في الجماعة التي تحتويه. ولكن اكتشاف هذه الفروق لا يلبث أن يضعف أثر قواعد السلوك العام في نفسه، ويبدأ يستريب ويتشكك في قوة الرأي العام كضمان واجب الاحترام. وإذا هو امتثل لقواعد السلوك بكل ما حوت من فروق ووجوه شذوذ وخلاف كان سلوكه الأدبي متراوحاً مضطرباً بينها، ولم يكن وطيداً مستقراً لو أنه واجه قانوناً واحداً لا تباين فيه ولا خلاف.

ومن ثم يصح لنا أن نقول إن هذا التباين في قواعد الجماعة المتقدمة يوهن تأثير الرأي العام في سلوك الفرد وتصرفاته، ويجعل سلوك الجماهير أقل ثباتاً وجموداً من سلوك أكثر البدائيين. وإن كان ذلك لا يعني أن الإنسان المتقدم أقل أخلاقاً من البدائي ودون مستوى سلوكه. وإذا كان سلوك المتقدمين من شأنه أن يؤدي إلى أضرار اجتماعية خطيرة قلما تشاهد في الجماعات البدائية المنظمة فلا تزال له مزية كبيرة تعرض الجماعات المتمدنة عن عنصر الإضراب والتباين في سلوكها، وضعف مستوى الأخلاق عند جمهرة أفرادها. وهي أنه يهيئ السبيل لتطور أنواع عالية من السلوك ومراتب سامية من الأخلاق ويسر تكوين التقاليد التي تتأثر بهذه الأنواع العالية.

ولا يخفى أن دقة العادات المرعية في الجماعات البدائية وتوافق الرأي العام معها لا يدعان سبيلاً إلى التفكير في السلوك، ولا يفسحان أمام الفرد مجالاً للحكم والتدبر والاختيار، ولا يكفلان أية فرصة لتطور الشخصية وتقويتها. ولا يخرجان من الجماعة فرداً يستطيع أن يقاوم نزعات غرائزه ويقوى على الوقوف في وجه الرأي العام. وإتيان فعل يعتقد أنه حق وواجب، وإن كان منافياً لذلك الرأي متحدياً لسلطته.

من هذا وذاك يتضح أن ابنك ينتظره مستقبل، بالوصف الذي قدمنا به تحليلنا. وهذه سمات في الإنسان ينشأ بها الفرد تضمنها عدة عوامل، من بينها البيئة التي نشأ بها.

المراجع باللغة العربية

1- الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها، د. عزت حجازي، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، رقم 6.

2- الأطفال مرآة المجتمع، د. محمد عماد الدين اسماعيل، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، رقم 99.

3- أصول الطب النفساني، د. فخري الدباغ، دار الطليعة - بيروت، 1983.

4- الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي، د. مصطفى سويف، دار المعارف - القاهرة، 1970.

5- الطفولة الجانحة، جان شازال، ترجمة أنطوان عبده، منشورات عويدات - بيروت، 1972.

6- أزمات الشباب، د. أوجست ايكورن، دار الهلال - القاهرة، 1963.

7- الطاقة الروحية، هنري برغسون، تعريب سامي الدروبي، دار الفكر العربي - القاهرة، 1963.

8- آفاق المعرفة، تحرير لين وايت، ترجمة عبد الهادي المختار، دار مكتبة الحياة - بيروت، 1962.

9- الجسد، ميشيل برنار، ترجمة ابراهيم خوري، وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق 1983.

10- الحلم والكابوس، ج. أ. هادفيلد، ترجمة صلاح الدين لطفي، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة.

11- الابداع والشخصية: دراسة سيكولوجية، عبد الحليم محمود السيد، دار المعارف - القاهرة، 1972.

12- الديمقراطية والتربية، جون ديوي، ترجمة د. متى عقراوي وزكريا ميخائيل، منشورات لجنة التأليف والنشر والترجمة - القاهرة، 1954.

13- بنو الإنسان، بيتر فارب، ترجمة زهير الكرمي، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، رقم 67.

14- تهيئة الإنسان العربي للعطاء العلمي، من بحث د. سعد الدين ابراهيم (الأسرة والمجتمع والإبداع في الوطن العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، 1985.

15- سيكولوجية العدوان، كمال ابراهيم مرسي، مجلة العلوم الاجتماعية - الكويت عدد صيف 1985.

16- سيكولوجية الضحك، أحمد عطية الله، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، 1947.

17- شفاء النفس، د. يوسف مراد، سلسلة اقرأ رقم 10، دار المعارف بمصر، 1943.

18- ضعاف العقول، متري أمين، سلسلة اقرأ رقم 180، دار المعارف بمصر، 1957.

19- ظهور العواطف وتطورها، فلوريد راش، تعريب جبرا أبو غزالة، مجلة العلوم - بيروت، تشرين الأول 1963.

20- علم النفس الاجتماعي، عباس حافظ، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة.

21- علم النفس الفردي، اسحق رمزي، دار المعارف بمصر.

22- علم النفس التربوي، رجاء محمود علام، دار القلم - الكويت، 1982.

23- علم النفس الاجتماعي، ميزونوف، بإشراف هالة شبؤون، منشورات عويدات - بيروت، 1972.

24- عقدة أوديب في الأسطورة وعلم النفس، باتريك ملاهي، ترجمة جميل سعيد، مكتبة المعارف - بيروت، 1962.

25- عقول المستقبل، جون. ج. تايلور، ترجمة د. لطفي فطيم، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، رقم 93.

26- مقدمات لدراسة المجتمع العربي، هشام شرابي، الدار المتحدة للنشر - بيروت، 1975.
27- مشكلات الفتاة المراهقة وحاجاتها الارشادية، منيرة أحمد حلمي، دار النهضة العربية - القاهرة، 1965.
28- معجم مصطلحات علم النفس، منير وهيبه الخازن، دار النشر للجامعين - بيروت.
29- مقدمة في علم النفس، أرنو. ف. ويتيج، ترجمة عدد من المترجمين، دار ماكجروهيل - القاهرة 1983.
30- مجلة النهار العربي والدولي - باريز 1980/11/13 عيادة النهار.

المراجع باللغة الانكليزية

31- A. Adler: The Education of Children. Greenberg, New York.
32- A. Adler: Guiding the Child. Allen & Unwin, London.
33- A. Adler: Understanding Human Nature. Allen & Unwin, London.
34- A. Bain: Emotions and the Will. Kegan Pual, London 1955.
35- E. Erikson: Identity, Youth and Crisis Norton. New York 1968.
36- H. S. Sullivan: Conceptions of Modern Psychiatry (Tovistock) London 1963.
37- J. Piaget: The Psychology of Intelligence. New York: Harcourt, Brace 1950.
38- J. Piaget: B. Inhelaer: The Psychology of the Child. New York: Bais Books 1969.
39- S. Freud: New Introductory Lectures on Psycho - Analysis. Hogarth, London 1960.
40- S. Freud: Totem & Taboo. Penguin Books, London 1959.
41- Simone de Beauvoir: The Second Sex. A Four Square Books, London 1965.
42- Oswald Schwarz: The Psychology of Sex. Penguin Books, London 1963.
43- Otto Rank: Will Therapy and Truth and Reality. Alfred A. Knopf. Inc, New York.
44- Otto Rank: The Trauma of Birth. Routledge and Kegan Paul, Ltd, London.
45- Otto Rank: Modern Education. Alfred A. Knopf, Inc, New York.
46- Otto Rank: What Life Should Mean to You, Grosset & Dunlap, New York.

الفهرس

هذا الكتاب

يتناول كتاب (الطفولة، الحداثة، المراهقة: تحليل مائة حالة نفسية) تحليل نفسيات من هم في الأيام الأولى من أعمارهم إلى أن يناهزوا سن الثامنة عشرة عبر مراحل قسمها المؤلف إلى الطفولة والحداثة والمراهقة، حتى يسهل مطالعة المواضيع لمن يبتغون التخصص.. كل ذلك بطريقة مبسطة عبر التحليل النفسي لمشكلات القراء مع أولادهم.

ومثل هذه الدراسة تتيح الوقوف على الطفولة والحداثة والمراهقة نفسياً واجتماعياً وتهيء وضع أسس سليمة لأساليب الاتصال بهم تعليماً أو تربية أو تثقيفاً. ومحور اهتمام المؤلف في هذه المجالات هو التعرف على هذه النماذج، فهم طبيعة سلوكها، والعوامل المسببة أو المؤثرة في ذلك السلوك لكي يصبح بالإمكان، إلى حد ما، استخدام وسائل وأساليب ملائمة في ضبط ذلك السلوك وتوجيهه أو تعديله، لتشكل شخصيات تتوافق مع متطلبات حياة هذه الأعمار الحاضرة والقادمة.

إن معظم الانحرافات في السلوك وعدداً غير قليل من الأمراض النفسية يرجع منشؤها إلى المراحل التي درست في هذا الكتاب، لأن الآباء والمعلمين لا يزالون يعتمدون على تجاربهم المباشرة والشخصية أكثر من اعتمادهم على ما أنهى إليه علم النفس.

كتاب آخر يضيفه المؤلف إلى قائمة كتبه النفسية المتعددة الهامة.

الناشر